مُطاع صَفَدي

حِزبُ البَعث

مَأسَاة المَولِد

مَأسَاة النِهَاية



دار الآداب

حزب البعث

مُطاع صَفدي

حِزبُ البَعث

مَأسَاة المَولِد مَأسَاة النِهَاية

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعــــة الأولى
تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٤

المقدمة والإهداء

إن الحزب الذي كان في البداية تجمّعاً من أساتذة وطلاب رفضوا ظروف الحكم في سوريا في أواسط الأربعينيات من هذا القرن، ثم أعلنوا آراءهم بمنشورات تارة ، وببعض مقالات تارةً أخرى، ثم انخرطوا في معارضة سياسية لحكومات الحزب الوطني ، وأيدوا انقلاب حسني الزعيم ، وقفز بعض الطلاب منهم على الدبابات التي احتلت الشوارع اعلاناً بفرحة الشعب للخلاص من حكم المتورعة ، المتمثل في شكري القوتلي ورفاقه من أقطاب الحزب الوطني ، أمثال (جميل مردم) و (لطفي الحفار) و (أحمد الشرباتي) و (صبري العسلي) ... هذا الحزب الذي لم يلبث حتى عارض حسني الزعيم ، ثم فجأة تحولت لعبة المعارضة وحلم إنشاء الوحدة العربية ، إلى اضطهاد مباشر من قبل ذلك الديكتاتور المجنون العامي ، فسيق (عفلق) إلى سجن المزة ، ثم لم يلبث أن خرج من السجن بعد فترة وجيزة ، وكان جواز خروجه أول فضيحة كبرى وصمت قيادة البعث . إنها الوثيقة التي كتبها عفلق إلى حسني الزعيم ، يستجديه العفو والسماح ، متراجعاً أمامه عن مطامع شباب الحزب،واصفاً نفسه وحزبه بأنه غرّ لا يدري من شئون السياسة شيئاً بعد . وإن الحزب الذي (بلع) تلك الوصمة الكبرى في ريعان شبابه ، قد قبل إلى النهاية باستعباد عفلق له ، بوسائله (الصوفية) المختلفة .

وهذا الحزب هو الذي قبل أيضاً بضم فئة الحوراني ، المسماة (الحزب العربي

الاشتراكي) إلى صفوفه، وإعلان اتحاد الحزبين اثناء مقاومة الديكتاتورية الناشئة، المتمثلة في عهد (أديب الشيشكلي) ، تلميذ الحوراني سابقاً .

وإن الحزب، الذي بذر، بهذا الاتحاد بين قطبين متناقضين، بذرة الازدواجية في تنظيمه وقيادته ، وسياسته الخارجية ، وعاش على ازدواجية العفلقية ، والحورانية، وأيد انقلابات ، وانقلب على انقلابات ، وشارك في مختلف الأزمات والحلول التي عانتها سوريا ، ثم العراق ، وكذلك الأردن في فترة ما .

إن هذا الحزب ، الذي ولدت أفكاره في مناخ الحرب العالمية الثانية ، ونمت مُثُله خلال معارك الاستقلال، والتحرر من التبعية، قد حمل لواء الثورة، ثم حمل لواء الثورة المضادة .

وهذا الحزب ، الذي اجتمعت له في فترة ما خلاصة العناصر الشابة المؤمنة والمثقفة ، غدرت بها قياداته ، واستغلتها أيما استغلال ، ثم مزّقت مطامع هذه القيادات وحدة الحزب ، وصرفته تدريجياً عن خط الثورية العربية إلى أن أصبح في الصف المناقض لها تماماً .

إن قصة نشوء ونمو حزب البعث العربي الاشتراكي ، إنما هي قصة المطامع والعقبات والعقد الأخلاقية والنفسية ، التي طبعت حياة أجيال متتابعة على ساحة العمل السياسي والنضالي في منطقة الشرق العربي خاصة .

وعندما كان هذا الحزب ما زال محتفظاً بقواعده ، يناضل في صف الجماهير ، ويقود معارك التحرر من المؤامرات الاستعمارية والاحلاف الاجنبية ، كانت مطامع قادته ، وأمراض تنظيمه ، وعقده الفكرية والنفسية ، مختفية كلها تحت واجهة العمل السياسي اليومي .

وعلى الرغم مما اعترى سياسة الحزب من انعطافات وتناقضات ، وتردّد بين أقصى اليسار تارة وأقصى اليمين تارة أخرى ، فان السمعة النضالية التي كانت تتمتع بها قواعده الجماهيرية ، كانت تؤجل باستمرار انكشاف المركبات السلبية، التي تحكم عقلية قيادته وتوجّهه إلى الغايات الشخصية ، من وراء الغايات القومية العامة .

ولكن عندما انتهت مهمة الحزب في الواقع ، حين أعلن حل تنظيمه في سوريا مستهلاً عهد الوحدة ، خلا للقيادات جو العمل الشخصي ، بعيداً عن مراقبة القواعد ، بعيداً عن أعين الجماهير .

وهنا انطلق خط الانحراف الرهيب ، فبدأ في معارضة الوحدة ، والدعوة إلى الانفصال تحت ستار (تصحيح الحكم) وحين وقع الانفصال ، تفجرت الانقسامات بين صفوف القواعد السابقة ، وقياداتها .

فأيّد أكرم الحوراني وجماعته الانفصال ، وعملوا على قيادته وتوجيهه والدفاع عنه. وشنّوا أبشع الحملات الارهابية على الوحدويين، من رفاقهم وأبناء حزبهم في الماضي.وانشقت اكثر القواعد الوحدوية لتؤلف (الحركة الوحدوية الاشتراكية) التي حاولت ان تتابع رسالة البعث القديمة ، ضمن ظروف النضال ضد الانفصال الحالي.وبقي عفلق مع شرذمة ضئيلة من حواريّيه يراقب تطور الاوضاع عن بعد، دون ان يحدد له موقفاً واضحاً . إلا ان نواياه الانفصالية بدأت تتبلور بعد انعقاد مؤتمر (أيار) في حمص . وتقرر البدء بتشكيل الحزب مجدداً في القطر السوري . فألقي أمر الإشراف على تأسيس الحزب مجدداً إلى لجنة عراقية ، سوف يلعب بعض أفرادها أدواراً خطيرة في توجيه الحزب في العراق وسورية نحو دور الثورة المضادة . ومنهم (حمدي عبد المجيد) و (هاني الفكيكي) .

غير ان هذا التأسيس الجديد حاول ان يستبعد مختلف العناصر الوحدوية ، والفكرية ، والاسماء التي لعبت أدواراً نضالية في تاريخ الحزب ، وأصحاب الخبرات السياسية والنظرية . واقتصر التنظيم الجديد على استقطاب العناصر (المحايدة) ، أي الفئات التي كانت ترقب الانقسامات والمواقف النفعية المترتبة عليها ، وتزن مصالحها بحسب تطور الامور . وهكذا ظهرت مرة أخرى طبقة من محترفي الحزبية المجردة عن الاهداف القومية والنضالية . ومنها اسماء تخطاها تطور الحزب من سنوات عديدة . وإلى جانبهم حفنة من المراهقين الجدد ، الذين أشبعوا بإعداد إرهابي تعصبي ، من أجل تأمين تبعيتهم العمياء للقيادة المنحرفة الجديدة .

وعندما وقعت ثورة (آذار) ، لم تكن قواعد الحزب الجديد ، تملك اكثر من بضع مئات قليلة من هؤلاء المراهقين في سوريا كلها ، وعلى رأسهم هذا الرهط من منتفعي الحزب القدماء ، أتباع البيطار من جهة ، وعفلق من جهة أخرى .

ولقد حسب هؤلاء ان انتصار الحزب في العراق ، يؤهّلهم نهائياً للاستيلاء على زمام المبادهة مرة أخرى في منطقة الشرق العربي .

وهكذا وضعت مرة أخرى خطة الانحراف كاملة .

فبرزت على سطح الافكار والشعارات شحنة من الالفاظ الأيدلوجية،والعناوين الصاخبة ، بينما راحت في الظلام تتحقق خطوات لم يعرف العمل العربي مثيلاً لها من قبل ، في الخديعة والتكتيك السياسي ، والازدواج من الظاهر والخافي . حتى فوجئت الأمة ، وفي طليعتها قواعد الحزب السابقة نفسها ، بسلسلة التصميمات الخبيثة من أجل اغتيال المدّ الوحدوي الجديد . وذهل الناس الذين لم يطلعوا على عوامل هذا الانحراف الخطير ، ذهلوا وهم يرون (الحزب) الذي كان مبرر وجوده الأساسي منذ عشرين عاماً ، هو تحقيق الوحدة .

ذهلوا وهم يرون الحزب الذي دعا مرة للاتحاد مع نوري السعيد ، يعارض اليوم الاتحاد مع جمال عبد الناصر !

ذهلوا عندما رأوا قادة الحزب الجدد من عسكريين وشيوخ قدماء ، عفلق والبيطار،يتزعمون أكبر حرب شُنّت على شعب سوريا منذ ان وقع اليوم الاسود ، (١٨ تموز) .

الحزب الذي قاد معارك التحرير طيلة عشرين عاماً ، ضد تراث الاحتلال في حكام المزرعة من البورجوازية السورية الجديدة . وضد الحكم العسكري الإرهابي المتجلي في عهد (الزعيم) ، ثم عهد (الشيشكلي) .

والحزب الذي حطم مؤامرات الاستعمار في المنطقة ، ووقف عنيداً صلباً ضد مختلف وسائل الاستعمار الجديد ، حلف بغداد ، سوريا الكبرى ، فراغ ايزنهاور . والحزب الذي اكتشف الثورة العربية في الناصرية ، ومدّ لها جسراً رحباً ، لتتلاقى مع جماهير الكفاح الوحدوي الاشتراكي ... وشارك في صنع أول

وحدة عربية .

هذا الحزب ، وتحت يافطاته الثورية المعروفة ، ومن وراء بعض قـــاداته التقليديين ، ومن خلال تراثه الطويل المتشعب ...

هذا الحزب ، هو الذي وقف مرة واحدة ليغتال نفسه ، ماضيه ، انتصاراته .

هذا الحزب هو الذي دبج الشعارات ، سكر بالدم ، رقص على حطام آمال الأمة . فلسف التعهير (الثوري) ..

سمّى القتل المعمّم مسيرة طلائعية ، وعلى هذه (المسيرة) كل هامات الجلادين والمراهقين والمهووسين ، وعباقرة الأقبية والزنزانات .

خان جماهيره . ضرب بقواعده عرض الحائط . سجن قادتها وأهان تاريخهم النضالي ، وفكرهم الثوري ..

شرّد صانعيه، وابتذل أصدقاءه ، وداس على كل شيء ، باسم لا شيء ، وفي اللحظة التاريخية الفاصلة من حياة الأمة كلها ، خان أكبر حزب الأمة ، وذبح إمكانياتها ..

افتعل الأكاذيب . ابتكر وسائل التعذيب الجماعي . شن حرباً مظلمة على طلائع الحضارة في شعبه ..

أوقف ، مرة أخرى ، الزحف الوحدوي عامين كاملين من حيـــاة أخصب مرحلة تاريخية ..

كل ذلك ، كل ذلك ، كل ذلك ، باسم ماذا ؟

باسم السلطة وحدها لعبيد السلطة ..

باسم التحكم الشيطاني لأبطال العقد والأمراض .

باسم المراهنات الجهنمية التي تلغ في الدم ، وللدم ، وبالدم .

* * *

إن آلاف الشباب من أجيال متتابعة ، والتي انضوت مرة تحت شعارات هذا الحزب هي التي لا تدري اليوم أكانت تسعى إلى الله ، أم الى الشيطان ، الى الحضارة أم الى الخراب ..

المضطهدون والمعذبون ، والذين اهرقوا نصف عمرهم وشبابهم للعمل من أجل شعارات الحزب وحدها ، ودون ان يعترفوا للقادة التقليديين بحق تملك الحزب ، بحق تملك النضال وشباب النضال ، هؤلاء انضموا الى ركب الطلائع الحقيقية ، ولم يعد يضيرهم أنهم ناضلوا مرة وراء الحزب ..

لقد أعطوا نضالهم للأمة . وأثمر ذلك النضال ، أثمر حتى تخطت الأمة نفسها ذلك الحزب ، وحطمت ملكيته لها ..

أثمر ذلك النضال ، حتى انكشف الحزب بدون قواعده ، فكان قمة للانحراف بدون مسؤولية .

* * *

إلى هؤلاء، وإلى المناضلين الجدد من أجيال الناصرية المؤمنة، وإلى القيادات الشابة الجديدة في كل بقعة من أرضنا المعطاء ..

إلى الذين تابعوا طريق النضال ، وانسجموا مع مراحله وانعطافاته التاريخية . وكانوا مع الحقيقة ، وضد أنفسهم القديمة ..

وكانوا شهوداً على أنفسهم ، وعلى غيرهم ..

إلى الذين دفعوا ثمن نضالهم ، حينما كانوا في قواعد الحزب يناضلون ، لا مع الحزب ، ولكن مع الأمة .. وضد أعداء الأمة !

ثم دفعوا ثمن نضالهم ، عندما ناضلوا أيضاً مع الأمة وضد الحزب .

إلى هؤلاء ، وإلى أصدقائهم ، وإلى أجيال التجربة المصيرية الرهيبة ، أقدم هذه الدراسة من لحمي وعظمي وحياتي ، التي هي حياتهم ايضاً ..

أقدم الشهادة ضد جيلي ، مع جيلي ، وإلى مستقبل الأمة كلها ..

ذلك عزائي وحده .

بيروت ايلول ١٩٦٤

مطاع

الثورة والإرهاب

ان فكر الحقيقة لم يدخل أدبنا العربي المعاصر إلا من ثقوب صغيرة، لا تتسع إلا لشذرات من الحقيقة ، لبعض أوهام أشبه بالأضواء ، وبعض استنكارات فردية عابرة .

وعندما كانت الأحداث الثورية تتابع نموها عبر المكان العربي ، وتلتهم مراكزه وزواياه ، وتتقاطع مع المجموعات الشعبية ، فان حس التقييم والتقويم ، وقابلية الفهم والاحتياز العقلي الشامل ، لم يكن لهما دور مجسد ، إلا الصدى ، الذي يتخطى طبيعة الصوت الأصلي ، ولكنه ينخفض دونه ويتلاشى .

ان غياب الفكر من العمل الثوري ، يرجع إلى غياب المثقفين من بين الثوريين . والحضور والغياب هنا لا يقاسان بمجرد الوجود المادي ، ولكن بمدى الفعالية والتأثير .

فسواء وجد المثقفون بين الطلائع في بداية العمل الثوري ، ثم وجدوا وراءه، عند تحققه وتكامله ، فان هؤلاء عجزوا باستمرار عن استخدام « وعيهم » فيما يحيون ويعانون ، ويرون قبل غيرهم ، على ان نأخذ كلمة الوعي هنا بما تتضمنه من شمول للفكر والوجدان معاً .

فعندما كان (الفكر) لدى هؤلاء المثقفين ، يكتشف الحقيقة دون إرادة أصحابه ، فان (الوجدان) ما كان ليرتفع إلى مستوى النطق ، ومسؤولية النطق بالحقيقة .

وعندما كان يصطدم (الوجدان) قسراً عن ارادة أصحابه أيضاً ، بفظاعة ظلم ما ، فان (الفكر) ما كان ليهتم بالمطالبة بالعدالة ، بديلاً عن فظاعة الظلم ، وما تحتمله هذه المطالبة من ادانة لظالمين ، وتعويض بجربة حقيقية لمظلومين .

قضايا الظلم والعدل ، الادانة والبراءة ، لم تدخل بعد نطاق وعينا الانساني أو الثوري .

لقد كنا نهتم بالأهداف ، وبتصنيف الناس بين ثوريين وأعداء للثورة ، بين مخلصين وخونة وأعوان وعملاء . ولم يكن ثمة اهتمام أبداً بالناس ، الذين يُطحنون بين حدود التصنيفات ، وتتقطع لحومهم مع تقاطع الحدود .

ان أحداً من (الثوريين) عندما ينتصرون ، او من (العملاء والأعداء) عندما يحكمون أيضاً ، لم يخطر بباله ان ينصف (الانسان) قبل (العنوان) .

فالمنتصرون هم الأسياد ، سواء كانوا من الثوار أو من الأعداء . والمهزومون هم العبيد . وللأولين كل الحقوق ولا واجب عليهم . وعلى الآخرين كل الواجبات وليس لهم حق واحد .

و (الانسان) ضائع حتماً . فليس هو بين المنتصرين، ولا هو بين المنهزمين. فهناك تطرّف بالقوة إلى درجة البطش والارهاب. وهنا تطرف بالضعف إلى درجة الانسحاق والحقد المقنّع بالذل .

والجماهير الأخرى ، لا تدري كيف تداري المنتصر بالملق تارة ، وبالغضب تارة أخرى ، ولا تدري كيف تشفق على المغلوب ، بالعطف مرة ، وبالاحتقار مرة أخرى .

* * *

لقد كان السؤال الأول : هل يمكن للانسان ان يسقط إلى التراب ، ويبقى بدون تراب ، هل يمكن ان يحيا جدل الحياة والموت ، البراءة والخطيئة ، دون دنس ما ?..

ولقد ردت الآداب الحضارية على هذا السؤال بأجوبة عديدة . حتى بلغنا جواباً واقعياً واحداً يتلخص في كلمتين هما : مقاومة التلوث .

وهذا يعني ان استبعاد الخطيئة كذب على النفس وعلى الله معاً . وكذلك فان الاستسلام لها هو أمر آخر غير الاعتراف بوجودها . فأنت تعترف بوجود الشر في نفسك ، وفي نفس أخرى غيرك . ولكن اعترافك هذا هو أول الطريق إلى مقاومتها ، في نفسك وفي النفس الأخرى .

ولكن عندما عمت حضارة الثورة واللاثورة ، بـــدلاً من حضارة التدين واللاتدين ، الحياة بالخطيئة ومقاومتها ، والحياة للخطيئة والاستسلام لها ، أصبح السؤال القديم هكذا :

ـ الثورة بالله ، أو الثورة بدون الله ؟

على ان نفهم من الله .. الأخلاق . ونفهم من الأخلاق : العدالة بطريـــق العدالة ، والحقيقة بطريق الحقيقة .

ودون ان نصطدم بهذا الاحراج القديم : ان كان لا بد من قاتل أو مقتول ، فأيهما تفضل ؟ فان الاحراج قد يدوّر إلى صيغة أخرى : ان كان لا بد من وجود الظلم لكي تقوم العدالة ، فهل الظالم والعادل ، كلاهما توأمان لوجود واحد ، هو وجود الانسان ؟ وان الحرية هي التغلب الموقت للعدالة على الظلم ؟

في حضارة الثورة ، من الذي يحق له ان يحاكم الآخرين ، من يدين ؟

ان المتسلطين والمنتصرين والحاكمين ، يعطون لأنفسهم هذا الحق دون أدنى تردد . وضمن دولة الثورة ، مع ذلك ، لا بد من قيام أخلاق جديدة .

ان ثورة الفرد غير مطالبة بالبديل لما تثور عليه . ولكن ثورة الجماعة هي التي سوف تستبدل نظاماً بنظام آخر . انها عندما ترسي قاعدة الاخلاص للثورة ، فانها تضع بذلك أساساً للتشريع الجديد . وتدخل هكذا في مرحلة خلق ميتافيزيقا خاصة بها .. وتعود إلى الله ثانية .

ومنذ ان استعبدت (روما) العالم القديم كله ، كان الناس يتساءلون :

ـ ولماذا لا نثور ضد روما ؟

وكان الجواب طبعاً :

ـ لأن روما هي الأقوى !

ولكن (سبارتاكوس) بحث عن أسباب أخرى القوة . وكذلك فعل (هانيبال) .

الأول وجد الجواب هكذا : ولماذا لا يتحد العبيد ضد روما ؟

والثاني كان جوابه هكذا : ولماذا لا يثور شعب قرطاجة ؟

وهكذا انفتح طريقان للثورة في التاريخ : ثورة الطبقة ، وثورة الشعب .

ومع ذلك فحتى اليوم لم تستطع ان تنفصل ثورة الطبقة عن الثورة القومية . وراحت الأولى تمارس نشاطها باستمرار ضمن اطار الثانية . وتبرز على ساحة التاريخ،وضمن وحدة الأمة، طبقة بعد طبقة. وكل طبقة بدورها تفرز(الطليعة). والطليعة تفرز (الفرد) أخيراً .

وبالرغم من ان الثورة هي من طبيعة جماعية دائماً ، سواء كانت ثورة طبقة ، أو ثورة شعب ، إلا ان الأفراد الثائرين هم الوحدات المشخصة للعملية الثورية - هم الذين يقودون ، وهم الذين ينفذون . وفي لحظات الحمية في النصر وفي الفشل ، يلعب الأفراد أدواراً مصيرية حاسمة . فثورة الجماعة قد تصلح مطية للأفراد ، وسلاحاً للأفراد ايضاً . وفي كل ثورة لا بد من فرد أو أفراد ، يتحدثون بالنيابة عن – كلية – الثورة .

وليس للثورة بالمقابل أية وسيلة ديمقراطية من أجل ابراز الأفراد على قممها ، إلا الانتهاز حيناً ، والبطولة الحقيقية حيناً آخر . وبين الانتهازي والبطل، تتمزق الثورة ، ويتبعثر الأفراد بين القطبين . ولذلك اصطلح الايدلوجيون على تقسيم الثورة إلى الثورة الأصيلة ويتزعمها الأبطال الحقيقيون ، وتحققها كلية الطبقة أو الشعب ، وإلى الثورة المزيفة أو المضادة ، التي يعوم على سطحها الانتهازيون ، وتحققها الأقليات المعزولة بمصالحها المضادة لمصالح الأغلبية ، حيوياً وحضارياً .

والأصح ان نقول ان الأقليات أو الفئات المعزولة لا تثور ، ولكنها تتمرد . والتمرد هو للأفراد أو القلة ، أو للنخبة أو للرواسب في قعر المجتمع . ان التمرد النابع من مصلحة الفرد أو القلة سوف يعاكس حتمية الثورة الجماعية. وهو بالتالي سوف يؤلف عقبة موقتة ، تقيد الثورة في متابعة عملية التعرية والكشف للعناصر

المتخفية وراء مختلف شعارات النخبة ، السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية .

ليس للنخبة ثورة ، وقد يكون لها تمرد . وللسواد الأعظم حق الثورة . لأن له هدفاً تاريخياً ، يرتبط بارادة التغيير المتجسدة في حركة الشعوب . وبينما تتخذ ارادة التغيير الشعوب المكافحة أداة لتحقيق أهدافها ، أي تستخدم الانسان الواعي لحركة التاريخ ومصيره المحتوم ، فان تمرد النخبة ، ليس له سوى الارهاب وسيلة لسرقة الشعوب ، فهو يقف ضد الانسان ، ضد الجماعة أو الغالبية العظمى . إذ ان الانسان الحقيقي هو انسان الجماعة . وهناك تقوم مملكة الله ، أو هناك تستمر الأخلاق .

فالثورة والانسان والجماعة في جهة ، والتمرد والارهاب والقلة في جهة ثانية . الله من جهة والشيطان من جهة مقابلة . الأخلاق والحقيقة ، والعهر والكذب .

وهكذا فان مجازات الشعوب إلى حضاراتها هي ثوراتها . وكذلك فان مجازاتها إلى الموت الجماعي هي انحرافات نخباتها، سواء تحت ستار التقوى(مجتمعات السلطة الدينية) ، أو الفروسية (مجتمعات الاقطاع)، أو ستار النجاح (مجتمعات الارستقراطية الصناعية) .

ان تغيير الأدوات يتم بالتطور ، ولكن تغيير القيم يتم بالثورة. ومن العجيب ان ثورة القيم ، لا تقل لهـــا إلا عندما تتطور الأدوات . ونحن نعني بالأدوات مختلف الوسائل المادية والمعنوية لتحقق مجتمع انساني ما ضمن ظروف معينة .

فالسيف الذي هو في الأصل أداة لحماية وجود حامله ، يصبح قيمة (للشرف) عندما يحسن استخدامه في ظروف التحدي . والطاحونة الهوائية التي كانت أداة لطحن قمح العائلة — بمعناها التاريخي الواسع— تصبح تعبيراً عن التقدم(الحضاري) أي قيمة ، عندما تتحول إلى طاحونة ميكانيكية ، مكرسة لانتاج كبير ، لا يستخدمه صاحب المطحنة من أجل قمحه هو ، وإنما يستخدمه الرأسمالي من أجل الربح .

ان الانخلاع الانساني الذي تصاب به الجماعة عن طريق تحويلها إلى أدوات ، لا ينطلق أولاً من الشعور بالمفارقة بين كون الجماعة — انساناً ، وكون الجماعة —

أداة ، ولكنه ينطلق من الراسب المادي نفسه الذي هو حصة الجماعة الأخيرة من معادلة الاستخدام والمنتوج . انه راسب مادي يترجم إلى حكمة واحدة: البؤس.

فالمثقف قلق ، والعامل بائس . والأول يتمرد ، والثاني يثور . هـذا في المجتمع البورجوازي المتقدم . واما في المجتمع الاقطاعي القبلي الرأسمالي المتخلف، فان المثقف أداة ايضاً كالعامل او الفلاح في بلاده . انه ينتمي إلى أمة ، تستخدم كلها من قبل أمة أخرى أعلى بالتقنية الصناعية والعسكرية والثقافية . والأمـة الرأسمالية ، بالبورجوازية والبروليتاريا فيها ، تستخدم الأمم المستعمَرة المتخلفة ، بما فيها من فلاحين وعمال وبورجوازيين ومثقفين . فالمثقف في الأمم المستعمَرة ، يتلقى نفس الظروف التي تتلقاها الطبقات الشعبية في مجتمعه . ولذلك لا حق له في العزلة ، لا معنى لتمرده الفردي . انه انسان مستخدم من خلال شعب كامل مستخدم . فليس له إلا مصير واحد ، هو مصير شعبه كله . انه الثورة .

ان المثقفين في الشعوب المستعمَرة ، هم طلائع البروليتاريا القومية الشعبيـة . وعندما ينفصل بعض هؤلاء المثقفين عن المشاركة – بوعي وعمل – عن مصـير شعوبهم ، فان تمردهم يتخذ شكل الثورة المضادة ، حين تتاح لهم فرصة الحكم . والثورة المضادة في الحكم لا تعني سوى شيء واحد ، هو خيانة الطبقة والأمـة معاً . وللدفاع عن (الخيانة الدائمة) ضد الثورة الدائمة للجماهير ، تبرز الفاشيـة كوسيلة واحدة للاستمرار .

والدم هو في الثورة لأن معنى (الدم) في الثورة مختلف . انهـا تقدم ضحايا وشهداء ، من بين صفوفها . والفاشية هي التي تقدم ضحايا من غير صفوفها .

والثورة عندما تضطر للقتل ، فهي تقتل من القـلة المعاكسة لارادة التغـيير . وأما الفئة الفاشية فهي التي تقتل من الغـالبية ، من الشعب ، من السواد الأعظم الثائر ضدها .

ومع ذلك فان الثورة ليست محتومة للقتل ، ولكنها محتومة للتضحية. والثورة المضادة هي المحكومة للاجرام الجماعي بدون أية تضحية . والثورة من حقها أن تدين وأن تبرىء . والمجرمون الارهـابيون لا حق لهم في كلا الامرين . انهم

الحفنة المدانة ، والتي تنتظر انزال العقاب بها ، حالما تتلاشى حماية القوة عنهم .

وبين ان يكون القتل عقاباً ، وبين ان يكون جريمة ، يبرز الفرق الدقيق بين اخلاق الثورة ، وفوضوية الارهاب .

وصحيح ان الثورة قد تحكم باسم (تشاريع) لم تكتب بعد ، الا انها تستمد مشروعيتها من ارادة الاغلبية الثائرة على النظام القديم ومشروعيته . والفرق بين الثورة في الشعب ، والثورة في الحكم ، ان الاولى تستمد قوتها الاساسية من كونها ثورة ضد النظام القائم ، وان الثانية هي ثورة من أجل خلق النظام البديل الجديد .

وفي مرحلة الحكم ،ليست هي الاهداف التي توضع موضع التجريب والتحقيق ، ولكن الثورة ذاتها ستواجه مصيرها التاريخي . فأما ان تنقضي وتذوب بمجرد قيام النظام الجديد الذي دعت اليه ، او انها تستمر فيه ، وتصبح (ثورة دائمة) ، تنتصر على نفسها دائماً ، وتتجاوز مراحل الخلق الى ذروة التناقضات ، وتكون قادرة أبداً على حل كل ذروة لجماعية ، من التناقضات ضمن الخط الايجابي ولمصلحة النظام الثوري المتكامل .

وأما الحكم الفوضوي ، فهو الذي سوف تنحصر انجازاته في نطاق الحماية السلبية لوجوده ، على أساس اطراد في وسائل القمع ضد المجموع الشعبي المعادي له .

ان الفوضوية هي مسخ الثورة ، عندما تعجز هذه عن حماية نفسها بالانجازات الموجهة الى الاكثرية الساحقة من الشعب .

وبينما تبدأ مشروعية الثورة بمجرد سيطرتها على الحكم ، وتنتهي بذلك مرحلة (تعليق القانون) ، فان الفوضوية ، لا مشروعية لها في الشعب ، ولا مشروعية لها في الحكم .وهي منذ ان تسرق السلطة من الثورة الاصيلة ، تدخل مرحلة الاجرام الجماعي ، عن طريق تسخير الدولة كلها كأداة للاكراه العام . وتحاول ان تفيد من (موضوعية) الثورة المسروقة أطول فترة ممكنة ، إلى ان تنكشف (جزئيتها) ونشازها ، ووضعها الطفيلي . وبذلك فان الحكم الفوضوي يصطدم باستمرار بهذه الحقيقة ، وهي، انه لا مكان له . انه لا ينتمي إلى أية طبقة .

منبوذ من الجماهير ، مشكوك فيه من قبل اصحاب المصالح البورجوازية والاقطاعية .

ولذلك فان الفوضوية لا تعبر عن أحد ، هي أداة لنفسها فقط ، محكوم عليها بالعزلة الرهيبة عن كافة فئات المجتمع ، وبالنشوز بالنسبة لحركة التطور التاريخي .

والفوضوية التي لا يمكنها ان تستمر إلا بقدر ما تزيد في ارهابيتها ، فانها عاجزة بشكل مريع عن التفكير . فهي لا ايديولوجية لها البتة . لان كل تفكير سيكشف لها عن عدم (جدواها) بالنسبة حتى لنفسها . ولذلك فهي بدلاً من ان تفكر ، فانها تخاف . وكلما خافت الفوضوية اشتدت شراستها . ومن مركب الخوف والشراسة ، ينمو شعور الفوضوي باتجاه مضاد لكرامته . انه يعرف انه محتقر من قبل الجماهير ، ولا مكان له . ولذلك يعود الى قوقعته الاخيرة دائماً ، الى الارهاب .

فالعزلة والاحتقار والعقم والرعب ، هي ذلك الخيط العجيب الذي يؤسس وجود الفوضوي ، والذي يؤدي به إلى السلوك المحتوم الواحد : الارهاب .

ان الفوضوي لا فكر له ، لأن كل رؤية للواقع تزيد في شقائه . انها تكشف عن مدى عزلته . والفكر تحليل للواقع ، واستشفاف للمستقبل . والارهابي لا مستقبل له كذلك . فهو العقيم من كافة الامكانيات ، فلا انجازات له على مستوى اهداف الجماهير ، يرمي بها إلى آفاق المستقبل . ان المستقبل ليس سوى تراكم المسؤوليات عن مجموعة الآثام الماضية المتزايدة . فالزمن بالنسبة للارهابي يعمل ضده ، انه يسير به نحو حتفه .

ولذلك فعندما يشترك مثقفون بالارهاب ، فانهم يتخلون عن الفكر بصورة حتمية . وتتحول عندهم الرؤية الموضوعية للاشياء إلى سلسلة من الهواجس المرضية . ولذلك فهم يدافعون عن (عقمهم) الجديد باصطناع الوصاية على اقدار الجماهير وعلاقاتها المادية ، ومصيرها التاريخي . ويتهربون من مسؤولياتهم (الجزئية) اليومية عن شقاء الشعب في ظل حكمهم ، إلى مسؤوليات عن أهداف كبرى

مجردة ، يساهمون في تمزيقها عملياً في كل لحظة .

وحين يفقد المثقفون الارهـــابيون الفكر ، يصبحون بدون أخلاق ... بالضرورة .

ان الفكر في الثورة هو التغيير عملياً ، وان التغيير هو تحويل أهداف الفكر إلى مسؤوليات واقعية ، تشع بقيم جديدة . ان التغيير هو صنع الشروط الملائمة لتفتح العدالة الحقيقية . فالثورة والظلم نقيضان ، لا يلتقيان إلا عندمـــا تجهض الثورة ، وتمسخ إلى حكم فوضوي ارهابي .

وهكذا فان الفوضوية بدون فكر ، بدون أخلاق ، ليست سوى اوتوقراطية وقيصرية جديدة ، خالية حتى من بقايا فروسية الارستقراطيين . انهـــا بالاحرى تقيّح القيم القديمة للمجتمع القديم ، ضمن هالة من الاستعلاء الشيطـاني ، والغرور المجنون ، والصفاقة المتعهرة .

ولذلك فان ممثلي النظام القديم يجدون أنفسهم مرة ثانية ، من خلال أبطـال الارهاب الحاليين ، ولكن بصورة أخرى ، ترعبهم دمويتها ، وتذلهم إباحيتها .

وأما الثوريون فهم يرون فيهم مسخهم الشيطاني ، ونقيضهم النموذجي . ومع ذلك فان الثوريين يحسون بمسؤوليتهم عن الارهابيين ، بطريقة مـا . فالفوضوية هي فشل الثورية . والارهاب هو فشل العدالة الاجتماعية الجديدة ، وابطـــال الشقاء الجديد هم انداد للثوار وأعداء ألدّاء لهم . بل ان اكثر مـا يثير الارهابي هو ان يرى في الثوري الرجل الذي كانه هو يوماً ، ثم سقط دونه مرة وإلى الابد.
ان الثوري يمتاز بالرصانة واليقين ، والفوضوي مذعور مبعثر ، بدون ملجـأ حتى بين زملائه ، وبدون أمـــان حقيقي ، حتى وهو وراء مدفعه . ان الفوضوي الارهابي يتمسك بالحاضر ، وأما الثوري فهو الذي يثق بالغد . فالغد حـــامل الحقيقة والعدالة دائماً .

والتناقضات التي يقع فيها الحكم الفوضوي والارهابي بين مختلف الاهداف ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، ليست سوى مجموعة المحاولات العقيمة للتخلص من مصير الارهاب نفسه عن أصحابه . انهـا لا تعكس تناقضـــات تاريخية أو

اجتماعية . ولكنها تظل الصور المحسوسة عن محاولات الكذب والخداع الجماعي .

وبدلاً من مواجهة الواقع السلبي ، المحاصر لهم من كل جهة ، فانهم يكذبون على أنفسهم ، حتى فيما يتعلق بحيوية وجودهم ذاته . انهم يتوجهون إلى بعضهم البعض ، ويلقون التبعات والاتهامات الكبرى على زملائهم في الجريمة الكبرى والمصير المحتوم .

والفشل المتتابع الذي يلقونه وهم يسعون إلى قهر الشعب المحكوم ، يتحول إلى عداوات ضارية بين أجنحتهم وشراذمهم . وتتفتت وحدتهم أمام الحوق المجهول المتربص لهم ... وتبدأ هكذا مرحلة التآكل من الداخل ، ويعملون جميعاً على انجاز الامكانية الوحيدة المتبقية لهم . وهي امكانية العقرب المحاصر ضمن دائرة النار . فليس له أخيراً إلا ان يعقص جسده بسمّه ذاته .

* * *

الثورة بدون فكر ، بدون أخلاق ، هي الفوضوية الارهابية . والابطال في الاولى ، مجرمون في الثانية . والانجازات الثورية تتحول بالفوضوية ، إلى استهلاك شيطاني للقوى الشعبية ، في معارك داخلية مصطنعة .

وبينما تفسح الثورة للمثقفين لكي يلعبوا دور القيادة الفكرية الواعية ، فان الفوضوية الارهابية تمتص وجدان مثقفيها ، وتستهلك احساسهم التاريخي ، وتحولهم إلى دعاة مشعوذين ، يتنافسون على تجميل الكذب وتنويع وسائله ، وعلى تبرير الجريمة والمجرمين . ويغرقون هكذا في بحران من النية السيئة والعبودية الجديدة .

وتظل الثورة الحقيقية هي أخشى ما يخشاه المثقفون الارهابيون . انها تذكرهم على الأقل بأصلهم الذي أضاعوه إلى الابد . وان أفجع ما يمكن ان يصاب به الفوضوي هو شعوره بأنه المطارد الحقيقي ، والخائف الحقيقي ، والكاذب الحقيقي ، في الوقت الذي يسعى فيه إلى مطاردة الشعب الثائر وارعابه ، وتشويه جوهر نضاله ضده .

ومنذ ان قطع الارهابي المثقف صلته بالجماهير ، بنوع من الاستعلاء والاحتقار الأجوف ، استباح لنفسه كل محرم .

وكما يحل الملحد لنفسه كل شيء عندما ينكر وجود الله ، فان الفوضوي ، المسخ عن الثوري ، يتنكر لفكر الثورة ولاخلاقها الاصيلة ، ما ان ينحرف عن خط الجماهير ، عن الغالبية العظمى من الامة ، صاحبة الحق الاول في التغيير نحو الحياة الافضل الأعدل .

بقي ان نقول ان القلة لا تستطيع دائماً ان تتحول إلى نخبة ، كما ان الجماهير لا يمكن ان تجمد ضمن حدود القطيع . وفي عصر الاشتراكية تصبح مصلحة الاكثرية هي المقياس لكل شيء ، للحقيقة والعدالة معاً . ولا قيمة للنخبة ان لم تكن طليعة تحيا حياة جماهيرها ، وتسبقها على طريق الثورة . ولا قيمة كذلك للابطال الافراد ان لم يحيوا حياة أمتهم ، ويقبلوا سيادتها الجماعية فوق فرديتهم .

ان الانتماء إلى الثورة ، هو الانتماء للجماهير . ولا تسقط الثورة في الفوضوية الارهابية إلا عندما تعادي الجماهير ، وتعمل من أجل مصلحة القلة .

والجماهير في طقوس الثورية ، هي محل الحقيقة (الفكر) وهي محل العدالة (الاخلاق) . وتلك هي ميتافيزيقا الثورة . ليست في الأعلى ، في الفراغ . أنها في أعماق الوجود البشري ، ولصق آلامه وعبقريته الحقيقية .

* * *

ان من اكثر الثورات التي ارتبطت بالمثقفين من فئات المجتمع المختلفة الثورات العربية . ومثلما كان الوعي هو المحرك والمحرض والموجه في البداية ، ومثلما كان المثقفون هم الرواد الطلائع ، فان حركية الثورة وسياقها الواقعي ونتائجها ، كانت في كل مرة تخرج من يد المثقفين وتستقل عنهم ، وتتابع قوانينها الاجتماعية الخاصة ، فتنحرف أو تسقط ، او تجهض ، وتقع في شباك العقد المرضية المزمنة في جسد الواقع الاجتماعي وفي روحه .

ومثلما كانت كل ثورة عربية في الأساس هي ثورة مثقفين ، فانها حملت معها كذلك ، إلى جانب الوعي والرؤية المثالية ، مختلف أمراض الطبقة المثقفة نفسها . وفعلت هذه الأمراض فعلها المباشر وغير المباشر ، في بنية الثورة وتطورها . فمنذ نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين ، كان المثقفون الأوائل ، بعددهم

القليل ، ووعيهم المثالي ، يؤلفون أول جزء من المجتمع الراكد ، ويفصلون أول قافلة منه ، تتحول إلى طليعة .

لقد كان المثقفون العرب ، من بين مثقفي الامبراطورية العثمانية ، يدعون إلى انبعاث القومية العربية ، من خلال الدعوة (الامبراطورية) العامة ، إلى الديمقراطية وزوال الحكم المطلق الذي يمارسه سلاطنة آل عثمان . وكانوا يرون في الدعوة إلى الديمقراطية سبيلاً نحو يقظة الشعور العربي ، وامكان تفتحه حسب شخصيته التاريخية الخاصة .

فهم الذين كانوا من رواد الاستقلال القومي عن كيان الامبراطورية المنخور . ولقد فهموا هذا الاستقلال ضمن نوازعه الثقافية الداعية إلى العلمانية ، واللحاق بركب الحضارة العالمية ، وتجاوز أمراض القرون الوسطى .

فان جملة الأطباء والمحامين والأساتذة الذين عاشوا أزمات مطلع هذا القرن ، تمزقوا بين لسان تركي مفروض ، ولغة عربية ضائعة ، وآمال قومية محصورة في صدور قليلة ، وسط كتل من الجهل والظلام ، الذي كان يخيم على المدن العربية وأريافها وبواديها .

لقد كانت دعوة المثقفين العرب (الخاصة) من بين دعوات سائر مثقفي الأتراك والامبراطورية العثمانية كلها،السائرة في طريق الانهيار المحتوم ، كانت هذه الدعوة تفترض حرية الشعوب داخل الامبراطورية شرطاً أساسياً لانقاذ (الامبراطورية) .

تلك خطوة أولى . واما الخطوة الخفية والمنتظرة ، فهي ان حرية الشعوب تعني عملياً انهاء التبعية لامبراطورية (الخلافة) . ومن هنا انفتح طريق الثورة العلمانية أمام مثقفي العرب ، واستطاعوا ان يكوّنوا أول مفهوم عصري عن أسس الدولة المتحضرة الجديدة . فالحدود بين (الولايات) واختلاف الاصقاع جغرافياً ، وامتداد الوطن العربي متشعباً عبر الصحارى والجبال والسهول ، وعلى شواطىء عدة بحار ، ليس عائقاً أبداً في وجه وحدة عربية ، ذات طابع حركي ثوري ، هي بمثابة اعلان كل تقدم عربي في مضمار الوجود الحضاري المنتظر .

ومنذ ان قامت الثورة العربية الكبرى ، من الحجاز ، هلل المثقفون في دمشق والقدس وبيروت وبغداد والموصل ، للحدث المعجز . ودون ان يعوا السياق الهجين لهذه الثورة ، التحقوا عاطفياً وفكرياً ، وبعضهم عملياً ، بركب الملك ، وأبنائه الأمراء الثائرين .

وكانت النشوة العاطفية ، وتلك ايضاً من أمراض المثقفين المثاليين ، التي التهمت خيال المثقفين باحياء دولة الأمويين ثانية ، قد أعمتهم عن السياق المشبوه الذي انصبت به الثورة . لم يروا ذلك الاستغلال والتملك (الملكي) للثورة . لم يريدوا ان يروا ذلك (التعاون) بين الملك وأبنائه من الأمراء ، مع (الفرنجة) الأعداء التقليديين للعرب ولامبراطوريتهم ، ولكل حلم آخر بانبعاث هذه الامبراطورية مرة ثانية ، على تخوم أوروبا .

وعندما انطلق هذا (السياق) الثوري، محققاً خطوات هامة أساسية في تحرير البلاد من الاحتلال التركي ، وجد المثقفون ان دورهم (النظري) قد أبطلت مفعوله الأحداث ، (الواقعة فعلًا) ، وان الحلم بقيام امبراطورية دولة العرب الواحدة ، قد تحول عملياً إلى أحلام ملكية ، بتقسيم البلاد ثانية ، وتنصيب ملوك وأمراء ، بحماية ممثلي الحضارة ، من عسكر الفرنجة ومندوبيهم ومستشاريهم .

ولكن أجيال الشباب المثقف ، التي وقفت وراء الدعوة إلى تحرير العرب وانبعاث أمجادهم ، هذه الأجيال التي عاصرت أحداث ما قبل الحرب الأولى ، وتقاسم المغانم بعد الحرب ، وفجعت بأعز أمانيها .. وشاخت دفعة واحدة ، قد وجد بعضها انه مضطر للتفاهم مع الأمر الواقع .

فالتحق هذا (البعض) سراعاً كحاشية لهذا الملك وذلك الأمير . وانضم البعض الآخر إلى الوظائف (الأميرية) الكثيرة، التي تطلبتها عملية الاستعمار الأوروبي الجديد، و (تطوير) أجهزة السلطنة العتيقة إلى (وظائف) عامة لخدمة الدول الناشئة (المتفرنجة) .

واما القسم الآخر ، القسم القلق المتمرد الذي واجه الهزيمة بشجاعة نادرة ، المثقفون الذين رفضوا ان يصبحوا واقعيين ، وتابعوا رصدهم العنيد لنتائج الهزيمة

في نفوسهم ، وفي مركبات الهزيمة لدى الواقع الثوري المجهض المجمد ..

اما هؤلاء فقد رفضوا ان يتخلوا عن الثورة ، ورراحوا يلاحقون امكانيات التفجر الجديد ، ضمن الشروط الاستعمارية والرجعية الداخليـة . وانضموا إلى ثورات سورية وفلسطين والعراق ، طيلة الربـع الثاني للقرن العشرين . وبذلـك وضعوا تقليد (الثورة الدائمة) ولو ضمن نوعها السلبي، وأشكالها الجماهيرية العفوية.

فالمثقفون ، وهم جيل من الشباب ، يتشابهون جميعاً ، وهم على عتبة الثورة ، يخضعون لوطأة الوعي من جهة، ولخفة الحلم من جهة أخرى. وعندما تقع الثورة، وتصيب بعض النجاح والكثير من الفشل والخيبة ، ينقسم الجيل ، فالواقعيون الجدد منه ، يبحثون عن (صيغ تفاهم) مع المنتصرين ، ولو كانوا من أعـداء الثورة . والحالمون القدامى ، يتحولون إلى مغامرين ، يمسكون البندقية بيد ، ويمدون اليد الأخرى للسلطة . وامـا الباقون القلة فهم الذين تكتسبهم الثورة الدائمة ، وهم الذين يضرمون نيران التمرد الجديد ضد الثورة القديمة التي احتلت مقاعد السلطة وأصبحت أشرس مقاوم لزملاء الأمس ، وأعداء اليوم والمستقبل .

لقد وجدت الحكومات الكثيرة المتتابعة على مسرح السلطة في دول الشرق العربي الخاضعة للانتداب الاستعماري ، طيلة الربـع الثاني من القرن الحـالي ، وجدت هذه الحكومات صفوفاً كاملة من المثقفين (المتعاونين) الذين احتـلوا مراكز وزارية ، أو مناصب ادارية كبرى . ثم شكلوا ، مع الزمن ، طبقـة بورجوازية جديدة ، مستعدة للتحالف مع اية سلطة، تسمح لها بممارسة عملية تضخيم مصالحها المادية والمعنوية داخل المجتمع المتطور، لصالح القوة البورجوازية الاقتصادية، المتعاونة مع قوى الانتداب والاستعمار .

* * *

لقد أصبح المثقفون العرب يعانون من تمزق بين نموذجين ، نموذج الالتحاق بالمثقفين الغربيين من خلال دولهم المستعمرة، ونموذج تأكيد الخط الحضاري الخاص بتطور مجتمعاتهم العربية. هذا التطور الذي يناضل عبر مقاومة الاحتلال الأجنبي، من جهة ، ومقاومة ظروف التشكل التاريخي للبنية الذاتية لهذه المجتمعات .

ولذلك كان يلتبس الأمر غالباً على هؤلاء المثقفين . انهم يريدون ان يشاركوا في هجوم المثقفين عامة خارج نطاق بلادهم ، فيتبنون الشيوعية من ناحيـــة أو الليبرالية من ناحية أخرى . أي انهم يقبلون انقسام المثقفين في الغرب إلى دعـاة ديموقراطيين ، يصنفون عادة إلى جانب اليمين الليبرالي ، وإلى دعاة بروليتاريين ، يقفون الى جانب اليسار المتطرف .

واما المثقفون الثوريون المتمسكون بتراث الثورة العربية في الدعوة القومية، فكانت نظريتهم تتمثل في موقفية مباشرة ، انها الدعوة إلى (استمرار الثورة) ضد المستعمر و (الحكم الوطني) المتعاون . ولذلك ارتبط مصيرهم دائماً بالحركات الشعبية في شوارع المدينة من جهة ، وفي جبال الارياف ، حيث تتجدد دائماً قوى المقاومة الثورية، وتنتقل بصورة دورية عبر سورية الكبرى،شمالاً وجنوباً وشرقاً.

ان هذا الجانب من المثقفين ، لم يتهرب من حدود المعركة إلى فكر رومانسي فردي ، ولا إلى فكر بروليتاري لا جذر له في الواقع العربي آنـذاك . لقد كان هذا الجانب أمام الأهداف مباشرة ، وفي مركز الثقل من كل معركة وطنية تحررية .

ومع ذلك فان طابع الصراع العام مع الاستعمار وحكوماته الوطنية المزيفة، في هذه المنطقة من العالم العربي ، كانت بعيدة عن العنف المادي الجماعي ، ضـــد بعض الثورات المنظمة والمسلحة . فلقد اقتصرت قيـــادة المثقفين على الدعوة إلى التظاهر السلمي والاضرابات في الجامعات والمدارس والأسواق .

ومع ذلك ، فان الاصطدامات بين قوى المظاهرات السلمية ، والمقاومـــة العسكرية من قبل المستعمر أو الحكومات الوطنية المزيفة المتعاونة ، كانت تؤدي إلى بعض أعمال العنف واراقة الدماء .

ولكن المثل الثورية العامة ، التي ارتبطت بها فئات المثقفين ، عبر كل ذلك الماضي البعيد من تاريخ الحركات العربية الحديثة ، كانت في مجملها تدعو إلى الأساليب (الديمقراطية) في مقاومة الحكومات المفروضة من قبل الاستعمار.

ومن ناحية أخرى، فقد اعتمدت دعاية الثورة دائماً على عنصر العنف،الذي قد

تضطر اليه قوى القمع الاستعمارية ، من جرح بعض المتظاهرين او قتلهم ، ومن اعتقال للزعماء والطلاب وأبناء الشعب .

وخلال المعارك ضد الاستعمار والاحتلال المباشر ، كانت قوى الأمة محتاجة دائماً إلى تأكيد الوحدة الوطنية ، بحيث لم يكن من السهل تمييز خط يساري من خط يميني في ساحة ، يقف في جانب منها شعب يكافح عن أرضه وحريته ، ويقف في جانب مقابل أجنبي دخيل .

ومع ذلك فان التدقيق في المكان الذي كان يشغله المثقفون من هذا النوع ، من الصراع الوطني المباشر ، يبرز ذلك التردد الفاجع بين الثورة المستمرة إلى جانب القوى الشعبية ، وبين الثورة المرحلية التي تنقضي بانقضاء وصول المثقف إلى المركز الذي كان يطمح اليه . فلا يتبقى لديه من ذكرى الثورة إلا الاحتجاج اللفظي او الفكري ، على الاستعمار ، باعتباره مثلبة في جبين (المثل العليا) !

ان انقسام المجتمع العربي ، بعد الاستقلال ، إلى طبقة حكم ونفوذ اجتماعي ، سياسي واقتصادي ، وإلى قوى شعبية مكافحة في سبيل الوحدة ، كطريق وحيد نحو القوة والتحول الاشتراكي ، أعطى للمعركة صوراً من العنف ، لم تكن تعرفها من قبل ، مواجهة لقوى الاستعمار مباشرة .

لقد خضع الشعب العربي بعد الاستقلال لجدلية الثورة ، والثورة المضادة ، بشكل نموذجي ، حاد وشرس . وبدا ان التحول الوحدوي الاشتراكي هو أقسى مخاض حاسم ،تعانيه الثورية العربية في هذه المرحلة من كشفها للعقبات الاعمق، في بنية التكون الاجتماعي الداخلي نفسه .

ان (العنف) يفرض نفسه بطريقة لا مفر منها على هذه الجدليـــة . فبقدر ما يتضح الطريق أمام القوى الشعبية ، عبر عقد النجاح والنكوص، فان العنف يصبح بالنسبة لها نضالاً مستميتاً دائماً ، يتضاعف نشاطه كلما اشتدت وسائل قمعــه . وبالمقابل فان الثورة المضادة ستسير في طريق الارهاب الجماعي حتماً . ويساعدها على ذلك تمكنها من السيطرة على الجيش وأجهزة الأمن .

وعبر قطبي العنف : في القوى الشعبية المستميتة في نضالها ، وفي الثورة المضادة

في الحكم ، والتي تخضع يوماً بعد يوم لنمو وحشي مطرد في مركبات الارهاب الجماعي ... أقول : بين هذين القطبين تمارس الطبقة المثقفة نماذج معقدة من السلوك .

لقد انخرط المثقفون العرب في العنف ، انخرطوا جميعهم ، ومنذ أول مذبحة عقائدية قامت في دنيا العرب بأيدي العرب أنفسهم ، في عراق قاسم ، وحتى الذين لم يلعبوا دور الزبانية ، ولا دور الضحايا من المثقفين ، فانهم اشتركوا ، بالصمت ، بالفرار أمام الحقائق، بتجاهل (الفضائح) الكبرى التي نظمها المثقفون وعقائدهم، عندما أتيحت لهم فرصة الحكم .

فالمثقفون العرب ، في هذه المنطقة، الذابحون والمذبوحون والمحايدون،جميعهم اشتركوا في الجريمة الجماعية . بعضهم عن طريق الممارسة ، وبعضهم عن طريق التجاهل .

ان التعذيب والقتل والاعتقال ، وسائل من الارهاب ، التي كانت مقترنة دائماً ، وبصورة تكاد تكون مألوفة عادية ، بتاريخ العرب ، منذ ان فقد العرب سيطرتهم على مصيرهم وخضعوا لنموذج (هولاكو) المستمر في الحكم ، منذ اكثر من ألف سنة .

فمنذ ان اشترك شعراء وكتاب ، محامون وأساتذة وطلاب ، في الارهاب القاسمي الشيوعي في العراق ، واشترك مثل هؤلاء ، وأكثر منهم ، في الارهاب البعثي في سورية ، منذ عام وما يزال ، فان الجريمة الجماعية التي دأب على تنفيذها هؤلاء ، تمر تحت ستار من الخفر والحياء .

فالمثقف الذي يخرج من تجربة ارهاب ، والمثقف الذي سمع ورأى تلك التجربة ، كلاهما نموذجان صامتان ، ينافسان صمت المثقف الذي – أشرف – و – مارس – بنفسه تجارب ارهاب .

فهل من عناصر تلك التجربة القذرة، ان يطبق خجل اسطوري اصفر على علنية الفضيحة ؟ هل من المحتوم ان يشمئز المعذب من فضح معذبيه ؟

هل يشفق المثقف المضطهد على نفسه فلا يذكر وقائع اهانته ، ويشفق على

جلاديه ، من (زملائه) في الثقافة والعقائدية و . . . النضال ؟

أليست هذه النموذجية السلوكية ، صورة عن تلك (التطهرية) السلبية التي طبعت اخلاقاً (مثالية) ، لا تقر بالواقع ، ولا تستطيع ان ترى الدم ، لا على أعناق المذبوحين ولا على أيدي الجلادين ؟

* * *

ولكن لنرَ القضية عن قرب أكثر :

أولاً : نحن لا نريد ان نناقش دوافع الارهاب ، ولا ظروفه . فلسنا نخوض الآن بحثاً ايدلوجياً ، ولكنه البحث الذي هو شرط كل ايدلوجية أصيلة . انه البحث – عن – الانسان . وكذلك فليس بمجالنا الآن تفنيد حجج الشيوعيين في مذابح العراق ، ولا حجج البعثيين في مذابح العراق ايضاً ، وسوريا خاصة .

ولنقرر منذ البدء هذه البديهية : انه لا حجة للارهاب أبداً . لا شيء قبله يمكن ان يبرر حدوثه . أي ليس له أسباب « محتومة » .

ولا شيء بعده ، يمكن ان يغطي على فظاعته . أي لا يمكن قبول أية نتيجة من نتائجه ، مهما كانت « انسانية » !

ان رفض « اسباب » الارهاب ، ورفض « نتائجه » ذلك هو موقف « الحرية » !

هذا ، ان كان ثمة اسباب فعلاً للارهاب ، فكيف ان لم توجد مثل هذه الاسباب اطلاقاً ؟

كيف لو ان الارهاب ، كان « خطة » ؟ كيف لو انه « صنع » بعناية ؟ مثقفون ، فكروا فيه . تأملوه ، تفحصوه . تصوروا ظروفه . نظموا مراحله . تفننوا في وسائله ... أبدعوا واخترعوا . ثم كان الارهاب هو نفسه ، عارياً من كل خديعة لأنه لا شيء يفوق خديعته الذاتية . عارياً من كل تبرير ، لأن كل تبرير هو الفاظ تمر فوق الحدث ، الحدث الموجود ، القذر كله . . تمر وتنقضي وتخلف جبناً في نفس الارهابي . فيخترع مبررات أخرى ، أي الفاظاً أخرى . ثم لا يفعل ، اكثر من ان يؤسس الجبن أعمق فاعمق في نفسه القذرة .

والمبررات الجديدة المختلفة ، تقوده إلى تأكيد ذاته ثانية في حلقة أخرى من ممارسة الارهاب ، والتقدم في ميدانه ، وحيازة قصب السبق في تنافس الجبناء كلهم .

لقد كنا نتبادل النظرات احياناً مع جلادينا ، فكانت عيونهم تسارع إلى الفـــرار ، بأن ترتدي سريعاً قناع الحقد والغضب . كانوا يصطنعون الارعاب في عيونهم المتحجرة ، وفي أصواتهم المرعدة . كانوا يحملقون اكثر ويصيحون أعلى وأصخب . وبذلك يدفعون عن أنفسهم النـــدم والخجل ، كانوا يبرهنون انهم لم يخافوا بعد .

وكنا نعيش معاً جميعـــاً ، المعتقلون والجرحى والمعلقون من المعذبين ، والمدفونون في الزنزانات . وعلى بعد خطوات يعيش ، يأكل وينـام ويثرثر طقم المحققين والجلادين والمساعدين . . .

كنا جميعاً أسرى للعبة رهيبة واحدة ، في قصر مظلم واحد الموت والقذارة . وكنا جميعاً نمارس الخوف والحقد ، الضراوة واللذة الحامزة المسروقة . الضحـايا ينتهي رعبها ما ان يبدأ رعب الجلادين . وكلما أوغل الجـلادون في (وجودهم) الجديد ، حاولوا ان يغلقوا الابواب اكثر على أنفسهم . بينما تزداد جماعة المعتقلين التهاباً وتقارباً صميمياً . حتى يصبح شعب السجن جزءاً حيوياً من الشعب كله خارج السجن . وبذلك تزداد حريته ، في حين تنغلق دارة الارهاب على ابطالها ، وتخلق لهم سجناً شفافاً من هواجس وحشيتهم الجديدة المصنوعة .

لقد كنا نسأل: أليس ذلك الجلاد اللئيم المحامي الفلاني ، ومساعدوه أليسوا هم الاستاذ والاستاذ والاستاذ ؟ حتى لقد سيطرت كلمـــة « الاساتذة » كمصطلح يومي على لسان المعتقلين ليدلوا بها على فئة الارهابيين الجدد .

الاساتذة الارهابيون !

وكلما تكررت ليالي الارهاب ، كان مثقفون معتقلون يسألون : ترى وما موقف الاستاذ فلان ، والدكتور .. وو ؟ ؟

لقد كان المعتقلون يشعرون ، دون جهد تأملي ، ان مثقفي الحزب ، مـن تبقى منهم ، ومن لم يبق ولكنه لم يعلن موقفه ، كل هؤلاء متورطون أيضـاً مع

زملائهم من المثقفين الجلادين ، الممارسين في أقبية المخـابرات وفي سجون سوريا كلها ، وسجن المزة خاصة .

ان الارهابي ، ولو كان في صف الحقيقة – وذلك مستحيل – ، فـانه يظل بدون حقيقة . ان الحقيقة بدون الانسان هي كذب . والارهـابي ، كاذب ، وسفاح للحقيقة اينما وجدت .

ومع ذلك فهل ترانا أدركنا ماذا تعنيه كلمة الارهاب فعلاً ؟

لقد مارس هولاكو والشعوبيون والاستعمار والسنغال، الارهاب ضد شعوب الشرق ، ولكن المثقفين العقائديين من العرب في العراق وسوريا ، ووراء أكبر حركتين لليسار العربي ، الشيوعيين والبعثيين العفالقة ، من دكاترة ومحـامين وأساتذة وضباط مثقفين أيضاً ، فاقوا كل هؤلاء في ارهابهم .

فهم عرب . وهم عقائديون . وهم من طلائع نضالية كان لها جولات هي أيضاً ضد الظلم والطغيان ... وهم فوق هذا وذاك لم يكونوا مضطرين . بل لقـد اصطنعوا الارعاب . ثم حذقوا فن التقتيل الدموي والنفسي ... وتحولوا هكذا إلى جبابرة وطواغيت من كرتون .

وفي عالم الارهاب هناك تفاوت وتفاضل أيضاً ، فالارهابي بالفطرة ، هو غير الارهابي بالفكرة . ان الثاني اشمل وعياً بالارهاب وأفانينه ، فهو أخطر ، وهو أكثر جبناً في الوقت نفسه .

ولقد تميز ارهاب البعثيين العفالقة ، عسكريين ومدنيين ، بانه كان هجومـاً شاملاً ، على الاكثرية الساحقة من الشعب .

وكان هذا الهجوم يحدث بأساليب مختلفة . فتارة بأسلوب حرب حقيقيـة ، تستخدم الدبابات والمصفحات وأرتال المشاة ، وتداهم الاحياء ، وتشن (تمشيطاً) كاملاً لآلاف البيوت ، وتقذف الرصاص والقنابل تارة نحو الفضـاء ، وتارة نحو أهداف حقيقية .

وخلال عام واحد شنّ البعثيون الارهابيون هذا النوع من الهجوم ومارسوا احتلاله الخاص ، على الشعب السوري في مدنه الرئيسية عدة مرات . لقد ابتدأوا

الارهاب الجماعي منذ الشهر الثـــاني من ثورة اذار ، أي في شهر نيسان - فنزلت الآليات معززة بقوى هائلة إلى شوارع حلب . وضربت المتظاهرين بالرصاص من خلال تنظيم (الرتل الاحادي) . ثم شن هجوم آخر على الطلاب في درعـــا . وأرغم طلاب في مدينة (جبلة) على لعق أسفل أحذيتهم، وتعليق هذه الاحذية في رقابهم . وسمع أوائل المعتقلين الوحدويين في سجن المزة صراخ أول ضـــابط ، أفقده الارهابيون عقله تحت وطأة التعذيب .

كل ذلك في الأشهر القليـــلة التي تبعت ثورة اذار ، وقبل ان تقع حوادث الثامن عشر من تموز ، الحجة الكبرى لتعميم الارهاب البعثي وتفجير أعلى طاقاته (الثورية) .

و (اكتسح) البعثيون بالجيش السوري مدينة دمشق منذ يوم الثامن عشر من تموز بكل أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة . و (انتصروا) على المدينة الباسلة خلال ساعات .

وتحول (الحزب) خلال أيام إلى فرقة ارهابية كاملة العدة النفسية والعسكرية. و (غطى) الحزب البلاد بأنواع من جيوشه الجرارة: بالحرس اللاقومي، بالمخابرات العسكرية ، بالشعب السياسية ، ولها مركز في كل حي ، بالمتبعثين الجدد .

وخلال أيام ، لم تبق عائلة واحدة إلا ونكبت قريباً أو بعيـــداً ، بفرد أو بأفراد منها ، اختفوا ، قتلوا ، أو اعتقلوا أو شردوا .

وهكذا بدأ شيء جديد في سوريا ، اسمه الاحتلال البعثي .

ومنذ ان بدأ « الاحتلال البعثي » رسمياً استبيحت سوريا كلها ، وما زالت مستباحة أمام مختلف وسائل الارهاب . وتتابعت حملات الهجوم على الشعب، فقد هوجمت أحياء كاملة من مدينة حلب عدة مرات . وهوجمت مدينة درعا كذلك. ثم بلغت ذروة الارهاب المنظم ، يوم استأنف الارهابيون حرباً حقيقية كاملة ضد مدينة صغيرة واحدة ، هي حماه . فقد ضربت بالمدافع ، واخترقت أحياءهـــا الشعبية الدبابات والمصفحات . وعجن البشر بتراب بيوتهم وأحجارها. واشترك في هذه الحرب (المقدسة) لواءان كاملان . وأشرف على التنفيذ هيئة كاملة مــــن

أركان حرب البعثيين ...

* * *

لقد كان المثقفون البعثيون ، في حزب عفلق الجديد ، منخرطين إلى آذانهم في الارهاب . ولا يفيدهم قطعاً ان يلقوا التبعات على العسكريين . فالقادة (الفكريون) المدنيون كانوا يهيئون صبيان (البعث) الجدد، للحرب (المقدسة) التي سيدخلونها ضد الشعب ، منذ الثامن من آذار . وكانوا بين حين وحين ، يقومون بتجارب (استنفار) لهؤلاء (المستجدين) و (بالأسلحة الحية) . ويدربونهم على حرب الشوارع .

والمثقفون البعثيون ، هم الذين سيطروا على قيادات مختلف دوائر الأمن والمخابرات . والمعتقلون في حلب ودمشق واللاذقية ودرعا ، يذكرون (زملاءهم وأصدقاءهم) القدامى ، من محامين وأساتذة وموظفين مدنيين نظيفين ، الذين قاموا باعتقالهم بأنفسهم ، أو أشرفوا على سجنهم ، أو قاموا ، هم أنفسهم أيضاً باستجوابهم والتحقيق معهم ، أو بالأحرى التنكيل بهم بالسياط والكهرباء ، والتعليق من الأقدام ، والدفن في الرمال .

وعفلق والبيطار لا يمكنهما أبداً ان يتبرأا من حمامات الدم، التي كان يشرف عليها وينفذها تلامذتهما وحواريوهما . وعفلق يعلم تماماً ان أقرب حوارييه إليه أصبحوا من قادة الشعبة السياسية .

وعفلق كان موافقاً بصراحة على ما يجري في السجون والأقبية طيلة أشهر بعد الثامن عشر من تموز . لقد كانت هناك وفود تتصل به وتحدثه عن (القطاعات) في المزة . فكان (الصوفي الكبير) ، يبرر ذلك بضرورة (الثورة) . وخلال هذه الفترة الرهيبة المظلمة ، التمعت شخصيات فذة في عالم الاجرام العقائدي الجماعي في سجون حلب ودمشق ودرعا خاصة . وصارت بمثابة نماذج اسطورية في تاريخ الارهاب . وان أحداً من المعاصرين لهذه الحقبة لا يمكن ان ينسى هذه الشخصيات ، ولا أسماء أصحابها . ومن المفجع ان بعضهم من المحامين والقضاة ، وبعضهم أساتذة ، وبعضهم الآخر ضباط مثقفون .. وشعراء أخيراً !

قد يكون منفذو الارهاب مباشرة قلائل ، ولكن المخططين من القـــادة ، عسكريين ومدنيين، والساكتين عن الارهاب، والمبررين له، ومفلسفي (ضرورته الثورية) من كتاب وصحفيين ومذيعين ، وفلول المحتجين النادرين.. كل هؤلاء غارقون في مسؤولية القتل والسحل والشنق والاعتقال والتشويه والتشريد ، الذي لاقاه ألوف ، ألوف حقيقية من أبناء سورية خلال أقل من عام . أظلم عام في عمر أقدم بلد على وجه الأرض .

وبالمقابل فان هناك الآلاف الذين لاقوا الارهـاب في أجسادهم وأرواحهم وعقولهم ، ومعهم بقية الشعب ، الذي طارده شبح الارهاب في كل منعطف من مدينته . فلقد انتشرت أخبار التعذيب في كل مكان ، وساعد على نشرها البعثيون أنفسهم كجزء هام من سيكلوجية الارعاب الجماعي . فلقد كان أهل المعتقلين يسمعون بأخبار من ضرب ومن عُذّب ليلة كذا ، مثل المعتقلين أنفسهم .

ومن ناحية أخرى فلقد نشر البعثيون أكبر جيش من المخبرين عرفته (تقاليد) المباحث والمخابرات السورية ، و (غطوا) بهم كل خلية في المجتمع ، ولم ينسوا بالطبع حزبهم نفسه ، الذي انعكست على أفراده سريعـــاً أدوات الارهاب ، وراحت تلتهمه برعب جديد مضاعف .

ومع ذلك فلا بد من التساؤل : ولماذا الارهاب ؟ هل هو اختيار ما ؟ أم انه قدر محتوم . وهل لمثقف ، مهما كانت عقيدته السياسية ، ان يمارس الارهاب ، ان يشارك في التنفيذ ، أو في قبول الارهاب ؟

ان بعض المتطرفين من المفسرين (الحرفيين) للماركسية يعتقدون ان ثورة البروليتاريا لا تتم إلا بالعنف ، ولا يمكن حمايتها في المرحلة التالية ، إلا بمزيد من العنف ايضاً . وبالرغم من اننا لا نريد ان ندخل في نقاش ايدلوجي مع هـــذا الطراز من الفكر الثوري الأحمر ، إلا اننا نقول ان الحكم المرتكز إلى أكثرية الشعب ، والبروليتاريا هي هذه الأكثرية ، لا يمكن ان يلجأ إلى الارهاب . فقد تكون (الشدة) لفظاً أفضل لتلك الصرامة التي يحتاجها حكم شعبي ثوري حقيقي. و (الستالينية) بالرغم من انها انحراف ماركسي في الفكر والتطبيق ، فانها

كانت حكماً ارهابياً بمعنى الكلمة . ولكنها ، لاعتمادها مع ذلك على الأكثرية من جماهير الكادحين ، فقد وجد من يدافع عن هذا الارهاب ويبرره .

فليس حتماً إذن ان تمر الثورات الاشتراكية بمرحلة الارهاب ، خاصة إذا وجّه هذا الارهاب إلى أبناء الشعب الثائر نفسه .

وحتى الأنظمة البوليسية المركزة ، والمقترنة بالنازية والفاشية ، كانت تستند هي الأخرى إلى تأييد الأكثرية . ولذلك فان الأكثرية الالمانيـــة ، أيام الحكم النازي ، لم تكن الأقلية المعادية للنظام .

اما الارهاب البعثي العفلقي ، والسعدي من قبله في العراق ، فلم يكن له حتى فضائل الارهاب النازي أو الفاشي . فاذا قارناه ، بالعنف المصاحب لتحول البروليتاريا من قاعدة المجتمع إلى قمته ، وجدنا ان العنف البعثي لا صفة اجتماعية له على الاطلاق . انه لم يكن في الأصل من أجل حماية الكادحين أو البورجوازيين . ولذلك فانه من نوع ارهاب القلة ، المسيطرة على الحكم لغاية المصلحة الفردية للحكام أنفسهم . والبعث ، في عهده الجديد ، لم يستطع ان يتجاوز بضع مئات . فلم تتح له الفرصة إذن ان يدعي تمثيل مصلحة أية مجموعة كبيرة من المجتمع أو أيـــة طبقة فيه .

فهو ارهاب قلة معزولة إذن . ومحاصرة بعداء شعبي لاهب حولها . ولذلــك يمكن ان يوصف هذا النوع من الارهاب ، بأنه ارهاب العصابة المسلحة المسيطرة على بلد ما ، لغاية نهبه والاستمتاع بخيراته .

فليس للارهاب البعثي صفة العنف المصاحب للتحول الاشتراكي . فلقد كانت طبقات العمال هي أعدى أعدائه . وليس للارهاب البعثي صفة الموافقة من قبـل الأكثرية المخدوعة التابعة لنظام نازي أو فاشي .

ومن هنـا تتضاعف مسؤولية من تبقى من المثقفين بين صفوف البعث ، في أجنحته المتصارعة ، أو في أرومته الجامدة . انهم وحـــدهم من يساعدون على استمرار قناع الحزبية على وجوه الارهابيين الأصليين . وهم وحدهم كذلك ، يحافظون على صفة الحزبية لحكم أهوج شرس لا هوية له في الفكر ، أو في التطبيـق ،

ما خلا بطولات القمع ضد الجماهير وقياداتهم .

ان الصمت والانزواء ، ومحاولة اقناع الذات بالقدرة على تصحيح الانحراف في خط الحزب وقادته الفعليين ، كل هذه النماذج من السلوك الوهمي ، إنما هي سبل الفرار من مواجهة المسؤولية ، قد تصل أحياناً إلى درجة الجبن والتواطؤ مع (الأمر الواقع) ، للمحافظة على حد أدنى من المكاسب ، من وراء بقاء الحزب في صورة الحكم على الأقل .

لقد كان الارهابيون البعثيون يحاولون منذ البدء ، ان يلوّثوا معهم أكبر عدد ممكن من الأيدي الأخرى . فكانوا يخلقون مناسبات مفتعلة لإلهاب جو المزايدات في ميدان (الثورية) . حتى لم يعد ثمة مضمون للثورية هذه ، إلا في التنافس حول عدد الضحايا ، أو حول عينات مبتكرة من نوعيات جديدة في فنون الارهاب الجماعي والفردي .

وبذلك يقتصر الانجاز الثوري على تجنيد مخبرين ، وبناء سجون ، وتدريب فرق من الجلادين، وتوزيع أوسمة الحرب على أبطال الأقبية والزنزانات وحمامات الدم .

ان الارهابي ، لكي يدفع قليلاً بهواجسه بعيداً ، يزيد في ارهابه ، ويدفع بآخرين إلى مشاركته . وهكذا تتعاظم خلية الارهابيين حتى تأكل جسد الحزب كله . والعاجزون من بعض المثقفين ، يُنحّون جانباً، ويصبحون موضوعاً للتندر والاحتقار . فالارهابي لا يحترم إلا الارهابي . انه يصف الآخر بأنه : رجل ، جدع ، عقائدي ، ثوري !.

كثيرون تحدثوا عن سيكولوجية الارهاب والارهابيين . وتناولوا نماذج كبرى في التاريخ أمثال (جنكيزخان) و (هولاكو) و(نيرون) و(روبسبير)، وحتى وصل بعضهم إلى (بيريا) وزير داخلية ستالين .

فأصحاب نظريات التحليل النفسي ، وجدوا في هؤلاء الطواغيت مرضى منحرفين . بعضهم يشكو عاهة نقص نفسي في طفولته ، كفقدان حنان الأم ، أو الغيرة من الاخوة ، أو عقدة (أوديب) . وبعضهم قد يشكو من بنية جسدية

ضعيفة ، أو من عزلة اجتماعية ما . فان مركبات النقص والضعف والتشويه والانحطاط الاجتماعي ، قد تنقلب في حال التملك من سلطة ما ، إلى طغيان وحشي ، يسيطر على صاحبه أولاً ، ويسوقه عبر لذات جهنمية منحرفة،من ممارسة الطغيان والارهاب ، أعقد فأعقد . حتى تمحى ارادته أمـــام ادمانه الشيطاني ، المتعاظم القوة والقسوة معاً .

وان ضحايا أقبية وسجون البعث خلال العام الفائت لا شك يذكرون كيف ان المدني الاحتياطي ، يسعى دائماً إلى ضرب كبار الضباط وشتمهم. وكيف ان نكرات من بعض المثقفين الصغار ، كانوا يتلذون بتعذيب محامين وأساتذة معروفين .

وكيف ان طلاباً سابقين اندفعوا إلى اهانة أساتذتهم..وان أقزاماً ومعروقين ومشوهين جسدياً ، كانوا يتصدون لضرب وتشويه الضباط في أجسامهم المنتصبة السليمة ، وفي بعض أعضائهم الصحيحة .

وبين الجلادين ، نكرات اجتماعياً وثقافياً ، وفاشلون في الحب والجنس ، ومغمورون حتى في ضربهم ، أصبحوا حكاماً مطلقين في الأقبية والزنزانات المظلمة.

حتى ان العهد الارهابي بطبيعته يجذب المنحرفين والمشوهين قبل غيرهم . ثم يقفز هؤلاء إلى المقدمة ، ويسيطرون على الآلة التي صنعتهم ، ويوجهونها حتى ضد أسيادها الأصليين .

ولكن المصيبة تتضاعف ، عندما يكون هؤلاء المشوهون مثقفين ايضاً . فان هذه الثقافة ، سوف تخدمهم في إخفاء عقدهم ومركباتهم الأصليـــة ، تحت برقع الأهداف الثورية ، والأفكار الايديولوجية .

فيعمد الارهابي المثقف ، المنحرف نفسياً ، إلى إلزام منظمته بكل مأثرة طغيانية جديدة. وهو محتاج دائماً ان يعلن أفعاله باسم الجماعة أو المنظمة.وكذلك فانه محتاج إلى إلصاق أكثر شعارات ثورته ضجة وافتعالاً ، بمخازيه الفرديـة . ومن ناحية أخرى ، فان المنظمة الارهابية ، تتغذى من مجموع منجزات أعضائها في عالم الارهاب والارعاب الجماعي .

وفي هذا البحران ، من تبادل المنافع بين المنظمة وأعضائها ، تزداد مواقف المثقفين المحتجين صمتاً وحراجة . انهم معرضون للدمغ بالخيانة والتواطؤ مع الأعداء ، إذا ما حاولوا ان يمارسوا احتجاجهم الصامت من خلال أي تحقيق عملي.

فالصمت غير مجدٍ وحده . وكذلك الانسحاب في نوع من الحرد المتعالي .

ولا شيء يرد للمثقف الثوري حريته ، إلا إعلان نضاله ضد ارهاب زملائه السابقين . ان مجرد الانفصال الصامت ، الذي لا ينقلب إلى نضال سافر فاضح ، لا يؤلف (موقفاً). لأن هذا السلوك سوف يساعد المنظمة الارهابية على استمرار متاجرتها بعضوية هذا المثقف . وسوف تحيط صمته بهالة من الغموض ، تفسرها حسب مصالحها هي .

لا شيء يعري الارهابيين المنحرفين إلا التخلي عنهم نهائياً، والدخول معهم في معركة افتضاح وتعرية كاملة . ولا قيمة هنا للصلات الشخصية القديمة. انها.. هي الأخرى ، تمثل العقبات الأعمق التي تمنع المثقف من استرداد حريته .

فعندما تصبح مسألة حياة الشعب وكرامته وأهدافه الحقيقية ، هي موضوع المساومة القذرة ، والمفاضلة بينها وبين مصلحة الحزب ، فان المثقف مدعو ان يتخلى عن ماضيه مع المنظمة المنحرفة ، وعن ثروة من العلاقات الانسانية مع بعض أفرادها ، من أجل ان يعيد مستقبله إلى مستقبل الغالبية من أبناء شعبه ، وان يجعله جزءاً منه ، ويقبل المراهنة الكبرى ، من أجل تحقق الأهداف الكبرى .. حتى عندما يزول الارهاب والارهابيون ، الكبار المرمون والصغار المستجدّون !

القسم الأول

نشأة حزب البعث وبنيته الذاتية

الفصل الأول

اليسار العربي وظروف نشأة البعث

لقد كان حزب البعث العربي الاشتراكي ، هو الحزب الأول الذي ورث مختلف المفاهيم الطوبائية والأخلاقية لفكرة الوحدة العربية. فمنذ ان بدأت طلائعه الأولى بالتجمع في سنوات الحرب الأخيرة ، كانت شعارات الاستقلال والحرية مقترنة ، في وعي الجماهير ، بالوحدة . ولكن المحرك الأساسي للنضال بقي هو شعار التحرر من الاستعمار بالدرجة الأولى .

ولذلك فان دراسة البيئة الفكرية والظروف النضاليـــة التي أحاطت بنشأة الحزب في سورية ، منذ السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية ، وما تلتها من سنوات قليلة، قبل وقوع نكبة فلسطين، تساعدنا على اكتشاف مختلف الخصائص، التي ستطبع تكوّن الحزب ، وتعطيه ملامحه المميزة ، وتتطور معه حسب مختلف فترات نضوجه ، وتعثّره فيما بعد .

كانت سورية إبان فترة الاستعمار الفرنسي لا تكف عن ابتكار مختلف وسائل المقاومة الشعبية ضد المحتل الأجنبي . ولكن هذه المقاومة الوطنية ، كانت تصدر عن رفض غريزي جماعي ، للمحتل ووسائل إذلاله وإخضاعه للقوى الشعبية . فهي في حدودها الشعبية كانت عبارة عن نوع من رد الفعـــل العضوي ، ضد التحدي المادي المباشر ، الذي كان يمارسه المحتل ضد الأمن والسلامة والمصالح الأوليـة

للكتل الاجتماعية . وعندما تتصاعد هذه المقاومــة إلى مشارف الوعي ، تصبح عبارة عن دعوة للحرية والاستقلال . ولكننا إذا حللنا مفهوم هذه الحرية ، وجدنا ان المقالات الصحفية والخطب الجماهيرية والدراسات القليـــلة في بعض المجلات ، تتصور هذه الحرية في أحسن مراتبها ، على نموذج الحريات القومية ، التي طرحتها الثورة الفرنسية منذ قرنين ونيف .

غير ان النضال الوطني ضد الاستعمار ، هو غير النضال الشعبي الطبقي ضـد نظام الحكم والاستغلال الاجتماعي، الذي ساد أوروبا منذ عصر الثورة الفرنسية .

ونحن إذا ما عدنا القهقرى ابتداء من المراحل النامية للثورة العربيـــة ، في ظروفنا الحاضرة ، لنفهم ابعاد ذلك النضال الماضي وتطوراته الخاصة ، فاننـــا نكتشف انه كلما اتضحت ابعاد الثورية العربية ، وتفجرت امكانياتها الشعبية ، كلما تهاوت بالمقابل تجارب حزبية ، وانهارت إثرها قيادات ، وخلفت وراءهـا تساؤلات تتحدى التفكير الايدلوجي . وذلك لأن الثورية العربية ، بالرغم من الخطوط الكثيرة التي تجعلها تشابه نماذج عديدة من الثورات الشعبية التقدمية في تاريخ الصراع الثوري ، إلا انها ما برحت تطرح مشكلات خاصة بها ، عند كل منعطف من منعطفاتها الكثيرة .

ان العمل الثوري في أي مجتمع كان يرتبط دائماً بحزب أو أحزاب ، لها طابع معين اجتماعي وسياسي . ومنذ القرن التاسع عشر ، قرن الثورات القوميـــة والاجتماعية ، والشعوب تتحرك عبر قفزات ثورية ، تحققها لها طلائع حزبية .

وبصرف النظر عن ان هذه الأحزاب قد تمثل مصالح طبقية أو عنصرية ، فإن المجتمع المتحضر كان يعبر عن اتجاهاته السياسية من خلال فئات منظمة حول منهج معين ، يطرح حلولاً واضحة للمشكلات السياسية والاقتصادية ، حسب طبيعة التركيب الاجتماعي لهذه الفئات .

ومنذ الثورة الفرنسية والمجتمعات الغربية منقسمة في داخلها إلى خطين عريضين، خط اليسار وخط اليمين .

وتعبّر عن لونيات كل خط ودرجاته المختلفة أحزاب متعددة ، كما توجد بين

الخطين ايضاً أحزاب أخرى تدعى بأحزاب الوسط .

ولعل هذا التحديد المكاني (اليمين والوسط واليسار) قد عم في اللغة السياسية، على اثر توزع الفئات التي مثلت الشعب الفرنسي في أول مجلس نيابي ، إبان عصر لويس السادس عشر ، حسب الأمكنة والجهات التي جلست فيها .

وبينما تعددت الأحزاب مع تقدم الحياة السياسية في أزمانها الثورية المختلفة ، في فرنسا وايطاليا والمانيا خاصة ، كانت الأحزاب في بريطانيا تجنح إلى تحديد تلقائي ، يعبّر عن طبيعة التطور في المجتمع الانكليزي ، وهو التطور السلمي ، الخالي من العنف والقفزات المفاجئة . أي على العكس من المجتمعات اللاتينية في فرنسا وايطاليا واسبانيا .

وقبل ان تبرز الاشتراكية كهدف سياسي اجتماعي معاً ، كان الصراع بين اليسار واليمين في الغرب الأوروبي مقتصراً على أهداف سياسية . ولكن صفة اليسار واليمين في الغرب ، لم تأخذ كامل مضمونها ، إلا عندما تألفت أحزاب اشتراكية جذرية، بينما تحولت أحزاب اليسار القديم نحو الوسط أو اليمين المعتدل.

وبذلك تحدد الصراع السياسي بين هذين الخطين ، وتأرجحت المعارك بين أن ينتصر ذلك الخط ، أو الخط المعارض . وان كان سير التاريخ ، منذ القرن الماضي ، قد أفسح الطريق نحو تأصيل النزعات الاشتراكية ، على حساب القوى اليمينية .

غير ان مشكلة المجتمعات المتخلفة حضارياً وصناعياً ، والتي راحت تظهر على مسرح العصر ، منذ وقت قريب ، هي انها لم تستطع بعد ان تميز في داخلها ، بين قوى اليسار وقوى اليمين ، بحيث افتقرت دائماً إلى حياة حزبية حقيقيـــة ، تستقطب نشاطها السياسي .

والمجتمعات العربية ، هي من هذه الفئة ، التي كان تقدمها السياسي مرتبطاً دائماً بصفة عدم التمايز الداخلي بين قواها . أي ان المجتمع بصورته المتجانسة العامة، كان يقذف بإمكانياته العفوية في صراع سياسي ، أشبه بصراع حرب شعب ضد شعب آخر ، غريب معتد ، كان يتمثل في الاستعمار والاحتلال الأجنبي .

فالمجتمع ، باعتباره وحدة عضوية متجانسة ، كان يخوض معركة الدفاع عن بقائه العضوي نفسه ، بفعل نضال غريزي مباشر .

وإذا تذكرنا القوى التي كانت تخوض معارك الاستقلال في بلادنا، لوجدنا أن الحي والعشيرة والطائفة ، هي الوحدات الاجتماعية التي تأتلف وتتجمع لمناضلة الاحتلال .

وإذا كانت بعض الاحزاب قد ظهرت في هذه المرحلة من نضال أمتنا ، فإنها كانت عبارة عن تسميات (عصرية) لتجمعات زعماء هذه الوحدات الابتدائية نفسها : الحي ، العشيرة ، الطائفة الخ ...

والنضال ضد الاستعمار يفرض أوضح اشكال الصراع ، لأنه يميز تمييزاً جلياً بين حدود القوتين المتصارعتين : القوة الوطنية ، والقوة الاجنبية . والقوة الوطنية هذه لا تحتاج إلى أي مصدر من مصادر الوعي الايدلوجي ، او التحريض بالافكار العلمية ، والتحليلات النظرية والمذهبية ، بقدر ما تحتاج إلى نماذج الاثارة الجماعية وأشكال التحدي الغريزي الاولى .

فوجود الاستعمار برجاله وأجهزته ، ومؤسساته الاستثمارية ، وما يثيره يومياً من احتكاكات وتحديات لمشاعر المواطنين وعقائدهم ومصالحهم المادية ، ومثلهم الروحية ، كل ذلك يكفي ليفجر ضده مختلف غرائز الدفاع عن النفس . وبذلك تصبح الأمة عائلة واحدة او عشيرة او حزباً واحداً ، متجمعاً كله ضد سلطان المحتل الاجنبي .

حتى القوى الاقطاعية والبورجوازية الناشئة ، فانها غالباً ما تضطر لقيادة العمل الوطني ، كواجب من واجبات الزعامة التقليدية على القرى والعشائر والأحياء والطوائف .

ولكن هذه الزعامات التقليدية للمجتمع العربي العشائري القديم ، هي نفسها التي تكسب من هذا النضال الوطني بالتدريج .

فهي من جهة تؤكد زعامتها ، عندما تلبي نداء الجماهير ، فتتصدر قيادتها . ومن جهة أخرى ، فانها تدعم مركزها عند المحتل الأجنبي ، مما يساعدها فيما بعد

على مساومته وانتزاع مصالح جديدة لها منه . وعندما يصبح وجود المستعمر كمحتل أجنبي مستحيلاً ، وتفرض ظروف النضال الوطني جلاءه ، تجد هذه الزعامات التقليدية نفسها الوريثة الطبيعية الوحيدة لسلطات الحكم الاستعماري المنهار .

وبعد ان تنقضي نشوة الجلاء ، وتنطلق امكانيات الشعب نحو بناء ذاته ، واللحاق بأسباب الحياة العصرية ، فانه لا يلبث حتى يتوقف وهو يلهث متسائلاً : ترى لمن كان هذا الجلاء ؟ !

ومن الذي أفاد من مؤسسات الاعمار والانشاء ، وتنشيط الصناعة والتجارة ؟

وعند ذلك لا بد ان يحدث التمايز في صميم الوجود الشعبي ، بين من يملك ، وبين من لا يملك ، بين من احتكر منافع الجلاء ، وبين الغالبية العظمى من الشعب ، التي بقيت تقتات من المثل العليا في الوطنية ، اكثر مما تقتات من العيش والملح .

ولكن المشكلة ان مرحلة الصراع ضد المستعمر لم تنقض كلها ، لتفتح الباب عريضاً أمام النضال الاجتماعي داخل بنية الأمة ذاتها .

ومن هنا يأتي كل هذا الالتباس ، وهذه الخصوصية في طبيعة الثورية لدى الشعوب النامية ، او المستقلة حديثاً .

فهي لا بد لها ان تتابع كشف الساحات الجديدة والخفية لمشاريع الاستعمار الذي جلا بجيوشه عن أرض الوطن ، ولكن لم يجل بمطامعه وخططه الاستثمارية .

وهي لا بد لها في الوقت نفسه من ان تفضح المصالح الطبقية الجديدة التي تحولت اليها بطولات الزعامات العشائرية والطائفية القديمة .

أي ان التمايز في مرحلة الاستقلال سوف يشق طريقه الى قلب المجتمع القديم .

وبالتالي فإن التمايز الطبقي هو الشرط الاجتماعي لظهور أحزاب تعبر عن يسار شعبي ، ويمين بورجوازي .

وفي الآن نفسه ، تشعر ثورية المجتمع المستقل حديثاً ، انها لا بد من ان تجمع في نضال واحد بين ثلاثة مستويات :

١ ـ المستوى الوطني ، وهو استمرار للنضال الوطني السابق ، في عهد الاحتلال الأجنبي الاستعماري المباشر ، الذي يتطلب وحدة مختلف الفئات الاجتماعية ، دون أي تمييز على أساس الطبقة او العشيرة ، او الطائفة ، او تمييز المدينة عن الريف. وذلك لأن الاستعمار ما يزال يهول بشبح الاحتلال القديم ، عن طريق مختلف التهديدات التي يضطر اليها كلما فشلت مشاريع تطويره لامكانيات التطور التي فجرها الاستقلال .

ومن ناحية ثانية ، فإن هذا النضال الوطني مطلوب كذلك ، لمجابهة المشكلات المحلية البحتة ، الناشئة عن ضرورات التطوير الاقتصادي والانمائي في مختلف اتجاهات الحياة التي تتطلبها حياة العصر .

والنضال الوطني كذلك هو السياج العضوي الذي يستطيع ان يجمع مختلف مقاومات الأمة ، عندما تنزل بها ملمة جماعية ، او نكسة تهددها في جذورها المادية ، كما يحدث من وقت الى آخر بالنسبة للشعوب الناهضة ، التي لا يرسم مستقبلها المتفجر خطاً منتظماً .

ان النضال الوطني أخيراً هو الحارس الغريزي ضد أي خطر داخلي مفاجىء ، يأخذ شكل الافناء الخارجي .

٢ ـ المستوى القومي : إن النضال القومي ، ما هو إلا الصورة الأعمق والأشمل للنضال الوطني . فهذا الأخير هو تجمع عنصري لفئات متقاربة في الأرض الصغيرة المحدودة ، بينما يتخذ النضال القومي صورة الاستيعاب المعنوي ، لكافة نوازع الأمة في الحاضر ، كما يستغرقها في مختلف ابعادها التاريخية من حاضر ومستقبل .

ان النضال القومي يتناول شخصية الأمة بكاملها ، ليعيد صلتها بمصيرها الانساني . أي انه هو الذي يوفر البيئة المعنوية ، المساعدة على حرية التكوين الحضاري الذي يميز أمة عن أمة أخرى .

فاذا كان النضال الوطني يوفر للشعب الصغير شروط استقلاله في ارادته ، فان النضال القومي هو الذي يعيد الشعب الى أرومته الأصلية في الأمة ، ويعيد للأمة

أرومتها في تاريخ الحضارة الانسانية حولها .

وما ان يبلغ النضال الوطني غايته ، في التغلب على عقباته المباشرة ، حتى يجد نفسه بحاجة إلى استنبات قواه في تربة أوسع من رقعة الوطن المحدودة المكان .

وبذلك وجدت الاقطار العربية،بعد مرحلة الاستقلال الوطني،انها مدعوة إلى تجاوز حدود هذه الأقطار ، والانفتاح نحو تحمل عبء الأمة بكاملها ، عبء من أجل إبداع شخصية قومية ، تصعد إلى مستوى خلق حضارة متجانسة مع شروط العصر الانساني ، على طريقتها التاريخية الخاصة .

ولنا في تجربة مصر والجزائر أفضل مثال حي على هذا الشعور الحتمي بضرورة الانفتاح على البيئة القومية من حولهما . فبالرغم من شدة خصوصية الشروط الوطنية التي يتميز بها كل من هذين القطرين ، من حيث قدرة كل منهما على إنشاء دولة مكتفية بذاتها ، ضمن حدودها الاقليمية ، فان مصر الثورة شعرت ان كل نجاح ايجابي في إعمار وطنها الداخلي ، مرتبط أوثق ارتباط بالبيئة القومية ، التي لا بد لها ان تنخرط في معركة أهدافها الكبرى ، من أجل الحفاظ على سلامة الانتصارات الداخلية ذاتها .

وكذلك فان من أكبر أهداف ايدلوجية الثورة الجزائرية اليوم ، الالتقاء مع التراث العربي والاسلامي ، والمساهمة إيجابياً في نصرة الخط اليساري الاشتراكي والتحرري لبقية الأقطار العربية ، التي ما زالت تتأرجح بين مرحلة الاستقلال الوطني عهد الاستعمار ، وبين مرحلة الانتساب إلى النضال القومي والاجتماعي المتمثل في الصياغة الاشتراكية ، لدولة الوحدة العربية المنشودة ، وحضارتها الجديدة .

٣ ــ المستوى الاجتماعي : وهو النضال في خط السير نحو الأعمق ، أي في اتجاه القواعد الشعبية ، التي هي مؤونة الفعالية الشاملة ، من أجل صنع المضمون التاريخي الحقيقي لوجود الأمة ضمن شروط العصر ، عصر الانجازات الاشتراكية بيد الغالبيات العظمى من القوى القومية لكل أمة .

إن النضال الاجتماعي يعني خلق التمايز في صميم التجانس الوطني والوحدة القومية .

فالنضال الوطني الذي يستهدف وحدة الشعب في فئاته المختلفة ، وفي تكويناته العفوية والعضوية (العشيرة ، الحي ، الطائفة ، المدينة والريف).

والنضال القومي الذي يستهدف وحدة الأمة في إبراز شخصيتها الانسانية ، وفي استمرارها عبر التاريخ ، كحاضر ومستقبل مرتبطين بعصر النشوء والتكون عبر تجارب الماضي وثقافته . هذان النوعان من النضال ، المتكاملان، والمتوافقان معاً ، يؤلفان الاطار الطبيعي للتحول في مضمون الفعالية للجماعات البشرية وأصله.

فالوحدة في الانتماء إلى الوطن، في مستوى النضال الوطني، والوحدة في الانتماء إلى الشخصية التاريخية في مستوى النضال القومي ، هما اللتان تفرضان تمايزاً بين الطبقة التي تملك ، والتي تستثمر ما تملك ، والتي لا تنتج ، وبين الطبقة التي لا تملك، والتي هي موضوع الاستثمار ، والتي تنتج لوحدها .

وبذلك تصبح الوحدة ذات المضمون الاشتراكي ، لا تعني تجميعاً ، بل تمييزاً ، بين القوى العاملة في القواعد الشعبية وبين رؤوس الهرم المستثمرة للانتاج والمنتجين .

* * *

ان ثورية الأمة العربية ، تحتاج إلى نوع من الجمع المتوازن بين هذه المستويات الثلاثة في النضال : المستوى الوطني ، والمستوى القومي ، والمستوى الاجتماعي ، في عمل نضالي واحد . ونتيجة لذلك ، فان كثيراً من التناقضات ، تعترض هذه الثورية ، خاصة عندما ينمو مستوى نضالي معين، على حساب المستويين الآخرين .

فاذا أتينا الآن إلى استعراض الواقع الحزبي المعبّر عن هذه المستويات، وجدنا ان المرحلة الحاضرة من نشاط الثورية ، تتطلب بروز المضمون الاجتماعي اكثر ، بينما ما تزال هذه الثورية متعلقة بإطاري النضال الوطني تارة ، والنضال القومي تارة أخرى .

ولكن هذا الكلام ، لا يعني أن على الثورية ان تتجاوز هذين الإطارين، بل على العكس إن الذي يؤكد النضال ، هو قدرته على تحويل أهدافه المثالية في الحرية والوحدة إلى فعالية اجتماعية ، تتمثل في التحويل الاشتراكي .

ولقد كانت تجربة الأحزاب ، وخاصة حزب البعث ، أفضل مثال على سوء فهم الثورية العربية في مستوياتها النضالية الثلاثة .

فالأحزاب التي استجابت للنضال الوطني وحده ، كان مصدرها العنصرية اليمينية المتطرفة، كالحزب السوري القومي . والنزاعات الفرعونية في مصر، التي تناظر النزعة الفينيقية لدى السوريين القوميين ، وكحزب الوفد في مصر، والحزب الوطني والكتل المختلفة التي تطلق على نفسها الصفة الوطنية والاستقلالية او الدستورية ، التي نشأت في سورية ولبنان والعراق في الثلاثينيات، ثم استمر بعضها إلى وقت قريب . واتخذت صفة اليمين البورجوازي ، عندما تطورت الثورية العربية ، إلى مستوى الطرح الاجتماعي والاشتراكي للعمل النضالي .

وأما أحزاب اليسار ، فانها لم تستطع في الواقع ان تواجه مسؤولية الثورية الاجتماعية ، بالرغم من هذه اليسارية .

فلقد بقيت الأحزاب القومية والاشتراكية والشيوعية ، تستمد قواها من المصادر نفسها التي يعتمد عليها نضال وطني تارة ، ونضال قومي تارة أخرى ، ولكنها كلها ذات خط يميني مشترك .

فان تجربة الحزب الشيوعي – وهو الحزب المفروض ان يقود الثورة الاشتراكية اولاً – الذي يمثل نصف اليسار في المشرق العربي ، لم تطرح مرة معركة تجاوزات وطنية أو قومية ، نحو صراع طبقي ، وثورية اجتماعية ، كما هي منطلقات الفلسفة الماركسية التي يتبناها هذا الحزب . والغريب ان هذا الحزب لم ينمُ وينشأ إلا على حساب قوى اليمين نفسها .

فكان هو كذلك ، تغطية لمثقفين ، يرجعون الى جذور طائفية ، أو أقليات شعوبية . ولذلك ما ان طرحت أشمل المعارك القومية في الوحدة ، حتى انقلب إلى ما وراء المستوى الوطني نفسه في النضال .

فأجهض الوحدة من ثورة العراق منذ عام (١٩٥٨) ، وأيّد الانفصال في سورية ودافع عنه . ووقف شبه حيادي من معركة البعث ضد الشعب كله إبان الانفصال الثاني (العقائدي) .

وهكذا ، فقد بقيت مشكلات الثورة الوطنية والثورة القومية، وحتى الثورة الاجتماعية ، بعيدة عن ان تثير أية استجابة لدى الشيوعيين العرب في منطقة المشرق على الأقل . بل على العكس ، فان أي اتجاه فعال للشعب ، حسب مثل هذه المستويات النضالية كلها أو بعضها ، كان يثير لدى الشيوعيين العرب تحدياً سلبياً لهم، حتى ظلوا غرباء تماماً عن مختلف فصول الثورة العربية في السنوات العشر الأخيرة ، ان لم يلعبوا داخلها أحياناً دور المعرقل والمعيق . فلم تستطع تحليلاتهم النظرية مرة ان تتفهم نوازع الأمة العربية ، ولم تحاول مطلقاً الالتقاء مع أبسط أهدافها بداهة . حتى سقط النشاط الشيوعي (التقدمي) أسير أضيق الفعاليات الانعزالية في المجتمع . واستثمرته الأقليات الدينية والشعوبية كذلك ، كواجهة عقائدية ، قبل ان تستثمر البعث نفسه .

أما حزب البعث ، فقد كانت نشأته خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، هي نشأة تجمع وطني ، قومي ، لا يختلف عن (الكتلة الوطنية) التي تزعمت الحركات السياسية في سورية أثناء الاستعمار الفرنسي وخلال سني الجلاء ، وعن (حزب الشعب) الذي تألف فيما بعد كتجديد للمصالح البورجوازية التي عبّر عنها من قبل حزب الكتلة الوطنية ، إلا من حيث التوجه إلى الطبقة المثقفة ، بدلاً من زعماء الأحياء والطوائف والوجهاء التقليديين الذين اعتمدت عليهم أحزاب اليمين .

ولكن هذه الطبقة المثقفة بالذات، التي شكلت طلائع الحزب الأولى، لم تكن ثقافتها على صلة بالأفكار والأيدلوجيات اليسارية . بل على العكس ، فقد حمّلت بزاد من الأفكار الليبرالية والرومانسية الفردية التي كانت تسود فرنسا فيما بين الحربين . حتى انها نشأت ضمن الحزب على كراهية دفينة ضد الثقافة اليسارية ، بنوع من الاحتقار الصوفي، والاستعلاء على كل ما يخص واقع المجتمع من ضروب الأزمات والتناقضات والنوازع الطبقية .

والحق أن الفرق بين أحزاب اليمين والبعث ، من حيث الوعي اليساري ، هو عامية الأول ، وثقافة الثاني ، التي هي نفس ثقافة اليمين فيما لو وعى معاني

مواقفه السياسية . فالخط واحد في جوهره . هو خط خارج الجماهير ذات المصلحة في التحويل الاشتراكي ، وفي معزل عن مشاكلها الحقيقية : خط اليمين في الثقافة الرومانسية للبعث ، وخط اليمين في المصالح الاقطاعية والرأسمالية الناشئة ، للزعماء التقليديين .

بل لقد بقيت أحزاب اليمين أكثر تعبيراً عن جزء من واقع المجتمع . فهي على الأقل تمثل مصالح طبقة موجودة فعلاً . وهي من جهة أخرى كانت أكثر معرفة بوسائل السيطرة على الجماهير واستخدامها وتوجيهها . ولذلك احتكرت الحكم إلى جانب المزرعة والمعمل والمتجر .

ولأن الحزب لم يستطع ان يكشف طبقته الحقيقية ، فقد تحول هو نفسه إلى طبقة منخلعة عن التركيب الطبيعي للمجتمع ، حتى وجد نفسه أخيراً غريباً عن مختلف مصالح المجتمع ، يمينها ويسارها . فلم يبق له إلى ان يعبد نفسه بنوع من الغرور المقلوب الذي يخفي عزلة مخيفة عن القوى الشعبية حوله . وهذا هو سر التحول الفاشي الذي سيطر على مصير الحزب ، عندما وصل إلى الحكم في كل من سورية والعراق .

والواقع أن هذه العزلة ، قد بدأت منذ نشأة الحزب الأولى . وذلك لأن الحزب قد انطلق من بعض الفئات المثقفة التي كانت هي نفسها تحس بالغربة حتى بين المثقفين الآخرين ، فكيف يكون حالها إذن بالنسبة للجماهير التي ظلت تجهل هذا الحزب ، ولا تحس بوجوده خلال سنوات عديدة منذ دخل المعترك السياسي؟ فقد بقيت الفئة المثقفة الأولى التي ألفت الحزب بعيــــدة عن التفاعل مع القوى الشعبية ، ضائعة بينها وبين البورجوازيين الحاكمين ، الذين لم يشعروا بأية فعالية لهذه الفئة ، هــــذا ان لم يحتقروها ويسخروا من أهدافها (اللاواقعية) . حتى اعتبروها فئة خيالية واهمة . وهذا ما كانوا يعنون به من وصف البعثيين بالمثالية .

وكان يمكن لعزلة هذه الفئة ان تستمر ، وان تشلها شللاً كاملاً ، وتدفع بها تدريجياً إلى هامش الحياة السياسية ، لولا ان انضم إليها تجمع إقليمي يطلق على نفسه اسم (الحزب العربي الاشتراكي) ، الحموي النشأة والانتشار ، والذي يتزعمه (أكرم

الحوراني) .

فلقد كان لهذا التجمع المحلي هدف سلبي آني ، هو محاربة الاقطاعيين في حماه ، والوصول إلى الحكم بمختلف الوسائل .

فكان ان أكسب الحوراني حزب البعث وسيلتين للعمل هما : تحريض بعض مناطق الفلاحين ، واستخدام العسكريين في الجيش للتأثير على السياسة .

والواقع أن انضمام تجمع الحوراني إلى تجمع عفلق ، يعتبر نقطة فاصلة في تاريخ نشأة حزب البعث العربي . فلقد كان لهذا الانضمام جملة آثار أساسية طبعت فكر الحزب وتكونه الداخلي وعمله السياسي . وهذا ما سندرسه في حينه .

غير ان الحزب لم يأخذ مكان الصدارة من قيادة العمل القومي ، إلا عندما برز زعيم ، من الجهة الأخرى من المشرق العربي ، وراح يضرب ضربات متواصلة الاستعمار من جهة ، والرجعية والبورجوازية والاقطاعية في الداخل ، من جهة ثانية ، ويعلن هكذا بدء عصر الثورة العربية الشاملة .

فإذا بالأهداف النظرية التي رددها الحزب طويلاً دون ان يجد وسيلة واحدة لتطبيقها ، تتحول خلال سنوات قليلة إلى حقائق كبرى ، يضج بها الواقع القومي للأمة كلها .

فانضوى الحزب تحت مظلة عبد الناصر ، وتوجهت قواعده ، متجاوزة قيادة حزبها ، التي لم تحس يوماً بولاء كامل لها ، توجهت نحو قيادة عبد الناصر . وأصبح الحزب في عين الجماهير ، هو حزب عبد الناصر . وعلى هذا الأساس ، تحطمت عزلة البعث لأول مرة ، وانفتح نحو الشعب . وبالمقابل فقد أتته الجماهير من كل حدب وصوب ، دون ان تستطيع أطره التنظيمية استيعابها .

ولكن الطبقة القيادية ، من بعض العناصر المثقفة والرجعية ، قد فرضت على الحزب موقف المتأثر السلبي بهذه الجماهير ، فمنعت تفاعله الحقيقي والكامل بين كل من قيادة عبد الناصر ، وبين القواعد الشعبية . حتى تجمد الحزب كطبقة متوسطة صماء بين القائد وقواعده .

فالسياسيون من قادة البعث ، يتحدثون باسم عبد الناصر – قبل الوحدة –

ويهددون أعداءهم بقواه وانتصاراته ، كأنها قوى لهم وانتصاراتهم هم .

والمثقفون من قادته ، يمارسون تحويلاً أنانياً لأفكارهم ، فيدعون انهم أعطوا جمال عبد الناصر ، أهدافهم ورؤيتهم للواقع العربي ، وكشوفهم السحرية في هذا الميدان .

والمتزعمون من أفراده في القرى والأحياء والمدارس ، بل في العشائر والطوائف، يحاولون ان يرثوا وصاية الزعماء التقليديين على هذه البنيات الاجتماعية، باسم عبد الناصر وانتصاراته المتتابعة .

فلم يفعل القادة البعثيون شيئاً إذن إلا ان يركبوا الموجة القومية العارمة ، التي فجرتها بطولات عبد الناصر وتحدياته لقوى الاستعمار ، فتجعل منهم زعماء للوحدة الاشتراكية ، ما داموا هم ممثلي عبد الناصر في سورية .

ولكن عندما فضحت انتهازيتهم ورجعيتهم معارك الوحدة والانفصال فيمابعد، لم يبق لهؤلاء القادة،وقد أصبحوا على طرفي نقيض مع قائد الثورة والجماهير الثائرة، من ركيزة إلا في العودة إلى الاحتماء وراء الأطر الاكثر رجعية وتخلفاً . فراحوا يثيرون النعرات الاقليمية ، ثم الطائفية . وركزوا انفصالهم على دعاوى نظرية متهافتة . بينما كانت مواقعهم تتحد مباشرة مع مواقع كل القوى اليمينية الأخرى ، التي كانوا يحاربونها فيما مضى . حتى تحول الحزب أخيراً إلى إحدى الشيع الطائفية المغلقة . ولم تعد تنفعه أية ادعاءات في الوحدة والتقدمية .

فمن رفع اكثر الشعارات في الثورية القومية والثورية الاجتماعية،إلى الارتداد نحو أضيق القوى الرجعية والمحلية، هو الذي يرسم (مسيرة) هذا الحزب التاريخية .

فإذا باشتراكية أكرم الحوراني تتحول إلى دعم الرأسمالية الوطنية التي برهنت على عدائها في كل الظروف لأبسط أهداف الأمة في الوحدة والتحول الاشتراكي.

وإذا بوحدوية ميشيل عفلق ، تصير إلى أضيق الحواجز الطائفية داخل القطر الواحد .

وهذا ما يُعبر عنه سقوط نصف اليسار حتى دون مستوى النضال الوطني ، وليس النضال القومي والاشتراكي، الذي لم يلمسه في أي لحظة من لحظات فعاليته

الثورية ، إلا ليحطم نموه فيا بعد .

لقد تحول حزب الوحدة ، إلى حصن للأقليات ، ينعش كياناتها الانفصالية ، ويفلسف عزلتها ، وينقلها إلى خط هجومي ضد غالبية الجماهير .

وأفسح الحزب لهذه الاقليات السيطرة على قيادة الجيش . فانقلب الجيش من مهمة الدفاع عن الأمة ، في ثوراتها الوحدوية والاشتراكية ، إلى جيش للدفاع عن فئة معزولة ، معادية للشعب ، مغتصبة لمكسباته الثورية .

وهكذا ارتد هذا الجزء الخطير من اليسار ، إلى مـــا وراء صفوف اليمين نفسه ، لكي ينازعه على الاستفادة من نفس قواه ، وعلى انتزاع مواقعه في السلطة السياسية والاقتصادية معاً .

تلك هي خلاصة المأساة في نشأة الحزب ونموه ومسيرته نحو الزوال مـن بين القوى الثورية العاملة في عالمنا العربي المتفجر .

ولكن هـــذه الخلاصة لا تغني إن لم نواجه التفاصيل ، وندخل إلى صميم المشكلات التي عاناها هذا الحزب داخلياً وخارجياً ، في سبيل ان نوضح تجربته ، التي مهما يمكن ان يقال عن نتائجها ، فان لهـا دوراً أساسياً في السنوات العشر الأخيرة من نضال الأمة العربية ، عبر انتصاراتها وانتكاساتها معاً .

الفصل الثاني

البنية الاجتماعية لحزب البعث

ليس من شك في أن سلسلة المواقف السياسية التي يتخذها حزب من الاحزاب، انما هي مرتبطة بالقوى الاجتماعية التي تؤلف بنيته الانسانية قبل كل شيء. وان لهذه القوى من التأثير والفعالية على سياسة الحزب، ما لا يمكن ان تفعله الاهداف النظرية، والفلسفة الايدلوجية التي تسجل في دستور الحزب، او تشرح في النشرات والكتب والمحاضرات.

ولذلك كان من أهم الأمور ان نبدأ أولاً بدراسة العناصر البشرية والقوى الاجتماعية التي ألفت هيكل الحزب، وطبعت فكر الحزب باعتقاداتها، وأعطته أساليب معينة للعمل السياسي، والفعالية الثورية.

لقد ولد حزب البعث العربي في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية في سورية، وعلى وجه التحديد في دمشق، وضمن بيئة معينة هي بيئة أساتذة الثانوي وطلابه. وخاصة ثانوية (التجهيز الأولى) كما كانت تدعى في الأمس، او ثانوية جودة الهاشمي كما تسمّى اليوم. ولكنه لم يأخذ صفة الحزب إلا بين فترة الجلاء عن سورية عام (١٩٤٦) وعهد نكبة فلسطين (١٩٤٨ - ١٩٤٩).

ومع ذلك، فان أول من بشّر بأفكار البعث، ودعا إلى تأليف حزب قومي

لتحقيق هـذه الأفكار ، كان استاذاً آخر ، غير ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار . انه (زكي الأرسوزي) وتلامذته المريدون الذين نزحوا معه من لواء اسكندرون ، عندما اقتطعته فرنسا من سورية ، وأعطته إلى تركيا ، وذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل .

وهنا لا بد من الاشارة إلى ملابسات هذه البداية التي عمل قادة الحزب فيما بعد على إحاطتها بالغموض ، وطمس تفاصيلها .

والحقيقة أن الأفكار التي أطلقها الأرسوزي بين تلامذته من أبناء اللواء السليب ، كانت تحمل في طياتها صميم الدعوة التي سوف يتبناها كل من عفلق والبيطار فيما بعد . وخاصة حول فكرة بعث الأمة العربية ورسالتها الخالدة ، التي سوف تصبح مركز الاشعاع الصوفي للفكر البعثي بتمامه ، وهذا ما سوف نفصله في البحث عن جذور العقيدة البعثية ، في فصل آخر .

لقد كانت مدرسة (التجهيز الاولى) هي الثانوية الوحيدة الرسمية آنذاك تقريباً ، والتي يجتمع فيها اكبر عدد من الطلاب من أبناء دمشق والمحافظات القريبة . وحتى الفترة التي انتشرت فيها المبادىء البعثية ، كان طلاب هذه الثانوية ، ومن قبل في مدرسة عنبر ، داخل مدينة دمشق القديمة ، يشاركون في النضال ضد المحتل الفرنسي وحكوماته المتعاونة ، مع أبناء الاحياء الشعبية وزعمائها التقليديين .

بل لقد كانت مظاهرات هذه المدرسة مرتبطة بتوجيه زعماء الاحياء أنفسهم الذين كانوا ينتمون إلى حزب الكتلة الوطنية . وهو الحزب الذي اجتمعت فيه مختلف عناصر قيادة العمل الوطني في الربع الثاني من القرن الحالي .

ولكن في الفترة التي ابتدأ فيها نشاط البعث أي حوالي نهاية الحرب وبداية الجلاء ، كان نفوذ الكتلة الوطنية على القطاع الطلابي والثقافي بوجه عام آخذاً في الزوال . وذلك بسبب هذا الانفصال التدريجي الذي ساد فيه زعماء هذا الحزب عن القواعد الشعبية والاقتراب أكثر فأكثر من الحاكم الأجنبي ، استعداداً لوراثته بعد الجلاء .

ويمكن القول أن نشاط البعث لم يبرز إلا باستقلال العمل الطلابي عن العمل الشعبي . وذلك عندما تحول زعماء الأحياء إلى طبقة تابعة للحكومات شبه الوطنية التي ألفها قادة نضال الأمس ضد الاحتلال الأجنبي .

إن دراسة المناخ السياسي والاجتماعي والظروف المادية التي أحاطت بظهور البعث على المسرح السياسي ، تدلنا على طبيعة تكوين هذا الحزب منذ نشأتــه الأولى ، هذه الطبيعة التي سوف تنمو بخيرها وشرها مع نمو الحزب ، لتؤسس له شخصيته المتناقضة بين الشعارات الثورية التي رفعها ، وناضلت قواعده في مختلف ظروف الكفاح التي مرت بها سورية حتى قيام الوحدة من أجلها ، وبين عجز قادته فكرياً وثورياً ، ذلك العجز الذي انقلب إلى استئثار مريض في ظروف الحكم التي وصل إليها الحزب جزئياً أو كلياً .

لقد كان المناخ الفكري والسياسي الذي نشأ فيه الحزب ، في سنوات الحرب الأخيرة ، غاصاً بمختلف التيارات المتنافرة . فالنضال الوطني الذي جابه مرحلة من الخمود والشلل الكامل تقريباً تحت وطأة احتلال الجيش الانكليزي إلى جانب فلول الجيش الفرنسي الديغولي ، هذا النضال كان يعاني من فترة انتقال هو الآخر .

ويمكن تعيين فترة الانتقال هذه معنوياً وليس تاريخياً : إنها الجسر الذي تريد البورجوازية الثقافية أن تعبر عليه إلى مقدمة المسرح السياسي ، بعد أن شغلتــه طويلاً البورجوازية العائلية والارستقراطية الزراعية .

فمنذ ان فشلت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وانهزمت جماهير الفلاحين في الجبل العربي وغوطة دمشق ، لتواطؤ الزعمــاء ، وتنافرهم وتناقض مصالحهم الطبقية ، التي سهلت للمحتل الفرنسي عملية التقارب معهم ، انتقلت قيادة الحركات الوطنية إلى المدن نهائياً ، وتسلمها زعماء العائلات والأحياء ، الذين ينحدرون عن أصول أرستقراطية منذ أيام العهد التركي ، أو بورجوازية تجاريــة ذات أصول تقليدية قديمة ، في المدن السورية الثلاث الرئيسية دمشق وحلب وحمص .

ولقد تميز النضال الوطني في الثلاثينيات بهذه الحركة من المد والجزر بين ثورية

الشعب العفوية كلما اشتدت عليها وطأة الاحتلال الأجنبي، وبين توسط الزعامات العائلية بين هذه الثورية وبين سلطات الاحتلال . إن هـذه الوساطة كانت ذات تأثيرين مباشرين .

فمن جهة أولى ، يتظاهر المحتل بالنزول عند مطاليب الجماهير ، فيستدعي الزعماء للمفاوضة معهم . وبذلك تتوقف المظاهرات والاضرابات ، وتعود الحياة الطبيعية إلى الاسواق والمدن . ومن جهة ثانية ، فان المحتل يمارس سياسة العرض والطلب مع هؤلاء الزعماء . ومن خلال النقاش حول مطاليب الشعب بالجلاء والاستقلال ، تـبرز مطاليب الطبقة البورجوازية التقليدية بشأن حمـــاية الصناعات الناشئة ، وافساح مجال أوسع للتجارة ، ورفع بعض الضرائب . ثم تصل المفاوضة إلى نقطة الذروة عندما يتلاقى الطرفان حول فهم متواطىء لمعنى الاستقلال ، الذي تنادي به الجماهير ، وتخوض من أجله حرب المظاهرات بالحجارة والعصي ضد الرصاص والدبابات. انه التواطؤ على أساس مشاركة أوسع لهؤلاء الزعماء في الحكم والمناصب الادارية ، ضمن إطار الاحتلال نفسه . حتى انتهت حلقات النضـال الوطني عبر الثلاثينيات إلى خلق طبقة حاكمـة من زعماء البورجوازية التقليدية في المدن ، والارستقراطية الزراعية في الارياف . وبذلك تتراجع سلطات المحتل ظاهرياً إلى خط خلفي ، وراء الحكومات (الوطنية) . ثم يتحول النضال الوطني ضد هذه الحكومات ، فتسقط بعضها ليتولاها صف آخر من الزعماء ، يتبادلون السلطات والوزارات ضمن حلقة مفرغة .

لقد كانت (الكتلة الوطنية) وكتل أخرى في المدن الرئيسيـــة ، تتولى عمليات تفريـغ الغضب الشعبي ، باستبدال رجـــال الوزارات من زمرة إلى زمرة أخرى . وخلال سني الحرب ، تحولت المطاليب الشعبية في الاستقلال والجلاء ، إلى مطاليب معاشية خالصة ، حول تأمين الخبز والمواد الغذائيـة الأساسية ، التي كانت جيوش الحلفاء تستنفد منها جل الكميات ، وتترك النفايات للشعب .

وبالمقابل فان هذه الجيوش الاجنبية كانت تثير حركة بيع وشراء استثنائية في الاسواق التجارية . كما ان الحلفاء من جهة أخرى حاولوا ان يخلقوا حالة من

الرخاء المزيف . فطبعوا كميات هائلة من العملات الورقية ، وطرحوها للتداول . وبذلك تكونت شروط موضوعية جديدة لنمو بورجوازية تجارية من الطبقة المتوسطة ، ذات مصالح متميزة . وتجني الارباح الطائلة من مصادر مختلفة . وكان احتكار المواد الغذائية والاستهلاكية الرئيسية من أسرع وسائل الاثراء المفاجىء . وكذلك كانت أعمال المقاولة والصفقات الكبيرة التي يعقدها هؤلاء التجار مع جيوش الحلفاء ، ومع دوائر الحكم المحلي التي أخذت بالتوسع والتضخم ، تؤلف مصادر مستمرة لنمو الرأسمالية الناشئة .

فما ان انتهت الحرب ، وبدأ جلاء الجيوش الأجنبية ، وتحولت المعامل في الغرب من الانتاج الحربي إلى الانتاج المدني ، حتى فتحت أسواق البلاد أمام غزو هائل من البضائع الاستهلاكية التي كانت مفقودة اثناء الحرب .

وبالطبع فان طبقة التجار الرأسماليين هي التي وجدت نفسها مؤهلة للسيطرة على حركة الاستيراد والاتفاق على تمثيل الشركات الغربية المصدرة ، وتقاسم وكالاتها .

وسوف يستمر نمو هذه البورجوازية الجديدة مع حركة الازدهار الظاهرية التي ستعم البلاد بعد الجلاء ، فتسيطر على مختلف اعمال الانشاء والتعمير ، والشركات المستحدثة في كل ميدان من ميادين الصناعات الصغيرة والتجارة والتوزيع .

وبذلك نجد هذه الطبقة نفسها بحاجة إلى تبادل الدعم والتأييد ، على أساس تبادل المصالح ، مع البورجوازية الحاكمة التقليدية ، التي أبرزها الاستعمار خلال الاحتلال . حتى ان البورجوازية التقليدية هذه التي تفرز منها الحكومات (الوطنية) ومعها الارستقراطية الزراعية تتشابك مع مصالح الرأسمالية الناشئة ، لتؤلف وإياها كلًا متحداً على أساس وحدة المنافع المادية والسلطات السياسية ، كامتداد طبيعي لتلك المنافع .

ولكن بالمقابل فان طبقة أخرى كانت تظهر من بين جماهير المدن والأرياف القريبة ، تتكون على أساس الانتماء إلى أجهزة التعليم كطلاب ، ثم الانتماء إلى

أجهزة الدولة كموظفين . انها الطبقة المثقفة ذات الأصول الشعبية او الأقرب إلى الطبقات الوسطى ، والتي كانت قبل الحرب شبه منعزلة لضعفها وقلة عددهـا ، واضطرارها إلى الالتحاق نهائياً بجهاز الادارة الاستعمارية في البلاد .

غير ان ازدياد الثروات واتساع نطاق التجارة ، واقبال البلاد على مرحلة من النمو والانشاء ، كان يصاحبه بالمقابل ازدياد في الاقبال على التعليم ، والاكثار بصورة مطردة من المدارس الابتدائية والثانوية ، الرسمية والأهلية . حتى تضاعف عدد الطلاب في الخمسينات عشرات المرات عما كان عليه قبل الحرب .

لقد كانت البورجوازية الصغيرة من المثقفين تقوم على هامش القيادات التقليدية من رجالات العائلات والاحياء والاقطاع ، في مجال الصراع الوطني ضد الاحتلال . ولا تجد لنفسها متنفساً إلا بالالتحاق بهذه الزعامات التقليدية ، دون ان تكون لها أية قدرة على التأثير في الجماهير إلا من خلال نفوذ هذه الزعامات . وبمعنى آخر فان الوجاهة العائلية كان لها من التأثير على جماهير الاحياء الشعبية ، بحيث لم تكن تحتاج هذه الجماهير إلى أية توعية فكرية تنتظرها من المثقفين .

بل ، وكما سبق ان قلنا ، فان المدارس القليلة الابتدائية والثانوية ، كانت تخضع لتوجيه هذه الزعامات . وقد طال الوقت حتى استلمت المدارس الثـانوية قيادة العمل الوطني والسيطرة على الشارع .

ان (نضال) البورجوازية التقليدية بلغ غايته ، عندما سمح لهـا الاستعمار المحتل بالوصول الى الحكومـات ذات الاستقلال الداخلي الصوري . وانتهى بصورة قاطعة ، عندما تسلمت هذه البورجوازية التقليدية حكم البلاد كليـاً بعد الجلاء . ثم كان لاختلاط هذه البورجوازية في مصالحها بالحكم مع البورجوازية الرأسمالية أثره الحاسم كذلك في طرح مثـل الاستقلال على أساس الاستقرار والمحافظة على (الحرية) المكتسبة .

وبالطبع فإن هذا الاستقرار كان يعني استمرار السيطرة البورجوازية على السياسة والاقتصاد معاً ، واحتكار مصادر الثروة سواء عن طريق التنمية الصناعية ، او التوسع التجاري ، او استصلاح الاراضي وتحويلها الى زراعة علميـة مركزة

تتجه نحو القطن والحبوب خاصة .

لقد فقدت الجماهير اذن قياداتها التي تحولت إلى الحكم والمتجر والمعمل والمزرعة . وكذلك فقدت شعارات (الوطنية والاستقلال والجلاء) تأثيرها السحري على هذه الجماهير ، بعد ان تحققت على الأقل مظاهر هذه الشعارات .

وبينما تغيرت الشروط الموضوعية لبنية الطبقة الوسطى ، والطبقة البورجوازية التقليدية ، فتحرك قطاع كبير من الأولى نحو الاستثمار الرأسمالي ، وألف نواة الرأسمالية السورية الجديدة ، وتحركت رؤوس الطبقة الثانية لتستولي نهائياً على سلطان الحكم وتتحالف وتتداخل مع رؤوس الرأسمالية الناشئة ، فان جماهير المدن والارياف بقيت شروط حياتها المادية تقريباً كما هي دون أي تغيير ملموس ، سوى زيادة طفيفة في قدرتها الشرائية . ولكنها من جهة أخرى قد فتحت أمامها إلى حد ما مجالات أخرى ، هي المدارس وثكنات الجيش .

وهكذا سوف تتولد بسرعة طبقة بورجوازية جديدة تتسلح بالثقافة والوعي ، وهي البورجوازية الثقافية ، وبورجوازية أخرى تتسلح بالقوة الضاربة ، وهي البورجوازية العسكرية . وكل من هاتين البورجوازيتين تبحثان عن مكان لها في المجتمع الجديد ، وتمارسان نوعاً خاصاً من المصالح تعبر عن نفسها بأهداف جماعية أخرى ، لا تلبث ان تدخل في صراع حاد مع بورجوازية المال .

ولسوف يحدد هذا الصراع صورة التناقضات السياسية الهائلة التي تعرضت لها سورية خلال العشرين عاماً الأخيرة .

ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو الذي سوف يستقطب هاتين البورجوازيتين ، الثقافية والعسكرية ، بادئاً بالأولى لينتهي بالثانية ، ويبرز كقوة سياسية قيادية للجماهير التي تخلت عنها البورجوازية التقليدية والرأسمالية ، وتحولت إلى عقبات ضد مصالحها الوطنية والمادية .

فالبورجوازية الثقافية التي لم تستطع ان تؤكد وجودها طيلة مراحل العمل الثوري الوطني خلال الاحتلال ، قد بدأت تجد طريقها للظهور والسيطرة ، منذ سنوات الحرب الأخيرة ، فتبحث بنفسها عن ايدلوجية قومية جديدة ، وترشحها

لأن تكون ايدلوجية الجماهير ، كما ترشح نفسها من خلال هذه الايدلوجية لاستلام الحكم بعد دحر البورجوازية التقليدية أولاً ، دون المساس ببورجوازية الرأسمالية الناشئة التي يطمح المثقفون إلى الالتحاق بها ، والاندماج بين صفوفها، والاستفادة من نفس مصالحها عن طريق مناصب السلطة التي احتكرتها البورجوازية التقليدية بزعامات العائلات والارستقراطية الزراعية .

ولا شك في أن الايدلوجية التي سيطرحها المثقفون هي التي ستعلن عن انقضاء مرحلة النضال الوطني بأفكاره الساذجة المباشرة ووسائله الجماهيرية العفوية ، إلى مرحلة النضال القومي بمضمون فكري مجرد ، ووجدان صوفي معقد ، ووسائل السياسة والتوعية النظرية المثالية .

وقبل ان يستطيع المثقفون انشاء أحـــزاب لهم (كعصبة العمل القومي) و (الحزب السوري القومي) ثم (حزب البعث العربي) ، كانت هناك أفكار كثيرة يرددها بعض رواد الوعي القومي من أبناء العـائلات الكبيرة التي أتيحت لهم الدراسة في المعاهد والجامعات الغربية . وتدور هـــذه الافكار حول بعث التاريخ العربي بحضارته ، وتوحيد الاقطار وانشاء دولة جديدة عصرية. ولم يكن هؤلاء المثقفون الأوائل يهتمون بتحديد أي مضمون لهذا البعث ، كما لم يروا أهمية ما في بحث الوسائل العملية لإنشاء دولة العرب الواحـــدة ، والصورة السياسية والاجتماعية التي ستكون عليها .

بل لقد بقيت هذه الأفكار أقرب إلى الاحلام منها إلى الايدلوجية المتماسكة. ولكن ظروف الثورات العربية في كل من سورية والعراق طيلة الربـع الثاني من هذا القرن ، حتى الحرب العالمية الثانية ، كانت متشابهة في طبيعتها الوطنيـة وأهدافها المباشرة ضد الاحتلال ، ومن هنا فقد جاءت وحدة المعـاناة في المشرق العربي من وطأة الاحتلال كما لا تزال ذكرى الثورة العربية الكبرى في نهـاية الحرب العالمية الثانية ، وطموحها الكبير إلى إقامة دولة عربية موحدة ، ما زالت هذه الذكريات تغذي أحلاماً بعيدة المنال ، بعد ان أحكمت كل من انكلترا وفرنسا كيانات انفصالية جديدة ، ونصبت إمارات وملكيات وحكومـــات

متعاونة ، وأقامت حواجز لم تكن حتى أيام الاستعمار التركي، بين هذه الاقطار، على أساس دول وشعوب مختلفة . ومع ان كثيراً من الثوار العرب الذين التحقوا بالثورة العربية الكبرى ، ثم ثورة سورية عام ١٩٢٥ ، ما زالوا يتابعون ترحالهم بين الاقطار العربية من فلسطين وسورية إلى العراق ، كلما تجددت مطامح الاستقلال والوحدة العربية إثر اندلاع ثورات محلية مباشرة ضد الاستعمار ، إلا أن هدف التحرر الوطني المحلي من الاحتلال الاجنبي أصبح يحل تدريجياً محل الاهداف القومية الواسعة المطامح في الوحدة وبعث الحضارة العربية .

ولقد تسلم حزب (عصبة العمل القومي) لواء الدعوة القومية في سورية قبيل الحرب . وكان هذا الحزب أول طليعة من المثقفين، حاولت ان تنافس الزعامات التقليدية في قيادة العمل الشعبي ، على أساس التنظيم الموضوعي والتوعية الفكرية، والأهداف القومية ، التي تتخطى الاهداف الوطنية .

ولكن العصبة لم تجمعها أفكار واضحة،ولم تستند إلى بنية اجتماعية معينة . كما أن الطبقة التي اعتمدت عليها ، كانت في دور النشوء الأول . ومع ذلك فان (زكي الأرسوزي) وتلامذته النازحين عن اللواء السليب ، بقي يؤلف لوحده نواة البعث العربي ، حتى بعد ان انهارت العصبة ، وتفرق أعضاؤها في تجمعات كثيرة غامضة الفكر ، ضعيفة النشاط .

لقد قاد زكي الأرسوزي المقاومة القومية ضد التتريك في اللواء السليب . واستطاع ان يطرح فكراً قومياً مثالياً من نوع جديد ، يتخطى حدود الطوائف المحلية ، ويجمعها كلها في جبهة عربية واحدة . والأرسوزي مثقف ومفكر عربي من طراز فريد ، درس الفلسفة في فرنسا ، ومنذ عودته إلى اللواء انطلق فيدعوته إلى البعث العربي . وخاض تجربة نضال مريرة ضد الاستعمار الفرنسي هو وأتباع دعوته من الشباب المثقف والطلاب . بل لقد استطاع كذلك ان يفرض نفسه كزعيم شعبي للواء بأجمعه . وكانت شخصيته الفذة وحماسه القومي اللاهب ، وعبقريته الفكرية، وعناده النضالي، كل هذه الميزات تؤهله لزعامة كبرى تتخطى حدود اللواء إلى سورية كلها .

ولكن الأرسوزي الذي اضطر أخيراً إلى النزوح إلى سورية ، بعد ان تم سلخ اللواء وبيعه لتركيا، أثار حوله جواً سلبياً بين زعماء العمل السياسي التقليدي . فلقد فاجأ هذه الطبقة من البورجوازية التقليدية شبه الأمية ، بنموذج من الفكر والمنطق الجديد ، ونموذج من العمل القومي الأخلاقي المتطرف أصابهم بذعر هائل على زعامتهم . ووجدوا فيه منافساً خطيراً يمكن ان يجمع الشارع والمدرسة معاً، ويطرح مقاييس واضحة في العمل النضالي، ويكشف عن مساوماتهم السياسية، وعن ذلك الدور الملتبس الذي يلعبونه كطبقة متوسطة بين المستعمر وبين الجماهير الثائرة .

والواقع أن أفكار الأرسوزي ومنطقه الأخلاقي الثوري ، استطاعت لأول مرة أن تفصل المثقفين في دمشق عن قيادات الزعامات البورجوازية التقليدية . فكان ان انتشرت مدرسته الجديدة بين طلاب الثانويات وكليات الجامعة منذ عام (١٩٤٠) ، عن طريق مجموعة الطلاب اللوائيين الذين نزحوا مع أستاذهم إلى دمشق .

وهنا لا بد من جلاء هذه النقطة الهامة في نشأة حزب البعث العربي . فكما قدمنا يبدو ان الأرسوزي وحده هو حامل لواء مبدأ البعث فكراً مثالياً ثورياً ، سنوضحه في حينه ، وعملاً قومياً أخلاقياً في الوقت ذاته .

والأرسوزي كذلك هو أول من طرح أيدلوجية مثالية المثقفين الباحثين عن عقيدة للعمل تفصلهم عن غوغائية زعماء الأحياء وأسيادهم من البورجوازيين التقليديين .

والأرسوزي من جهة ثالثة قدم في تجربته النضالية التي خاض غمارها في اللواء ، نموذجاً جديداً عن العمل النضالي في التنظيم ، والانتماء إلى عقيدة البطولة المطلقة ، والصمود الرائع أمام المستعمر . وبذلك فقد طرح نفسه كزعيم قومي ملهم للمثقفين والجماهير معاً ، بدل الزعامات التقليدية التي خضعت لمساومات المستعمر ، وانحازت تقريباً إلى صفه بعد ان أفسح لها مجال السيطرة على الحكم والاقتصاد معاً.

وبكلمة واحدة فإن الأرسوزي ، هذا الغريب القادم من أقصى الشمال ، قد

حاول ان يعطي لدمشق دفعة واحدة الايدلوجية والزعامة وأساليب العمل القومي المنظم .

وكان رد الفعل سريعاً من قبل بعض من وضع نفسه على طريق الزعامة الفكرية، من أمثال ميشيل عفلق وصلاح البيطار، اللذين كانا مدرّسين في التجهيز الأولى آنذاك . فحاولا مع آخرين ان يستهلكوا شخصية الأرسوزي الفذة في تشكيلة ، اختلف معها الأرسوزي منذ جلساتها الأولى .

فلقد كانت مقاييس الارسوزي الفكرية والاخلاقية الثورية ، لا تقبل أي التباس ، أو مساومة وعجز ، أو سياسة وتلفيق .

فهو الذي يعرف في نفسه نموذج الفيلسوف العربي المنتظر ، ما كان ليقبل أفكار عفلق المتعثرة الغامضة .

وهو الذي يعرف في نفسه الزعيم الحقيقي ، ما كان ليرى في شخصية عفلق العاجزة المرتبكة ، ما يرشحه لانه يكون نداً له في قيادة الامة العربية .

وهو الذي يعرف في نفسه الثورية المطلقة الى درجة البطولة والقدامة في صراعه ضد قوى الاحتلال والمتعاونين والبورجوازيين التقليديين، ما كان ليرى في أساليب عفلق إلا نوعاً من الهرب من النضال الحقيقي ، وتحالفاً خفياً جديداً يعقده عفلق مع المخابرات الفرنسية لاجهاض ثورية المثقفين ، تحت قيادة زكي الارسوزي .

لقد اتهم الارسوزي في حلقاته وأحاديثه المستمرة في بيته المتواضع وحول مناضد المقاهي وبين عشرات من الطلاب الثانويين والجامعيين ، الزعماء التقليديين بالتواطؤ المكشوف مع قوى الاحتلال الفرنسية لاجهاض ثورات الشعب .

ثم اتهم زعماء المثقفين من بعض المدرسين أمثال عفلق وزملائه ، بالانتهازية والتواطؤ كذلك مع المخابرات الفرنسية ؛ للاجهاز على حركته الناشئة .

وبذلك حاصرته من كل طرف الزعامات التقليدية المتعاونة في الحكم مع الفرنسيين والانكليز قبيل نهاية الحرب ، والزعامات الثقافية الصاعدة على أكتاف الطلاب الثانويين، من مدرسين أمثال عفلق والبيطار، ودوائر مخابرات الاستعمار، التي كانت قد تلقت درساً في لواء اسكندرون ، عندما استطاع الارسوزي أن

يقود شعبه في حركة قوميـــة كاملة . ولذلك فقد حاولت دوائر الاستعمار في دمشق ان تعزل الارسوزي ما أمكنها عن الفئات المثقفة والجماهير . وتم لهـــا ذلـك ، عندما استعدى الارسوزي عليه مختلف الاطراف التي أرعبتها مقاييسه في العمل النضالي ، وكشفتها مثله الاخلاقية الصارمة ، في تقييم شخصية المناضـــل وأفكاره ووسائله في العمل . وراحت دوائر المخابرات الاستعمارية ، تشن عليـه حرب اضطهاد قل ان تعرّض له زعيم عربي في سورية . فلم تترك وسيلة نفسية أو مادية لاضطهاده إلا واتبعتها . وزاد في مأساة هذا المفكر الاصيل ، أن أكثر طلابه الذين رافقوه في رحلة نضاله من اسكندرون الى دمشق ، قد اضطروا الى الانفكاك عنه ، خشية اضطهاد الفرنسيين لهم أكثر مما اضطهدوا حتى الآن .

ولكن عقيدة الارسوزي في (البعث العربي) ، كانت قد انتشرت بين صفوف المثقفين الثوريين في دمشق . فإذا بعفلق وزملائه وأتباعه من طلابه في (التجهيز الاولى) يعثرون على الايدلوجية القومية التي يبحثون عنها . فاندفع عفلق باعلان أفكاره (البعثية) بطرقه الخاصة. وكان ان انضم اليه طلاب الارسوزي اللوائيون، وهم متشبعون بآراء استاذهم الاول . فخلقوا بذلك اول بيئة فكرية من عقيدة (البعث العربي) ضمن حلقات (عفلق) ، التي أخذ في إنشائها بعـد أحكام طوق العزلة الفكرية والسياسية حول الاستاذ (زكي الارسوزي) من قبل المخابرات الاستعمارية ، والزعامات التقليدية الحاقدة عليه أكبر حقد وأعنفـه ، والزعامات الثقافية الجديدة أمثال عفلق والبيطار [١] .

* * *

يمكن القول اذن ، ان الانتلجانسيا ، او الطبقة المثقفة ، التي راحت تتكون وتنمو في الاربعينيـات من المدرسين والموظفين والشباب الجامعيين والثانويين ، كانت تبحث لنفسها عن مكان في المجتمع المتغير من طور الاستعمار المباشر ، الى

---

١ ـ تعتبر مأساة الارسوزي أول فضيحة كبرى في نشأة حزب البعث على يد عفلق الذي سرق طلائع الارسوزي وعقيدته الجديدة ـ وساهم في ابعاد هذا المفكر المناضل الفذ عن ساحة العمل الفكري والنضالي .

طور الاستقلال الوطني . وبالرغم من ان الاطارات الاولى لهذه الطبقة كان قد أنشأها تقليدياً،ومنذ العهد العثماني، أبناء الارستقراطية التجارية والزراعية، إلا ان الطبقة الوسطى في المدن والأغنياء الجدد من أبناء الأرياف،قد استطاعوا ان يدفعوا تدريجياً بأعداد تتزايد بصورة مطّردة الى المدارس ، وان يؤسسوا نواة طبقة جديدة في المجتمع العربي ، سيكون لها شأن كبير في المستقبل . إن اتساع حجم الانتلجانسيا، قد حررها تدريجياً من تبعية الأجهزة الحكومية التي أنشأتها الادارة الاستعمارية . وأصبحت الوظيفة وسيلة لتحقيق مركز اجتماعي للشاب الجديد ، الذي لا ينحدر عن أصول عائليـة بارزة . وهذا المركز الاجتماعي ، كان يهيء له كذلك حداً كافياً من الطمأنينة المادية .

وبينما بقي المثقفون فئـة لاصقة بالجماهير الشعبية التي كانت تجمعها الحركات والأحزاب ذات الطابع الوطني ، ودون ان يستطيعوا تأليف بنية اجتماعيـة وفكرية مستقلة ، تركزت اطاراتهم بعد الجلاء في الطرف المناقض لمصالح البورجوازية التي تحولت طبقتها من قيادات الشوارع والأحياء الى مقاعد الحكم ، وإدارة الشركات التجارية الجديدة ، والمصانع والمزارع والمصارف .

ولكن طبقة المثقفين التي بدأت تشق طريقها الى إنشاء بنيـة اجتماعية خاصة بها ، لم تستطع ان تحقق مرحلة الثورة الحقيقية ، وذلك بالانفتاح على القواعـد الشعبية، فبقيت طيلة العشرين من الاعوام الماضية محتاجة دائماً الى دعم من خارجها.

فاستندت في عهود الصراع الوطني الى الزعامات التقليدية . ثم عندما كبر حجمها بعد الحرب ، وامتد نفوذها الاجتماعي، وانتشرت الى حد بعيد في المدن، وخلال أجواء الطبقات الوسطى ، أفكارها وقيمتها الجديدة وأساليب الرقي في السلوك والعادات الاجتماعية ، واستطاعت ان تؤلف قوة سياسية كبرى مـن خلال حزب البعث والحزب الشيوعي ، لم تلبث عندما داهمتها العقبات الداخلية الحاسمة حتى افتقدت قوى المقاومة في بنيتها ، وراحت تبحث عن مستند جديد .

وكان هذا المستند تحلياً انهزامياً لبورجوازية اخرى ذات بنيـة ومطامع خاصة . انها بورجوازية الضباط والقادة العسكريين ، التي ما لبثت ان انتزعت

زمام المبادرة من يد البورجوازية الثقافية، وجعلت هذه الأخيرة رديفاً معقداً لها.

والواقع أن الأزمات التي عصفت داخل حزب البعث طيلة الفترة السابقة على الوحدة، إنما كانت في الدرجة الأولى أزمات النخب الثقافيـــة التي كانت توجه قطاعاته القيادية، وتملأ مستويات كثيرة في قواعده الدنيا والوسطى.

ومع ذلك فإن هذه النخب الثقافية كانت تتمزق بين مثالية وعيها القومي، وبين جذورها الاجتماعية الاصلية، من جهة، وبـين مطامحها الفردية في النفوذ الاجتماعي والسلطة السياسية، من جهة اخرى.

ولقد سبق ان قلنا ان أكثر الجذور الاجتماعية التي انطلقت منها طبقـــة الانتلجانسيا ترجع الى مصدرين: الأغنياء الجدد النسبيين في الأرياف، والطبقات الوسطى الصاعدة في المدن.

فلقد ضم حزب البعث في صفوفه الأولى غالبية كبرى من أبنـاء الأرياف، الذين انتقلوا من القرى الى المدينة، مركز المحافظة، لمتابعة الدراسة الثانوية.

ولكن الخلايا الأولى للحزب، تألفت من أبناء طوائف معينة. فاللوائيون الذين فضّلوا قيادة عفلق الصوفية، البعيدة عن الاصطدام الفعلي والتعرض لأخطار أكثر واعنف مما لاقوه تحت قيادة الأرسوزي في اسكندرون وانطاكية، كانوا ينتمون الى الطائفة العلوية.

وأصبح اللوائيون البعثيون فيما بعد، جسراً طبيعياً للحزب بين شباب جبال العلويين، عن طريق ثانويات اللاذقية والساحل.

وكان لعفلق، بحكم انتمائـــه الى عائلة مسيحية تسكن حي (الميدان) في دمشق، وتتعامل كأكثر عائلات (الميدان) مع الجنوب، أي حوران وجبل العرب (الدروز)، كان لعفلق صداقات عائلية مع بعض الأسر الدرزية. وعن هذا الطريق انتقل الحزب بسرعة الى مثقفي الدروز من طلاب الثانويات في دمشق والسويداء مركز محافظة جبل العرب.

وهكذا فقد تحددت بنية الحزب منذ البدء بطبيعة البنيات الاجتماعيـة التي انحدرت منها العناصر الحزبية. فكانت بنية ريفية، او من نوعية معينة، هي نوعية

المثقفين من طلاب ثم أساتذة وموظفين ، ومن جذور طائفيـــة ، تأتي بالدرجة الأولى : الجذور العلوية ، ثم الدرزية فالاسماعيلية فالمسيحية .

وهذا يعني :

أولاً : ان البنيات الأكثر انعزالاً ، وفي الوقت ذاته ، الأكثر طموحاً الى غزو هرم المجتمع القديم التقليدي الذي تسيطر عليه طبقات المدن الاسلامية السنية في الدين ، والبورجوازية في الوجاهة الاجتماعية والسيطرة السياسية والاقتصادية ، هذه البنيات القلقة الطامحة هي التي أسست الأطر الأولى للحزب ، ونقلت اليــه نوازعها اللاشعورية من خلال الأهداف الثورية .

ثانياً : ان هذا التركيب الخاص الذي اتصف به الحزب ، قـد وقف حاجزاً دائماً دون تفاعله مع جماهير المدن . حتى لقد ظلت مدن كبرى كدمشق وحلب واللاذقية ، ممتنعة كلياً تقريباً في وجه انتشار القواعد البعثية ، إلا من اعداد قليلة من بعض المثقفين ، حتى عـام ١٩٥٦ – ١٩٥٧ . وهو الزمن الذي تبنى الحزب فيه قيادة عبد الناصر ، وأصبح الحزب هو الممثل اليومي لانتصارات هذا القائد في عين الجماهير ، ليس في سورية فحسب ولكن في الاردن والعراق ولبنان ، حيث انطلقت بعض العناصر الطلابية التي كانت تدرس في الجـــامعة السورية ، فأسست فروعاً راحت تتسع وتنتشر بين العناصر الثقافية أيضاً في الاردن والعراق خاصة .

ثالثاً : بالرغم من ان العناصر الريفية قد أسست الاطـارات الأولى للحزب ، إلا ان القواعد الفلاحية غير المثقفة بقيت في معزل تام عن التفـاعل مع الحزب . إذان هؤلاء الريفيين ، كانت تجتذبهم البرجزة في المدن ، فيسعون الى الالتحاق بحواشيها ، عن طريق استيطان المدن ، والتوظف ، والزواج من بعض العائلات الوسطى ، وبالتالي فان الحزبيين القدامى المتحمسين منهـم لا يلبثون حتى يفقدوا صلتهم التنظيمية بالحزب ، ويستغرقون في حياة المدينة ، ولا يتذكرون ارتباطاتهم الحزبية ، إلا عندما يتاح لبعض قادتهم شيء من السلطـة والتأثير على الحاكمين ، فيسعون اليهم كيما ينالهم حظ جديد من المحسوبية العقائدية .

رابعاً : أما الشباب الطائفي المثقف ، فكان يتأرجح باستمرار بين محاولات التجاوز النهائي للاطار الطائفي الضيق ، وبين الرجوع إلى مصالحه ، واستثمار زعامة جديدة ضمن دائرة الطائفة ، على أساس الفكرة العربية بدلاً من الزعامة الدينية - ولذلك فان بعض الصراع قد دب بين الزعامة الحزبية الجديدة والزعامة الدينية التقليدية ، وخاصة في طائفة العلويين . بينما حاول البعثيون الدروز ان يتخطوا الزعامة الاقطاعية للعائلات ، التي يقودها آل (الاطرش) . وانتشروا بين (التجمع الشعبي) ، الذي استطاع بعض المثقفين التقدميين ان يؤلفوه ليقف في وجه الطغيان العائلي الاقطاعي على الجبل ، ويفتح الطريق أمام تفاعل هذه الطائفة مع الاهداف القومية الشاملة ، منسجمة في ذلك مع تقاليدها العربية الأصيلة .

وكذلك اندفع مثقفو الاسماعيلية في مناطق السلمية ومصياف ، وراء الحزب واعتنقوا أفكاره ، لنفس الأسباب التي جعلت مختلف المثقفين من طوائف الريف تنضوي تحت لوائه .

ولا بد من الاشارة في هذه المناسبة ، إلى ان هؤلاء الشباب الذين آمنوا بالأهداف القومية والاشتراكية للحزب ، كانوا مدفوعين أولاً بإخلاصهم العفوي لهذه الأهداف ، باعتبارهم جزءاً أساسياً من الجيل العربي الشامل ، الذي حمل رسالة الثورة القومية والاشتراكية . ولكن انعدام التربية الحزبية الداخلية ، وتهلهل الإطارات التنظيمية ، جعلا هؤلاء الشباب يتوقفون عند حدود عواطفهم العفوية الأولى ، دون ان يكتسبوا من الحزب أية نوعية فكرية ، تنتزعهم نهائياً من جذور اعتقاداتهم الغيبية الطائفية الأولى ، ودون ان تستطيع التربية النضالية داخل الحزب ، أن تحرر هؤلاء الشباب من بعض المطامع الفردية في حب السيطرة ، واستثمار الشرط العشائري ضمن الطائفة للبروز بوجه تقدمي ، على أساس القوى الرجعية التقليدية في الطائفة وعشائرها .

ولقد خضع البعثيون العلويون لهذا التناقض أكثر من غيرهم خاصة ، من شباب الطوائف الأخرى الذين انضموا الى الحزب وشاركوا في نضال قواعده طيلة الفترة الحاسمة بين سقوط ديكتاتورية الشيشكلي وقيام الوحدة المصرية

السورية .

رابعاً : إلى جانب العقد الطائفية التي حملتهـــا الإطارات الأساسية للحزب ، تكونت كذلك العقد الثقافية . بل إن التناقضات الداخلية التي عاناها هذا الحزب خاصة ، تكاد تكون الصورة النموذجية عن تناقضات الانتلجانسيا السوريـــة . ولسوف نفصل هذا الموضوع في بحث البنية الفكرية والعقائدية للحزب ، لأن عقد المثقفين تظل مرتبطة بنوع الأفكار التي يحملونها أولاً ، ويغطون بها ثانيـــاً مركبات مطامحهم ومصالحهم الشخصية ، واصطدامها بالبنية التقليدية لتركيب المجتمع .

خامساً : وبصورة عامة فان الفترة التي كان يصل فيها نشاط المثقفين الحزبي إلى ذروته هي مرحلة الدراسة الثانوية العالية والجامعية. وكان هذا النشاط يتحدد سياسياً في تكتيل جماهير الطلبة وقيادتها في المظاهرات ، بصورة قد تصل أحياناً الى نوع من العبث ، فيه يتهرب الطلاب من واجباتهم المدرسية ، ويساهمون في تدني مستوى التعليم ، حتى ان أكثر الثانويات في المدن الرئيسية ، قد هبط معدل دوامها السنوي إلى ستين أو سبعين يوماً فقط .

وأمـا عندما يتخرج المثقفون الحزبيون وينضمون إلى وظائـــف الدولة ، وينخرطون في هموم الحياة المادية والاجتماعية ، فان الغالبية العظمى منهم لا تلبث حتى تتضاءل صلتها بالحزب تدريجياً إلى درجة الانعدام المطلق . وبذلك فرضت هذه الشروط نوعاً معيناً من النشاط الحزبي الداخلي والخارجي .

فلم يكن ثمة التقاء بين مثالية الطالب وحماسه وبين نفعية الموظف وحذره . وبالتالي فقد عجز الحزب باستمرار عن خلق الانسجام بين هذين التطرفين ، بين المثالية والنفعية ، بين المراهقة والاتزان السلبي .

وقد قدر للحزب خلال سنوات طويلة ان يكون جسراً تعبر عليه أجيال الطلبة ، وتنخرط في ذلك النشاط الجماهيري المحدود ، ثم تنطلق إلى حيـــاتها البورجوازية بعيدة عن أية مسؤولية من مسؤوليات النضال ، تنتظر فرصة قبض الثمن عن كفاحها الماضي ، لتستفيد من نجاح بعض محترفي الحزبية من القادة في

الوصول إلى الحكم .

فالطلبة اليوم ، والموظفون غداً ، تلك هي الثنائية المحتومة التي خضعت لها بنية الحزب وتركيبه الاجتماعي . فخلقت في عقليته وسلوكه ذلك التطرف الاعمى نحو الاوهام والمراهقة من جهة ، ونحو النفعية والبرجزة الناشئة من جهة أخرى -

سادساً : كل ذلك قد جعل هذه البنية بعيدة في الواقع عن الارتباط بالجذور الشعبية الحقيقية . وبقي تركيب الحزب مرتبطاً بالجماعات غير المستقرة اجتماعياً واقتصادياً . فلم يستطع ان يعبر عن مصالح حيوية لأية طبقة أصيلة في أرضية المجتمع . وظلت أهدافه القومية منعزلة عن المشكلات اليومية لأكثرية فئات الشعب ، إلا عندما تتأزم المعارك مع الاستعمار والطبقات الحاكمة ، فتهب الجماهير دفعة واحدة للصمود في وجه المؤامرات . وعندئذ يفرض الحزب نفسه عليها كقيادة سياسية وطليعة لها.وحين تنفرج هذه الأزمات وتسجل انتصارات جديدة ، تأتي القيادة السياسية للحزب ، لتقبض على ثمرات الانتصار وتحتكرها لنفسها ، وتزيد بها من قوة مراكزها في ميدان الصراع السياسي،بين كواليس الحكومات والمجالس النيابية .

وبذلك فقد لعبت الجماهير الشعبية ، وجماهير الحزب نفسها ، دور الرديف ، بل دور الواسطة الموقتة ، التي تستخدم في أوقات معينة لتحقيق انتصارات (قومية) ، لا تلبث حتى تتحول إلى مكاسب سياسية في يد قادة الحزب . بمعنى ان هذه الانتصارات القومية كانت تعجز دائماً عن ترجمة نفسها إلى مصالح تقدمية لفئات الشعب . ولذلك فقد كان تراكم الانتصارات السياسية، بدون أي حصول واقعي لها ، في تغيير شروط الحياة الموضوعية للجماهير المكافحة ، يبعد فعالية هذه الجماهير بالتدريج عن الاندماج في فعالية النشاط الحزبي من ناحية ، كما ان هذه الانتصارات المتراكمة تتحول إلى قوى في غير يد أصحابها الحقيقيين . وبذلك يمكن استثمارها من قبل (النخبة) السياسية لزيادة مصالحها الشخصية ، ونفوذها الفردي ، سواء ضمن نطاق الحزب ، او نطاق الصراع السياسي مع القوى الخارجية المناوئة .

لقد افتقد الحزب في تركيبه دائماً الاستناد إلى قوة اجتماعية ومـــادية ثابتة ، وذات مصلحة نضالية مستمرة من خلال الصراع القومي والاجتماعي معـــاً . فلم ينجح الحزب أبداً في استقطاب القواعد العمالية او الفلاحية الكادحة ، فظل عقيدة مجهولة من قبل التجمعات العمالية في المصانع الكبيرة والصغيرة ، وفي الاحيـــاء الشعبية . وإذا ما عرف به بعضهم ، صدمته الصفة الاستعلائية في أعضائه والبرجزة المصطنعة في سلوكهم ، والغموض الفكري في مفهوم الحزب الاشتراكي والشعبي النضالي .

والواقع أن حزب (البعث العربي) قبل اتحاده بالحزب (العربي الاشتراكي) الذي يتزعمه السيد أكرم الحوراني ، لم يضم بين صفوفه أقـــل عدد من العمال والفلاحين وأبناء الاحياء الشعبية او المهنيين الصغار الذين يؤلفون السواد الاعظم لمجتمعات المدن والارياف المجاورة .

ولكن أكرم الحوراني ، الذي انطلقت دعوته في الأساس من ظروف الوضع الطبقي في مدينة حماه وأريافها المجاورة ، وهي ظروف نموذجية عن الاقطـــاعية المطلقة ، بصورتها التاريخية التي ترجع إلى القرون الوسطى – إن أكرم وجماعته من الشباب المثقف الحموي الذي التف حوله ، كانوا أول من فتحوا قواعد الحزب ، بعد الاتحاد ، على الفئات الفلاحية .

غير ان (شعبية) الحزب بقيت محدودة من حيث الحكم واسلوب الانضواء الذي ارتبطت بواسطته بعض جماهير الفـــلاحين والعمال بالحزب . فلقد انتشرت الدعوة الاشتراكية بين الارياف المجاورة لمدينة حماه وحمص فقط . كما ارتبط بعض القادة النقابيين في حلب بالحزب العربي الاشتراكي عن طريق بعض المحامين أصدقاء اكرم الحوراني .

ولكن الحزب المتحد (البعث والعربي الاشتراكي) لم يستطع ان يطور إطار (التجمع) العفوي الذي تشكلت ضمنه الفئات الفلاحية في ريف حماه ، إلى إطار تنظيم موضوعي ، يحمل صفات التنظيم الحزبي الاشتراكي الحقيقي . وكذلك فان كل (التوعية) الطبقية والقومية التي كان يتلقاها الفلاحون من الدعاة الحزبيين

تنحصر في إثارة عواطف الفلاح ضد الاقطاعي بصورة منحرفة، وتطميعه بالاستيلاء على أرض الاقطاعي في يوم قريب ، وربط معركته بقيادة زعـــامية على الصورة التقليدية ، تتمثل في شخصية الحوراني نفسه .

ولقد نتج عن انعزال الحزب هكذا عن المصالح الشعبية الحيوية ، انحصار نشاطه في الحقل السياسي ، ضمن المدن ، وبين جماهير الطلاب ، وتوجيه المعارك كلها ضد الصورة السطحية الخارجية لعقبات الثورية العربية، وهي الصورة المجسدة في الحكم فقط .

وطيلة عشرين عاماً من تاريخ وجود الحزب في سوريا ، لم يتبنّ الحزب قضية واحدة تخص المصالح العمالية ، ولم يستطع ان يثير أية معركة طبقية ، أو على الاقل معركة (اصلاحية) في سبيل تحسين شروط الحياة العمالية أمام طغيان مصالح بورجوازية رأسمالية ، لم ترض بالتنازل عن أبسط حق للعمال ، منحته رأسمالية الغرب لعمالها منذ قرن من الزمن على الاقل .

ولكن بالمقابل فإن اكرم الحوراني وكتلة الحزب في البرلمان ، كانا لا يفتأان يطالبان بتحسين أوضاع الفلاحين ومنـــع تهجيرهم ، ووضع قانون خاص بالعمال الزراعيين، هذا القانون الذي لم يجد طريقه الى التنفيذ أبداً قبل قيام الوحدة .

وأما ميشيل عفلق ، فقد كانت عقليته الضبابية وشخصيته المغلقـــة ، تقف دائماً مانعاً سلبياً واستعلائياً أمام ارتباط الجماهير الشعبية والعمالية في المدن، وخاصة مدينة دمشق ، بالحزب . وقد مارس هذا (التقليد) أصفياؤه وحلقة مريديه ، فاحتقروا العمال وأبناء الشعب ، وكانوا يتعففون عن المشاركة في النشاط الحزبي لمكاتب العمال والفلاحين والأحياء ، هذه المكاتب التي بقيت في أغلب الأحيان عبارة عن هياكل تنظيمية لم تبرح إلا قليـــلاً مستوى التفكير النظري والنية المجردة .

غير ان هذا لم يمنع بعض الشباب الجامعيين منذ عام (١٩٤٨) من الاندفاع، بصورة ذاتية فردية ، إلى النشاط بين اوساط الفـلاحين في بعض القرى المجـاورة للعاصمة ، وبين الاوساط الشعبية والعمالية في بعض الاحياء الفقيرة من المدينة .

حتى تشكلت نواة من بعض العمال اليدويين ، كان لها موقف نضالي متميز عن موقف المثقفين اثناء النضال ضد ديكتاتورية الشيشكلي .

ثم تابعت هذه الفئة من الشباب المثقف الاشتراكي النزعة نشاطها في منطقة (القابون) الغاصة بالمعامل الكبيرة جوار دمشق، بعد انهيار الشيشكلي. وراحت تتبنى بعض المطالب العمالية ، وتنشر الدعوة لها في زاوية صغيرة من صحيفة الحزب .

حتى استطاع (مكتب العمل) في فرع دمشق عام (١٩٥٥) ان ينظم أول مظاهرة عمالية كبرى خرجت من معامل القابون وطافت شوارع دمشق ، تحمل لافتات تطالب بتحقيق بعض المطالب الأولية لتحسين شروط الحياة العمالية .

وكان لهذه المظاهرة الكبرى صدى رعب وفزع في أوساط الاقتصاديين والحاكمين ، لأول مرة منذ سيطرة البورجوازية الجديدة بعد الحرب على شؤون المال في البلاد واطراد نموها بسرعة في غفلة عن مراقبة النشاط اليساري العربي لها.

وكانت المفاجأة الغريبة التي أذهلت القائمين على (مكتب العمل) في فرع دمشق – وكنت أنا واحداً منهم – حينما أمر صلاح البيطار بإلغاء المكتب كلياً وتوقيف نشاطه ، بحجة ان المكتب يعمل بتوجيه (شيوعي) .

وهكذا بالرغم من ان البيطار كان يهتم أكثر من عفلق وجماعته بالاتصالات الشعبية ، وذلك لتدعيم قواعده الانتخابية في المدينة ، إلا انه كان مستعداً لمنع أي نشاط (ثوري) بين صفوف أبناء الشعب ، يترجم شعار (الاشتراكية العربية) إلى شيء من العمل الذي يحول الحزب من دائرة النشاط السياسي إلى دائرة النضال الاجتماعي .

يمكن القول ان أفكار الحزب ومناهجه ووقائع نشاطاته منذ نشأته وحتى قيام الوحدة ، كانت كلها تمثل خطاً محافظاً بالنسبة للعمل الاشتراكي . وهذا ما جعل قواعده بعيدة عن ان تمثل مصالح شعبية فلاحية أو عمالية طبقية . وافتقرت صفوف الحزب دائماً إلى العناصر العمالية والنقابية ، إلا بعض الافراد القلائل الضائعين في بحر من البرجزة والذاتية المعقدة المتفشية بين قادة الاطارات الحزبية

الاساسية ، من محترفي الثورية .

وأما جماهير الريف الحموي ، وبعض القواعد العمالية في حلب ، فقد كانت تدين بزعامة الحوراني ، دون أي تطوير تنظيمي او اشتراكي لهذه التبعية الشخصية والتقليدية . ولذلك لم يكن لهذه الجماهير مشاركة او فعالية في بنية الحزب الداخلية ، وظلت تبعيتها خارجية مجمدة عند حدود التأييد والارتباط الشخصي - فلم تستطع ان تطور (تجمعها) إلى تنظيم ، ولا ان تطور تحريضها الانفعالي إلى وعي اشتراكي . وبالمقابل فان بنية الحزب لم تتأثر قليلاً او كثيراً بانتماء هذه الفئات الشعبية اليها ، وبقيت تابعة لنموذج تشكيلها الأول .

القسم الثاني

الأسس النظرية والموقفية للفكر البعثي

الفصل الأول

مصادر فكر البعث

بالرغم من السمعة الثقافية والفكرية التي اكتسبها حزب البعث بين طبقات الأمة ، فإن البعث نفسه كان بدون ثقافة ، وبقي هكذا إلى آخر ايامه . بل ان المصدر الأول لمختلف الازمات والانقسامات التي عاناها الحزب ، حتى قبل تفجره الأخير ، كان بسبب فقدان الثقافة أو الفكر الموحد ، من عقيدته العامة ، ومن خططه السياسية . ولعل هذه السمعة التي انتشرت حوله ، على انه حزب الثقافة والمثقفين ، إنما جاءته من طبيعة تركيبه الاجتماعية . وقد قامت هذه الطبيعة على استقطاب الفئات المتعلمة ، من طلاب وأساتذة وموظفين .

والأصح هو ان يدعى حزب (المتعلمين) او (اصحاب الشهادات) بدلاً من ان يسمى (حزب الثقافة والمثقفين) . فان كون هذا الحزب قد استطاع ان يجمع بين صفوفه عدداً كبيراً من أصحـــاب الشهادات او المتعلمين ، لا يعني ان الحزب كان صاحب مدرسة فكرية معينة ، ولا يعني ان للحزب برنامجاً عقائدياً واضحاً .

والواقع هو ان أفراده المتعلمين ، قد استمر كل منهم في استقلاله الفكري الخاص ، طيلة حياة الحزب وعبر مختلف تطوراته وانعطافاته . ثم ان الاكثرية

الساحقة من بين هؤلاء المتعلمين لم يمارس أي نشاط فكري بالمعنى الخاص ، لا على مستواه الفردي ، ولا على مستوى الحزب . بل احتفظ بعنوانـــه في الشهادة ، كعنوان اجتماعي له ، مثل غيره من المتعلمين غير المنضوين تحت لواء الحزب .

والفئة القليلة جداً من هؤلاء المتعلمين ، والذين حاولوا ان يكونوا (مثقفين) فعلاً ، فقد كان الاقل من هذه الفئة ، مـن (أوضح) ثقافته . فأنتج ابحاثـاً عن طريق مقالات أو كتب .

ومع ذلك فان هذا الفريق ممن مارس التفكير او التثقيف العقائدي، في نطا ق النشر العام ، كان (يفكر) على طريقته الخاصة ، وعلى مسؤوليته الشخصيـة . وطيلة حياة الحزب لم تصدر نشرة رسمية داخلية، تحاول أن تبين الموقف الفكري للحزب من بعض الكتب او الابحاث والمقالات ، التي ينشرهـا بعض أفراده ، ضمن نشاطهم الخاص .

ولذلك فإذا ما حاول أي باحث موضوعي ، ومن خـارج الحزب ، وممن لم تتح لهم فرصة الممارسة الداخلية لتناقضات الحزب ، إذا ما حاول هذا الباحث أن ينقب عن المصادر الفكرية والعقائدية للبعث ، فلن يعثر إلا على جملة وثائق أولية ، عفوية . تتألف من العناصر التالية :

١ ـ مجموعة أحاديث للاستاذ ميشيل عفلق ، ألقيت خلال السنوات الاولى من تأسيس الحزب على مجموعة ضئيلة من شباب الطلائع الاولى للبعث .

تتصف هذه الاحاديث بانها مجموعة كلمات مرتجلة ، كان يلقيها الاستاذ عفلق، بدون اعداد سابق ومكتوب .

وتتصف كذلك بانها ذات لون ظرفي ، يجعلها مرتبطة بالأهداف السياسية او الفكرية ، التي كانت تلح على عفلق وقت القائها .

وهي ككل حديث مرتجل ، ينقصها الترابط المنطقي ، ويعوزهـــا التأمل الهادىء ، وتسودها دوافع الصدفة التي تجعل عبارة ما ، تأتي نتيجة لعبارة طارئة وهكذا .

٢ ـ مجموعة مقالات كتبها عفلق والبيطار كافتتاحيـــات سياسية في جريدة

البعث ، في الفترة السابقة على قيام حكم حسني الزعيم عام (١٩٤٩) . وكانت هذه المقالات في مجملها تتوجه بالانتقاد السياسي لمظاهر الحكم الوطني المزيف الذي ورث حكم الاستعمار الفرنسي المباشر بعد جلاء جيوشه عام (١٩٤٦) .

٣ ـ مجموعة من المنشورات الخارجية التي كتبها أيضاً عفلق والبيطار، بمعونة بعض مثقفي الصف الاول والثاني من شباب الحزب . وهي لا تخرج عن كونها كذلك نوعاً من الانتقاد او الهجوم الموجه للحكومات الرجعية . ولا تتعدى الاسلوب السياسي الحماسي لتعبئة عواطف الجماهير واثارتها .

٤ ـ مجموعة من المقالات المتناثرة عبر جريدة البعث في مراحل ظهورها المختلفة ، والتي تعاقب على كتابتها عدد من مثقفي الحزب ، تتناول بعض التوجهات الفلسفية والأدبية والسياسية لبعض مفكري وكتّاب اليمين واليسار في فرنسا . كما تتناول أيضاً بعض الشئون الأدبية والتحليلات الاجتماعية غير المدروسة والمنظمة .

٥ ـ أما الكتب الفكرية او العقائدية التي صدرت عن بعض مثقفي الحزب ، وخارج التوجيه الرسمي له ، فكانت قليلة العدد ، مبعثرة الاتجاهات الفكرية ، ولا تعبر في أغلب الأحيان إلا عن آراء اصحابها الشخصية . ولذلك لم يجرؤ الحزب على تبنيها او حتى على اعلان رأيه فيها . بل تركها سائبة بين أيدي أعضائه الظامئين إلى مطالعة أية نثرات من الفكر والرأي يكتبها بعض قادته المثقفين[١].

وقد اعتاد شباب البعث على ملاحقة الانتاج الأدبي ، من شعر وقصة و مقالة في الصحف والمجلات للكتاب البعثيين ، دون عناية بالمطالعات الفكرية الجدية التي كانوا يفتقدون وسائلها سواء في مكتبة الحزب ، أو في المكتبة العربية المستدة آنذاك .

---

١ ـ من هذه الكتب ، كتاب منيف الرزاز ، الذي اعتبر وثيقة بعثية اساسية بالرغم من كونه مدخلاً متواضعاً ، مجرداً وعاماً لبعض التحليلات الاجتماعية غير العلمية للواقع العربي وتطلعاته الثورية . ومنها ايضاً سلسلة كتب الدكتور عبدالله عبد الدائم ، التي لم تخرج هي ايضاً عن كونها مدخلاً عاماً وتجريدياً لكثير من المشكلات القومية . وكان البعثيون في سوريا خاصة يرجعون الى كتب الارسوزي باعتبارها المتن الاصلي للتفكير البعثي ، وان عارضها الموقف الفكري الرسمي للحزب بصورة غير مباشرة .

ولذلك كان تأثر هؤلاء الشباب بالادب ، والحماسة الشعرية ، والاساليب الخطابية المباشرة ، أقوى من تأثره بالدراسة الجادة . وقد عاش مثقفو الحزب وأنصاره على الانتاج العاطفي لبعض الشعراء والكتاب ، طيلة الفترة السابقة على حلّه عام (١٩٥٨) .

ولكن بالمقابل فان نواة تيار فكري جاد ، كانت تحاول النمو والتطور ، داخل ذلك العماء الفكري والفقر المذهبي . وقد بدأت بوادر هذا التيار بالظهور خلال الفترة الغنية بالصراع العقائدي والسياسي ، التي مرت بين انهيار حكم الشيشكلي عام (١٩٥٤) وبين بداية الوحدة عام (١٩٥٨) .

ظهر هذا التيار من خلال سلسلة من المقالات المؤلفة والمترجمة في جريدة البعث ، تدور حول الانقلابات الماركسية التي عانتها الشيوعية بعد المؤتمر العشرين المنعقد في موسكو .

وكان يقود هذا التيار نحو الفكر الثوري العلمي زمرة من كبار مثقفي الحزب أمثال الاستاذ عبد الكريم زهور والدكتور جمال الأتاسي ، وبعض الاساتذة والشباب الآخرين الذين أخذوا يتحلقون حول الاتجاه العلمي الجديد لفهم الثورة وتحقيقها الفعلي .

ثم غاب هذا التيار فترة طويلة من الزمن ، وعاد إلى الظهور من خلال مجلة الفكر السياسي ، صدرت في السنة الاولى من الانفصال الرجعي ، وتضمنت بعض الدراسات ذات المنهج الثوري الجدلي حول مفهومي الوحدة والاشتراكية . وتوقفت المجلة منذ حلول ثورة الثامن من آذار .

وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبه ظهور هذا التيار اليساري العلمي بين صفوف القادة المثقفين من الحزب ، فان إنتاجه الفكري بقي ضئيلاً مجزأً ، اقتصر على إعلان نواياه الثورية وانطلاقاته العلمية ، دون ان يستطيع تنفيذ مشاريعه الكتابية .

وبالرغم من هذا الفقر المدقع الذي سيطر على عقائدية الحزب وأفكاره طيلة عمره الطويل - نسبياً - فإن هناك جملة أسباب ، كانت تمنع المفكرين من

كبار أعضاء الحزب من الانتاج النظري. وكان بعض هذه الاسباب بمثابة تبريرات وهمية ، الى جانب بعض آخر منها لا يخلو من الصحة .

والواقع ان السبب الاول الحقيقي في فقر الحزب من الثقافة النظرية يرجع إلى هذا المرض الاساسي ، الذي صدرت عنه مختلف عقد الحزب وكوارثه الداخلية والخارجية . إنها الصورة الفكرية الأولى التي انحدر عنها تنظيم الحزب وتفكيره معاً . وهي صورة التجمع الموقت بين استاذ وحلقة من التلاميذ . يتطور الأول مع التفاعل ومضي الزمن ، الى نموذج (الشيخ) ، ويتطور التلاميذ إلى نموذج (المريدين) . وكما ان الشيخ يكتفي بما يشبه (الآيات) من الأفكار الأولية ذات الايحاء الشعري الصوفي، وكما يكتفي التلاميذ او المريدون بالنشوة والشطحة، وهذا التلذذ السري بالعوم فوق حدود الأشياء ، وتضييع هويات ومفاصل الافكار ، و (الانسجام) شبه الجنسي مع معانقة الضباب والانسياح الى أجواء تهويمية ، همها الاول إعدام الثقل والشكل واللون، وإنهاء أثر الواقع السيء الذي يسيطر على الاستاذ والتلاميذ معاً ، والخلاص نهائياً من تبعات الأمور وإلقاء مسؤوليتها على الاستاذ الشيخ ، وهذا يلقيها بدوره على (الواقع الفاسد) .. كما تحدث هذه الاشياء كلها ، فان حلقة الشيخ والمريدين لا يمكن في الواقع ان تصدر أية منظومة علمية من التحليلات ، المتطابقة مع عقد الاوضاع الراهنة وأساليب تجاوزها بطريق مواجهتها الثورية .

إن مثل هذه العلاقة الصوفية التي ربطت بين ميشيل عفلق ومن يسمون بالصفوف الاولى والثانية من الحزب ، أي التلاميذ الأوائل ، قد شكلت الخلية النموذجية الأساسية التي سوف تتكاثر الى خلايا الحزب كله فيما بعد ، عندما يتسع وينتشر . حتى تصبح صورة التنظيم كلها عبارة عن حلقات من أساتذة أو زعماء ، ومريدين أو اتباع ، تعتمد أولاً في روابطها على مدى التأثير الشخصي شبه السحري الذي يمارسه شيخ الحلقة او زعيمها على أتباعه . وهو تأثير يخشى أي توضيح ، لأنه من مرتبة (ذاتية مطلقة) ، مرتبطة بنوع من التعفف المراهق المهووس بالشطح والانفلات من أي تحديد ، خوف ان يضبط ضمن موقف يطالبه

بمسؤولية ما .

وعن هذا الوضع (التنظيمي) الابتدائي الذي نمت منه مختلف مركبات الحزب الذي هو جبهة من الحلقات المعلقة ، وأفكاره التي هي تهويمات شاعرية ، عن هذا الوضع نشأ جو من التحريم الداخلي ، يمنع مبادرات الافراد نحو توضيح أية فكرة او شعار من شعارات الحزب، التي بقي يستمد القوة من مجرد رنينها اللفظي ، عمره الطويل هذا .

وبعد ان جاوز الحزب مرحلة التأسيس الاولى ، وانتشر ضمن هـــذا النسق التنظيمي، على شكل حلقة الشيخ ومريديه – لأن كل مريد من الصفوف الاولى انطلق لانشاء حلقتـــه الخاصة عندما جاوز سن الرشد ومرحلة الطلب على شيخ المشايخ : عفلق – لم يعد بالامكان اكتشاف خط نظري موحد ، بعد ان تعددت الحلقات والآراء ، التي كانت الحصن العقائدي لكل حلقة ضد الحلقات الاخرى .

ثم انخرط الحزب في المواقف السياسية الخارجيـة ، واحتكرت مهمة العمل السياسي فئةالحوراني ونوابه. فزجّت بالحزبفي مواقف متناقضة جزئية وملتوية، أصبح معها كل تفكير نظري شبه مستحيل .

فالذين اندفعوا الى العمل بدون أي دليل فكري سابق ، لم يعد يمكنهم ان يسمحوا بفرض الأفكار الايدلوجية فوق تصرفاتهم من أعلى . فذلك يمنعهم مـن (الليونة) والروح الانسانية المطلوبة في هذا النوع منالعمل السياسي الذي ينزلق بين الاضداد ، ويلتوي مع المنعطفات، ويتشابك مع أعدائه مرة بمعركة ومرة اخرى بقبلة وعناق طويل خبيث .

ولذلك فان القيادات الاولى ذات الطابع الفكري والثقافي ، لم تجد ثمة اسلوباً لتبرر عقمها إلا الانزواء والابتعـــاد في سلسلة من مواقف (الحرد) المصطنع ، احتجاجاً على تصرفات (السياسيين) الحوراني ومدرسته .

وطاب للبعض الآخر ان يقدم تبريراً آخر من نوع (الآيات) القدسية ايضاً . فراح يحيط الشعارات الكبرى بجو من التحريم ، يبعدهـا عن أية محاولة للتحليل والدرس ، بالاسلوب العلمي ، والرؤية الواقعية الصحيحة . وذلك حسب ادعائهم

بأن دراسة الشعار تؤدي به الى (تفاصيل) لا قيمة لها . والاوفق مثلاً بالنسبة لشعار (الاشتراكية) ان يترك إلى حين تحل مرحلة التنفيذ .

ولا شك في أن هذا التبرير ، رغم تهافته ، يدل على طبيعة الوضع التبشيري الذي كان يسود فكر الحزب وتنظيمه ، حتى عندما تورط في مختلف الصراعات الواقعية ضد خصومه ، وخاصة خلال السنوات الاربع او الخمس بين سقوط عهد الشيشكلي ، وبين قيام الوحدة الاولى .

إن سلسلة (المكاتب الثقافية) التي حاول الحزب إنشاءها ، ضمن أجهزته الداخلية ، لم تستطع مرة واحدة ان تتفق على منهج معين ، ولم توفق حتى باصدار نشرة داخلية منتظمة . وكانت اللقاءات بين (الاساتذة) في احسن شروط إنتاجها ، قد تتفق على (مشاريع) دراسات ، لا تخرج ابداً إلى النور .

وكثيراً ما (جنحت) هذه المكاتب الى انتقاد تصرفات القادة السياسيين أثناء اجتماعاتها ، فتنقلب جلساتها إلى حلبة للصراعات الشخصية ، ولا تلبث حتى تضع حداً لهذه الاجتماعات – التي فقدت كذلك أبسط الشروط التنظيمية – وتصبح المكاتب الثقافية هياكل معلقة بالفراغ .

وأما المحاضرات التي يلقيها بعض الاساتذة – خاصة بعد ان (انشغل) عفلق وانعزل عن قواعد الحزب – فكانت من الناحية التنظيمية ، عبارة عن سلسلة من (التبرعات) تفوز بها بعض فرق الحزب ، لما لرئيس الفرقة من صلة شخصية بالاستاذ فلان او الاستاذ فلان . فلم تكن إذن ثمة خطة مدروسة تتبعها هذه المحاضرات العفوية . وكانت أكثر الموضوعات تتبع ثقافات هؤلاء الاساتذة المتضاربة وأمزجتهم الآنية وقت إلقاء المحاضرات . ولذلك فان دراسة الموضوعات – إن كان بعضها قد سجل في وثيقة – تضع الانسان امام تناقضات هائلة ، توزع الأفكار بين أقصى اليمين وأقصى اليسار . هذا عدا عن خلوها من العمق والشمول ، وعدا ذلك (الطابع الارتجالي) الذي يسود اسلوبها ، وذلك المنهج (التحريضي) الذي يتبعه أكثرها .

وبالمقابل فقد عاشت جماهير الحزب في الواقع على ثقافات مشوشة تلقيها إليها

جريدة الحزب ، حسب مواسم ظهورها المصابة بفترات طويلة من التقطع نظراً للظروف السياسية المحيطة بها .

ولقد كانت الموضوعات التثقيفية (النادرة) التي تنشرها جريدة الحزب ، تنتمي إلى اصول الترجمة والاختصار عن ابحاث غربية لا طابع لها ، ان لم تجنح نحو الثقافة الكلاسية ، واليمينية في جوهرها .

ومع ذلك فقد تعلقت بهذه الموضوعات جماهير الحزب الظامئة الى ما ينير طريقها الفكري ، ويحدد موقعها بالنسبة لتيارات الايدلوجيات التي تعصف بها من كل مكان .

ولكن المحاضرات والمقالات وبعض النشرات النادرة ، لم تكن إلا لتزيد التشويش والغموض في عقول الاعضاء والاصدقاء معاً .

وكان الرابط الوحيد الذي حفظ للحزب وحدته الظاهرية على الاقل ، ذا طابع عملي بحت . إنه الاستغراق في سلسلة الصراعات السياسية التي كانت تدور حول الحزب ، لا باعتباره منظمة سياسية مستقلة ، ولكن باعتباره جزءاً من الجماهير العربية في سوريا المعادية للأحلاف والمؤامرات الاجنبية، التي كانت تتابع تحقيقها الفئات والمنظمات اليمينية في سوريا .

ولكن ينبغي ايضاً ان نعرف طابع هذا (الاستغراق) اليومي في بحران التحديات السياسية التي كان يستقطبها الحزب حوله ، كجزء من الجماهير الغاضبة .

فالسياسيون الرسميون للحزب ، وهم نوابه بزعامة الحوراني ، كانت تتابع اللعبة البرلمانية من الداخل ، وفي منعطفات مظلمة ، فلا تصل الى قواعد الحزب والجماهير إلا اصداء الانفجارات التي تحدث بين حين وآخر . وهكذا عاش الحزب ايضاً في نوع من الغفلة والغياب عن ساحة التفاصيل الحقيقية للعبة البرلمانية . وبقي ينفعل كغيره من القطاعات الجماهيرية بأصداء الانفجارات السياسية ، دون أن يقف على مضمونها الغامض .

فالى جانب الفقر الثقافي العقائدي ، كان هناك ايضاً ذلك الجدب المطلق تقريباً من التحليلات السياسية الداخلية . وكانت افتتاحيات الجريدة ، هي المصدر الوحيد

تقريباً ، لأية معرفة بحقائق الظروف السياسية ، على الرغم من التجريد والتحريض الذي كان يسود هذه الافتتاحيات .

فكما تركت للأعضاء (حرية) آرائهم الايدلوجية ، كذلك تركت لهم حرية التأويلات والاستنتاجات السياسية ، المفتقرة دائماً الى الوقائع . هذه الوقائع التي كانت من جملة (الاسرار) و (المحرمات) التي تخفيها القيادة السياسية باستمرار عن قواعد الحزب . فالفكر الايدلوجي ، والفكر السياسي ، كلاهما كانا يفتقران باستمرار الى الوثائق .

واذا وجدت هذه الوثائق ، فانها تظل عاجزة عن ابراز معالم الطريق وإثباتاته . وبقي الانفعال الجماهيري الذي تمارسه الطلائع الطلابية ، هو الهيكل الوحيد لـ (وجود) الحزب على مستوى العمل اليومي الشعبي.

وكان طريق معرفة أفكار الحزب وخططه هو الانتساب إليه، أي الانتساب الى حلقات الطلاب التي احتكرت العمل في الشارع دائماً . وعندما ينتسب الطالب الجديد الى الحزب ، فإن كل ما سوف يطرأ عليه من تغيير ، هو أنه أصبح (بعثياً) .. ولا يلبث حتى يستغرق بالحياة اليومية [1] للحزب ، بعيداً عن الفكر والعمل العقائدي الحقيقي .

١ – الحياة اليومية للحزب ، فقرة هامة سوف نتناولها بالتحليل في فصل قادم .

الفصل الثاني

واقع الفكر الثوري العربي

بالرغم من انعدام الانتـاج الفكري المكتوب ، الأيدلوجي والسياسي ، إلا ان ثمة فكراً ما ، كان يسيطر على جو الحزب ، ويؤلف له روحية خاصة ، تختفي وراء نماذج عمله الفردي والجماعي ، وتقود علاقاته الذاتيـة بين قطاعاته واجهزته . ولذلك لا بد من (استنتاج) هـــذا الفكر ، ولو لم تكن له مصادره المكتوبة المتوفرة ، ولا بد من تحليله وتقييمه . وبالتالي فانه تلزم الاشارة من البدء ، إلى ان مسؤولية قادة البعث في الماضي عن هذا التقصير الفاضح في استكمال النظرية البعثية التي ربما كانت قد منعت كثيراً من انحرافاته قبل الوحدة ، واوقفت إلى حد ما انهياره وسقوطه في شرك الثورة المضادة زمن الانفصال ، هذه المسؤولية قد تناظرها ايضاً مسؤولية الظروف المرحلية التي أحاطت بعمل الحزب ، فجعلته بالدرجة الاولى حزباً تبشيرياً بأفكاره، يقتصر على فلسفة شعارية مباشرة ، وجعلت تنظيمه حلقة متوسطة بين التجمعات العشائرية السابقة وبين الحزب بالمعنى الحديث، وأعطت له هـذا القوام العجيني الذي تنقصه باستمرار قوة التبلر والتمركز حول محور عقائدي عملي واضح او قابل للنمو بشكل يناظر نمو حركة النضال التاريخي، ويمنعه من الزيغ والانحراف ، ولا يسوقه الى هذا التعارض المخيف بينه وبـــين

اتجاه حركة التاريخ نفسها ، ويفجره على الصورة الرهيبة المؤسفة ، التي هو عليها اليوم .

واذا ما حاولنا الآن، بعد ان استوعبنا حقيقة مصادر التفكير البعثي ووضعه التقييمي ، ان نقوم بعملية استنتاج للفكر غير المكتوب ، والذي أسس شخصية الحزب المعنوية ، وتسبب في كل عقد هذه الشخصية وميزاتها ، استطعنا ان نضع يدنا على البذرة الاولى لهذا الفكر .

ولكي لا تكون دراستنا للفكر البعثي متجنية على البحث العلمي ، فإننا لا نود ان نعزل هذا الحزب عن الشروط الموضوعية التي كانت تحيط به ، في مرحلة نموه خاصة . ولذلك فان استنتاج الفكر البعثي ، هو استنتاج ايضاً لفكر المرحلة العامة كلها التي كانت تمر بها الاجيال الثورية المثقفة بين النكبة والوحدة . واذا كان الحزب هو بوتقة هذا الفكر ، فكر المرحلة كلها ، فلأن مسؤوليته أكبر من بقية الفئات الاخرى ، اذ أنه كان مطالباً في الواقع بأن يعي انه ليس مجرد تجمع بشري غاضب ضد المفاسد السياسية والاجتماعية ، ولكنه طليعة حقيقية لبعث عربي ، تكون له مقوماته الفكرية ومؤسساته الحضارية .

والولوج في بحث عن فكر البعث ، هو استيعاب ، في الوقت ذاته ، لمشكلة الفكر الثوري كله في مرحلة طويلة وشاقة من عمر الثورية العربية . ولذلك جاء هذا التطابق بين ميزات وخصائص الفكر البعثي في تلك المرحلة مع فكر الثورية العربية ، ووضع الاجيال الثورية وحاجاتها المختلفة للانجازات العملية قبل النظرية، وتناقضاتها ، ونكساتها ، ومشاريع التجاوزات المختلفة ، التي تعدها للواقع العربي الفاسد .

* * *

من الواضح أن الفكر الثوري، الذي يريد ان يحضّر ويهيء للثورة المستمرة، انما هو نفسه بعوم في واقع ثوري قد يكون بصورة سابقة على وجوده هو . فمن خصائص الثورية العربية ان واقعها ،كأحداث ، ما زال يسابق فكرها ، إذ ان وجودها اليومي هو متجاوز باستمرار لماهيتها كفكرة واضحة ، تحاول العقول

استخلاصها . ولا شك في أن أسبقية الواقع الثوري على نظريته ، او بالا حرى على فكرته المجردة ، يمكن ان تعتبر دليلاً شاملاً وكافياً على حقيقة المرحلة الحضارية التي تعانيها الامة العربية . فهي بكل معنى الكلمة ليست مرحلة ثورية من حيث المظاهر السياسية فحسب ، ولكنها تكاد تكون بدءاً في التكوين والخلق . وهو تكوين يقطع صلته بصور التكوين السابقة ، ويحاول ان يحمل تصحيحه الخاص ، وبذور ملامح المستقبل الحضاري الذي يتوخاه لذاته .

فالواقع الثوري إذن ، ليس واقعاً متأملاً ، أي أنه ليس هدفاً ، ما زال أشبه بنية طيبة لدى الأجيال التي تتوق للثورة . بل ان الاحداث التي تعبر عن نفسها بثوريات مادية يومية ، تكاد لا تترك فسحة للأمنيات إلا ضمن أبعاد نسبية .

فالمكان العربي يتفجر بين جزء وآخر ، ليطيح بأشكال من الانظمة البالية التي تسود مجتمعه والزمان العربي كذلك ، هو زمان ، إما انه يعد لثورة او أنه يحقق ثورة ، او انه يؤصل ثورة قد تحققت ووقعت . وعلى هذا الاساس فإنـــه يمكننا ان نعتبر بكل بساطة ان الحقيقة الثورية ، توجد ضمن ظروفها الموضوعية في الحاضر العربي ، بشكل مستقل إلى حد ما ، عن التخطيطات . أي ان العوامل الفردية المنبثقة عن الأفكار ، والتي تسعى الى التنهيج الواعي ، تظل بعيدة الى حد ما ، عن تلك القدرة التي تجعلها تؤصل ثورة نتيجة لتأصيل فكري .

حتى لو اخذنا اعظم ثورات عصرنا العربي الحاضر ، وهي ثورة ٢٣ تموز ، لوجدنا ان الاهداف الستة الأولى التي انطلق منها الثوار في البداية هي بمثابة حدس ذاتي بمشروع للتغيير . ولكن الممارسة اليومية ، والدروب التي حفرتها وقائع الثورة نفسها ، قد وضعتها وجهاً لوجه امام المنهج العلمي للثورة الشاملة الكاملة ، مستفيدة من ينبوع ذلـــك الحدس الاول ، ومن الميزات الكبرى لشخصية قائدها جمال عبد الناصر .

وقد يشكو بعض النظريين من انهم لا يكادون يلحقون بالتيار الثوري في سبيل تعقيله وتكثيفه في تنهيج فكري متماسك .

فمثلاً كان الاجتهاد القديم الذي سيطر كذلك على الايدلوجية الاولية لحزب

البعث ، هو ان نواة الوحدة العربية الاولى لا بد ان تنطلق من منطقة المشرق ، وتكون العراق وسوريا خليتها الأساسية. وبالمقابل فلم يكن رواد البعث يتصورون انفجار ثورة ما خارج المشرق العربي ، وخاصة في مصر . ولذلك عندما قامت ثورة ٢٣ تموز ، استقبلها هؤلاء بفتور وشكوك كبيرة .

وكذلك جاءت وحدة سوريا ومصر مفاجئة لهؤلاء النظريين . وكانت ثورة اليمن وما تبعها من ثورات في الجنوب العربي ، تؤلف ايضاً أكبر مغامرة ، لم يجرؤ احد على تصورها من قبل . بل لقد جاء حساب انتفاضات الجزيرة العربية في آخر مراحل الثورية العربية .

وكذلك يمكن القول ان ثورة الجزائر ، بالرغم من مقدماتها الرائعة ، كان الأمل بنجاحها ضعيفاً لدى قادة البعث . كما ان احداً منهم لم يتخيل ذلك الدور العظيم الذي سوف تلعبه هذه الثورة بعد انتصارها ، بالنسبة لقضايا الثورية العربية ككل . كما ان احداً منهم لم ينتظر هذا التحول الاشتراكي الذي ستصير إليه الثورة الوطنية في الجزائر ، بعد الاستقلال .

ولكن المسألة تقوم بالنسبة لأسبقية النظرية الايدلوجية على واقعية الثورية العربية،فقد يبين هذا الوهج الذي تتمتع به الثورية العربية،وهي أنها،وإن تخطت لإرادات الأفراد احياناً ، وإن تجاوزت مشاريع التعقيل احياناً اخرى ، إلا ان العنصر الاساسي في كل ثورية ، وهو واقعيتها ، هذا العنصر يكاد يكون متوفراً كله للأحداث العربية الثورية .

فقد تقع الثورة ، وتتدخل قواها المادية ، لتقلب بين لحظة واخرى معالم الانظمة القائمة ، وكأنها قد تهيأت ضمناً في وجدان المجتمع والتاريخ . ثم لا تلبث احداثها حتى تتخم الحواس بتتابعها وثقلها ، وكثافتها اليومية ، ولكن عندما تتعثر بعض هذه الثورات ، او تنقلب الى نقائضها بعد مرحلة من التمزق ، والتوتر الذاتي ، فانها تضيع أهدافها الاولى ، وتفقد طريقة تجاوزها لأحداثها ، والعبور نحو مستقبلها المحتوم .

في بعض لحظات التردد والفشل هذه، تنبثق الارادات الفردية التي تنحو باللائمة

على الثورة ، من حيث انها لم تكن تحمل ، من الاساس ، ذاك الوعي الذاتي بقدرتها ، وانها لم تكن مسلحة بذلك الوعي النظري الكافي ، الذي يجعلها مضاءة من داخلها ، بالنسبة لأعين أصحابها وقادتها . وكان الوعي الثوري الذي اكتفى بالوثوقية الشعارية ، في بداية انطلاق الثورة ، ينقلب على ذاته الآن لكي يحطم هذه الوثوقية ، ويبدأ بعملية انتقاد ذاتي ، تهيء توعية جديدة شاقة شاملة ، من أجل الكشف عن الشروط المستجدة في واقع الثورة ، فترفع من قواها الذاتية ، الى مستوى التحولات التي تواجهها الجماعيات الثورية في الواقع .

فالحاجة الى التعقيل بالنسبة للثورية العربية ، لم تكن هي الحاجة التي تأتي في بداية الضرورات الثورية ، قبل تحقق الثورة ذاتها .

إلا ان لها من وجهة نظرية، أولوية منطقية على الحدث الثوري في ذاته . بمعنى ان التفكير البارد ، يتصور اولاً ، ان الثورة تبدأ في شكل تخطيط نظري ، وان هذا التخطيط النظري لا بـد ان يوفق بين الايدلوجية وبين الوسائل العملية في التحقيق ، أي بين القدرة على الرؤية التي تتجاوز الحدث ، وبين القدرة على تحقيق الحدث نفسه، بما ينسجم مع هذه الرؤية .

ولكننا لا نثور بقـدر ما نفكر . او أن عامل التفكير نفسه في الثورة الحقيقية ، لا يمكن ان يسبق عامل التحقق الثوري. ولعل مقياس هـذه الثورة الحقيقية ، هو كونها تفرض وجودها اولاً بما لديها من قوى سلبية متفجرة ، قد لا تحمل بينها إلا أبسط الظلال لشعارات مباشرة .

فتقوم الثورة ، في وجودها المباشر ذاك ، وكأنها تهدف الى القضاء على حاكم ما ، او نظام ما . او انها تريد ان تستبدل حكماً بحكم ، مستفيدة من التعبئـة السلبية في انفعالات الجماهير ، التي يرضيها زوال النظام كله ، وانبثاق عهد جديد من الاساس . وكثيراً ما اكتفى الثوار بهذا التغيير . ثم حاولوا ان يحافظوا عليه ، وان يجعلوه مستمراً بقدر الامكان . فوقعوا بذلك ، دون ان يدروا ، بنوع من المحافظة الجديدة، التي تصبح هي نفسها عقبة امام النية الثورية التي حققت التغيير . كما انها تصبح عقبة أساسية بالنسبة لمحاولات ثورية اخرى تنبثق مـن

القاعدة في الحزب .

وعلى ذلك الاساس ، فان المشكلة النظرية بالنسبة للثورية ، تظل احياناً تبريرا لما حدث أكثر منها إعداداً لما سيحدث .

وقد يجد القادة الثوريون أنفسهم ملزمين اولاً بتثبيت ثورتهم ، التي نجحت ، او التي هي في طريقها الى النجاح . وهم يرون ان هــذا التثبيت ، يتطلب منهم بالدرجة الاولى ، منطقاً عملياً ، قد يستفيد من مختلف المناسبات التي تتاح لهم ، من أجل المد بقدرة الثورة في نطاقات اجتماعية مختلفة ، كالنطاق الاقتصادي مثلاً او الاصلاحي الجزئي .

وعندما تحتاج الثورية الى التوعية النظرية ، في سبيل إيجاد جماعيــة فكرية ، تقابل الجماعية الواقعية من الثورة ، ولا تكون مهمة هذه الجماعية الفكرية إلا أن تعكس الاحداث ، وتحولها الى أفكار ، وتجعل هذه الافكار المنسجمة فيما بينهـا نوعاً من الانسجام المنطقي او الذهني الخالص ، فإنما تكون هذه التوعية ، ليست سوى جملة تبريرات ، ليس لها من القدرة على التأثير ، إلا ما للظل فحسب .

فالتوعية النظرية ، اذا ما بقيت مجرد مؤالفة فكرية ، تود ان تدخل البنى الواقعية للثورة في مشروع مبرر ومعقول بالنسبة للمنطق ، محكوم عليها بضياع خصبها الذاتي . وقد لا يبقى بينها وبين مجرد الدعاية إلا فرق الاسم فقط .

قلنا ان من أعظم الدلائل على اصالة الثورة العربية ، هي أنها واقع يفــاجىء أكثر منها تخطيطاً ينتظر [1] . وقلنا كذلك ان هذه الواقعية ، هي التي تجعل جدلية الثورة في مستوى التأثير والفعل اليومي . وان هذه الجدلية تنبثق ، بصورة موضوعية كاملة ، فتأتي من أعماق التكوين الواقعي الذي يبشر بانبثاق الحضارة العربية المتوقعة .

ولكن هذه الواقعية ، أي هذه السلسلة من الاحــداث الثورية ، التي تتوالى من جزء إلى جزء في المكان العربي ، ومن حين إلى آخر ، بالرغم من كل مــــا تحمله من وضوح وثقل مادي ، ومن تشخيص حي ، يكاد يملأ ابعاد الحـــاضر

---

١ ـ راجع كتاب (مصير الايدلوجيات الثورية) للمؤلف .

العربي ؛ فان الجماعية الفكرية ، التي تناظر هذه الأحداث ، اي هذا الفهم الحي الداخلي لحركة الثورة ، لما تحققه ، ولما توصله ، ولما تتطور نحوه ، أي هذه الفكرة – الواقعة في الوقت نفسه ، هذه القيمة – التغيير ، هذا التصميم الموضوعي الذي يحمله الحدث عندما يقع ، وهذا الوعي الملازم لذلك التصميم ... كل هذه الاوصاف لعملية تداخل الجماعية الفكرية بجماعية الاحداث ، هو ما يجعل الثورة العربية ، تعاني باستمرار مما تسميه نقص الفكرة او الوضوح الفكري ، او النظرية والنوعية الثورية .

ولكن ينبغي ان نتوقف قليلاً عند هذه الحاجة للنظرية الثورية التي لا يفتأ يرددها بعض المثقفين الثوريين ، وهم يعانون من بعض لحظات الفشل والتردد ، او من بعض الشعور بالنقص تجاه أنظمة ثورية أخرى قائمة .

انهم يتصورون ان الثورة ما هي في الأصل ، إلا تحقيق عابر بنظرية ذهنية ، ترتب الامور بصورة منطقية ، وتحل المشكلات أولاً على صعيد الفهم والتحليل النظري . ثم تلجأ إلى تثبيت هذه الحلول في الواقع نفسه ، أي ان هؤلاء المثقفين يتوهمون ان للنظرية وجوداً فكرياً مستقلاً . واكثر من ذلك فانهم يتصورون ايضاً ان لهذا الوجود ميزته وقيمته التي تجعله أرفع وأعلى من مستوى الممارسة ذاته .

ولربما بحث المثقفون ، وهم محقون أيضاً ، عن تلك الايدلوجية الشاملة التي تقدم لهم وجهة نظر متكاملة ، تفسر لهم جميع المشكلات الذهنية والحياتية ، التي يهتم بها الانسان المتمدن عادة ، ويرضى بها تطلعه المنطقي والذهني ، انهم يبحثون عن تلك الايدلوجية التي لها مواقفها المسبقة من كل مشكلة ، يمكن ان تنبثق عن تتابع الاحداث ، على مستوى الفهم والعمل معاً . ويريدون من هذه الايدلوجية ان تكون أشبه بفلسفة ، لها أجوبتها على الاسئلة المطلقة التي اعتادت الحضارات ان تخطط قيمها ، بحسب الاجوبة التي تعرضها على نفسها تلقاء تلك الاسئلة .

فالتعليل المنطقي الذي يحل مشكلة الوجود والصيرورة والعدم ، وغيرها من

مشكلات الفلسفة الخالدة ، كما يحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، هو هذا الذي يتوق إلى تصوره متكاملاً في ايدلوجية مذهبية متماسكة ، هؤلاء المثقفون العرب ، الثوريون احياناً ، والذين يتمنون لثورتهم منظومة من المفاهيم والقيم ، تقنع كرامتهم الفكرية ، دون ان يخطر ببالهم ان يبحثوا أولاً عن تطابق واقعي بين هذه التمنيات الايدلوجية ، وبين التحولات الجماعية الموضوعية ، المنبثقة من كل مكان في مخطط الحاضر الثائر .

ولكننا لنقل قبل كل شيء ، ان هذه الامنية بولد الايدلوجية المتكاملة ، او ان هذا الشوق إلى التعليل المنطقي المكافيء للاحداث ، يظل هو نفسه إلى بعيد ، شوقاً مغمضاً غير واع لمغزاه الحقيقي .

إذ ان الشروع في التفكير الثوري ، لمجرد التصميم الارادي ، لمجرد ان مثقفاً يود ان يكشف عن القيم الفكرية التي تكمن في ثورة ما ، ليس هو البداية الصحيحة من أجل أن تتكون هذه الايدلوجية . فليست هي الحاجة الاساسية التي تدفع إلى مولد الايدلوجية . وكذلك فان التعبئة الوجدانية من أجل ظهور ما يكافيء كرامة الفكر ، مقابل ما يعطينا الواقع الثوري من حقائق ومؤسسات مشخصة مباشرة ، ليست هي المادة الخام التي تؤمن الذخر المطلوب للبناء الفكري.

فكون الواقع انه ثائر ، لا يعني انه يحقق نوعاً من التخطيط المسبق . وإذا كنا لا ننتظر إلا كل ما هو متوقع سابقاً ، فاننا سوف نرتكب مجانبة خطيرة لمسألة النمو الجدلي ، اذ ان هذا التوق من أجل ان تأتي الثورة مطابقة للفكرة ، ليس هو في الاساس سوى تعبير عن شبه ايمان غيبي ، يستبدل فكرة القدر الإلهي ، بفكرة القدر التاريخي ، او بصورة أخرى ، قدر المنطق الجدلي المادي عند الماركسيين .

ومن هنا يجب ان نقشع وهمين أساسيين ، لهما نفس الخطورة ، وان كانا متناقضين في الأصل .

الوهم الأول : هو الذي يتعلق بذلك الايمان ، بما نسميه حتمية المرحلة التاريخية ، دون تحديد العوامل الحقيقية التي تصلها بها .

فلقد ساد الموجة الاولى من الطليعة العربية ، ومنها صفوف القادة البعثيين ، ساد هؤلاء في بداية العمل الثوري التبشيري ، هذا النوع من التأكيد شبه الصوفي على ما يسمّونه : ضرورات المرحلة التاريخية .

ولكن ما هي دواعي هذا التأكيد في القوى الاجتماعية الموجودة ؟ وما هي هذه الضرورات التاريخية ؟ سؤالان يتعفف الفكر المجرد عن الخوض فيهما .

ولربما أراد هؤلاء أن يجعلوا عملهم ليس تابعاً لارادة الفرد ، كما انه ليس نتيجة لظروف طارئة . وكأنهم يسعون أيضاً إلى شحن أنفسهم بعقيدة تحتّم انتصار أهدافهم .

وليس من شك في أن الايمان بحتمية الانتصار ضرورة للعمل الحزبي ، ولكن تصور طبيعة هذا الانتصار ، والوسائل المؤدية اليه ، والعقبات الناجمة عن شروعه في التحقيق ، وهو جوهر كل ايدلوجية ، ظل الفكر البعثي المجرد صاحب المختصرات والمختزلات العريضة يتجاهلها، رغم شعور البعض بضرورة مواجهتها .

ان النطق باسم المرحلة التاريخية ، والتصدي للتعبير عن ارادة فوقية علوية ، بدون برهان على هذه الصلة ، إن وجدت ، هو مفتاح ذلك الغرور المراهق ، والذاتية المغلقة، والتعامي المطلق عن ظروف الواقع واحتمالاته الكامنة والظاهرة.

فما ان قضى زمن قصير على الممارسة (الثورية) التي خاضتها الطلائع الاولى ، حتى أخذت آثار هذا الوهم تفتك تدريجياً في البنى التنظيمية للطليعة نفسها ، وفي الظلال الفكرية لها .

فلقد نشأ عن هذا الوهم ما يشبه الاتكالية التي ترمي مسؤولية المبادهة على عامل ما ، غامض ، لا وجه له ، ولا صفة تحدده .

فعندما يقول ذلك الطليعي ، مفتتحاً منشوره او خطابه : أن المرحلة التاريخية تحتم ، فكأنه ينزع هو عن عمله صفة المسؤولية الشخصية ، وحتى صفة المسؤولية الطليعية ، ويحاول ان يربطها بتلك الحركة الخفية التي يدعوها هو (المرحلة التاريخية) والتي انتدب نفسه للنطق والعمل باسمها .

وكان لهذه الاتكالية (العقائدية) أيضاً أثر آخر . وهو ان الثوريين ، ودون

ان يدروا ، قد تنازلوا عن ارادتهم الذاتية في التغيير . ورواحوا ينتظرون انبثاق المبادهة الثورية ، بفعل ما يأتيهم من أية جهة من الكون .

فالأمة العربية سائرة حتماً نحو الوحدة والحرية والاشتراكية . ولكن لماذا وكيف،وما نوع هذه الشعارات او مضمونها؟ أسئلة لا يتنازل اليها ذلك الطليعي ، الفارس الأول ، الذي رأى المستقبل وحده من دون الآخرين . فصار مزرعة وحقاً له قبل غيره .

واذا ما وقعت المبادهة الثورية من قبل آخرين ، يسارع هؤلاء الطليعيون الذين كان لهم اولاً شرف التنبؤ والعناد بروءية الافق مثل الآخرين ، يسارعون إلى تبنّي هذه المبادهة وكأنها من صنعهم !..أولم يبشروا بها من قبل؟ ويعتبروها من حق فكرتهم ، وإن لم تكن من عملهم ؟. ألا يكفي أنهم تنبأوا بالمرحلة التاريخية؟

ذاك ما يجعلنا نفهم اليوم وقد شارفت بقايا الحزب على النهاية ، هـذا الهوس المجنون بادعاء أفكار الثورية التي وجدت لنفسها طرقاً مختلفاً للتحقيق . ويفاخرون عبد الناصر وبن بيللا بأنهم كانوا السباقين الى أهداف الثورة العربية وشعاراتها . وهم ينسون أن العناوين لا تصنع الثورات .

وهكذا تنازل التنظيم الطليعي الأول ، دون ان يعلم ، عن فعالية الثورية . وأخذ ينتظر قيام الثورات هنا وهناك بنوع من الايمان السحري بالمعجزات .

ولذلك وقف الحزب دائماً في منطقة رد الفعل من الاحداث . حتى اذا قامت الانقلابات العسكرية ، سارع الى تبنّيها ، دون تمحيص . ثم لا يلبث حتى ينفصل عنها ويدعو إلى محاربتها ، اذا ما بدا لقادة الحزب عدم استعداد الانقلابيين للتوجه حسب ارادتهم . هكذا مثلاً وقع الحزب في فخ الانقـلاب الاول في سوريا . فسارع الى تأييد غبي للانقلاب ، بمجرد انه قد أطاح بجماعة حكم المزرعة ، القوتلي وزملائه . ثم عندما عجز القادة عن هضم الزعيم وانقلابه ، حاولوا ان يحاربوه . حتى إذا ضيق الزعيم الخناق عليهم ، استسلموا وتراجعوا [1] ، وأوقعوا الحزب

١ - رسالة عفلق لحسني الزعيم وثيقة تاريخية ، أثبتت منذ عام (١٩٤٨) عجز هـذا الرجل عن التمسك بأي موقف نضالي . كما برهنت عن تلك الروح الفردية الطاغية التي تشعر بتملك الحزب ، دون تحمل المسؤولية عنه .

بحركة مد وجزر لا معنى لها ، قضت على بوادر هيبته في عين الجماهير ، وحمّلت شبابه الأوائل أول عقدة ، من تخاذل عفلق المزري، الذي أعلنه في رسالته الشهيرة إلى (حسني الزعيم) .

ثم عمل قادة الحزب ، ومعهم الحوراني هـذه المرة ، على مساندة انقلاب (الحناوي) ضد (الزعيم) ورغم تيقّنهم بأن الانقلاب الثاني هذا إنما قام لغاية استعمارية ، تريد إلحاق سوريا بالعرش الهاشمي في العراق ، فانهم اندفعوا إلى تأييده ، ودخلوا في حوار خبيث طويل مع مشروعه . ثم عندما أدركوا ان لا مكان لهم في صدارة هذا المشروع ، وان (حزب الشعب) بصورة خاصة هو القيم على المشروع ، والمفوض بتحقيقه من قبل دوائر (نوري السعيد) والبريطانيين ، اندفعوا إلى معارضته باسلوب انقلاب ثالث .

وهكذا بدأ (أديب الشيشكلي) يظهر على المسرح تدريجياً ، بتحريض من بعض قادة البعث ، وخاصة أكرم الحوراني .

ولكن (الشيشكلي) ما لبث ان تمرد على استاذه (الحوراني) ، عندما استتبت له السيطرة على الحكم عسكرياً ومدنياً. وسار في طريق ديكتاتورية مطلقة. تضع البلاد لأول مرة في خدمة المصالح الاستعمارية الجديدة لأمريكا .

واضطر الحزب إلى خوض المعركة الوحيدة الشعبية في تاريخه بسوريا ، ضد حكم الشيشكلي ، بعد ان ساند بعض قادته ذلك الحكم وهو في مراحله الاولى .

وكذلك فعل قادة الحزب عندما دعوا إلى الوحدة مع القاهرة، و (ضحّوا) بالحزب في سبيلها،ثم انقلبوا على هذه الوحدة ، عندما لم تسلّم البلاد إلى حكمهم. وحين أتيحت فرصة الوحدة مرة ثانية، إثر انقلاب الثامن من آذار(١٩٦٣)، فضل قادة الحزب ان يسيروا في طريق الانفصال خوفاً من ذهاب حكمهم وسيطرتهم على البلاد .

وهكذا ، فبدلاً من أن تُعدّ (الطليعة) شروط التغيير في الواقع ، في سبيل ان يساعد هذه (المرحلة التاريخية المتصوّرة) على التحقق، فانها اكتفت بتأمل

المستقبل ، الذي (لا بد) ان يحقق نبوءتها بالثورة والتغيير الأصيل !

وانعكست آثار هذه (التصورية) على التنظيم الطليعي ، الذي أخذ مع الزمن يفقد حرارة الاندفاع إلى العمل . وصار هو نفسه أشبه بنوع من الانتماء الفكري إلى عقيدة متصورة. دون ان يكون لها ما يكافئها من مشاريع جزئية ومرحلية ، تخطط لقلب الواقع .

وبذلك فقد ذلك التنظيم تحسسه المباشر بالتحولات الاجتماعية والثورية التي تجري من حوله . وتحصّن وراء قوقعة فكرة ألـّفها عن نفسه ، وعبدها في ذاته . وهي انه يكفيه انه كان السباق في اكتشاف أفكار المستقبل . يكفيه انه قال بوحدة الأمة ، وحريتها واشتراكيتها . ولذلك فان أي ميل في الواقع نحو تحقق أحد هذه الاهداف ، لا بد ان تعود ملكيته حتماً إلى المبشرين الاوائل .

فكان من السهل على مثل هذا التنظيم ألا يجد التلبية المناسبة ، في اللحظة الحاسمة ، عندما يطلب استنفار قواه ، لمواجهة طارىء مضاد للثورة . مما سمح بشيوع ذلك الطابع الأقرب إلى الفوضى في انتظام علاقات الافراد .

هذا إبان وجود الحزب بين صفوف الجماهير في مرحلة الكفاح السلبي . ولكن عندما تمكنت فئة من هذا الحزب ، من السلطة بعد الثامن من آذار (١٩٦٣) ، فان انعدام الفكر الايدلوجي المخطط ، وسلبية الانضباط الداخلي بين أفرادها ، وضمور الروح النضالية ، قد ساعد هذا كله على تأسيس عزلة جديدة للحزب ، هي العزلة المطلقة عن مرحلة التاريخ الحاضرة نفسها . فلقد جاؤوا بعقلية التبشير وقت التحقيق . وأتوا بأمراضهم الذاتية ، وعقدهم الاضطهادية لادعاء حكم الشعب . وانعكس شعورهم بقصورهم الذاتي إلى ضده . فتحول إلى نوع من النفخة الفردية ، تتطاول بالادعاءات الفارغة ، ولم يكن لديهم ثمة وسيلة لاثبات تفوقهم المزعوم ، إلا سبيل البطش والقوة وحدها .

ان المبشرين الذين يعجزون عن اللحاق بالمراحل القادمة من نزول الفكرة إلى صعيد الواقع ، سوف ينقلبون حتماً إلى عقبات كأداء خبيثة ، مليئة بمختلف عقد العاجزين المدعين ، في وجه ثورة الاحداث الحقيقية من حولهم .

الفصل الثالث

معنى المثالية البعثية

ان الوجود الشرنقي الذي عانته هذه الطليعة ، عندما تحولت إلى مؤخرة ، قد جعلها تختنق أسيرة لأحلام الدودة ضمن الشرنقة التي تعجز عن التحول إلى الفراشة ، لتخترق جدار الشرنقة وتحلق فوقها عالياً .

حتى يمكن القول ، ان جميع مظاهر المأساة التي انتهى اليها الحزب على أيدي هذه الطغمة الناطقة باسمه ، بعد الثامن من آذار ، إنما ترجع في جوهرها الفكري، إلى هذا الاختناق داخل وجود شرنقي مظلم ، وبنوع معين من الحياة ، هو نوع الدودة الضامرة وسط ظلامها الذاتي .

ولذلك فعندما يوصف تفكير حزب البعث بأنه مثالي ، ينبغي التدقيق إلى أقصى حد ، في هذا الوصف . والسبب هو ان المثالية كمذهب فلسفي وكموقف اخلاقي عملي ، تختلف كلياً عن تلك العقلية الاقرب إلى السحرية والضبابية التي حكمت فكر البعث وسلوكه .

فلم يكن مثلاً قادة الحزب ينتمون إلى فلسفة (هيجل) أو غيره من الفلاسفة المثاليين . ولم يحاول أحدهم ان يكتب من خلال معطيات هذا المذهب او أحد فروعه . بل ربما كان أكثرهم جاهلاً بكل هذا التراث الفكري ، الذي قد

يحملون اسمه ويقبلون به، لكي يكون لهم ثمة موقع فكري معين، وهم لا يدرون فعلاً أين هم من مختلف المذاهب الفلسفية وتطبيقاتها السياسية .

غير ان الناس قد اعتادوا على نعت البعثيين بالمثالية، وخاصة في مراحل تأسيس الحزب الأولى ، وكان هؤلاء الناس ، يعنون بهذا النعت ، ان يقللوا من قيمة الحزب وخطورته ، لأن المثالية تعني عندهم الخيالية .

وذلك لأن الوجه التبشيري الذي عُرف من خلاله عمل الحزب ، في مراحل تأسيسه الأولى ، يمكن ان يؤدي إلى هذا الاعتقاد بخيالية القائلين بتغيير الواقع ، دفعة واحدة ، ودون ان يكلفوا أنفسهم عناء تحليل صيغ الفساد في هذا الواقع ، والوسائل الناجعة من أجل تطويرها .

وعلى هذا ، فاننا عندما نستعمل صفة المثالية في تحليلنا للفكر البعثي ، فنحن نعني بها ما عناه الناس منها ، وهي الخيالية . ونضيف اليها تخصيصاً آخر ، وهي الخيالية التبشيرية .

فلقد طغت أفكار مرحلة التبشير الاولى التي رافقت تأسيس الحزب في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، طغت هذه المرحلة على مستقبل الحزب كله ، وتسببت في شطره إلى شطرين متناقضين تماماً طيلة الفترة ما بين سقوط عهد الشيشكلي ، وقيام الوحدة . وهي الفترة الأخصب فعالية بالنسبة لتاريخ الحزب عندما كان الحزب مندمجاً بنضاله مع نضال الجماهير .

هذان الشطران ، هما الاتجاه العفلقي ، والاتجاه الحوراني ، بالنسبة لقيادة ميشيل عفلق ، وبالنسبة لقيادة أكرم الحوراني .

لقد احتفظ الاتجاه العفلقي بعقليته التبشيرية ، شبه السحرية الأولى ، وتشرنق داخلها ، وعظم تشبثه بها ، كلما سيطر الحوراني على سياسة الحزب العملية ، وسادت جماعته ساحة الصراع على صعيد البرلمان ، وكواليس الحكم ، ومكاتب الجيش وقطاعاته .

وعندما كانت السيادة للاتجاه العفلقي ، في فترات تأسيس الحزب ، وقبل ان يحتل مقاليد الأمور فيه أكرم الحوراني حين انضم بحزبه (العربي الاشتراكي)

الى البعث - وذلك خلال حكم أديب الشيشكلي - ، أقول عندما كانت السيادة للاتجاه العفلقي ، كان تركيب الحزب كله ، وليس فكره فحسب ، يشكو من نموذج الاستاذ وتلاميذه .. وخاصة عندما تتطور هذه العلاقة من مقاعد الدرس ، إلى التوجيه العام ، فتصبح حلقة شيخ ومريدين ، في عمر المراهقة العقلية والسلوكية أيضاً .

ومثلما يسحب الشيخ في الحلقة أفكاره وعقده وأمراضه وأخلاقه على حلقة مريديه كلهم ، كذلك سحب عفلق نموذجه العقلي والعاطفي والسلوكي على كل فرد ممن يسمّون بالصف الأول والثاني في الحزب . وهم الرواد الأوائل ، والتابعون المخلصون لعفلق . على الرغم ، مما أصابهم من تطورات كثيرة فيما بعد ، لم تبق إلا على أقلية ضئيلة منهم ، مرتبطة بعفلق نفسه ، ولا يظهر ارتباطها هذا إلا في الفترات القليلة النادرة ، التي يتمكن فيها عفلق من السيطرة على الحزب .

كان المثاليون البعثيون الأوائل، يحولون الأيدلوجية الى بناء طوباني ، مؤجل التحقيق ، ولكنه يملك قدرة دفع ثورية من أجل تطوير الواقع ، على الأقل ، من خلال تثبيت صورة الرفض الكامل للحكم الوطني القائم آنذاك .

وكانت هذه المثالية تتصف ، في حقيقتها ، بدعوة شاعرية رومانسية ، تكتفي بتصور الواقع الفاسد (الجاثم فوق صدر الأمة ، والتعبير لعفلق) في خطوط عريضة شبه مجردة ، وتفكر مباشرة في نقيضه الكامل ، الجاهز بكل خيراته .

ولذلك كانت هذه المثالية المراهقة ، تصاب باضطراب أيدلوجي وتنظيمي ، كلما وقعت في فخ الواقع، تشتبك فيه مباشرة مع بعض الصيغ السلبية في خارطة الواقع (الفاسد) . كانت المعارك السياسية اليومية تستنزفها قواها التصورية ، وكلما استدرجتها معركة تطالبها بتحديد موقف عملي ، تهاوت الأسس النظرية، وحلت محلها الاجتهادات الشخصية ، ودب الانقسام بسرعة بين أطراف القيادات من جهة ، وبين القيادات وقواعدها الشعبية من جهة أخرى .

حتى لقد أصبح تقليداً بعثياً الانقسام القيادي ، والتشرذم بين الأعضاء . وانعكس هذا التقليد في المؤتمرات القطرية والقومية المتوالية .فلم ينجُ مؤتمر واحد

من عمليات التصفية ، لأجنحة وقيادات معينة .

فلقد كان من أصعب الأمور بالنسبة لهؤلاء القادة، الاتفاق حول مخطط سياسي معين ، أو فكرة ايدلوجية محددة . ولذلك كان القائد الأقوى ، من حيث النفوذ الداخلي والسياسي ، هو الذي يفرض آراءه وزمله ، ويستبعد آراء القادة الآخرين وزملهم عن القيادات الأساسية ، على الأقل .

هكذا مثلاً حدثت تصفية الجناح (الريماوي) ،ومن بعده جناح (فؤاد الركابي) . ومن بعده الجناح (الحوراني) ثم الجناح الوحدوي . حتى لم يبق بعد الثامن من آذار إلا شرذمة صغيرة ترتبط بمصالحها المباشرة مع القيادة العفلقية . وحتى في هذه الفترة المظلمة الدموية من تاريخ الحزب بعد ثورتي شباط وآذار ، فإن عمليات تصفية الأجنحة تتتابع بصورة رهيبة ، وبنفس اسلوب الحكم البعثي مع أعدائه الخارجيين من الوحدويين .

فلقد أعلن في مؤتمرات متتابعة عن تصفية الجناح (السعدي) ، وجناح (الشوفي) ، حتى لحقت هذه التصفية ، في آخر فصولها ، بعفلق نفسه ، الذي أبعد عن البلاد نهائياً .

إن هذه التصفيات المتبادلة بين رؤوس الشراذم، داخل الحزب ، وفي مناسبات المؤتمرات القومية والقطرية ، انما تدل على أن الصراعات الأيدلوجية المزعومة بين الأجنحة ، إنما هي ستار مذهبي ، يخفي معارك المطامع على القيادات والاستئثار بملكية الحزب ، ومصالح الحكم ، عندما يكون الحزب مسيطراً على الدولة .

ونعود الآن إلى تحليل البنية المثالية – بمعناها الخيالي لا بمصطلحها الفلسفي – للفكر البعثي . فلقد عانى الجيل الثوري، جيل ما بعد النكبة ، من تلك المثالية، كل ما جعله يجهض إمكانياته الواحدة تلو الاخرى . حتى أدى به الأمر اخيراً إلى الانقسامات السلبية ، التي يغتال بعضها قوى البعض الآخر .

* * *

إن المثالية الطوبائية ، التي تكتفي بتصور العقبات ، دون دراستها ، وهي في عقدها التاريخية، ومؤسساتها الاجتماعية والعقائدية ، هي التي تخلق حول نفسها جواً

من التطهر المطلق ، يمنع تماسها المباشر ، مع الصيغ التفصيلية لتلك العقبات .
ويحول بينها وبين التنظيم الثوري ذلك الاعتقاد الغيبي بحتمية صوربة لانتصار الأهداف ، وزوال الشرور كلها .

ولذلك عندما خططت هذه المثالية الطوبائية، لانقلابية المجتمع العربي، حاولت أن ترسم الطريق للثورة بنظامية منطقية ، مجردة . ولم تكن خبرتها في مقارعة الواقع ، بأكثر من ذلك النزوع الصوفي ، لخلق عالم عربي أفضل .

وكان مجرد الانتماء الساذج الى هذا النوع من التصور ، يهيء الفرد للانضمام إلى الركب المتحرك من الأمة ، ولو على أجنحة الخيال والوهم .

لقد آمنت هذه المثالية ، بنقطة انطلاق صحيحة ، وهي أن الأمة العربية ، هي في حال من الثورة الكامنة . ولذلك بدلاً من أن تكشف عن مكامن الثورة ، وتنقلها إلى وضع فعّال ، وتصلها بعضوية الواقع نفسه ، وتشرف على مسيرتها ، سارعت بأن ألقت إلى الأفق البعيد بأحلامها الذهبية المشرقة ، ولم تفكر مطلقاً بتحديد الوسائل العملية، وبقي الغموض يكتنف منهجيتها السياسية خاصة . مما جعلها تصاب بضربات متتالية ، فتتردد من النقيض إلى النقيض ، في الأفكار والمواقف معاً .

وظهر ان الاخلاقية التطهيرية التي تدعيها ليست سوى ترجمة ايجابية عن ذلك الخوف الصميمي في تكوينها ، من مواجهة مخطط العقبات في الواقع الفاسد ، بمخطط من الثورية العلمية المنظمة .

فهي تكتفي تلقاء الأزمات بتسمية مواقفها ، بإعلانها فقط ، وبالانكفاء إلى سلوكيات متعالية ، تأبى المشاركة في شيء ، لانها تخشى المسؤولية . وكل ذلك باسم هذا الطقس الغيبي : عدم المساس !

فمثلا من القضايا التي اصطدمت بها الايدلوجية العفلقية قبل الخمسينيات ، والتي اكتفت بمواجهتها من خلال اسلوب عدم الاعتراف بها أصلا ، قضية : هل البعث حركة أم حزب . هل يدخل الحزب المعترك السياسي أم انه يكتفي بالتثقيف العقائدي . بمعنى آخر هل يرشح البعث نواباً ، ويشارك في الحكم إن أتيح له ؟

ومنها كذلك هذه الاسئلة الاساسية التي بقيت دائماً بدون جواب :

١ - ما هو البعث ؟ ٢ - ما هي الانقلابية ؟ ٣ - وكيف تتحقق ؟

وغيرها كثير من المشكلات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، التي كانت تواجه البعثيين الأوائل ، دون ان يتمكنوا مرة من طرحها على بساط المناقشة والتحليل، سواء ضمن الاطارات الحزبية،او على صعيد النشاط الفكري الشخصي.

ولذلك كانت الظروف الموضوعية ، إذا ما أتاحت فرصة ، تلح منها بعض الامكانيات الثورية لقيادة جزء من الواقع ، فان الاستنكاف والتردد ، هو الذي يجعل العناصر الانتهازية الاخرى في التنظيم ، تملأ هذه الفرجة ، مبعدة عنها أصحابها الحقيقيين ، الذين لا يبقى لهم سوى تسمية الموقف . وحتى ذلك ، قد لا يتاح لهم غالباً . وعلى العكس فانه ، إذا ما تطورت الظروف الثورية أحياناً إلى بعض المناسبات التي تسمح بالسيطرة على الموقف السياسي ، ضمن أساليب تناقض أحلام المثالية ، فان بعض قادتها لا يجدون بأساً في تبني هذه الاساليب ، وحينما تبلغ النتائج المتعارضةأوج فشلها ، فان المثاليين مستعدون تماماً للتنصل من تبعة تلك المقدمات التي أدت إلى مثل هذه النتائج . بينما كان تبني الوسائل المنحرفة ، من قبل المثاليين ، يقدم تبريراً اخلاقياً كبيراً للذين يستفيدون من تحقيق تلك الوسائل ، ويعطيها ثوباً من المعقولية والثورية أحياناً في نظر الجماهير . والحق أن غموض النزوع المثالي وأهدافه ، هو الذي يجعل الواقع غير مرئي بالنسبة للتخطيط الثوري . وهو الذي يترك مستوى الوسائل ، أو التفكير في الوسائل ، دون مستوى العقيدة .

بمعنى ان عدم الارتباط بقيمة الوسيلة ، هو نفسه تعبير عملي عن اطلاقية العقيدة، تلك الاطلاقية التي تخشى من التعيّن . ولكنها في مستوى التحقيق ، تصبح رديفاً للانتهاز غير المقصود لذاته . إذ انها في اطلاقيتها تلك ، تبيح لنفسها استعمال أية وسيلة ، ما دامت العقيدة الاطلاقية لا تلزم نفسها بالتخصيص. ولكن الفرق بين الانتهازي والمثالي ، في تقلب كل منهما بين الوسائل المتعارضة ، هو ان الاول لا يمكنه ان يتشبث بدرع من الاخلاقية ، بل يتشبث باختلاق قيمة

مصطنعة ، يدعوها تارة (منطق الاحداث) ، او (ايونة العمل السياسي) ، او (المنطق المرحلي) .. إلى آخر هذه التسميات ، التي تسمح له ان يصطنع لكل مناسبة أسلوباً آخر للعمل ، وان يلبس لكل حال لبوسه وان يتملص بالتالي من مسؤولية الموقف الواحد .

ولكن المثـالي مضطر ان يتحصن خلف زخرف القيم ، يعتبرها هي رصيده الحقيقي . وهو قلما تحرر حقاً من أزمات الوجدان ، ما دام واقعاً ، في أغلب الأحيان ، في ازدواجية الاعتقاد من جهة ، والسلوك المخالف له من جهة اخرى .

ولا شك أن من الإجحاف إنكار التطهر الأخلاقي عند المثالي ، غير أن عقدته الكبرى ، هي عدم قدرته على إيضاح الواقع في تفاصيله ، وعدم جرأته على تحديد الوسائل العملية في ممارسة الثورية . كل ذلك لأن الانقطاع عنده ، فكرياً وعملياً ، بين الاعتقاد وبين السلوك هو شبه مستمر . لان الاعتقاد ، عندما لا يبرح حدود الوجدان الذاتي ، فإنه يستطيع تصور نفسه في حال من الكمال المطلق ، في حال من التطابق التام مع نفسه .

وأما السلوك ، فانه عندما ينزل إلى أخاديد الواقع ، فانه يتعرض الى أنظار الآخرين ، ولا يطيق المثالي ان يجرح احد شعوره الشخصي . وهو كذلك معرض بالتالي الى أن يُحكم عليه ، ما دام كل سلوك لم يبلغ الكمال ، كما يبلغه الاعتقاد الذاتي .

فالسلوك محدد سلفاً بالظروف التي ستعطيه وجهه الحقيقي ، والتي ستفرض عليه قياسه القيمي كما تشاء هي ، لا كما يشاء له الاعتقاد النظري . وبالتالي فإن هذا الاعتقاد يجد نفسه محرجاً ، كلما حاول أن يعبر عن تعاليه بمسؤولية فعل جزئي .

فكأن الاعتقاد يحسب أن تطابقه مع ذاته نظرياً ، لا يتم له إلا في حال مطلق من التطهر . والتطهر يؤدي بدوره إلى عدم التلوث بجزئيات العمل . بل كثيراً ما عبر بعض القادة العفلقيين عن مثل هذا الخوف من التلوث ، بأن اعتبروا ، مثلاً ، التنظيم امراً ثانوياً ، لأن الأساس هو الاعتقاد . وبذلك يتعالون عن مستوى التنظيم ، ويكتفون بالتوجيه . وكل ذلك يدل دلالة واضحة على ذلك العسر الذي

تلاقيه المثالية ، وهي تتوق الى التحول الى مخطط واقعي .

ولسوف نرى النتائج السلوكية المختلفة والخطيرة ، التي ترتبت على هذا الموقف القيادي الفكري . إذ أنه سيكون له تأثيره المباشر على العلاقات الحزبيـة ، بين القمة والقاعدة ، والعلاقات المسلكية بين الأفراد ، مما يؤدي إلى عقد ذاتيـة متناقضة ، واستقلالية نرجسية في العمل والتوجيه . وكذلك له أثره الفعال على المواقف النضالية ، بالنسبة الى سلوكية الحزب الخارجية ، من حيث الانفصال بين هذه المواقف الى درجة التعارض ، والظهور بمظاهر فردية ، أفقدت الحزب تماسكه بعين الجماهير عندما كان ينطق باسمها ، وصبغته بصبغة الجماعة المنتفعة والمحترفـة للسياسة ، لا أكثر ولا أقل .

وإن مجموعة هذه الأمراض الفكرية والسلوكية وتفاعلها المتواصل مع الأحداث المتلاصقة على سوريا بين النكبة والوحدة ، هي التي مهدت فيما بعـد ، الى مختلف المزالق والانحرافات القومية الرهيبة ، التي سمحت لشرذمة من بقاياها بعـد الانفصال ان تحول الحزب الى أكبر عقبة في وجه الثورية العربية ، بعد ان كان أداتها يوماً ما .

الفصل الرابع

الموقف الأدبي – الاعلامي

ان حكم الحزب هو الصورة النهائية عن مختلف المزايا الذاتية التي يحملها ، والخصائص التي نمت وتطورت خلال رحلة العمل السلبي، وعقده وفواصله المتتابعة. ولذلك فان هذه (الفوضى الدموية) التي تبدّى من خلالها حكم حزب البعث في كل من سوريا والعراق ، هي الجوهر الكاشف لمسيرة نمو الحزب كله . ولو ان هذه النتائج الرهيبة ، قد فاجأت الكثيرين ، حتى ممن كان لهم ثمة ارتباط ما بالحزب في زمن سابق ، إلا ان الحزب – في – الحكم ، هو المحصلة الاخيرة والكاشفة لمختلف الشرور والانحرافات ، التي كانت تنضج سراً ، وفي الاعماق ، وراء الاحداث والمواقف . ومهما كان لهذه المواقف في الماضي ، من أثر إيجابي على القضية العربية ، إلا ان القيمة الحاسمة لجملة هذه المواقف ، إنما تأتي من إنتاج الحزب وهو في الحكم ، قبل ان تأتي من انتاجه وهو في أطوار العمل الجماهيري السلبي .

ولذلك فان دراسة بذور الانحراف في بعض الافكار القليلة الغامضة التي لعبت دور المحرك الخفي لسلوكية الحزب وقادته ، وعلى ضوء الانتاجات الفوضوية الدموية الرهيبة التي حفل بها واقع الحكم البعثي الاخير ، إنما تتطلب عودة إلى نقاط الانطلاق ، وتحليلها ، واستنتاج المستقبل السياسي الذي يتوقف عليها .

فلم يزل الحديث عن الفراغ السياسي في منطقة المشرق العربي ، بعد انهيـــار حزب البعث ، هو الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله النظريون العرب ، في سبيل الكشف عن مظاهر هذا الفراغ وأسبابه ، والصيغة الطبيعية التي يمكن ان تخرج من خلالها حركة يسار عربي وحدوي جديد .

ان العراق وسوريا ، هما البلدان المعنيان أولاً بمشكلة الفراغ السياسي هذا . وعلى الرغم مما في هذا التحديد من مفاجأة ، فإن هذين البلدين ، اللذين عانيا أكثر من أي بلد عربي آخر ، من تجارب التيارات السياسية المتضاربة، ما زالا يفتقران إلى وضع جديد ، يساعد على تبلور تنظيم سياسي ، يحمل حصيلة التجارب الدامية، ويشق الطريق أمام الثورية العربية مرة أخرى .

ولو اننا استعرضنا أولاً حصيلة هذه التجارب المتناقضة ، والتي عصفت بمؤونة العواطف البكر ، التي حملها جيل كامل ، فرّقته الاحداث فيما بعد ، شذر مذر ، لارتسمت أمامنا لوحة صريحة ، تؤلف مدخلاً ضرورياً لكل بحث ، عن مستقبل اليسار العربي ، في هذه المنطقة من الوطن الأكبر .

نعم ! لقد انطلق جيلنا ، الجيل الذي عاصر الاحتلال الأجنبي والجلاء والنكبة، وسلسلة الانقلابات العسكرية ، والوحدة والانفصال الرجعي ، والانفصال البعثي العقائدي ، انطلق يحمل الأحلام على أجفانه ، قبل حمل الأفكار في رأسه . أتقن صناعة الكذب على الذات ، بالغرور القومي والاستعـــلاء المراهق ، والتصور الطاووسي عن الذات وقدراتها المعجزة .

هرب من الحاضر ، وراح يستشرف المستقبل ، وقبل أن يمكّن بذرة الثقة بالنفس ، من النمو في تربة الواقع ذاته .

كان كل زاده، ذلك الايمان بقدرة الأمه العربية على التخلص من جميع عوائقها وأمراضها ، والاندفاع إلى صنع حضارة جديدة ، تنافس الحضارة الغربية . فلقد كان الماضي ، والتعلق به ، هو الضامن للمستقبل .

ولكن جيل التنظيمات السياسية التبشيرية ، لم يكن قــادراً ، حتى على فهم تاريخ أمته ، كما لم يكن يجرؤ على مواجهة مؤسسات الواقع الراهن .

فلم تكن صلة هذا الجيل بماضي الأمة ، إلا صلة مشت على جسر الخيال ذاته - إنه مشبع بشعراء الجاهلية ، وأبطال الاسلام ، وعلماء العباسيين .

أي ان الجيل اتصل بماضي أمته عن طريق تراث الأدب ، او ما يشبه الأدب . لم يحاول قط ان يفهم الجانب الاعمق من بنيان الأمة عبر عصورها المختلفة . لم يهتم بمشكلات الجاهلية كحياة اجتماعية واقتصادية وروحية واقعية ... تقاليد القبائل وأسباب الحروب والغزوات ، وعادات الزواج والثأر . ولم يقرأ عن أسس الدولة الاسلامية ، من الخلفاء إلى الأمويين إلى العباسيين إلى الشعوبيين .

لم يحاول ان يستكشف تلك القضايا الكبرى ، التي اصطدم بها العرب ، وهم يبنون دولتهم ، ثم يخلقون حضارتهم ، ثم يسيرون في طريق الانحلال والغياب عن التاريخ .

أي بكلمة أخرى ، لقد تعرف جيل الثورية المعاصرة على تاريخه ، كقصة من الشعر والقيم والآداب . ولم يستطع ان يتفهم تلك التجربة الانسانية الكبرى ، لم يفهم قوانينها الاجتماعية والاقتصادية ، ومنطلقاتها في الفكر والاعتقاد والسلوك . لم يعرف لماذا وجدت ونمت ، ولماذا انحلّت وزالت .

لم يسأل الثوري المؤمن بانبعاث حضاري جديد لأمته : ترى من صنع تاريخه ، الابطال وحدهم ، الشعوب ، الطبقات ، الآلهة والاقدار !

لقد انطلق المثقفون (الثوريون) من الصفر في تاريخ أمتهم الحديث ، بالرغم من كل تلك الادعاءات الكبرى عن أمجاد التاريخ وبطولاته .

وما زال « تاريخ العرب » مجهولاً من العرب ، حتى اليوم ، ومن قبل هؤلاء الثوريين المثقفين خاصة !

هذا عن الماضي .

وأما عن الحاضر ، فإن الثوريين كذلك تعاملوا مع مؤسسات الواقع الراهن من خلال الاحلام ، وقبل الافكار .

وكانت (علتهم) اليومية ، هي المختصرات ، التي هيأتها المعارك السياسية ، ولم تصنعها الكشوف العلمية الثورية .

مختصرات ، هي الاقطاع والاستعمار والتجزئة ، والتقدمية والرجعية .. الخ !
ومعنى هذا ان الثوريين ، قد فهموا الواقــع ، من وجهه السياسي أولاً . ولم يستطيعوا قط ان يتجاوزوه إلى عقده الاجتماعية ، ومركباته الاقتصـادية ، ومختلف الجذور الاخرى ، التي ستبعث بقواهـا الخفية تدريجياً ، في وجه هؤلاء الثوريين ، وكلما اقتربوا من انتصار ، لا يلبث ان ينقلب إلى فشل وانتكاس .

وكلما انتصروا على عقبة ، قامت أمامهم عقبة أكبر . ولم يفكروا مطلقاً في مصادر هذه العقبات . ولم يبحثوا قط عن بديل إيجابي لها . وهم عندما توجهوا إلى انتقاد الرجعية والبورجوازية والاستعمارية ، تناسوا أنفسهم ، ووضعوا ذواتهم في دوائر من المحرمات وعدم المساس .

لقد كانت جميع حلولهم ذات طابع طارىء اعتبـاطي ، أشبه برد فعل منه بمخطط واع . كان فضح (المؤامرات) هو شغلهم الشاغل . ولم يهتموا قط بأن يكشفوا عن العقل الذي يصنع هذه المؤامرات ، كل يوم ، وبصورة متطورة مع حالة العلم ، وتوزع القوى المتصارعة حول المنطقة العربية . وعندما حاولوا ان يفهموا ثقافة المستعمر الغربي، نقلوا عنه بعض أمراضه الفكرية، أخذوا مختزلات عن آدابه السلبية . اعتنقوا الرومانسية . والرمزية ، ثم الوجودية . وأما العلوم الرياضية والطبيعية والتطبيقية والاجتماعية ، فقد ظلت أسيرة لمقـاعد الدرس ، والحصول على شهادات للوظائف ، والتقاعد في سن الشباب !

البعثيون اكتفوا طيلة ما يقرب من ربع قرن ، بنظم الشعر الحماسي ، والقاء الخطب ، واطلاق الشعارات ، وخلق جو المحرمات حول كل نظريـة للبحث ، وكل منطلق للتأمل العلمي . لم يصدر عن الحزب نشرة واحدة توضح أحد المفاهيم والشعارات التي يطلقها القادة هنا وهناك .

وكان البعثيون يتبعون جميعـاً نموذج التبشير الصوفي ، في تفكيرهم وعملهم . النموذج الذي صـاغه تركيب معين من العجز والمرض ، مثّله أستاذهم الأول ، ميشيل عفلق .

لقد فلسف هذا الرجل العجز ، حتى قتل مواهب كثيرة للبحث والابداع ،

عند جيل أول وثان وثالث من الشباب الصاعد الذي التحق بالحزب ، يوم كان حزب المثقفين الثوريين .

كان عفلق ينادي (بالبساطة) وبذلك منع التعمق . وينادي (بالايمان) فيمنع التحليل والمقارنة والنقاش حول مظاهر المجتمع الذي يدعي تغييره والانقلاب عليه . ويبشر ، بالمقابل ، بالبطء في كل شيء ، بالتأمل في الفراغ ليقتل ثقل الواقع نهائياً من احساس الشباب ، ويحولهم إلى فرسان أسطوريين ، يتغذون من غرور مراهق ، ومن شرنقة ذهبية خبيثة .

لقد كان (عفلق) يوزع من ذلك النمط (العجائبي) ، في التفكير القائم على ثقة سلبية بوقوع المعجزات :

فالأمة لا بد ان تتوحد . والأمة لا بد ان تخلق حضارتها ثانية . والأمة ستطرد الاستعمار ، وتقضي على الرجعية و و ..

كل ذلك بقدرة قادر طبعاً . قدرة لا تجشم نفسها عناء التساؤل : وكيف سيتم كل ذلك ؟!

والشيوعيون ، بالرغم من ادعائهم الماركسية ، وبالرغم من أن الماركسية تستند إلى مكتبة هائلة من الأبحاث العلمية ، اكتفوا على الارض العربية بالدعاية بدلاً من الثقافة ، والتفكير الماركسي حيال مشكلات المجتمع العربي .

مجّدوا الخبز وحيّوا (ستالين)،ونادوا باتحاد العمال في العالم ، في الوقت الذي لم يكن العمال العرب قد وصلوا فيه ، بعد الى مرحلة النضال النقابي الواضح . وكان الشيوعيون العرب استطالات تافهة،لأحزاب شيوعية غربية مختلفة.يرددون كذلك المختصرات والمختزلات . وبذلك ساعدوا ايضاً على ترسيخ (الأمية الايدلوجية) . وثبتوا أسس (الفكر الشعاري) ، مع البعثيين . بفارق واحد ، هو ان شعارات الشيوعيين ، كانت من غرائب الأمور على مسمع الشعب العربي .

لقد كان إنتاج البعثيين على صعيد الفكر ، آداباً عاطفية أقرب إلى الطوبائية ، والفردية المريضة . ويمكن ان تحسب في جملتها ، على الثقافة الرجعية ، وعلى الفكر التبشيري ، التهويمي في مضمار الشعارات السريعة . ولذلك كان من الصعب دائماً

التصدي لفكرة بعثية معينة . لأن اللاتحديد في أي موضوع هو الأساس عندهم .
وكما يتنصل زعماؤهم من مغبة مواقفهم السياسية المتناقضة ، فإن مفكريهم يمكن أن يتحدثوا بألسنة متناقضة، عن مختلف ثقافات، دون ان يدعوا تبنياً حقيقياً لأية واحدة منها .

وكان إنتاج الشيوعيين ، بضاعة من الدعاية ، والمناشير المنقولة عن معارك ، لا صلة لها أبداً بمعارك الأمة العربية ، في أي قطر من أقطارها . وفوق ذلك ، فقد كانوا من أعتى الذين آمنوا بالارهاب الفكري ، عندما تتاح لهم السيطرة على بعض وسائل الاعلام في قطر عربي ما .

وهكذا ، فان ثقافة الشعار ، وانتاج الانفعال والحماس ، وفرض صيغ معينة للتفكير – هي صيغ وصفية ومصطلحات نهائية حاسمة ، وتعميمات قاطعة لفظية– والبحث بوسائل الارهاب الفكري ذاتها ، هو الموقف اللاعلمي (العجائبي) ، الذي واجهت به التنظيمات اليسارية ، والبعث منها خاصة ، مسؤولية فهم الواقع وتغييره . فجاءت يساريتها أشبه بالغوغائية ، واليمينية المحافظة ، ولكن بدون تراث اليمين وتقاليده الفكرية .

وبذلك تأخر المثقفون الثوريون ، حتى أدركوا أن الثورة هي علم أيضاً ، ومن أصعب العلوم . لأن العلوم ، إن كانت تتوجه كلها الى دراسة مظاهر الواقع، فإن علم الثورة، هو الذي يجمع حصائل هذه الدراسات كلها، ويتجاوزها .. لأن الثورة هي علم تغيير الواقع .

وكما استغنى الثوريون الأوائل عن الفكر بالانفعال ، كذلك فهموا العمل السياسي ، على أنه تجمع اعتباطي ، يأتلف ويتبعثر . يضم اليوم هؤلاء ، ثم يضم غيرهم . ولقد كان كل نزوع نحو إقامة تنظيم (موضوعي) ، يتطلب اولاً تدمير هذه الذاتية الشاعرية ، وفكرها العجائبي السحري . وهذا ما لم تكن قادرة عليه، أية طليعة تنطعت لحمل لواء النضال ، خلال عشرين سنة من عصر العرب الثوري الراهن .

فالمبشرون الأوائل، يتحولون الى أنصاف أنبياء، يتطلبون التمجيد والتقديس

قبل الفهم والمشاركة العقلية ، والتبعية الأبوية قبل القيادة المتكافئة .

ويجمعون حولهم تلاميذ وأبناء وأصفياء ، وليس ابداً أعضاء في تنظيم ثوري .

ولذلك فإنهم يعطّلون كل صلة غير شخصية ، وكل تقييم للعنصر ،إلا على أساس درجة ولائه لهم اولاً .

ولكن عندما يتضخم (التجمع) – بدلاً من الحزب ! – فإن التلاميذ أيضاً يطمحون الى أن يصبحو أساتـــذة ، ويشرعون في إنشاء الزوايا والتكايا الخاصة بعباداتهم وطقوسهم الجديدة ، ويجذبون التلاميذ والمريدين إليها . وهكذا تنبعث تقاليد مشايخ الطرق ثانية ضمن التنظيمات السياسية ، الثورية اليسارية !

وبعد ذلك ، تشهد هـــذه التنظيمات داخلها حرب الزوايا والتكايا . وإذا ما انفتحت طرق المنافع والنفوذ ، في الحكم ، انفجرت دفعة واحدة هذه الصراعات الغيبية ، في شكل انقسامات حادة ، تتغذى من قوى بعضها ، وتعرقل نهائياً أية محاولة للخروج من الذات ، إلى إصلاح واقع الشعب ، الذي ابتلي بمحكومة من مشايخ الثورية العصرية .

لقد كانت الاحزاب اليسارية ، ومنهـــا البعث خاصة ، نوعـــاً مزيفاً جديداً من الفرق الدينية ، التي اعتاد مجتمعنا القديم المنحل على إفرازها ، من حين إلى آخر ، كوسيلة للابقاء على الحركة ، وإن كانت حركة مراوحة في المكان الواحد .

وكانت هذه الفرق مبتلاة دائماً بمرض (القيادات الخالدة) ، القائمة على الروابط الأبدية ، وأشبه برؤساء القبائل ومشايخ التكايا ، من الزعماء الحقيقيين . وبالتالي فإن (الحزب) ، بالمعنى العصري او العلمي ، لم يتكون بعد ولا مرة واحـدة ، في هـذه المنطقة من العالم العربي .

بل إن (التحزب) بالمعنى اللغوي ، هو الذي ساد دائماً ، ومن الغريب أن هذه الاحزاب تبدأ بطلائع للشعب ، ثم لا تلبث حتى تتحول الى (مؤخرات) الشعب ، الى معيقات ، تطالب بشد حركة الشعب الى الوراء ، تطالب بأثمان عن (نضالها) في احتكار الحكم والتسلط عليه .

وفي الحكم، ينفرط التجمع التحزبي إلى شراذم ، وتتابع ظاهرة التشرذم فعلها العجيب في التجمع ، على مستويات القادة ، ومستويات القواعد التي تتبع هـذا القائد ضد القائـد الآخر ، حتى يستحيل التجمع الى وحش كبير ، فقد جهازه العصبي في السيطرة على أعضائه ، فراح يأكل بعضه بعضاً .

ومن خصائص التجمع، او بالأحرى التفرق والتشيع، انه يعجز دائماً عن تمثيل أي قطاع شعبي ، مهما نما وتضخم . فلا هو ينطق باسم البروليتاريا ، ولا هو ينطق باسم أصحاب المصالح التقليدية . ولذلك قلما استراح شعبنا العربي إلى أية حركة حزبية . إنه يرث الحذر عن أجداده ، من الأحزاب، لأنها ما تزال تمثـل ، في لاشعوره القومي ، السبب الأعمق في مأساته، في تحطيم وحدة المجتمع العربي، قبل الاستعمار نفسه .

لقد ظلت هذه التحزبات أسيرة حلقاتها السرية الخاصة ، وبقيت بعيـدة في الواقع ، عن استقطاب المصالح الاجتماعية للأكثرية، في جبهات سياسية . فلم تظهر حتى اليوم أية حزبية استقطبت مثلاً طبقة العمال أو الفلاحين . وحتى حركة (الحوراني) التي انبعثت في الأساس عن نموذج حاد من الصراع الطبقي الأوضح في حماه وريفها ، فانها استغرقت في (السياسة) واستخدمت جماهيرها ، للقفز إلى مراكز السلطة . وحتى عندما أشرف بعض هؤلاء على توزيع أراضي (الغـاب) الخصبة ، بموجب قانون إصلاح الأراضي ، أثناء الوحدة ، فلقد تسربت إقطاعات كبيرة إلى شخصيات بورجوازية من مدينة حماه ، بدلاً من أن تعطى للفلاحين أصحاب الحق الأول .

إن الأحزاب ، واليسارية منها – في الظاهر على الأقل – بقيت محصورة غالباً ضمن حلبات من الصراع على المراكز البورجوازية ، بورجوازية المـال تارة ، وبورجوازية الظهور الاجتماعي، والثقافة، والوظائف الكبيرة، وقيادات الجيوش .

وهكذا فما ان سيطر البعث على الحكم ، حتى فلسف المحسوبية الجديدة ، بمبدأ (تبعيث أجهزة الدولة)، فوزّع صبيانه ومراهقيه، ومرتزقيه على الإدارات العامة ، والمراكز الرئيسية ، ودخل أعضاء الحزب في صراع دنيء فيما بينهم من أجل

الفوز بالمنصب الأكبر في هذه الوزارة أو تلك . وعندما يعجز الحزب عن إيجاد الأعضاء – لقلة عدده في الأصل – فإنه يكتفي بأن يطلب من الموظف أو المستخدم ، أن يقسم يمين الحزب ، ليبقيه في مركزه .

إن هذا الانغلاق الفكري والعزلة الكاملة عن المصالح الجماهيرية ، كانت تدفع بأحزاب اليسار عندما يتمكنون من السلطة ، الى أشد فئات المجتمع انغلاقاً وانعزالاً ليستعينوا بها ، على استمرار سلطاتهم . هكذا ، فإن الاحزاب الشيوعية المحلية ، كان مصيرها الى فرق شعوبية . وكان مصير حزب البعث الى فرق طائفية ، خلف واجهات عسكرية . وبذلك أثبتت تجربة اليسار ، في المرحلة الماضية ، انها غير قادرة على تجاوز تجمعات الواقع العربي الراهن ، من شعوبيات وطوائف وعشائر . وبذلك فإن الحصيلة الواقعية لشعاراتها التقدمية ، هي عودة الى جذور الرجعية نفسها .

فلم يخرج بعد الحزب ، الذي استطاع أن يتجاوز فعلاً هذه التجزئة الانحلالية للمجتمع العربي ، ويؤلف طليعة حقيقية لمجتمع عصري موحد .

إن هذه الاحزاب ، الأشبه غالباً ، بالجمعيات السرية المغلقة ، او الفرق الطائفية والشيع المصلحية ، لم تحدث أي تأثير في نموذج الانسان العربي الجديد . فلم تقدم مطلقاً ، أي نموذج اخلاقي انساني ، في أعضائها يتفوق على أفراد الشعب الآخرين ، غير المنضوين إلا في تيار الثورية العامة المطلقة . بل إن هذه الحزبيات أعطت لأفرادها من الميزات والحقوق ، والأفضلية والوصاية على الشعب ، دون ان تفرض عليهم أية واجبات جديدة . وبالمقابل طالبت الأمة بتقدير وامتياز خاصين بأعضائها لمجرد اتصافهم بالصفة الحزبية .

ولذلك فهم الناس ان الحزبية ، هي الوصولية والمحسوبية الجديدة . وإن نظرية حكم الحزب الواحد ، لا تعني سوى ديكتاتورية المحسوبية ، لفئة القادة وزلمهم والاصفياء والتابعين وهكذا .

بل أكثر من هذا ، فلقد كشفت تجارب هذه الاحزاب ، انها تتحول الى بؤر تجذب العاجزين ، والمشوهين والمعقدين نفسياً او اجتماعياً ، ليجدوا في تضامنهم

طريقاً للخلاص من عقد النقص ، بالتحكم والتجبر . وليست أنهر الدماء التي سالت في شوارع بغداد والموصل ودمشق وحلب ودرعا ، إلا الصورة المثلى عن هـــذا الدفاع (العقائدي) عن حكم المشوهين والمعجزة والصبيان والمراهقين . إنه حكم الدفاع عن المناصب والسلطات التي سرقها من الشعب ، الأعضاء (المناضلون) بفضل تقاليد المحسوبية الثورية الجديدة .

تلك هي اللوحة العريضة ، لما تعلمه شعبنا من تجارب (الطلائع) (الثورية) (اليسارية) ، حتى هذا الوقت . وهي اللوحة التي تفرض تشاؤماً صادقاً ، من كل تجربة أخرى ، تدعو إلى تنظيم يساري جديد .

فما هي الضمانات ضد الديكتاتورية الجماعية ، والارهاب العقائدي ، وحكم الميليشيا ؟..

إن الحركة العربية الواحدة ، التي تواجه كل هذا التراث الدامي، من تجارب أحزاب اليسار العربي ، المنقرض أو السائر إلى الانقراض النهائي .. هذه الحركة هل هي البديل الأفضل ، هل هي التنظيم الشعبي ، الذي يقضي على خرافـــة التحزب ، والتشيع والتفرق ، التي استمرت تنخر في جسم المجتمع العربي، حتى تحت صورة العقائد الثورية الجديدة ؟.

ما هي الضمانات ضد التحول من طليعة إلى مؤخرة – في الحكم – من حزب إلى عصابة ، من فكر علمي إلى طقوس وشعارات للتقديس الأعمى ؟

إن الحركة العربية الواحدة ، وكل تنظيم ينحو منحى يسار وحدوي جديد، لا بد له ان يبحث عن المقومات الإيجابية إلى جـانب الضمانات ضد الانحراف . ولعل التفكير في هذه الحركة ، قد صدر أولاً عن ضرورة توفر المقومات ، التي افتقرت إليها التنظيمات اليسارية السابقة ، وكانت سبباً في إجهاضها، وعرقلة مسيرة الأمة نحو أهدافها الأصلية .

فالفكر اليساري الحقيقي، والفهم العلمي لمؤسسات الواقع، وتنظيم الثوريين، وتجاوز عقد القيادات الأبدية والقبلية ، وتخطيط النضال في مراحل واعيـــة للوسائل والأهداف ، كل ذلك بما يتطلب وعياً دائباً مخلصاً ، هو نفسه البحث عن قواعد هذا اليسار المنشود .

الفصل الخامس

المفهوم اليميني للقومية العربية

إن أهم كشف للفكر الحديث ، الذي انبثق عنه فيما بعد فكر الثورة العلمية هو النظر الجدلي للواقع الجدلي ، في صورته القائمة ، وفي سيالته التاريخية . وهذا ما دعي بالمنهج الجدلي (أو الديالكتي) . ولا شك في أن الديالكتيك ، بمختلف أشكال تطبيقاته ، يعتبر ثورة في حد ذاته . إنه ثورة أولاً ، بالنسبة للمناهج التقليدية السابقة ، التي سادت الفلسفة ، والعلوم الانسانية والمادية . لأن تلك المناهج كانت تعتبر ان للأشياء ، طبائع مستقرة ثابتة ، وان كل تغير يطرأ عليها ، إنما هو تغيير يتجه حتماً نحو الفساد ، ويفقد الشيء ماهيته ، أي يحوله إلى عدم ، بكلمة مختصرة .

وهو ثورة ، ثانياً ، بالنسبة للطرق المعروفة في فهم الانسان ذاته ، باعتباره فرداً ، له قواه النفسية الخاصة ، وباعتباره جماعة تتميز بخصائص مختلفة ، تدخل فيما بينها ، بعلاقات متشابكة ، وتخضع لقوانين من التفاعل والتغير المطرد . فلقد أدخل الديالكتيك فكرة الحركة في الوقائع ، واعتبرت هذه الوقائع حوادث ، أي ان وجودها هو في حال من التغير والتبدل ، ضمن السياق التاريخي ، على ان

نفهم من صفة (التاريخي) ليس الزمان الماضي ، ولكن كل حدوث خـــلال الزمان .

ثم إن الحوادث لا تتغير فقط باتجاه منعزل ، ولكن كل تغير ، إنما يتناولها معاً كجملة من الحدود التي تتبادل التأثير. ولذلك لم يعد بالامكان أ تدرس الواقعة الواقعية أو الحادثة، باعتبارها شيئاً منفرداً، قائماً بذاته . وهكذا أدخل الديالكتيك فكرة (الجملة) أو (الكلية) أو (الجماعية) — وهي اللفظة التي نفضلها — وأصبحت الحوادث تفهم كسلسلة من الجماعيات ، التي تتألف من عدد من العناصر ، لا قيمة لها ، إلا من حيث علاقاتها المتبادلة ، فيما بينها . ثم إن هذه (الجماعيات) لا تقف على مسافات متباعدة فيما بينها ، بل إنها تتبادل التأثير بدورها ، ولا تفهم الا من خلال العلاقات القائمة بينها .

فالعالم إذن هو في تغير دائم ، كما قال (هيراقليط) أحد مؤسسي الفلسفـــة اليونانية . ولكن هذا التغير له اتجاه ، وسياق تاريخي واضح ، ويقوم على أساس وحدات متفاعلة ، حتى يصعب الفصل فيها ، بين المستويات الإنسانية والمستويات المادية .

والذي يهمنا الآن من منهج الديالكتيك في هذا الحديث، هو التطبيق الثوري للمنهج الديالكتي على قضايا الصراع الاجتماعي .

فمن الواضح ان الفكر الوثوقي — المناقض للفكر الجدلي الحي — الذي سيطر على مؤسسي اليسار العربي ، وخاصة منه البعث ، وقف حاجزاً بينهم ، وبـــين التسلح بمنهج علمي لفهم قضايا الثورة والمجتمع العربي . ثم انهم لم يتعرفوا على منهج جدلي ، مادي أو حضاري ، يساعدهم على تحليل تطورات الأحداث مـــن حولهم ، وإمكانية السيطرة عليها .

ولذلك وقعوا باستمرار ، في مواقف المحافظين الفكرية، على الرغم من صراع اليسار معهم في الحقل السياسي . ولذلك فإن الصراع السياسي ، بطرفيه ، كان ينطلق دائماً من منطق فكري ، وعادات الفهم الواحد للأمور . لا فرق في ذلك ، بين رجعي غارق في تقاليده ومصالحه ، وبين تقدمي متلهف للتغيير والثورة . إن

هذا المنطق الواحد ، هو الذي فرض على الرجعية واليسار البعثي، الرؤية الواحدة للأشياء . وهو الذي جعل حكم هذا اليسار فيما بعد لا يختلف من حيث معاداته للشعب ، ومقاومة أهدافه ، والانحراف عن خط التاريخ ، إلا ان البعث كان أعتى وأقسى في تطبيق وسائل إرهابه .

فالفكر البعثي في أساسه وثوقي ، ينطلق من مسلّمات نظرية ، يفترضها صحيحة صحة مطلقة ، ثم يستنتج منها كامل نظراته المختلفة لشؤون الإنسان والمجتمع والسياسة .

وتظهر هذه الوثوقية أولاً في مفهومه عن القومية العربية .

فهو يفترض أولوية هذا المفهوم القومي على مختلف مظاهر الوجود العربي .

فكما أن اللاهوتيين ينطلقون من فكرة المصدر الإلهي للكون ، كذلك فإن البعثيين رفعوا المبدأ القومي الى مستوى قدرة الخلق ذاتها ، للوجود العربي في الماضي والحاضر والمستقبل .

وهذا يعني أن الاحداث تفسر دائماً على أساس أن الأمة شخصية تاريخية ، بل فوق تاريخية ، تتمتع بخصائص معينة ، وتجعلها هذه الخصائص تحقق نوعاً معيناً من الأحداث .

وبالطبع فإن رفع مبدأ الشخصيةالقومية المتعالية،هو مصدر اليمينية في الفكر البعثي كله ، وهو أساس احتقاره للنزعات العلمية والاجتماعية ، التي تحاول ، على العكس ، أن تبحث لكل حادث عن أسبابه في الظروف الواقعية المحيطة بها .

واذا صح القول فإن فكر البعث ، هو فكر الماهية ، وليس فكر العلاقة . لأن تثبيت كل القدرة في ذلك المبدأ القومي المتعالي (الرسالة الخالدة مثلاً في الشعار الأول : أمة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة) ، يعني نفي الحركة والتغير ، وكل ما من شأنه أن يؤلف نسيج الوقائع الموجودة فعلاً .

فالخصائص في شخصية الأمة ، تتحول الى قيم أبدية ، فوق الزمان والمكان ، وهي التي توجه التاريخ ، وتصنع مصير الأمة في مختلف الظروف .

وأما (الطليعة) – وهي عفلق وتلامذته الأوائل طبعاً – فهي وحدها التي

تؤلف كهنوت الواسطة بين تلك القيم الأبدية، التي لا تنكشف إلا له ، وبين بقية القطيع .. الشعب !

ومن هنا جاءت هذه الهلوسة الدموية ، في فرض وصايــة عفلق الخالدة على الحزب ، وفرض وصاية الحزب على الأمة ، ومناهضة جميع القيادات الأخرى ، واعتبارها (مزيفة) .. واحتقار طبقات المجتمع ، ووصفها بالجماهير (السائبة) أي المقودة والتابعة للطليعة وحدها .

فالنزول من (القيم) إلى الوقائع ، ومن (الأفكار) المجردة، إلى الاحداث، ومن المطلق – الذي يتصوره القائد حالاً في شخصه وحده ، وهو الناطق باسمه – الى التاريخ المتغير ، هو الحركة الفكرية التي يتضمنها هـــذا الفكر الوثوقي ، العجائبي عندما يتحول إلى مقارعة الأحداث من حوله ، وهو الذي يجعل أصحاب هذا المنطق ، ينضوون تحت الاتجاه المثالي نظرياً ، وينساقون في التطبيق الفاشي عملياً .

وبالطبع فإن هؤلاء يعجزون عن الدخول في تفاصيل هذا الواقع المتحرك . ولذلك يتصف حكمهم بطابع الجهل المطلق بمحركات الحوادث، وثقل الظروف .

ويحاولون ان يفرضوا على الواقع صيغاً يابسة مجردة ، يقصرونه على الخضوع لها . ثم عندما يركبهم الفشل الرهيب ، يسارعون الى قوالب أخرى متعالية ، لا صلة لها بطبيعة الأمور من حولهم . وهكذا يتخبطون في فوضى لا نهاية لها ، بين مختلف التدابير المتناقضة ، ويلقون التبعـــات والمسؤوليات على بعضهم ، ويغذي ذلك كله من التشرذم بين فئاتهم ، والعداوات الشرسة المتبادلة ، والتي تنتهي الى تصفيات متبادلة كذلك – ومن خلال المؤتمرات طبعاً ! – . فحين كان الحزب في صف الجماهير قبل الوحدة ، كان المستفيد الوحيد من تخبّط قادته بـــين المواقف السياسية المتعارضة، وعجزهم عن المبادرة خلال استراتيجية للعمل واضحة ومدروسة ، هو المستعمر وقواه الرجعية الداخلية ، التي كانت سرعان ما تجهز على المكتسبات (النظرية) ، وتشلّ كل نصر عن فعاليته في نتائج سريعة لصالح الشعب .

وعندما سرق التشرذم العسكري والطائفي والعفلقي ثورة الثامن من آذار، تخبط

من جديد في دوامة الوحدة مع القاهرة أو الوحدة مع بغداد ضد القاهرة . حتى انهار الحكم أخيراً في بغداد . ثم دخل الحزب في دوامة جديدة للحفاظ على مواقعه الاخيرة في سوريا ، دوامة القرارات الاشتراكية المتناقضة ، مع سياسة دعم الرأسمال ، والغزل مع أصحاب الفعاليات الرأسمالية . ثم يختار الحزب أحرج الأوقات لاعلان بعض قرارات اشتراكية. ولا يلبث ان يندم ويفكر في الرجوع عنها . حتى تتفق أخيراً مواقعه اليمينية الفاشية مع اليمينية التقليدية في البلاد . ولا يفصل بينها إلا أن الحزب ما زال يحكم ، بينما تتربص الرجعية الدوائر به ، لكي تستلم السلطة منه ، عندما يتضح (عجزه) وتفككه في الخطوة الأخيرة ، ويسقط من تلقاء ذاته .

* * *

إن التمسك بالمبدأ القومي (المتعالي : أي خارج إطار التاريخ والأحداث) يدفع بالعفلقيين إلى إعطاء فعالية الظروف الاجتماعية والمادية من حولهم ، قيمة ثانوية . وينكرون بالتالي على الانسان ، حق صنع التاريخ ، وتغيير ظروفه ، التاريخ الذي يتدافع بأحداثه ، في رأيهم ، من فوق الإرادات والقوى الاجتماعية ذاتها .

إنهم بذلك يتعلقون بحتمية جديدة، هي الحتمية الغيبية، وإن ارتبطت بالمبدأ القومي ، بشخصية الأمة ، بماهيتها الخالدة ، ولم ترتبط بالإله .

وإن هذه الحتمية الغيبية ، سوف تحقق منجزاتها بصرف النظر عن أية حسابات للقوى المتصارعة على صعيد الحياة الواقعية . وإن (الطليعة) هي الأداة السحرية لهذه الحتمية .. ولذلك فلا عجب إذن إن طالبت بالحكم وحدها ، وإن عصمت نفسها عن أية نقيصة ، واتهمت غيرها بكل قصور وانحراف .

ولا غرابة إن علت هذه الطليعة فوق القوانين والأخلاق، وأبسط الأعراف الطبيعية للحياة ، لأنها هي الناطقة باسم الارادة الخارقة ، وهي صانعة الانتصار الجديد للشعب التعيس ، وهي صاحبة المصلحة وحدها من أية ثورة .

إن أصحاب الحتمية الغيبية ، يضلون رؤية الواقع الراهن ، ويتشبثون

بتقديس الماضي ، ويرفعون حصائله إلى مرتبة القيم الخالدة . ومن ناحية أخرى ، فإنهم يقصّرون حتى عن فهم هذا الماضي ، بجذوره الاجتماعية والمادية ، وينطلقون إليه بروح تصوفية شاعرية ، لتعانقه على أنه نتاج الآداب والفنون ، والفروسية التي تؤلف وحدها ، بنظرهم ، مقياساً أبدياً لكل حضارة .

أما الحاضر ، فإن عليه أن يتشبّث بالماضي ، وان يعلو إلى مرتبته ، في إنتاج الشعر والبطولات الخارقة .

أليس هذا أبعد ما يمكن ان يصل إليه التعامي عن رؤية الواقع ، والانقلاع عن جذور الظروف المحيطة . أليس هذا ما يصوّر أكثر المواقف الفكرية عجزاً عن الثورة والحركة ؟

إن الحتمية الغيبية تنفر من الجدة والإبداع ، وتتصور اللحظات الراهنة في أفضل حالاتها ، تكراراً لنماذج العيشة الانسانية الماضية ، العيشة المتوهمة ، المنظور إليها من خلال أحلام متراجعة لمقاييس مندثرة .

تلك هي مرحلة بعث الرومانسية في السياسة ، التي ترى الكمال في الماضي وحده ، والنقص والفساد والشر في الحاضر . والمستقبل ، أي تغيير هذا الحاضر الفاسد ، لن يكون سوى استرجاع لنموذج العيشة من الماضي البعيد .

وهذا يفسر إلى حد بعيد ذلك التعلق النرجسي بالمرحلة التبشيرية ، التي كانت هي العهد الذهبي بالنسبة لنشوء الحزب . فإن عفلق سيظل يفخر على كل الزعماء الآخرين انه (اكتشف) قبلهم جميعاً فكرة الوحدة والحرية والاشتراكية . ولذلك فلا بد لهم ان يتنازلوا عن زعامتهم إليه ، ويتقبلوا وصايته (الخالدة) عليهم .. ألم يحلم عفلق هكذا من قيام الوحدة ؟ ألم يطلب من جمال عبد الناصر مع الحوراني ان يحكموا — هم الثلاثة فقط — الجمهورية حكم جمعية سرية — طبعاً — من خلف الوزارات والمسؤولين كلهم ؟

ولا ريب في أن عفلق كان يتصور أنه يستطيع أن يلعب دور (الموجّه) الفكري للقيادة الناصرية . وزيّن له غروره المراهق ، أن (عبد الناصر) مجرد زعيم عسكري ، سوف يحتاج باستمرار إلى إرشاداته هو . ولقد فسر عفلق انفتاح

الرئيس له قبل قيام الوحدة ، وترحيبه المخلص بزياراته له ، على انها نوع من طلب (الوصاية الفكرية) .. حتى انه سارع بالدعوة إلى إقامة الوحدة مع القاهرة ، اعتقاداً منه انه سوف يتخلص نهائياً من تسلط أكرم الحوراني على الحزب ، والسياسة في سوريا ، وأن عبد الناصر لا بد سوف يعمل على إبعاد (الحوراني) إيماناً منه بمعصومية عفلق وزعامته الفكرية المطلقة . ولم يستطع عفلق أن يكتم آماله تلك عن أصفيائه من البعثيين . وكثيراً ما كان يتحدث عن زياراته لعبد الناصر ، بنوع من الفخر والاعتزاز ، والثقة بالنفس . وكأنه أراد أن يوحي لمستمعيه أنه استطاع أن (يطبق) الرئيس (ليتتلمذ) على أفكاره وتوجيهاته .

وتلك كانت إحدى ثمرات الوجود الشرنقي الذي يتنفس من ظلمته عفلق ، دون ان يستطيع تقدير كفاءات الرجال الذين يلتقي بهم . وخاصة دون أن يستطيع كشف العملقة الجبارة المتجسدة في شخصية عبد الناصر ، والتي يحاول هو بقزميته العنكبوتية أن يتنطع لمنافستها .. بل والحلم بالسيطرة عليها !

* * *

إن أصحاب الحتمية الغيبية – القومية – يعودون من حيث لا يدرون الى مواقع اليمين نفسها في مستوى الأفكار والمعتقدات .

فاليمينيون يرون من الماضي صورته الدينية اللاهوتية ، ومن الحاضر صورته الطبقية ، التي لا يجوز التعدي عليها ، لأنها هي نفسها جزء من العقيدة . فسواء ذهب التقديس إلى البطولات في الفروسية ، أو في الشعر والأدب ، وسواء ذهب التقديس الى العقائد الدينية ، فإن الموقف الفكري للاتجاهين – المتعاوضين ظاهرياً – هو المحافظة حتماً .

وبالتالي فإن المنهج الديالكتي ، هو أبعد ما يكن عن مثل هذا اليسار ، بعده عن اليمين الواضح نفسه .

إن مصير اليسار الغيبي ، عندما يستولي على الحكم ، هو الديكتاتورية الفاشية ، لجميع تلك الأسباب الواردة في التحليل السابق ، ولأن هـذا اليسار ، الذي يظل جاهلاً متجاهلاً القوى التاريخية ، والظروف الاجتماعية ، سوف يعتبر نفسه القيّم

الوحيد على (بعث) الماضي .

وأما ماذا (يبعث) من الماضي ، فهذا ما لم يتم مطلقاً بتحديده . هل يبعث الجاهلية ، أم الاسلام ، أم يضيع بينهما ؟ أم يبعث شيئاً أسطورياً عن الفروسية الخارقة ، أو الفن البطولي ؟.

فتلك المتاهات المجردة، ستتحول حتماً إلى سيطرة عاتية ، من الناحية العملية، تؤمن بالظلم والغدر ، على أنه الفروسية ، وبالكذب العلني ، على أنـــه العقيدة . وتستفيد في الوقت ذاته ، من جميع القوى السلبية ، ذات الجذور الرجعية ، في أرضية المجتمع .

هؤلاء اليساريون (المزيفون) ينافسون اليمين الديني، بنوع آخر من التعصب الأعمى المظلم للبطولة ، التي تحولت في الحكم الى فاشية عاتية . ولكن اليمين الديني يتمسك بالاخلاق ، بينما اليسار الغيبي أو الفاشي ، يتحلل مـــن الاخلاق ، على أساس إسناد (المعصومية) إلى أفراده ، واستباحة مختلف القيم والعادات ، تمهيداً لظهور (الخارق) و (المعجز) و (البطل الأوحد) ، أو الابطال المتوحدين .

ولنتصور كيف يمكن أن يقوم مجتمع من (الابطـال المتوحدين) هؤلاء . إن الترجمة العملية لهذا التصور ، هو قيام مجتمع تحكمه العصابات ، وتتنافس على نهب خيراته ، وتمجيد السباق الى الدم والجور والتعذيب . وهذا ما حدث بالضبط، عندما أصبح الشعار العملي الوحيد لحكم البعث في بغداد ودمشق : (إقتلوهم ، اسحلوهم، اسحقوهم حتى العظم) !

* * *

إن المنهج الجدلي ، يزلزل أولاً من أسطورة (المثل الكاملة) ويستبدلها برؤية الوقائع ، وهي في حال الحدوث والتفاعل والتغاير ، ويهدم أيضاً كل (يقـــين) سيتحول إلى تعصب واستعلاء ووصاية على الشعب . ويحـــل محله اليقين بالتغير ، والثقة بحركة القوى الاجتماعية ، المؤسسة للتاريخ الواقعي .

والمنهج الجدلي يرفض الأمة ـ الاسطورة ، أمة الشعراء والابطال الخارقين والفرسان الدونكيشوتيين ، ليتبنى أمة من الناس الموجودين فعلاً . وبذلـــك

يستطيع ان يرى الأمة إنما توجد في مجتمعات ، وأن المجتمعات تتألف من كليات، من العلاقات المتنامية والمتغايرة، وأن هذه العلاقات تسيطر عليها مصالح الطبقات المتعارضة ، وأن حركة هذه المصالح ، إنما تسير حتماً ، من احتكار الأفراد ، إلى اشتراكية القاعدة الأكبر للطبقة المتحركة من المجتمع ، نحو صنع الظروف الأكثر عدلاً ، والافضل حضارة وتقدماً .

كل هذا في الواقع ، يحتّم على اليسار العربي ألا (يؤمن) بالثورة فقط ، ولكن أن يفهمها .

وأن فهم الثورة يعني النزول من مستويات الأفكار المطلقة ، التي هي أوهام ، الى التفاصيل ، التي هي نسيج الوقائع .

وأن الفهم ، يستتبع التحقيق ، والتحقيق يزيل خرافة الشذوذ والفردية ، ويبحث عن القوى الاساسية للجماعات . وبدلاً من ذلك التأليه الخرافي للذاتية المغلقة ، فان التنظيم يفترض قيام العلاقات الموضوعية ، بعد تدمير العلاقات الشخصية .

لقد كان من أثر ذلك التصعيد للذاتية العفلقية من مستوى الشخص — بكل ما يحمل من عقد ونواقص ومركبات العجز والغرور والصمم عن نداءات الجماهير — إلى مستوى ذاتية القومية والأمة ، ان أصبح تقليداً شرعياً للمفكرين البعثيين ، هذا العزل الغريب لكل مضمون اجتماعي ، يمكن ان تلتقي به القومية العصرية .

لقد كان طابع التفكير القومي المنحدر عن الآراء العفلقية في أصله ، هو القومية اليمينية،بالرغم من ذلك الصراع الذي دخلته جماهير الحزب ضد الاحزاب الرجعية في سورية ، قبل الوحدة . فلقد كانت هذه الجماهير تقودها الحركة الشاملة الغاضبة للشعب ضد أعدائه المتسلطين على مصيره السياسي والاجتماعي . وقد قصرت القيادة الفكرية دائماً ، عن توضيح هذا الاندفاع العفوي لجماهير الحزب مع جماهير الشعب ضد الشكل السياسي لحكم الرجعية والرأسمالية والاقطاعية ، وتحالفها مع الاحلاف الاستعمارية .

لم تملأ هذه القيادة النضال السياسي للجماهير بأي محتوى اجتماعي ، وعزلت معركتها السياسية عن معركتها الاجتماعية . وقد بررت ذلك ، بالعودة إلى منطق (المرحلة التاريخية) . بينما كانت الاهداف الخفية لهذه القيادة ، هي الوصول إلى السلطة في الحكم، وركوب الموجة الجماهيرية دون هديها إلى المعنى الحقيقي لنضالها القومي السياسي آنذاك . ذلك المعنى الذي كان يطالب باجتثاث الجذور الاجتماعية لشكل الحكم السياسي اليميني، المتحالف مع الرجعية العربية والاستعمار الاجنبي طيلة الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية ، إلى حين قيام الوحدة عام (١٩٥٨) .

ولو عدنا إلى سلسلة افتتاحيات جريدة البعث طيلة هذه الفترة ، لوجدنا ان الهجوم على الاحزاب الرجعية ، كان يتبع طريق انتقادها في تصرفاتها السياسية ، التي تدور كلها حول تبعيتها للغرب دون الكشف مرة واحدة ، عن سبب هذه التبعية ، في بنيتها الاجتماعية الاستغلالية .

أي ان الصراع القومي الذي كان يقوده الحزب ، ظل منفصلاً دائماً عن أي محتوى للصراع الاجتماعي والاقتصادي ، وكان الحل الاشتراكي (مؤجلاً) باستمرار .

ولذلك فان البنية الاجتماعية للحزب،لم تستطع ان تتجاوز حدود البورجوازية الصغيرة ، ولم تنفتح على قواعد شعبية واسعة من العمال والفلاحين .

وبقي الطمع بالوصول الى الحكم هو المحرك الاساسي للقيادات السياسية التابعة لمدرسة الحوراني .

وبقي التطهر الاخلاقي، هو المحرك الاساسي لسلبية القيادة العفلقية ومريديها، بعد أن شلها الحوراني، وجعلها تتابع سلوك الحرد والانعزال داخل الحزب نفسه .

وبقي التصوف الغيبي هو المحور الذي يدور حوله تأمل المفكرين البعثيين ، والذي يتبلر ، من حين الى حين ، في تبني لاحدى المدارس الفكرية التجريدية من الغرب ، بصرف النظر عن موقفها السياسي والاجتماعي .

وأما القواعد ، فقد كانت تتابع (تحررها المطلق) من أي توجيه عقائدي أو

سياسي ، بسبب ذلك الانسياب العجيب في القدرات الحزبية . وكانت تشترك تلقائياً مع الموجات الشعبية الثائرة من حين الى آخر ، خلال التظاهرات الطلابية المتواصلة ، في تلك السنين الحافلة بالاحداث الجسام ، بين سقوط (أديب الشيشكلي) وقيام الوحدة ، والتي حددت مستقبل العمل النضالي للمنطقة العربية كلها ، و نوعه فيما بعد .

* * *

نخلص مما تقدم الى أن تكوين الفكر الأساسي لحزب البعث ، كان ينطلق من النزعة القومية . ولكننا تبينا أن هذه النزعة القومية كانت تتصف بخصائص ، تجعلها من الناحية الفكرية ، تقف الى جانب الاتجاه الغيبي المتعالي ، ومن الناحية العملية ، تحوز على مضمون يميني ، سياسياً واجتماعياً ، وإذا كان الصراع بين القادة البعثيين وقادة اليمين قد طبع تاريخ الحزب لفترة طويلة ، فان الدافع الحقيقي لهذا الصراع ، لم يكن اختلاف الاهداف ، بقدر ما كان تسابقاً على الحكم والنفوذ والسيطرة .

وإذا أردنا تحديد خصائص هذا المنطق القومي للحزب ، استطعنا أن نحددها كما يلي :

١ ــ الوثوقية في الاعتقاد :

لقد كان التفكير القومي البعثي ينصب على الوصف والمبالغة ، وصف عظمة الأمة العربية ، ورفعها إلى مستوى الوجود الخارق ، وإلحاق مختلف القدرات الفردية والحضارية بها ، وتنزيهها عن أية مفسدة أو نقيصة ، وتمجيد مرحلة الجاهلية من تاريخها خاصة ، واعتبار هذه الجاهلية بمثابة الأصالة الكاملة للوجود العربي . وبالمقابل إضعاف المرحلة الاسلامية ، ولو بصورة غير مباشرة .

هذا الوصف والتمجيد يتطلبان من البعثي الايمان المطلق بهذه العظمة الخارقة . وبالتالي فإن ثبات الاعتقاد يأتي من ثبات هذا التصور الصوفي عن الأمة . ولذلك فلا بد من رفع ماهية الأمة العربية إلى ما فوق التاريخ نفسه . ويصبح التطور

والتغير نوعاً من تكرار الشخصية القديمة للأمة .

ولكن التكرار محتوم ، أي لا بد للأمـــة من ان تبلغ كمالها مرة ثانية . وتنتصر على (الواقع الفاسد) و (تبعث) جنة الوحدة المفقودة . وان هـــذا التكرار لا يتوجه إلى إعادة الانتاج الحضاري نفسه . ولكن يتوجه إلى تكرار العملية الخالقة ، عندما تعود للأمة شخصيتها الأولى . ومن هنـــا ، كان هذا الالحاح على مفهوم (الاصالة العربية) . فكل شيء يقاس بالنسبة لهذه الاصالة ، السياسة والاخلاق والاجتماع والثقافة ، ولكن من غير ان يجرؤ أحدهم على تحديد مضمون هذه الاصالة . كأن اللفظة ذاتها تستغرق كافة ابعاد معناها . فتكرارها واجترارها هو الذي يؤكد حقيقتها ، وان لم يجد الفكر أي معادل واضح لهـذه الحقيقة . مثلها مثل لفظة (البعث) ، التي لم يهتم أحد بأن يتساءل ومـاذا يبعث (البعث) ، اللهم إلا الصدى الصوفي السحري لهذه الكلمة وحدها .

٢ – الحتمية الغيبية

ان تصور القومية على انها مجموعة قيم ومثل عليا وأفكار مجردة عـــامة ، هو الذي أدى إلى عدم التفكير إطلاقاً بالقوى والمحركات الواقعية ، التي ترد للأمـــة شخصيتها . فكأن تعيين هذه الشخصية من خلال المثالية الصوفية ، يكفي لأن يحقق لها كامل أهدافها القومية من تلقاء ذاتها .

ولقد حدد ميشيل عفلق مرة ، في طور تأسيس الحزب ، دور (الطليعة) بأنها(تشق الدرب ولا تعبده) . وهو في ذلك يعني بصراحة أنه يكفي بمجرد الاعلان عن الاهداف ، فان الطريق إلى تحقيقها لا بد ان ينفتح ويتعبّد من تلقاء ذاته .

لقد كانت الثقة بحتمية الانتصار لا تنبع عن تحليل القوى الثورية الواقعية ، والتي يمكن تفجيرها وتوجيهها ، بل هي ثقة بحتمية غيبية ، تميل فيها الاهداف إلى تحقيق ذاتها ، حتى بدون تدخل البشر . وعلى هذا الأساس فان سلسلة الاحاديث المرتجلة ، التي قدمها عفلق في حلقات المؤسسين الأوائل ، والتي تعتبر المتن الأصـلي لمنطلقات الفكر البعثي كله ، هذه الأحاديث ، كانت أشبه بإلقاء الآيات المنزلة،

التي تبشر بالنصر دون ان تتحدث عن وسائله، وتحتقر كل ما عداها من الافكار، وتتهم العالم كله بالفساد، وتضع نفسها بديلاً عن الآلام الراهنة.

ان هذا النمط من الاسلوب الإيحائي، والتركيز العاطفي، والكلام المجنح، واللهجة البطيئة المستغرقة، التي تلقى بها هذه «الآيات»، كانت بمثابة التعاليم «الرسولية» لرواد البعث من قبل «المعلم الأول». ومثل هذا النمط من الافكار، لم يكن يجد ثمة طريقة للاقناع، إلا الاسلوب الإيحائي، الذي يستغني عن التحليل، بالوصف والمبالغة، والتركيز العاطفي حول ألفاظ وعبارات، ذات جرس شعري صوفي.

لقد كانت مفاهيم «الانقلابية» و «الاصالة» و «قدر الأمة» و «المرحلة التاريخية»، هي مجموعة العوامل «الموضوعية»، والتي سوف تحقق «البعث العربي».

حتى هذا البعث، فلا وجه له، ولا مستقبل متعيناً يحدده. ولكنه ... هو البعث ... البعث، البعث!

هذا الالحاح يكفي لتحقيق أكبر معجزة. ولقد سادت خيال البعثيين لفترة طويلة هيمنة هذه الالفاظ الكبيرة المجنحة بصوفية ضبابية، وأبعدت بينهم وبين أية محاولة للتفسير او التعليل. ثم عزلتهم عن العلوم الاجتماعية، والثقافات الثورية. كما أسست لأفرادهم الأوائل نموذج الشخصية الفنية، السلبية، المتعالية. وركزت على «فردية» مهومة مغلقة. وأعدمت كل نمو بين الاعضاء، الرواد، لأية روابط موضوعية، تساعد على انشاء تنظيم ما، بالمعنى الحزبي المعروف.

فكما ان الأمة العربية الواحدة، ذات الرسالة الخالدة، سوف «تنقلب» يوماً ما، وبقدرة خارقة، وبأسلوب عبقري، على كل «واقعها الفاسد» الحالي، كذلك فان «الايمان» وحده يكفي لانشاء «حركة البعث» هذه «الحركة» التي كان يتصورها عفلق على شكل «البعثة الرسولية» كبعثة المسيح وحوارييه، او كبعثة محمد وخلفائه! وهي وحدها طريق إنقاذ الأمة العربية!

٣ ـ الماهية القومية المتعالية :

ان عفلق قد سحب شرنقته الذاتية ، على الأمة ، فتصورها هي أيضاً على شكل « ذات كلية » ، غنية بالروائع والمثل . وبالتالي رفع هذه « الذات الكلية » فوق كل شيء . ودون ان يدري ، فقد استخدم بعض صيغ المثاليين الفلسفية . فكان يرى ان أي تحديد لهذه الذات ، يفقدها « اصالتها » . وبذلك نظر إلى « الأمة » وكأنها المطلق اللامتناهي . وبعبارة أخرى ، فان عفلق سحب على القومية ، كل خصائص الالوهية . فهي مطلقة ، كاملة ، لا يأتيها النقص ، لا من وراء ولا من أمام . وهي قادرة كل القدرة ، خالدة كل الخلود . وبالتالي فان أفعالها ، ليست أفعالاً تاريخية عادية ، ولكنها معجزات تامة . وعمل « البعثي » هو الاستغراق والتأمل في هذه الذاتية ، والمشاركة فيها ، واكتشاف « اقدارها » ، وبالتالي هو حارسها وحاميها وحده . وأما « بؤس » الانسان العربي المعاصر ، فهو دليل سقوطه ، من فردوس القومية .

وحتى عندما يهاجم عفلق الاستعمار ، و « الفئة الحاكمة الرابضة على صدر الأمة » ، فإنه يحيط هذه الألفاظ بهالة صوفية كذلك ، ويجردها هكذا من كل ثقلها الواقعي . ويكتفي بمجرد الإشارة إليها ، بدلاً من تحليل قواها ، والدور الحقيقي الذي تلعبه في مقاومة هذا « البعث » !

إن الصراعات الواقعية ، السياسية والاجتماعية ، كلها لا معنى لها ، بالنسبة للموقف العفلقي .. فهي زائلة .. تافهة . والمهم ، هو أننا اكتشفنا أعلى الحقائق وهي : أمة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة !

٤ ـ الوحدة التجريدية

وكما « تعالى » التفكير العفلقي عن ربط مفهوم القومية العربية ، بأي عامل تاريخي أو اجتماعي ، واعتبرها هي في ذاتها مصدر كل العوامل والعلل الأخرى ، أي انه وضعها (فوق) شخصيتها الواقعية ، و (قبل) عوامل تكوينها هي بالذات ، كذلك فان « الوحدة » لم تكن تعني بنظر عفلق ومريديه الأوائل، إلا

ان الوحدة قوة ، والوحدة مثل أعلى ، و « الوحدة » عودة الأصالة ، والوحدة مصدر القيم كلها ..

أي بكلمة واحدة ، فإن المواجهة الفكرية للوحدة ، كانت مواجهة عابد لصنم ، ولم تكن موقفاً موضوعياً تجاه مشكلة واقعية .

ولذلك رفض الذهن العفلقي ، باستمرار ، أية محاولة لتعريف هذه الوحدة ، واكتشاف مقوماتها الواقعية ، واكتفى أحياناً بالتدليل عليها بواسطة جملة من التعليلات النظرية المدرسية ، مثل وحدة التاريخ ، وحدة اللغة ، والأرض والعرق الخ ..

وعجز هذا المنطق العفلقي عن اكتشاف عوامل الصراع القومي والاجتماعي ، ووحدة الثورة العربية من خلال هذه العوامل ذاتها .

ولذلك لم يهتم عفلق ومدرسته ببحث طرق تحقيق الوحدة ، وشكل الحكم ، ومشكلات التوحيد المختلفة . بل كان طمس الاختلافات الصغيرة بين الأقطار العربية ، واحداً من أهم « الآيات » الوحدوية ، لأن أيّ تحليل للظروف المحيطة بهذه الأقطار ، إنما هو « تشكيك » في إمكانية قيام الوحدة .

وبذلك تم تواطؤ عجيب من نوعه ، على تجاهل مختلف الصعوبات والعقبات التي تعترض عملية التحقيق الوحدوي ، ابتداء من الشكل السياسي لها .

وتم بالتالي « تأجيل » كل بحث علمي من هذا النوع ، إلى ما بعد تحقيق الوحدة . ولم يخطر ببال أحد من هؤلاء العفالقة ، ان يتساءل ولكن كيف يسبق تحقيق الوحدة ، التفكير في عوامل وأدوات هذا التحقيق ومعالجتها !

ولكن المنطلق التنويمي الايحائي الذي نما منه كل التراث العفلقي ، لا بد أن يصل إلى هذه النتيجة وهي اعتبار التحقيق هابطاً من أعلى، من (قدر الأمة) من (المرحلة التاريخية) .. من البعث وهكذا ! ولذلك ، فعندما واجه الحزب أول مرة فكرة الوحدة مع العراق ، إبان انقلاب الحناوي في مطلع الخمسينات من هذا القرن ، لم يكن الحزب يملك أية صورة عن كيفية هذه الوحدة ، عن شكل دولتها ، عن مقياس حقيقتها ، والعوامل الايجابية والسلبية المحيطة بها .

بل إن عفلق قد فلسف (المؤامرة الاستعمارية) تلك ، بأن اعتبر أن مجرد تحقيق الوحـدة ، يكفي للقضاء على حكم نوري السعيد آنذاك . ولم يكن عفلق ليقبل حتى مجرد تصور أن هذه الوحدة ، معناها مباشرة إلحـاق سوريا بالعرش الهاشمي ، وإعادتها من جديد الى التبعية الاستعمارية ، والقضاء على استقلالها الذي سبقت به تحرر العراق آنذاك ، من السيطرة البريطانية المباشرة .

وكذلك كان الأمر ، عندما أقبل الحزب على تحقيق الوحدة مع مصر ، عام ١٩٥٨ ، فلقد كان مدفوعاً بعوامل مختلفة . ولكن القادة، لم يكونوا يملكون أيضاً أي تصور عن بنيان الدولة الوحدوية . ولذلك تحولوا إلى أعداء ألداء لهـا لمجرد أن ابتعدوا عن مناصب الحكم فيها . وعند ذلك فقط حاولوا ان يكشفوا كل (الاخطاء) و (العوامل السلبية) التي تتضمنها تلك التجربة .

ولكن التاريخ كشف بالمقابل أن جماهير الحزب والشعب معاً ، كانت تريد من هذه الوحدة شيئاً آخر ، غير ما كان يريده منها قادة الحزب . ولهذا بحثـه المطول فيما بعد .

وإنما يهمنا في هذا الفصل ، أن نؤكد على السبب الرئيسي في انعدام التفكير العلمي من ثقافة الحزب الرسمية ، وهو الموقع المثالي الصوفي الذي انعزل به عقل عفلق دائماً ، فترك للأحداث والمفاجآت أن تفرض هي مواقفها على الحزب ، وأن تجعله ينتقل من النقيض إلى النقيض ، حتى وصل به الأمر الى هـذا الانحراف الرهيب ، اخيراً .

الفصل السادس

بين اشتراكية البعث والماركسية

كان عفلق ومدرسته الفكرية ، وهي التي تمثل فكر الحزب الرسمي وجوهره الأساسي ، كانوا يؤلفون في الواقع (كهنوتاً) جديـــداً لا يختلف عن كهنوت الأديان، إلا باستبداله لكلمة (الله) بـ (القومية) أو (الأمة) . وكأي كهنوت، فإنه يربط أمر الكشف عن المعبود بنفسه ، ويجعل تسلسله (الروحاني) هو الجسر الوحيد بين (الرعية) أو الاتباع ، وبين طبقات الكهنوت .

وبالتالي فإن مختلف خصائص الفكر الكهنوتي ، من سرية وانغلاقية وانجذابية، وتسوير الذات بهالات الخشوع والخضوع ، وفرائض التبريك ، ومـــن (حظوات) بأجزاء من الجنة العفلقية، توزع على أفراد المراتب ، حسب درجات تقربهم وتبعيتهم للذات (العلية) التي يمثلها عفلق ...

مثل هذا الفكر ، مثل هذا السلوك ، لا يمكن في الواقع أن يخلق حزباً ، أي حزب ، من اليسار أو اليمين . وبالتالي لا يمكن لهذا الحزب أن يصبح في أحد الأيام أداة لثورة جماهيرية ، إلا بقدر ما كان يتحرر من سيادة العفالقة ويندفع مع خضم الجماهير . وهذا لم يسهل تحقيقه ، إلا بفضل سياسة استثمار الشارع ، التي

كان يتقن فنها كل الاتقان ، الحوراني ومدرسته .

ولذلك ، فان عفلق ، بالرغم من نشأته الثقافيـــة ، بالقرب من الماركسية والماركسيين ، كان يملك رد فعل شنيعاً وعصبياً ضد أي اتجاه نحو مفهوم واضح عن أي نوع من الاشتراكية .

ولقد تعمد عفلق في الواقـــع ، أن يستثير الشباب ضد الفكر الماركسي والاشتراكي ، دون ان يفصل بين هذا الفكر وبين تصرفات الأحزاب الشيوعية المحلية ، التي كانت في مجملها تسير ضد الاهداف الشعبية المباشرة .

ولو أننا عدنا الى مصادر واضحة عن موقف البعث من الاشتراكية ، لوجدنا في الواقع فراغاً مخيفاً ، وعدماً صارخاً في جميع حقول المعرفة الاشتراكية . أللهم إلا تلك العبارات القليلة المتناثرة ، في أحاديث عفلق ، عن الاشتراكيـة ، وهي كلمات وصفية تأثرية، تعد بالجنة والعدالة والسعادة من وراء تحقق الاشتراكية .

وليس من شك في أن الشروط الموضوعية التي كانت تخضع لها ثقافة الشباب العربي في أواسط الأربعينيات من هذا القرن ، كانت تساعد عفلق أكبر مساعدة ، على هذا العقم الفكري في مجال الفهم العلمي للاشتراكية .

ولذلك ، فاننا اذا ما أردنا ان ندرس الوضع الذهني والموقف العقائدي للبعث من الاشتراكية ، فإنه لا بد لنا مـن دراسة مختلف تلك الظروف الموضوعية ، التي كانت الثورية العربية ، عامة ، غارقة فيها ، بعيـــدة عن استشراف أي أفق علمي صحيح ، لملء ذلك الفراغ الاشتراكي من أفكارها ومواقفها .

* * *

ان قصة الثورية العربية ، مع الماركسية ، كفلسفة للتـــاريخ والاجتماع ، ومع الدول الاشتراكية ، ومع الاحزاب الشيوعية المحلية ، قصة حافلة بمختلف المواقف ، المواقف المتناقضة ، والتعقيدات النظرية والعملية .

ولكن كل هذا التناقض ، كان محكوماً بالدرجة الأولى ،بالظروف السياسية المباشرة ، التي كانت تحيط بالثورة العربية ، وهي عبر نضالها المستميت ، لتثبيت منطلقاتها .

وإذا كان سوء التفاهم قد سيطر على علاقة الثورية العربية بالنظرة الماركسية، وبالأحزاب الشيوعية المحلية، فانها كانت أقرب إلى التفاعل والانسجام، مع الدول الاشتراكية، كالاتحاد السوفياتي وبوغوسلافيا، على الصعيد السياسي.

وقليلا ما تأثرت سياسة الاتحاد السوفياتي خاصة بالعقد، التي كانت الاحزاب الشيوعية، في العالم العربي تعانيها تجاه أهداف الثورية العربية، وانتصاراتها الذاتية. ولكن مع ذلك، فان فترة من تاريخ العلاقات الطيبة، قد أفسدتها، إلى حين قصير جداً، هذه العقد. وهكذا، فإن التوافق في الخط السياسي، بين الاتحاد السوفياتي، وبين الثورية العربية، هو الذي كان يتجاوز باستمرار كل التناقضات الأخرى. وعلى ذلك، فهو الذي ينبغي ان يدفع إلى تفاهم أعمق، في المستويات الاخرى التي تمس مستوى الفكر الثوري خاصة.

ونحن في هذه الايام، نشهد خاصة نضوج نزعة جديدة للثورية العربية، تتمثل هذا الاتجاه نحو الالتقاء باليسار العالمي، فكرياً خاصة، بعد ان حدث الالتقاء العملي، في اكثر من مناسبة.

فاليسار الثوري العربي، في سياق بحثه عن الاصول النظرية لمنهجه ونظرته للوجود الانساني، يطالب نفسه باستمرار، بضرورة تفهم أعظم للتيارات الفكرية في الثورية، والانفتاح على حقائقها، دون أي التزام مسبق بها.

فكما ان مرحلة تأكيد الذات التي مرت بها الثورية العربية، خلال معاركها الاولى، قد فرضت عليها هذا التحريم السحري، وهو عدم المساس، او عدم الاحتكاك بأية صورة فكرية تمت إلى الماركسية بصلة، كذلك فان الحوار الذي تتطلبه مرحلة الانفتاح المشيد على نوع من الثقة بالنفس واستقلال الشخصية، لا يعني التزاماً مع الطرف الآخر.

بل ان الحوار قد يعني الانتقاء. والانتقاء يقوم على مقياس معين، نابع من صميم الطرف الذي يتجه نحو الالتقاء بالطرف الآخر.

وبمعنى آخر، فان الثورية العربية لا تستطيع ان تتجاوز حصائل خبرتها، وخاصة التي صنعتها معاركها المستمرة، لكي تتبنى خبرة نظرية مجردة. والحقيقة

أن علينا ان نحدد العلاقة الثلاثية ، التي قامت باستمرار ، بين الثورية العربية من جهة ، وبين الماركسية ، وبين الاحزاب الشيوعية المحلية ، والدول الاشتراكية .

إن هذا التحديد ، عبر تجربة السنوات السابقة ، هو الذي يدلنا على صيغة التفاعل الصحيحة ، المقترحة اليوم . ونحن سنكتفي ، في هذا الموضوع ، بتحديد العلاقة مع الفكر الماركسي فحسب ، والعقبات التي قامت في وجه هذا التفاعل ، وخاصة تلك التي أوجدها فكر حزب البعث ، وتأثير هذا الفكر على جيل كبير خارج الحزب من الشباب المثقف .

الماركسية المحرمة :

لقد ظل الفكر الماركسي مطروداً ومطارداً ، من مجالات الثقافة الغربية ، التي وردت علينا ، طيلة نصف القرن الماضي . وبينما كانت مناهجنا التعليمية تطلعنا على مختلف تيارات الفكر الأوربي ، فإن الماركسية بقيت ملعونة سلفاً . ولا يمر بها الطالب إلا ليقصيها عنه ، باسم الانتقادات الكثيرة التي توجه إليها .

وحتى كليات الاجتماع ، والفلسفة والعلوم الانسانية ، فإنها لم تكن تسمح لنفسها بأي عرض موضوعي واف ، لأي جانب من جوانب الماركسية .

وعندما اتسعت حركة الترجمة والنقل عن اللغات الاوربية فإن المؤلفات الماركسية لم تجد لنفسها إلا طريقاً ضيقاً جداً ، لتنفذ من خلاله الى بعض المثقفين العرب القلائل .

ولكل هذا أسباب واضحة معروفة ، ولا بأس من تعدادها :

أولاً : إن الدول العربية كانت كلها واقعة تحت نفوذ الاستعمار المباشر وغير المباشر . وكان الاستعمار هو أقسى صورة عن البورجوازية الغربية ، عدوة الماركسية الاولى . والاستعمار يحارب الثقافة الجادة إجمالاً ، فكيف به تلقاء أخطر ثقافة على وجوده كله ؟

ولذلك كانت الأفكار (الليبرالية) هي أقصى ما يتسرب الى العقل العربي الناشيء ، من خلال الحصار الثقافي الاستعماري ، المضروب حول الثقافة الجادة ،

وخاصة الثقافة الثورية . والليبرالية ، هي مثل البورجوازية ، يوم أن كانت ثورة صناعية ضد المجتمع الارستوقراطي الاقطاعي . فهي التي نادت بمفاهيم الحرية والمساواة والاخوة الانسانية ، لكي تفسح لنفسها مجالاً ، كطبقة جديدة تزاحم سلطان الطبقة الارستقراطية القديمة ، التي كانت تقوم على السلالة والعراقة في الدم والمحتد . وتتملك الأراضي الواسعة بحكم نظام الاقطاع وتمنع ازدهار التجارة والصناعة ، الناشئة في المدن ، الواقعة على أطراف الإقطاعيات الكبيرة ، منذ القرون القديمة .

وبالرغم من أن مثل الحرية هذه ، التي كانت تفدنا مع نتف الثقافة المجردة ، قد ساعدت على تنبيه بعض العقول الرائدة ، فقد بقيت معزولة عن إيضاح المعاني الاجتماعية للثورة القومية ، التي لم تتلمس قواها الاولى بعد .

ثانياً : فاذا كان الاستعمار قد ضرب حول وعينا هذه الهالة المجردة ، من مثل الحرية،وأقام حصاراً حولنا ضد الافكار الثورية الحقيقية، فان هناك حصاراً آخر ، كانت تشيده كذلك ، في دائرة أشد ظلاماً واكثر رسوخاً ، تربيتنا التقليدية التي كانت تنفر من كل ما هو « مادي » ، وكأنها تنفر بذلك ، من كل ما هو « واقعي » ، وبالتالي « حقيقي » .

فالمادية في تقاليد اعتقاداتنا وأفكارنا هي نقيض الروحية . فالأولى محل الرذائل ، والثانية محل الفضائل ، طبعاً ، كلها .

وإذا ما أتينا المادية في العلم ، من دربها « الاخلاقي » ، و « الديني » ، فلن نصل اليها مطلقاً . وبالتالي فلن تكون لنا قدرة على فهم الواقع من حولنا ، كما هو وبدون أي وهم .

ولقد اعتدنا ان نخضع للتحريم الاخلاقي والديني ، اكثر مما نخضع لحقيقة الشمس ذاتها ، إذا ما غمرتنا بأشعتها في لحظة ضلال وتيه .

ولذلك عندما نادينا بالوحدة العربية ، كنا نتشبث بها كحلم ، ونرفض بكل عناد وكبرياء ان نبحث عن أجوبة هذه الاسئلة : كيف تبدأ هذه الوحدة ، وما هي نواتها ، ومع من ، وهل هي وحدة « كل العرب » بدون تمييز بين حكومات

وطبقات مثلاً ، ومن يحقق الوحدة ، ثم كيف ستكون هذه الوحدة ... نظامها الاجتماعي ، وشكل دولتها.. الخ . من كل هذه الاسئلة التي كان يأنف الثوريون العرب من طرحها على أنفسهم ، وذلك كله بتأثير الذهنية البعثية ، لأن كل ذلك قد يوحي بالتشكيك، وأصحابها لا بد ان يكونوا متشككين ، وبالتالي فهم « خوارج » ولا شك !

هذه « التطهرية » التي كانت تصاحب اعتقاداتنا الثورية ، هي التي كانت في الواقع تؤلف المرحلة الرومانسية والطوبائية ، من مراحل فهمنا للقضية العربية .

وهي التي وقف عندها تفكير البعث ، ولم يحاول ان يخطو خطوة أخرى خارجها . بل انه اعتبرها نهاية المطاف ، و كشف الكشوف .

وهي التي كانت تضرب سياجاً من التحريم « شبه ديني » ضد « الفكر » بمعناه الصحيح ، الفكر الذي هو تساؤل ونقد ، وحركة نحو التحديد والوضوح الرياضي ، في صلب الواقع ذاته .

ثالثاً : وعندما تسربت بعض المؤلفات الماركسية ، فقد جاءت عن طريق الاحزاب الشيوعية العربية نفسها. هذه الاحزاب، التي وقفت من القومية العربية مواقف سلبية في أحرج لحظاتها . ولذلك اصطبغت الكتب الماركسية ، الموزعة عن طريق الخلايا الشيوعية السرية ، بصبغة « الدعاية ». واستثمرت هذه الاحزاب المؤلفات الماركسية ، دون أن تستطيع هي نفسها ان تتفاعل مع ما تحمل من ثقافة فلسفية . هذا فضلاً عن ان الكتب الرئيسية، في الماركسية، بقيت مجهولة حتى بالنسبة لأقطاب الشيوعيين في بلادنا أنفسهم .

ولذلك،فان النتف من الثقافة الماركسية،التي وصلت إلى بعض المثقفين العرب ، كانت مدموغة بنفس الحكم الذي أطلقته الجماهير على الاحزاب الشيوعية . فكانت مرفوضة وملعونة سلفاً .

وبقيت النظرية الماركسية، شبه مجهولة هكذا ، إلى فترة قريبة ، ما عدا بعض التبسيطات والتعميمات السطحية . وما أن فارقت الثورية العربية مرحلة تثبيت أسسها الاولى ، وتدعيم شخصيتها ، حتى انتقلت إلى حركة ثورية يسارية بكل معنى الكلمة ، خاصة عندما أخذت تملأ إطارها القومي ببذور اشتراكية أصيلة .

وكلما مارست هذه الثورية احتكاكها اليومي الدائم، مع مختلف مظاهر الحقائق، التي تؤلف بنية الواقع العربي، الموجود فعلاً، كلما شعرت بالحاجة إلى المناهج الثورية، القائمة على أسس علمية، وأثبتت التجارب صلاحها وجدارتها.

واليوم تواجه الثورية العربية الثقافة الماركسية من عدة زوايا:

زاوية اكتشاف الماركسية في أصولها الحقيقية، وهذا الاكتشاف يقوم على تحقيق خطوة علمية «أكاديمية» بالمعنى الصحيح. فتُدرس الماركسية في مقدماتها المتشعبة، عبر تاريخ طويل من الافكار الاشتراكية التي ذخر بها القرن التاسع عشر.

ثم تُدرس الماركسية، في متونها، كما كتبها ماركس، عبر تطورات فكرية متتابعة من سيرة نضجه الفلسفي. وكما أكملها، او ساعد على انجازها «أنجلز».

وبعد هذا تجيء مرحلة أكثر تعقيداً وتشابكاً، وهي مرحلة متابعة الشروح والمناقشات الفنية المتنامية، خلال الاتجاهات الماركسية المختلفة التي تتباعد، او تتقارب من الاصول، حسب طبيعة الظروف الاجتماعية والثقافية التي تلاحقت في المئة سنة الماضية، من تاريخ الغرب خاصة.

وكلما اقتربنا من عصرنا الحاضر، استطعنا ان نميز خطين أساسيين، في الثقافة الماركسية:

أولهما: نظري خالص تقريباً، بحيث حول الماركسية إلى مدرسة اجتماعية، ضمن نطاق الجامعات والاوساط المثقفة المحترمة، وأصبح لها أساتذتها وفلاسفتها وتلامذتها، حتى بين الاوساط الجامعية في الغرب، فرنسا وانكلترا وحتى امريكا.

وثانيهما: نظري تطبيقي معاً، وهو اليسار الاقرب إلى الالتزام الثوري، إلى جانب الانتماء الثقافي الخالص. وهو يجمع في الواقع دوائر كثيرة. يبدأ أضيقها من فئة المفكرين، المنضوين مباشرة في الاحزاب الشيوعية الحاكمة والمعارضة في أوربا، شرقها وغربها.

ثم تتسع دوائر أخرى لتضم مفكرين ومثقفين، في خطوط اشتراكية متمايزة،

إلى ان تصل إلى حلقات من اليساريين الثوريين ، غير المنضوين في أحزاب شيوعية معينة او اشتراكية . وتحتفظ لنفسها بحرية اتخاذ الموقف النقدي ، مـن هذه الاحزاب نفسها .

وفي جميع هذه الدوائر ، يضيق الفكر الماركسي إلى حدود الرجعية ، بنظر التطوريين ، ويتسع إلى أبعد الحدود في النقد والتحوير الأساسي ، في كثير من المسلمات الماركسية ، إلى ان يتيح للمحافظين فرصة النيل من أصحابه ، واتهامهم بالمروق والتحريف في المستوى النظري ، وبالبورجوازية الجديدة في مجال التطبيق الاشتراكي .

وأوضح مثال لهذا الصراع اليوم ، هو الصراع العقائدي الصيني - السوفياتي .

* * *

أمام كل هذه اللوحة العريضة ، العميقة التي تتسع لمختلف تيارات الفكر الماركسي تاريخياً وعصرياً ، نظريـاً وتطبيقياً ، وقف مفكرو البعث ، وعلى راسهم عفلق نفسه ، موقف المتجاهل ، والمحتقر في الآن ذاته . موقف الرفض الكلي غير المعلل إلا بالمزاج الرافض نفسه .

بينما تحاول اليسارية العربية اليوم ، أن تجد لنفسها المنظور الخـاص ، الذي يعادل تعليل تجربتها الاشتراكية الخاصة ، وأسلوب حوارها مع كل هذا التراث الفكري التقدمي .

ان تحديد هذا المنظور الخاص للتجربة العربيـة ، عبر الثقافة اليسارية العالمية ، هو الذي يفرض على اليساريين العرب ، بعد إنضاج عملية الفهم العلمي الحقيقي لهذه الثقافة ، يفرض عليهم اكتشافاً ثانياً لذاتهـا والماركسية ، وللجسر الواقعي الذي سيمتد بينهما هذا الاكتشاف الثاني ، يعني إيجاد لغة الحوار ، التي ستقوم بين الطرفين .

وتلك عملية فكرية معقدة ، تتطلب التمييز بين ما ترسب وثبت علمياً وعملياً ، من متون الثقافة الماركسية ، كفكر موضوعي ، ملك للعالم وحده ، وبينهـا كعقيدة للايمان والتسليم العاطفي بها . وهذا ما سيظل يفرق طبعاً ، بين موقف

اليساري العربي القومي ، وبين اليساري الشيوعي .

فللأول إحساسه بخصوصية تجربته ، مع انفتاحها الطبيعي على التجارب اليسارية الأخرى . وله بالتالي حرية الحوار الموضوعي ، والانتقاء الواعي ، مع القدرة على النقد والتدقيق ، دون أي إحراج مسبق .

وللثاني التزامه المجرد ، بشكليات الفكر الماركسي ، وتضييعه المتعمد احياناً لحدود التجارب المتمايزة اجتهاداً وتطبيقاً ، وتجاوزه المستمر لمعطيات هذه التجارب المتطورة المتنوعة ، والمتغايرة فيما بينها .

* * *

وأخيراً ، هناك زاوية التفريق بين الماركسية كمنهج جدلي ، للفهم والثورة معاً ، وكمضمون يتألف من مختلف الحقائق المتراكمة ، نتيجة لتطبيق هذا المنهج ، على مراحل تاريخية معينة ، ولمجتمعات مختلفة ، ضمن ظروفها الخاصة .

إن عدم الخلط بين هذا المنهج ، الذي يتمتع بقيمة موضوعية ثابتة ، وبين حصائل تطبيقاته ، سواء من قبل ماركس نفسه ، او غيره من الأتباع ، هو أهم ما تتطلبه عملية التفاعل الحقيقي مع الماركسية ، ليس بالنسبة لليساريين العرب فقط ، ولكن بالنسبة لكل دارس للماركسية . وقد سبق ان تنبّه الى ذلك كثير من المفكرين في الغرب ، مما أتاح لهم أعظم حرية في فهم مشكلات بلادهم على ضوء المنهج وحده ، المعروف باسم الجدلية المادية للتاريخ .

هذا من جانب اول ، أي جانب الاقبال على الثقافة الماركسية ، واكتشاف اصولها وتياراتها ، وما يتطلب كل ذلك من تمييزات داخلية ، لا بد من تحقيقها ، في صلب هذه الثقافة نفسها . وكان الحري بالحزب أن يقوم بهذه العملية منذ البدء ، ليستطيع أن يكشف موقعه اليساري الصحيح ، على ضوء هذا الاكتشاف وعقده وأمراضه الفكرية والتنظيمية ، ويوفر على نفسه وعلى الأمة سلسلة الانتهازيات الشخصية التي شغل بها القادة ، حتى أوصلوا الحزب أخيراً إلى أقذر انحراف لم يكن يتنبأ به حتى أشد أعدائه ضراوة ، منذ البدء .

ولكن ، من جهة ثانية ، هنالك المعطيات الفكرية ، التي قدمتها تجارب

الثورية العربية . فلا بد أيضاً ، من القيام بعملية اكتشاف لها . وهــذه العملية ليست اقل صعوبة وخطورة ، من اكتشاف الماركسية ، بالصورة التي حددناها منذ قليل .

وتتبع هذه العملية أيضاً ، محاولة إيجاد التركيب بين كل من الجانبين ، في صيغة تفاعل حقيقي ، قادر على إنشاء المواءمة المطلوبة بينهما .

فالثورية العربية مطالبة بتحقيق هــذه الأهداف الفكرية ، من كشف الماركسية ، وإيضاح لمعاني التجارب العربية وإيجاد صلة المواءمة بينهما ، في عملية واحدة شاملة .

وهذه العملية ، هي التي تأتي ، كأساس علمي لكل بحث عن نظرية واضحة للثورية العربية . فلقد ثبت ان استقلال الثورية العربية، لا يعني انغلاقها او عزلتها، عن تيارات الثقافة الثورية في العالم . كما ان تشبثها بالبحث عن نظرية خاصة بها ، لا يعني انها سوف تلفق او تخترع لها فكراً ، أي فكر من أجل إرضاء غرورها الذاتي .

ولكن أهم ما في هــذا القلق المبدع ، من اجـل عمليـة « التنظير » – إن صحت هذه اللفظة – أي إيجــاد نظرية العمل الثوري ، هو استخلاص الثوابت الفكرية ، التي تحصلت عن حقائق التجارب الثورية العربية ذاتها .

فلقد جاوزت هذه التجارب مرحلة تثبيت الأهداف ، وأصبحت بحاجة الى وعي شامل بالوسائل . والبحث عن الوسائل ، هو الذي يؤدي بدوره، الى السؤال عن قيمتها النظرية ، وتفاضلها فيما بينها ، وعن نجوعها وخصبها ، في حقل التطبيق.

ثم ان الثورية العربية لم تقم حتى اليوم بمسح علمي للمجتمع العربي ، ومؤسساته الاقتصادية ، والعقائدية والثقافية والسياسية . ولم تستطع كذلك ان تكتشف التناقضات ، التي هي أخفى وأعمق مــن التناقضات السياسية ، إن لم تكن أصلا وسبباً لها . وهي في كل ذلـك تشعر بالحاجة الى الروح العلمية ، الى جانب التوتر الثوري . فكما أن التوتر الثوري ، هو الذي يستنهض الهمم من اجـل التغيير ، فان المــوقف العلمي هو الذي يحــدد وسائل التغيير ، وكيفيته ، ويتصور

العقبات التي ستعترض طريق الثورة ، وحلولها .

ولكن الموقف العلمي لا يعني إلا اختياراً واعياً لنوع المنهج ، الذي بواسطته تتم عملية الدراسة ، واكتشاف الوقائع ، ثم القيام بتفسيرها حسب منظور ثوري واقعي .

ولقد استطاعت تجارب الثورية العربية ان تفرض أحداثها دائماً، بصورة سابقة على كل توعية، او تخطيطهادىء نظري. وهذا هو مصدر الاشكال والتناقض كله. فان الاحداث ، وتتابعها المتفجر ، يضعف من أثر أية سلطة فكرية عليها . ولكنه من جهة اخرى ، يحفر طريقه ، في عظم الواقع والتاريخ معاً .

وهذا الطريق الغامض والأصيل ، والمغطى بمختلف الحصائل السلبية والايجابية ، هو الذي ينبغي إيضاحه ، وكشف حدوده . وهو الذي يؤلف ، في الوقت ذاته ، خامة أي تفكير منهجي . وأن نظرة عريضة وسريعة ، تستطيع الآن ان تلم ، او تشير ، الى دلائل هذا الطريق ، التي هي ذاتها ، الثوابت المبدئية لفكر الثورية العربية ومنطلقاتها العفوية . ومنها :

اولاً : إن الثورية العربية ، كانت دائماً ، ذات سياق قومي . على أن يفهم من صفة قومي ، ليس هـذا الشمول العددي والكمّي للأمة العربية ، على مدى الوطن فقط ، ولكنه شمول عمقي ايضاً . أي يستغرق مختلف أنماط الفهم والعمل والاعتقاد ، التي تحدد علاقات القوى الاجتماعية وردود فعلها ، على الدوافع التي تحيط بها . وهي المسؤولة عن صور النجاح والفشل ، التقدم والانتكاس في حقل العمل السياسي ، الذي هو الحقل الأمامي والنموذجي ، لمختلف الفعاليات الاجتماعية ، الكامنة خلفه .

ثانياً : إن هذا السياق القومي للثورية العربية ، كان يغطي دائماً الصراعات الاجتماعية والطبقية داخله ، بحيث تأخذ انعكاساته مظهراً سياسياً متناقضاً . ومن هنا كان منشأ الخطأ ، في محاولات تفسير هـذا التناقض ، على أساس الظروف السياسية فقط . والحقيقة ان الثورية القومية كانت دائماً ذات مضمون اجتماعي ، حتى انه يمكن القول ان القومية العربية ، تطرح نفسها من خلال

ضالها ، باعتبارها « قومية بروليتارية »، بمعنى انها تهدف الى تحطيم مختلف الحلقات المغلقة القائمة على أساس التجمعات العشائرية، والطائفية والإقليمية التي تعتبر طبقات اقتصادية من نوع آخر ، لأنها تقوم على أشكال خفية من الاستغلال ، مقنعة بقيم روحية ، أو تراثية مزيفة ، تستغلها رؤوس هـذه التجمعات ، بالنسبة لقواعدها - او ان تجمعاً يستغل تجمعاً أضعف منه اقتصادياً وهكذا .

ثالثاً : ثم إن كفاح هذه القومية البروليتارية في الداخل، ضد هذه الانفصامات العضوية التي ترسبت عن عصور انحطاط حضاري ، بعيد الغور ، يرافقه كفاح آخر ، يسمح لهذه القومية ان تتخذ صفه البروليتاريا ، وهو النضال ضد الاستعمار . فبدلاً من ان يكون سقوط البورجوازية الغربية ، على يد البروليتاريا في بلادها ، فان تحرر الشعوب الآسيوية والأفريقية ، وفي مقدمتها شعوب الأمة العربيـة ، حيث يقوم آخر وأعتى معقل للاستعمار بمعناه التاريخي الكامل ، هذا التحرر ، هو الذي سيتكفل بتوجيه الضربة الحقيقية للنظام الرأسمالي ، في عقر داره .

رابعاً : ثم إن هذه الثورية العربية اتصفت كذلك بأنها ذات نزعة حضارية ، تريد ان تتخلص من واقع التخلف ، الى واقع الحضارة العصرية ، بدون تناقضاتها الاجتماعية والطبقية . وهكذا فان بروليتارية الثورية العربية ، وكل ثورية اخرى للدول النامية ، إنما هي بروليتاريا مضاعفة . فهي من جهة تريد أن تتحرر مـن طبقة كاملة ، نشأت من ظروف التخلف الحضاري للأمة ، وتستثمرها فئات قليلة من إقطاعيـات الاعتقادات الدينية المختلفة ، والسلالات العائلية ، والزعامات الإقليمية .

وهي من جهة اخرى ، تريـد ان تتحرر من بورجوازية وبروليتارية الغرب الاستعماري . إذ ان بروليتارية الشعوب المستعمرة ، والمتحررة حديثاً ، تقع تحت بروليتارية الغرب ، التي يمكن اعتبارها بورجوازية ، لارتفاع دخلهـا ومستوى معيشتها ، وتقدمها الحضاري ، بالنسبة لشعوب الدول النامية .

خامساً : كل ذلك قد فتح الطريق أمام الثورية العربية ، نحو مضمون خاص للحرية ، ولا يشبـه حرية البورجوازية في الغرب ، ولا حرية البروليتاريا في دول

الشرق الاشتراكية . فالديمقراطية بدون الطبقية في الغرب ، والاشتراكية مع الديمقراطية في الشرق ، هذا هو المثل الأعلى الثوري للقومية البروليتارية . وهو الذي يفرض عليها ان تكون التجربة « الثالثة »، بين تجربتي الرأسمالية والشيوعية.

ولذلك بدأ نجاح هذا المثل الأعلى ، من مستوى العمل السياسي نفسه . فبرز من خلال مواقف الحياد الايجابي ، الذي تحول فيما بعد، الى فلسفة «التعايش السلمي».

فالحياد الايجابي ، يعاني مغامرة الوجود بالنسبة للدول النامية ، بين قطبي الفعالية في العالم ، من اجل الاستفادة من هذا الصراع نفسه بين القطبين ، في الإعمار غير المشروط ، بدلاً من التخريب . وبذلك يتحول التحدي السلبي ، بين القطبين ، المؤدي حتماً الى نقطة التصادم الأخيرة، الى تنافس على تقديم المساعدات البناءة ، الى الدول النامية ، التي نجحت في فرض حيادها الايجابي . وراحت تستفيد من توازن القوى المتصارعة الكبرى ، بالنسبة لقوتها هي بالذات .

ثم ينمو الحياد الإيجابي من موقف للدول الصغرى الناشئة ، تجاه الدول الكبرى ، الى موقف لهذه الدول الكبرى ذاتها من بعضها البعض . وعندئذ يصير (الحياد الايجابي) الى مبدأ (التعايش السلمي) بين الأنظمة الكبرى المتصارعة .

وهكذا فإن (التجربة الثالثة) التي تحققها الدول النامية ، وفي طليعتها الأمة العربية ، هي الصفة التي تميز خصوصية المنطلق العلمي والنظري ، لكل حوار مجد مع الثقافة الماركسية . وبدون المرور ، عبر كل تلك التفاصيل والتمييزات الأساسية ، فإن الماركسية ، ستظل فلسفة خاصة بالتجارب الغربية ، وللغرب وحده ولظروفه . وان ثوريات الأمم الجديدة ، والثورية العربية على وجه التحديد ، سوف تبقى تلمساً بطيئاً للطريق ، من خلال المحاولة والخطأ . وعليها بالتالي ، ان تتعب طويلاً في سبيل ان تكتشف ما أصبح مسلمات ، في علم الثورة. ويكون حالها في ذلك ، حال عالم الطبيعة ، الذي يرفض كل تراث الحقائق السابقة عليه ، ويريد ان يبدأ من جديد ، اعتباراً من قانون سقوط الاجسام .

* * *

وأما البعث فقد جسد جميع مظاهر هذا التحريم القومي حول الفكر

الاشتراكي ، العلمي ، وحول الماركسية منه بصورة خاصة . ولقد كان صراعه القومي مع الأحزاب الشيوعية العربية سبباً رئيسياً ، وأداة في يد الغيبيين من مفكري البعث ، من أجل مطاردة البحث الجدي حول أية فكره اشتراكية صحيحة .

وكان هناك تواطؤاً كاملاً بين الاقطاب ، حول مضمون واحد، هو تأجيل البحث في محتوى الهدف الاشتراكي . وحتى عندما اضطرت أحزاب يمينية كحزب (الشعب) مثلاً ان تنادي باشتراكية ما ، فان عقد الصراع ضد الشيوعية قد منعت الحزب من محاولة توضيح ما يقصده من واحد من الأهداف الثلاثة التي يحملها ، وهو الاشتراكية . فلم يذهب أحد المفكرين في تصور الاشتراكية الى أبعد من صيغ التسويات بين الطبقات ، في نظام اجتماعي لا يخرج كثيراً عن الصيغة الليبرالية ، المعروفة في رأسمالية القرن التاسع عشر .

لقد كان هناك إلحاح على ترابط هذه الأهداف الثلاثة (الوحدة ، الحرية ، الاشتراكية) . وكان هذا الالحاح يطالب دائماً بعدم فصل هدف عن آخر . ولكن التعليلات (الرسمية) لهذا الربط ، لم تكن معروفة إطلاقاً . إلا انه إلحاح غيبي هو الآخر ، صيغته هكذا : لا بد من الوحدة ، لا بد من الحرية ، لا بد من الاشتراكية !

ولم يتحدث أحد من قادة الحزب عن الرابطة بين الوحدة والاشتراكية - بل لقد كان مثل هذا الحديث يجرح طقساً بعثياً ، متواطأً عليه ومن دون تصريح ، كالعادة ، وهو ان أي بحث من هذا النوع ، قد يحدد شكلاً معيناً من الوحدة ، وقد يمنع هذا الشكل من قيام وحدة مثلاً بين أنظمة متناقضة اجتماعياً وحتى سياسياً . وكان هؤلاء يتخذون مثال التفكير في وحدة سوريا والعراق عام١٩٥٠ وهو في ظل حكم نوري السعيد والعائلة الهاشمية والاحتلال الانكليزي .

ثم ان التواطؤ السري ، غير المصرح عنه ، قد حرم الحديث حول العلاقة بين الاشتراكية والحرية . فما هي هذه الحرية التي يعنيها الحزب ، هل هي الحرية السياسية ، تحرير الأقطار العربية من الاحتلال الأجنبي من التبعية .. بل لعل

سلوك الحزب قبل الثامن والخمسين ، كان يعني ان نضال الحزب إنما يتوجه إلى هذا النوع من الحرية ، الشكل الأول منها الذي لا يتعدى مرحلة التحرير السياسي .

ان الحزب لم يحدد موقفاً من المشكلات الاقتصادية التي كانت تعصف بسوريا وهي تنتقل من دور الاستقلال الوطني ، إلى مرحلة نشوء وتمركز بورجوازية جديدة . ولم يحاول قط ان يوضح أوضاع البلاد ومراحل انتقالاتها الاقتصادية على ضوء أية نظرية ثورية اشتراكية أو ماركسية .

حتى ان نضال الحزب ، كان منصرفاً جله إلى الاستهلاك السياسي ضد أحزاب اليمين . فكانت مقارعته لها نيابية تارة ، وعلى مستوى التصفيات العسكرية تارة أخرى ، وعلى مستوى الارهاب الفكري لها ، دون ان يطال من جذورها الاقتصادية والاجتماعية ، حتى أصبح نضال الحزب ضد اليمين في عين الجماهير، نوعاً من التنافس معه على بلوغ الحكم .

ولقد كان الحزب ، في سلسلة محاولاته للتعبئة الجماهيرية ضد المؤامرات الاجنبية ، والأحلاف ، إنما يعتمد فقط على الإثارة العاطفية ، وعلى الدفع القومي ، دون أن يربط هذا الدفع بأية أهداف اجتماعية ، تمس حياة الجماهير الكادحة مباشرة . ولربما كان عذر بعض القياديين في تلك المرحلة ، انه لا مجال لاستثارة طبقية في تلك الظروف . ولكن دلت الاحداث فيما بعد ، على أن الحزب لو كان يعي مضمون التحويل الاشتراكي الذي يختفي وراء الأهداف القومية ، لاستطاع في الواقع أن ينظم الجماهير في مسيرة ثورية كبرى ، تؤسس الجذور المادية لأي انتصار قومي . ولربما كان هذا الفصل ، غير الواعي والمتعمد أحياناً ، بين النضال القومي والنضال الاجتماعي الاشتراكي ، دافعاً الى ذلك السلوك الانتهازي الذي ظهر فيه العمل اليومي في حقول السياسة الرسمية بالنسبة للمثقفين المستقلين . وكان سبباً كذلك في اشاعة ذلك الجو المتواطىء بين الكبار على اخفاء حقيقة المناورات السياسية التي استغرقت نشاطهم كله ، ودفعهم بالتالي الى نوع من الدعاية العامة ، تقوم على التحريض والغوغائية في بعض الأحيان ، والديماغوجية السياسية .

لقد كانت غريبة فكر البعث عن مختلف الينابيع الثورية والعلمية ، والماركسية ،

تجعل موقعه الفكري الحقيقي ، الى جانب التيارات المحافظة ، وإن كان يخوض معها حرباً سياسية متواصلة ، قد تفسر أحياناً بأنها صراع على السلطة تحت شعار الصراع حول المبادىء .

بل لقد يمكن أن نحدد الاتجاه الاشتراكي البعثي، بأنه اتجاه طوباني ، ينحدر حتمياً عن المقدمات الغيبية في فكر الحزب القومي. فهو دون أي مخطط للتحويل الواقعي ، دعا الى (انقلابية) لا مضمون لها. وبدون أن يدرس خصائص الصراع الطبقي العربي ، دعا الى اشتراكية ، تؤمن (العدالة للجميع !) . ودون ان يؤلف اللجان العامية ، لتدارس أوضاع المؤسسات الاجتماعية والأنظمة الاقتصادية للأقطار العربية ، فقد أعطى للوحدة تلك القدرة الميتافيزيقية على تحويل كل شيء، ونقله من (الواقع الفاسد) الى (نعيم البعث) ، حالما يتحقق .

ومنذ ان فكر عفلق في (مستقبل) الأمة العربية ، في مطلع الأربعينيات ، فانه لم يطمح الى أكثر من تحقق صورة المجتمع الغربي ، الفرنسي خاصة . ولذلك فان نموذجه الفكري ، لا يمكن أن يؤدي في الواقع الى أي موقف متفاعل مع الماركسية ، أو أية اشتراكية جذرية اخرى . وهو يقف بالتحديد عند مرحلة المجتمع المتجانس ، البعيد عن صراع الطبقات ، الذي يحقق ديمقراطية سياسية زائفة تخفي وراءها استغلالاً طبقياً شنيعاً .

إن غربة الحزب ، الناجمة عن غربة النموذج الفكري ، الذي يمثله عفلق ، عن أي مناخ اشتراكي جذري ، قد جعلته يهمل تنظيم نفسه ، بصورة يمكن فيها ان يتحول الى أداة ثورية واعية لدورها .

وهذه الغربة ، الناجمة عن (فكر التواطؤ) ، أي الاتفاق الضمني غير المصرح به على نقاط جوهرية خطيرة أقرب الى اليمين والمحافظة ، هي التي لم تستطع كذلك أن تخلق تجانساً عقائدياً بين أعضاء الحزب .

فلقد كان جل الأعضاء يظلون يتابعون التعلق بأفكار مجتمعهم التقليدية ، دون ان يكتسبوا من الحزب أي تحويل جذري لهذه الأفكار والمعتقدات . ولذلك كان فكر البورجوازية الصغيرة هو الفكر الرسمي ، والمتواطأ عليه ، وغير المصرح

به ، والشائع بين أفراد الصفوف الأولى من الحزب .

انه الميل إلى الفردية في التنظيم ، والتحلق في حلقات منعزلة متصارعة ، والميل الى تعميم فكر الحلول الوسط ، والابتعاد عن العنف - هـذا قديماً طبعاً - والارتباط بالوسائل التقليديـة الديمقراطية للعمل والنشاط ، كالنقد وتوزيع المنشورات والتظاهرات الطلابية .

وكل ذلك ، كان يضع الأسئلة الرئيسية التي لا بد ان يواجهها كل حزب اشتراكي في العـالم ، مثل : ما هي الثورة ، من يحقق الثورة ، مراحل الثورة الخ .. كل هذه الأسئلة كانت مجهولة ، ومهملة .. وحتى انها كانت موضع احتقار من النخبة العفلقية .

هذا التحريم ضد الماركسية والفكر الثوري إجمالاً ، لم يمنع بضعة أفراد من مثقفي الحزب ، من محاولة فتح نافذة على تطور الفكر الماركسي ، ابتداء من المؤتمر العشرين للأحزاب الشيوعية . وقد انعكس ذلك أحياناً على صفحـات جريدة البعث ، في الترجمات والتلخيصات والدراسات ، التي نشرت حول البيـان الصادر عن ذلك المؤتمر .

لقد كان ثمة تيار يساري ، قريب من طرح بعض الموضوعات الماركسية ، خـارج سياسات التحريم العفلقي ، يحاول ان يتكوّن خلال تناقضات العمل السياسي ، وأزمات التنظيم ، وبوادر الانقسامات الداخلية في السنوات الحـافلة السابقة على الوحدة .

ان هذا التيار الذي يمثله بعض المثقفين من أمثال (عبد الكريم زهور) و(جمال الاتاسي) وغيرهم ، كان يعكس في الواقع حركة التمرد الكبيرة التي كانت تجتاح قواعد الحزب ، ضد التهلهل الذي كان عليـه الحزب ، بفضل منازعات قياداته خاصة .

ولقد ظل هذا التيار ينمو داخل الحزب ، ويستقطب فئات كثيرة منـه ، متطلعة إلى الخلاص من المرحلة العفلقية والحورانية كلها ، إلى ان مهّد للانقسام الجذري الذي حدث في الحزب خلال مرحلة الانفصال الرجعي . فكان ان خرج

منه جناحان متناقضان . الأول جناح الحوراني ومدرسته في الانتهاز السياسي ، وجناح الوحدويين الاشتراكيين ، الذي سوف يأتي الكلام عنه في حينه .

نريد ان نخلص إلى القول ان الاشتراكية البعثية ، كانت شعاراً يفتقر إلى كل مضمون نظري ، وإلى كل موقف نضالي . ولذلك كان موقع الحزب الحقيقي هو في النوع الليبرالي اجتماعياً ، الطوباني اشتراكياً ، البورجوازي من حيث طبيعة العمل السياسي .

ان لهذه العقد والبذور اليمينية والصوفية والطوبانيــة في مجال الاشتراكية ، أثرها المباشر ، في تحويل الحزب إلى النموذج الفاشي حامل لواء الثورة المضادة ، عندما استولى الجناح العفلقي منه على الحكم بعد الثامن من آذار .

الفصل السابع

فكر الحزب واليسار العربي المستقل

انطلق تفكير عفلق من أسس مختلفة ، ولكنها ترجع كلها إلى أصل واحد، هو الأصل الميتافيزيقي بالمعنى التقليدي ، والرومانسية الجديدة كما يمثلها اندريه جيد في الربع الثاني من هذا القرن ، ومن صوفية شاعرية ، في النظرة الى المجتمع والانسان ، مصدرها فلسفة (هنري برغسون) الذي كان عفلق يحمل له تقديراً خاصاً ، سيما وأنه كان الفيلسوف الفرنسي الأول ، الذي عاصره عفلق في فرنسا ، أثناء دراسته هناك .

ولقد نقل عفلق تقليد الاعجاب بالثقافة الغربية الى تلامذته من الحزبيين الاوائل . وأصبح الاقبال على قراءة (جيد) و (برغسون) أساساً (عقائدياً) بين مثقفي تلك المرحلة التأسيسية . ولقد ساد تقليد تلك النزعة (البرغسونية) و (الجيدية) — على ما بينهما من اختلاف — بين رواد البعث العفلقي الاوائل .

والى هؤلاء يرجع (فضل) تعميم الروح الرومانسية ، والتفكير (الأدبي) بين خلايا الحزب الاولى . وكانت تلك الثقافة هي مصدر التربية الحزبية ، كل تلك الفترة . وتسابق الأعضاء على دراسة الفرنسية ، والتزود من آدابها ، وترجمة بعض كتبها . حتى لقد كان يمكن وصف طبيعة الحزب في تلك المرحلة ، بأنه كان أقرب الى جمعية ثقافية ، بين شباب مراهق ، متعطش الى إرضاء مطامحه الفكرية

والشخصية ، عن طريق الغرف من مصادر الثقافة الفرنسية المعاصرة لهم آنذاك ، في مطلع الأربعينيات ومنتصفها .

كان الأعضاء آنذاك يتنافسون على إنشاء المكتبات ، التي تضم آثار الروائيين والفلاسفة اليمينيين إجمالاً ، بدلاً من ضم الدراسات الاجتماعية والماركسية وغيرها . وكانت الأحاديث المعتادة بين الأعضاء الأوائل ، أقرب دائماً الى المناقشات الادبية والفلسفية ، وأبعد ما تكون عن السياسة وظروفها المحيطة بهم آنذاك . إن هذه الأجواء الحالمة ، العابقة بشعارات فكرية سحرية ، المفعمة بالعلاقات الصميمة الفردية ، كانت تؤلف (الظروف الموضوعية) لنشأة الحزب ، تنظيمياً وفكرياً .

وعلى هذا الاساس يمكن استنتاج الدرب الخيالي والانعزالي الذي سوف يحدد تطور الحزب وعمله السياسي فيما بعد .

إن الشعراء والمراهقين والحالمين وجماعة الصوفية الغربية ، لا يمكن في الواقع أن تؤلف نواة لحزب ثوري . ومع ذلـــك فان انخراط الحزب ، بفضل تلقيحه بالحورانيين فيما بعـد ، الذين يعتبرون أميين ثقافياً تقريباً بالنسبة لحورانيّي عفلق الاوائل ، قد جعل الحزب تدريجياً ، بعض مثقفيه على الاقل ، ينفتحون على تيارات الفكر اليساري الاوربي . فزادت العناية مثلاً بالوجودية ، التي تعلق بها جيل ثان ، يلي جيل البرغسونيين ، وصادفت تقبـلاً شاملاً لها بـــين أوساط الشباب البعثي الجامعي خاصة ، منذ مطلع الخمسينيات .

وهذا زاد في إقبالهم على الانتساب الى الفروع الادبية في الجامعة ، وخاصة فرع الفلسفة . حتى لقد أصبح هذا القسم خاضعاً لنفوذ الحزب أساتذة وطلاباً . بل إن تدريس الفلسفة في الثانويات ، كان وقفاً على غالبية من الاساتذة البعثيين .

وبذلك فان شعار (الحرية) في النطاق السياسي ، قـــد تحول الى مفهوم أخلاقي وتربوي وميتافيزيقي لدى (الجيل الوجودي) من البعثيين الاوائل . وارتبط بكثير من المضامين الوجودية . وكان هذا أيضاً سبباً آخر لإشاعة المقاييس الادبية والفلسفية بدلاً من المقاييس الثورية الحزبية ، في التنظيمات الداخلية ، وسبيلاً للبروز ، وظهور زعامات (ثقافية) داخـــل الحزب ، تنافس الزعامات

السياسية فيه .

غير ان التيار الوجودي البعثي الذي أعطى إنتاجاً أدبياً ، في الشعر والقصة والمقالة، ساعد على نشر الدعوة البعثية بين مثقفي العالم العربي منذ منتصف الخمسينيات .

ثم استطاع هذا التيار ان ينفتح على التطورات السياسية الثورية التي عانتها الاتجاهات الوجودية العلمانية والكاثوليكية في فرنسا .

لقد كانت المشكلة الفكرية ، التي أقلقت اجيالاً متتابعة من مثقفي البعث ، هي التي تنطلق من هذا الشعور بالفقر الثقافي المدقع ، الذي كان عليه الحزب داخلياً . فبالرغم من ان الحزب قد استطاع ان يضم بين صفوفه عدداً كبيراً من المثقفين ، انه لم يحاول مرة ان يضع برنامجاً تنفيذياً ، للاستفادة من قدرات هؤلاء المثقفين ، وتنظيم حلقات للحوار والمناقشة ، ووضع أبحاث تفتقر إليها مكتبة الحزب والأمة معاً .

ولذلك كان هذا الفقر يدفع بالمثقفين إلى الاقبال على المذاهب الغربية الشائعة، والتعلق بها وتبنيها شعارياً ، غالباً .

ولكن الثقافة الغربية التي لاقت انعطافاً جذرياً في سني انتصاف هذا القرن، قد أخذت تؤثر هي بدورها ، أي في تطوراتها الجديدة ، في عقلية فئة من مثقفي الحزب . فقد راحوا يتابعون التحولات الايدلوجية والسياسة التي رافقت المؤتمر العشرين للأحزاب الشيوعية ، ونتائجها على المذاهب الفكرية الأخرى المعادية في الأصل للاتجاه الستاليني،وتتمثل هذه المذاهب في وجوديات(سارتر) و(ميرلوبونتي) و (كامو) . كما تبرز لدى حلقات أخرى من أصحاب الفكر اليساري المستقل ، أمثال التجمع الماركسي الكاثوليكي الذي يتحلق حول مجلة (فكر) الفرنسية . وكذلك هنالك حلقات أخرى ، بدأت تتفاعل من منطلقات مواقفها الفكرية الأصلية ، المعادية للستالينية ، مع هذه التطورات الايدلوجية التي أقرها المؤتمر العشرون ، للقضاء نهائياً على تلك الصورة المتعصبة التي أخذتها الماركسية ، على يد الستالينية .

وكان المثقفون البعثيون ، وهم من جيل ثالث – يلي جيل العفالقة الصوفيين ،

والماركسيين القوميين - قد انتبهوا كذلك إلى هذه التطورات التي تعانيها الوجودية بفروعها المختلفة ، نحو التلاقي بكثير من المنطلقات الماركسية .

وكذلك ، فقد انتبهوا إلى المغزى السياسي الذي يمكن ان ينطوي عليه هذا اللقاء . وهو مغزى يشير إلى بزوغ فكرة حياد أوروبي بين المعسكرين ، تلتقي لها مثيلاً لدى شعار (الحياد الايجابي) الذي أخذ يرفعه الحزب في نضاله ضد الأحلاف ، خاصة بعد ان فتح الطريق جمال عبد الناصر، بتحطيمه لحصار الأسلحة، واشتراكه في مؤتمر (باندونغ) الذي كرس لأول مرة تحقيقاً فعلياً ، وعلى مستوى السياسة العالمية، لشيوع مبدأ الحياد الايجابي .

* * *

إن انغماس الثوريين العرب ، في أحداث أوطانهم المجزأة ، لا يمنعهم بين حين وآخر ، من أن يحولوا أنظارهم نحو قضايا العالم الخارجي . هذا العالم الذي يعاني ، هو الآخر ، من مختلف الصراعات السياسية والاقتصادية ، بحيث يصعب على أي مفكر موضوعي ان يتجاهل أثر هذه الصراعات على مشاكلنا المحلية ، وما يعتورها من حين إلى آخر من مفاجآت غير متوقعة .

بل انه أصبح من الواجب ان نقيم نوعاً من الجدل الحي بين أحداثنا ، وأحداث هذا العالم ، خاصة وان أكثر أحداثنا المحلية ، والقومية ، لا يمكن ان تدرك مفاجآتها ، إلا من خلال استراتيجية السياسة العالمية .

ولا شك ان بعض الثوريين العرب ، كانوا يهتمون من وقت إلى آخر ، بأخبار دول عدم الانحياز، ومشاكل التنمية، والحصارات السياسية والاقتصادية، التي تتعرض لها هذه الدول الناشئة. وهذا الاهتمام أمر طبيعي، إن لم يكن واجباً فكرياً على الأقل .

ولكننا بالمقابل ، كنا نتعمد عدم متابعة التطورات الاجتماعية ، ذات الطابع السياسي ، التي تحدث داخل قارة ،اعتدنا ان ننفر منها سياسياً ، لأنها القارة، التي رمزت إلى كل مآسينا الماضية ، وعقباتنا الحاضرة : أوروبا التي لها تفاعلاتها الداخلية الخاصة ، وثوراتها العميقة أيضاً ، ووراء وجهها الاستعماري الخارجي ،

الذي نعرفه وحده عنها .

وفي لاشعورنا القومي خارطة ثابتة لأوروبا ، تنقسم فيها هـــذه القارة إلى معسكرين ، شرقي وغربي ، وكذلك تنقسم انفعالاتنا مع هذا المعسكر ، وضد المعسكر الآخر. فنحن نحس أحياناً اننا أقرب إلى المعسكر الاشتراكي، ولكننا لا نقر قط اننا قريبون من المعسكر الغربي . وذلك لسبب واضح وهو ان جل معاركنا ، كانت مع هذا المعسكر وما تزال .

ولكن كلًا من القلعتين اللتين تتقاسمان أوروبا ، لا تجمدان على حال داخلية إلى الأبد ، كما لا يجمد أثرها الخارجي على حال أيضاً ، وخاصة بالنسبة لتطورات الدول الأفرو آسيوية .

ولكن ليس معنى هذا ، اننا لا نستطيع ان نقيس أي تفاعل جديد ، في هذين المعسكرين ، إلا بالنسبة لقضايانا الحيوية . فتلك هي نظرة ، تصنف إلى جانب الانانية القومية ، والمراهقة السياسية . وهذا لا يجعلنا بالمقابل ، نقلل من أهمية الأثر الذي تتركه تطورات الدول الآسيوية والأفريقية ، على ما يجري من تغيرات ، في التيارات السياسية ، في المجتمعات الغربية والشرقية معاً . فالعلاقات الدولية ، قد اجتازت مراحل هامة وأساسية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانيـة . وكان من أبرزها هذا التقارب المتواصل والمتزايد، نحو نوع من الفهم المتبادل بين القوى المتناحرة . بل أكثر من ذلك ، فان تأثيرات حضاريـــة ، قد اخترقت الحصون السياسية وأصبح التقدم العلمي والتكنيكي قادراً على خلق ظروف معاشية ، وفكرية متقاربة ، لدى مختلف الأمم المتصارعة .

فلمَ تعدْ روسيا السوفياتية مثلًا ، بقادرة على منع الشبيبة الاشتراكية مـــن ممارسة رقص الجاز الأميركي . كما ان الادب الروسي المعاصر ، يغزو المكاتب الفرنسية والانكليزية والأميركية . بل لقد ذهب أحد المحللين الاجتماعيين ، الى افتراض ان حل التناقضات السياسية ، سوف يتأتى بالتدريج ، عن شيوع نماذج واحدة ، او متقاربة ، من التفكير ، والتذوق الحسي ، والمعاناة اليومية لمشاكل العصر الذري ، والصناعي المركز أقوى تركيز وأعلاه ، بين شعوب المعسكرات

المتعارضة في أنظمتها الاجتماعية .

ودون ان نستطرد في هذا الاتجاه من البحث ، علينا ان نعود الى موضوعنا الأساسي ، فنقول إن هناك سلسلة من ظواهر التغير، في أسلوب فهم المشكلات السياسية العالمية، تتتابع داخل المجتمعات الغربية والشرقية معاً . وأنه على هذه الظواهر تتوقف تعديلات حاسمة في المواقف والاتجاهات العملية ، التي لا تلبث حتى تتأثر بها الحكومات نفسها .

نعود إلى القول إن خارطة المواقع الستراتيجية لسياسة اوربا ، لما بعد الحرب العالمية الثانية ، قد أصابها كثير من التعديل الخفي ، الذي انعكس مع ذلك ، على العلاقات الدولية . ويكفي ان نتذكر ان المعسكر الاشتراكي ، هو على أبواب انقسام جذري ، بين القطب الروسي ، والقطب الصيني ، ويكفي ان نتذكر أيضاً تعاظم تيارات الحياد واليسار المستقل ، في كثير من دول الغرب نفسها ، حتى نتخيل صورة المستقبل القريب ، لنموذج العلاقات الدولية ، والقضايا العميقة التي ستطرحها ، بين القادة السياسيين والمفكرين الأيدلوجيين .

ومن استعراض سريع لبعض هذه التحولات الكبرى داخل المعسكرين ، المتقاسمين للعالم بيننا ومن حولنا ، يمكننا ان نتبين الصورة الجديدة لواقع العصر ، ومدى التأثيرات غير المباشرة ، التي كانت لظهور الدول الناشئة ، على هذين المعسكرين عقائدياً وسياسياً .

الحياد واليسار الغربي الجديد :

على الرغم من ان فكرة الحياد في السياسة العالمية، تظل مقترنة بكفاح الشعوب الجديدة ، المستقلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فان بعض التيارات من المثقفين الغربيين ، كانت لها حدوس أولية عن هذه الفكرة .

غير ان تحقق الحياد في واقع السياسة العالمية ، ظل مرتبطاً بمدى دينامية هذه الشعوب المتحررة، الصاعدة الى مسرح العالم والحضارة ، بعد طول هجعة وانغمار، تحت أمواج الاحداث الكبرى التي ظلت تجتاح العالم، منذ انطلاق العصور الحديثة.

فلقد ارتفعت بعض الاصوات من المفكرين الملتزمين لخط تقدمي في فهم قضايا السياسة ، تطالب بأن تشق دول اوربا الغربية لنفسها ، طريقاً آخر وسطاً ، بين كل من الحليفين الكبيرين آنذاك ، روسيا وأمريكا . ولكن الصورة الواقعية لتحقق هذا المطلب كانت مفقودة من أذهان هؤلاء ، هذا فضلاً عن مناقضة الظروف الدولية بعد الحرب مباشرة ، لكل نزعة من هذا النوع .

لكن ظهور تيـار الحياد داخل الدول الغربيـــة ، ظل مرتبطاً باستمرار ، بتطور مثل أعلى أخلاقي في السياسة لم يكن معروفاً قبل الحرب . إن هذا المثل الأعلى ظهر نتيجة لتحول الصراع الدولي ، من صراع بين شركاء من نفس الاتجاه السياسي والنظام الاجتماعي ، أي بين دول رأسمالية خالصة ، إلى صراع بين أنظمة اجتماعية ، متناقضة كلياً ، وهي الرأسمالية والاشتراكية .

فمنذ الربـع الثاني لهذا القرن ، أخـذت القوى الرأسمالية تستقطب نفسها بالتدريج ، في الولايات المتحدة ، بينما كانت الثورات الجماهيرية ، التي عانتها ، منذ أكثر من مئتي عام ، يستقطبها بالتدريج كذلك نجاح ثورة اشتراكية كبرى في روسيا .

إن كلا الاتجاهين ، الرأسمالي والثوري ، كانا في الواقع ، وليدي التطورات الاجتماعية والتاريخية لشعوب الغرب الأوروبي . ولكن ما ان وضعت الحرب الثانية أوزارها ، وانهار أقصى استقطاب ايدلوجي حديدي ، للنظام الرأسمالي ، في أوروبا الغربية ، في النازية والفاشية ، حتى برز قطبا الصراع مجدداً على طرفي القارة الأوروبية ، إلى أقصى الشرق ، وإلى أقصى الغرب .

فكأن اميركا ، قد جددت الرأسماليـــة بتكنولوجية عصرية ، وعلاقات اجتماعية جديدة كذلك ، لا علاقة لها نهائياً ، برواسب مختلف الأنظمة الزراعيـة والحرفية ، والبورجوازية الصغيرة ، التي تنقل الحاضر الاجتماعي والصناعي ، لدول أوروبا الغربية ، وتؤلف عقبة كبرى من التقاليد والعقائد والاتجاهات الثقافية .

فبينما كانت رأسمالية الغرب مضطرة دائماً ، الى اصطناع مختلف القيم الاجتماعية ، والمالات الثقافية ، لتخفي حقيقتها الاقتصادية ، حتى كأن حضارتها تعاني باستمرار

من عقدة الذنب ، الناشئة عن إحساسها بهذا التعاوض الهائل، بين محصولها الفكري والاخلاقي في ميدان الثقافة ، وبين نظامها في الانتاج والتوزيع .

نقول بينا كانت رأسمالية الغرب ، متهمة ومدانة في عين حضارتها ، نجد ان ظروف تكوّن المجتمع الأميركي قد حررته من مختلف عقد التراث ، فاستطاعت أمريكا بذلك ان تنشىء مجتمعاً مادياً ، يقوم على المبادهة الفردية ، ويؤمن بفلسفة الصراع من اجل النجاح . فانطلق قدماً الى الامام ، دون ان يتعثر بأية ازمة من أزمات الوجدان الاوربي . وقد أهلته موارده المادية الداخلية ، واكتفاؤه الذاتي، لأن يرث المجتمع الاوربي الغربي ، ويتجاوزه نحو أعلى تكنولوجية ممكنة .

فبلغ التركيز الرأسمالي ، والتقدم الصناعي ، والتنظيم الاجتماعي الآلي ، أعلى مراحله في امريكا ، في الوقت الذي كانت فيه اوربا الغربيـــة تنوء تحت مختلف الأزمات الاقتصادية والروحية ، بعد ان جاءت الحرب العالمية الثانية ، تكريساً لسلسلة انهياراتها الداخلية المزمنة ، وكانت حلقة اخيرة ، تختصر ما سبقها ، وتقرب من النهاية المنتظرة .

فاذا ما انبثقت فكرة الحياد الاوربي بين المعسكرين المتصارعين ، في الشرق والغرب ، فانه ينبغي ان ندرك الجذور الاجتماعية لهـذه الفكرة في واقع الغرب اليـوم . والحقيقة أن هـذه الفكرة التي اهتدت اليها الفئات اليسارية المستقلة عن الاحزاب الشيوعيـــة في الغرب ، ما هي إلا تعبير عن محاولة للتخلص من عبء توجيه التاريخ ، الذي حملتـــه اوربا عصوراً طويلة ، والقاء تبعاته مباشرة على المعسكرين المتصارعين .

وهي في الوقت نفسه محاولة لتغيير خط الانهيار الحضاري ، واستعادة بعض الوجود الايجابي في عين شعوبها ، وشعوب العالم من حولها .

ولكن نشوء وتطور هدف الحياد هذا ، في الغرب الأوروبي ، قد عانى هو الآخر ، من كثير من الأزمات ، فلم يكن من السهل ، على فرنسا وايطاليا ، وهما رائدتا هذا الهدف ، فكرياً في الغرب ، ان تتعلقا بفكرة الحيـاد ، وهما خاضعتان لمختلف أشكال النفوذ الاميركي ، من خلال المساعدات الاقتصادية، التي

احتاجتها الدولتان ، بعد ان خرجتا من الحرب باقتصاد مدمر تماماً .

ولكن كلما فقدت الطبقة الرأسمالية في الغرب ، إجمالاً ، جزءاً من قواها ، في استقلال المستعمرات الآسيوية والافريقية عنها ، كانت اليسارية المستقلة تلقى بعض النجاح والتقدم ، في تثبيت أفكارها الجديدة .

ومن جهة أخرى ، فإن اميركا لم تفصل بين مساعداتها الاقتصادية للغرب ، وبين فكرة الاستعداد للحرب الثالثة ، التي تتطلب حلفاً عسكرياً مع الرأسمالية الأوروبية . فكان حلف الأطلسي بذلك من أكبر العقبات في وجه موضوعة الحياد داخل الغرب . وبالمقابـــل قام الاتحاد السوفياتي بإنشاء حلف بين دول المعسكر الشيوعي في شرق أوروبا ، وبذلك تحدد مصير أوروبا في المستقبل .

ولكن ما ان استطاعت يوغوسلافيا ان تحطم الحلف الروسي حول عنقها ، وان تنطلق خارج المعسكر الشيوعي ، وتخط سياسة حياد داخل أوروبا ذاتها ، وتنتصر في تأكيد موقفها ذاك ، وتفرض الاعتراف به فيما بعد على روسيا نفسها ، حتى انفتح الطريق تقريباً امام إمكانية انتعاش الحياد ، ومعه إمكانية تأليف يسار مستقل عن الشيوعية الدولية .

ومع ذلك ، فلقد ساعد انهيار الستالينية في روسيا السوفياتية ، على التخفيف من حدّة الاختيار الذي فرضه المعسكران من قبل ، على اوربا . كل ذلك أعطى لفكرة الحياد الاوربي شيئاً من التفاعل مع اليسار الملتزم .

وبينما كان هذا اليسار الملتزم للشيوعية ، يعتبر أية حركة اشتراكية مستقلة عنه ، نوعاً من الخداع البروليتاري، لا تفيد منه إلا الرأسمالية ، فقد أصبح قادراً على الاعتراف بمنافس إيجابي له ، خارج نفوذه الانضباطي .

وهكذا، عادت الى الانتعاش مجدداً حركة اليسار المستقل، في فرنسا خاصة، حيث توفرت دائماً الخامات الثقافية والثورية والوعي السياسي لدى طلائع الجماهير.

وكان لفشل فرنسا الاستعمارية في الاحتفاظ بالهند الصينية ، والجزائر من أمد قريب ، ما شجع ، الى حد بعيـــد ، على تحول بذور هذا اليسار المستقل ، الى حركة اجتماعية ، يقودها المثقفون . واستفاد هذا اليسار من جهـــة اخرى من

مختلف العثرات الأيدلوجية والموقفية ، على صعيد السياسة العالمية ، والمحليـــة ، للمعسكر الاشتراكي ، وأحزابه المختلفة .

فمثلاً خسر الحزب الشيوعي الفرنسي تأييد الجماهير الكاسح له ، بعد الحرب، وسار في خط هابط ، حتى أصبح رصيده النيابي متوسطاً بـــين أحزاب اليمين واليسار. ولقد خلفت عملية (المجر) أسوأ الأثر على سمعة المنهج الديموقراطي والسلمي الجديد ، الذي بشر به المؤتمر العشرون ، إثر انهيار النظام الستاليني . وكانت من أتعس الامتحانات العملية التي مرت بها ، مقررات ذلك المؤتمر التاريخي سواء آ.

ثم كان للغموض والتناقض ، والسلبيـــة أحياناً ، التي لحقت بموقف الحزب الشيوعي، من كثير من القضايا الوطنية الحساسة ، وخاصة (حرب الجزائر) التي تخلى الحزب عن تأييدها، قيمتها في تحول اليسار المستقل الى قوة سياسية وأيدلوجية، لها ثقلها بالنسبة للرأي العام المثقف خاصة .

وحان الوقت لالتقاء تلك التجمعات الاشتراكية الماركسية الكثيرة ، التي نمت خلال الخمسة عشر عاماً اللاحقة على الحرب الثانية . ومنها التجمع الذي كونته مجلة (الازمنة الحديثة) التابعة لـ (جان بول سارتر) وأصدقائه .

ومنها التجمع الماركسي - الكاثوليكي، المتحلق حول مجلة (فكر) ، والمنحدر أصلاً عن المدرسة (الشخصانية) الفلسفية، التي أنشأها (إمانوئيل مونييه) .

وكذلك كان هناك التجمع الذي برز من خلال مجلة (فرانس أوبزرفاتور) الأسبوعية ، والتي يرأس تحريرها (جيل مارتينه) .

غير ان هذه التجمعات ، التي انحدرت من أصول فلسفية وثقافيـــة عالية ، والتجمعات الأخرى ، الناشئة عـن المستقلين من الحزب الشيوعي ، والحزب الاشتراكي، ما زال بينها الكثير من العقد والمشكلات الفكرية المعلقة والغامضة، التي تحتاج الى إعادة نظر وروية ، وتبادل آراء ، طويل المدى . وهـذا ما يؤخر الى حد بعيد انتظامها في حركة سياسية موحدة .

فان هذه الحركات ذات المنطلقات الفكرية الأصيلة ، تلاقت منذ البدء ، على خط عريض، من الانتقادات النظرية، التي توجه الى الماركسية ومدارسها المختلفة.

ثم تطور التلاقي ، الى مواقف الاحتجاجات العملية على أساليب الحكم الستاليني ونظراته في التحول الاشتراكي الداخلي وتعميم اسلوبه ، على المجتمعات الاخرى ، التابعة للسلطة الروسية ، وعلاقة هـذا التحول بالديكتاتورية السياسية ، والصيغة التحكمية الاستعلائية ، التي كان الكومنفورم يقود بها بقية الأحزاب الشيوعية في العالم . وتلاقت كذلك هـــذه التجمعات ، التي مدت حوارها خارج حدود بلادها،الى ايطاليا ويوغوسلافيا والجزائر المستقلة.ولكن ما زالت بحاجة الى تحديد فكر إيجابي ايدلوجي ، الى جانب سلسلة الانتقادات لكل من المعسكرين الغربي والشرقي .

كما أنها ما زالت تختلف حول تصور الإطار الحزبي، الذي يجمعها كلها ، وعن نوع العلاقات الموضوعية التي ستربط منظمات الحزب . خاصة وان زعماء هـــذه التجمعات يعانون من حساسية مفرطة ، في موضوع الديمقراطية والحرية الفردية ، التي كانت منطلقاً عاماً لهم جميعاً ، في مقارعة الستالينية .

والى جانب كل هذا ، فهم يحتاجون أيضاً الى الاتفاق حول التطوير النظري الماركسي، الذي دعوا إليه باستمرار، وألفوا باسمه مختلف الدراسات الايدلوجية، والسياسية التطبيقية .

ولعل أهم مشكلة يصطدم بها تأليف هذا اليسار، في تنظيم سياسي موحد ، هي هذا الغموض الذي يحيط بفهوم (الاستقلال) .

فهذا الاستقلال يفهم منه ، في الأصل ، أنه عدم ارتباط بالأحزاب الشيوعية المحلية، الملتزمة بخط موسكو. وهو في الوقت ذاته التزام حقيقي لمختلف المشكلات، التي يهتم بها اليسار الشيوعي ، ولكن بمنطق أكثر مرونـــة وتحرراً ، وتحليل لا يضعف من ظروف المشكلة الموضوعية ، لحساب الأيدلوجية الأصلية .

غير ان الاحزاب الشيوعية المحلية ، لا تقف هي أيضاً جامدة ، بل كثيراً ما تتطور ، عبر الانعطافات الهامة ، التي يسير فيها التاريخ المعاصر . وبذلك قـد تتقارب وجهات النظر ، بين الطرفين ، الى درجة عدم التمايز، مما يضعف من كيان هذا اليسار المستقل .

وقد يرد بعض مفكري هذا اليسار ، بقولهم ، إنهم لا يريدون في الأساس ، من استقلالهم هذا سوى أن يعبروا عن مشكلات الطبقات العاملة في بلادهم، وعن مشكلات الشعوب الناهضة ، دون ان يخلوا أو يضعفوا من وحدة نضال هـــذه الطبقات ، وهذه الشعوب. حتى أنهم يعتبرون مهمتهم أحياناً ، بمثابة المحذر والمنبه للأحزاب الشيوعية الرسمية ، كلما كادت ان تستغرق في مصالحها الحزبيـة ، أو وقعت في مهاوي الجمود الفكري والايدلوجي .

إن هذه المهمة ، التي تدعو بعض هؤلاء اليساريين الى النظر ، الى فكرة إنشاء حزب ، على أنها وقوع في أخطر مزلق ، طالما حاربوه هم أنفسهم، إذ أنه قد يسيء الى حركة البروليتاريا أكثر مما يفيدها، عندما ستضطر الى تجزئة جهودها في خضم صراع حزبي متعدد التشكيلات ، متقارب الاهداف والبرامج .

ويكفي أن نذكر نموذجين ، أحدهما نظري والآخر عملي ، عن الحواجز التي تقوم في وجه تحديد وسط متجانس لجميع أطراف هذا اليسار كختام لهذه الفقرة.

فبالرغم من وحدة المنطلق لجميع فرق اليسار الغربي ، والفرنسي والايطالي خاصة ، المتمثل في الفكر الماركسي بمختلف شروحه ، فان هناك تطويرين متناقضين لهذا المنطلق ، يشكلان تيارين ، من الصعب التوفيق بينهما إلا بنوع من التسوية السطحية .

وهما : التطوير الوجودي ، والنفسي – المنبثق عـــن أصول التحليل النفسي ابتداء من فرويد ويونغ وأولر – ، والتطوير نحو الاتجاه الروحي ، او بالأحرى الديني الكاثوليكي .

ولهذين التيارين ثقافات يسارية متنوعـة ، أثبتت وجودها منذ عشرة أعوام وأكثر ، واهتم بها جمهور اليسار كله في الغرب .

ونحن لا نستطيـع ، في هذا البحث ، ان نتعرض الى تفاصيل نظرية في هذين التيارين ، فذلك يحتاج الى دراسات مستقلة اخرى . ولكن يمكننا ان نقول ان التطوير الوجودي، كان يسعى دائماً الى تطعيم فكرة الطبقية الماركسية بالامكانيات الفردية ، وأهمية الاختيار الانساني ضد حتمية المادية التاريخية .

وكذلك فإن التحليل النفسي، بالاتجاه الماركسي، يحاول ان يدرس الرواسب والعقد اللاشعورية الناتجة عن صراع الطبقات، والتحويلات الفكرية والسلوكية لها، ضمن مجتمع اللاعدالة.

وأما التطوير الديني، فهو الذي لا ينكر صراع الطبقات، ولكنه يلح على فعالية القيم والأنظمة الأخلاقية في توجيه هذا الصراع، والتحويل السلمي للمجتمع الرأسمالي نحو المجتمع الاشتراكي. ولا بد من ملاحظة هنا، وهي ان المرء قد يعجب كيف يمكن للماركسية أن تلتقي بمثل هذه التيارات، التي كانت هي في الأصل ثورة وحرباً عليها.

كيف تلتقي حتمية الطبقة بحرية الفرد في الوجودية؟ وكيف يمكن للاختيار الانساني ان يحول مجرى الصراعات المادية، في التاريخ والمجتمع؟ أليست كل هذه الأفكار بعض رواسب الفلسفات المثالية في القرن التاسع عشر، والتي هاجمها ماركس أعنف هجوم وأقساه؟

وأما النموذج العملي عن العقبات التي تعرقل وحدة هذا اليسار الأوروبي، فهو اتفاقه على منطلق اشتراكي متقارب، واختلافه حول تحديد واضح في ميدان السياسة العالمية.

فلقد كشف مؤتمر من «المؤتلفين الاشتراكيين» خلال عام (١٩٦٤) في باريس، ان هناك رأيين، من الصعب التوفيق بينهما، فيما يتعلق بالموقف من الحلف الأطلسي.

الرأي الأول هو الذي لا يرى إمكانية قيام (أوروبا مستقلة)، بدون حماية قوية يوفرها لها حلف الأطلسي نفسه. وبذلك فان التيار القائل بهذا الرأي، يبدو بعيداً عن الأخذ بمبدأ حياد أوروبا، بين المعسكرين.

والرأي الثاني، هو القائل بأن وحدة أوروبا، إنما هي وحدة اشتراكية سلمية، لا علاقة لها بصراع القطب الرأسمالي، ولا القطب الشيوعي، والمصلحة القومية (المستترة برأيهم) والمتمثلة في سيطرة الاتحاد السوفياتي.

وإذا كان الرأي الثاني يبدو ملتحماً عضوياً بجوهر اليسار المستقل، فان

الرأي الأول، ليس سيء النية. بل قد يتصور بعض المحللين، مثل (جيل مارتينه) أنه قابل للتطوير.

فإذا ما تحررت الأحزاب الاشتراكية في الغرب، من شعورها بضرورة الحماية السوفياتية، وتحررت بعض التجمعات الاشتراكية الحرة الأخرى، من حاجتها إلى دفاع قوي يتمثل في حلف الأطلسي، فإن بالامكان عندئذ ان يتلاقى اليسار كله، على شعور إيجابي باستقلاله، ووجوده الخاص.

ولكن المشكلة باقية، وهي كيفية تخلص أوروبا الغربية من وصاية أميركا عليها! ان بعض اليساريين يتصورون أن استقلال أوروبا عن اميركا يشابه استقلال الدول الأفريقية والآسيوية عن اوروبا، هذا الاستقلال لن يخلق عداوة وصراعاً، بقدر ما سوف ينشىء علاقة تفاعل على أسس من التوازن الجديد.

ومع ذلك فان حوار اليساريين الغربيين، يبقى مفتوحاً على أخطر المشكلات التي تمس كيان الاستقلال اليساري من الداخل، كما تطالبه باتخاذ مواقف حاسمة إزاء قضايا عالمية وانسانية.

وهو ما زال في طريقه نحو هـــذه المعاناة التي تكوّنه، بقدر ما يستجيب للحاجات الأساسية، التي ظهر هو، تلبية لها وتطويراً ايدلوجياً واجتماعياً لمنطلقاتها.

الفصل الثامن

الفكر البعثي والناصرية

أمام هذه اللوحة من تشعب الفكر الماركسي ومواقف اليسار الغربي المستقل، وجذوره الثقافية العميقة ، كان جيل من شباب البعث قبل الوحدة تراوده مطامح كبرى ، من أجل ان يكتشف لنفسه الدرب العميق والحقيقي ليساريته .

غير ان عقبتين كانتا تترصدان هؤلاء الشباب . عقبة ثقافية خالصة ، وعقبة سياسية . فالعقبة الاولى ، كانت تتطلب منهم تجاوز سيطرة الفكر الشعاري على تربيتهم العقائدية ، والتحرر من عقد كثيرة ، استحكمت في شخصيتهم الحزبية ، أهمها تلك الثقة التي تبلغ أحياناً درجة الغرور والاستعلاء ، فتقف دون استيعابهم الموضوعي للمنعطفات الفكرية وعلاقتها بظروف الصراعات الاجتماعية المختلفة في أوروبا الغربية .

ولا شك في أن الفكر الشعاري ، كان يعيق الانفتاح الموضوعي الشامل ، على هذه الحصائل الثقافية المعقدة . ومن ناحية ثانية فإنه يعرقل هـذا الصبر والجهد المطلوبين من اجل المتابعة العلمية . ولذلك فلا يلبث أكثر هؤلاء الشباب ، حتى يسارعوا الى اختصار الجهد في تعميمات فكرية سطحية ، وتبني هـذه التعميمات كاعلان عن الشخصية ، أكثر منه كمساهمة في الفهم والتقدم الفكري .

أما العقبة الثانية ، وهي من طبيعة سياسية، فقد كان الاحتكار السياسي الذي كان يمثله القادة في أعلى قمة الحزب ، يقوم حاجزاً صلداً امام أية محاولة للتغيير . هذه المحاولة التي تعبر عن تأثر العمل السياسي بالأفكار الجديدة ، الواردة من تفاعل الثقافات اليسارية المستقلة الجديدة، مع الانفتاح الماركسي بعد الستالينية، والمواقع الجديدة ، التي احتلتها العقلية البورجوازية العالمية من خلف التطورات نحو الرأسمالية الجديدة ، وقضايا الاستعمار الحديث .

لا شك ان الموقف الفكري « الرسمي » للحزب ، رغم كل هذه التأثرات الداخلية المتناقضة التي كانت تمثلها أجيال متتابعة لتيارات الثقافة الغربية ، قد بقي محافظاً على جموده الاول .

ذلك الجمود الذي كان يحيط بالفكر البعثي ، لكي يعزله ضمن الشرنقة والاستعلاء. إن فلسفة (الاكتفاء) التي كان يمثلها عفلق وتلاميذه، كانت هي السياج الحقيقي، غير المرئي ، عن أي تفاعل مخلص واع ، وخارج تحريمات (فكر التواطؤ) مع الجديد من تيارات الثقافة اليسارية العالمية .

ولذلك فاذا ما قارن أحدهم المتون الفكرية لفلسفة الثورة لدى البعث ، بأية ايدلوجية ثورية لأي حزب في الشرق أو الغرب ، هاله في الواقع هذا الطابع الرجعي والانعزالي والانغلاقي الذي يقوم عليه الفكر البعثي «الرسمي» ولاعتبره فكراً محافظاً ، وفقيراً حتى من مبررات هذا الفكر ودفاعاته النظرية .

حزب يضم الطلائع الثقافية، وليس من ثقافة. ويجمع أساتذة الفلسفة والأدب والشعراء والكتاب ، ومع ذلك فليس ثمة دراسة علمية واحدة ، أو ايدلوجية صدرت عنه طيلة عشرين عاماً من عمره الطويل .

لم يحدد موقفه من شعاراته . لم يدرس قضية اجتماعية واحدة . لم يصدر مجلة فكرية بالمعنى الصحيح. لم يبرز موقفه من الماركسية، ومن الوجودية وفروعها ، حتى ولا من الثقافات العربية التقليدية ، من حضارة الاسلام، من الجاهلية .

ترك كل هذه المشكلات معلقة ، واكتفى بالغرور والاستعلاء ، وعاش على (فكر التواطؤ) ، اتفاقات مبهمة غامضة حول إحاطة كل شيء بالسر والحلقة

والتحريم، تواطؤات حول عدم إثارة أي تساؤل، أو إعطاء أي جواب أو تعليل، حلقات داخل حلقات، وتهويمات داخل تهويمات.

والامكانيات الهائلة التي قدمها مئات من الشباب المثقف والموهوب للحزب، ذهبت هدراً، وتُركت للاجتهادات الشخصية، والانحرافات، والتقليدات للشائع من نتف موائد الثقافة الغربية.

إن حزباً عاش عشرين عاماً من أخطر مرحلة انتقالية من يقظة أمة كاملة، وعبر أشق معارك التكوّن وإثبات الذات، وتحدياً لأشرس الموانع الفكرية والسياسية، لا بد أخيراً ان يواجه مصيره المحزن، عندما يعجز عن تثبيت منهج نضالي معين، عند منعطف كبير في تاريخ تحولات الأمة. وهو منعطف الوحدة، وقيام تيار جديد متكامل الفكر والعمل، في نضال الأمة، هو الناصرية.

إن الناصرية كانت المنعطف التاريخي الحاسم لتصفية مرحلة كاملة من الفكر والعمل القومي، والتي كان يمثلها في أحد مظاهرها الأساسية حزب البعث.

وفي الوقت الذي زحفت فيه جماهير الأمة، ومن بينها قواعد الحزب، وراء القيادة الناصرية، التي انبثقت في بحران الواقع العربي، لتنهض كأكبر منظم ودافع للثورية العربية، فان القيادات البعثية، الاحتكارية التقليدية، جاهدت لكي تحتفظ بمراكزها من قيادة العمل العربي، أولاً عن طريق تبني الناصرية والترويج لها،والظهور بمظهر المبشر بها والمدافع عنها.ثم كان لا بد من الاصطدام التاريخي بينها وبين القيادة الناصرية لتناقض الدورين، أحدهما انقضى زمنه، والآخر يستشرف المستقبل العربي كله. وعندئذ دخلت هذه القيادات معركة تصفية ذاتها أمام الزحف الناصري. وكانت تلك هي الصورة الاخيرة عن تهافت الفكر البعثي وإطاراتها القيادية.

فما هي الناصرية، او بالاحرى ما هي منطلقاتها الفكرية-التي تخص موضوعنا في هذا البحث عن مشكلات التفكير البعثي - والتي استطاعت ان تظهر تهافت العقائدية البعثية، عقائدية القيادات خاصة التي حاولت ان تقاوم طغيان التاريخ عليها، فحولت نفسها إلى عقبات حاقدة في وجه التقدم الثوري، وتجاوزاته

المتعاقبة ؟

* * *

لقد قامت ثورة ٢٣ تمـوز (١٩٥٢) ، وسارت أولاً في طريق هادىء ، ثم تفجرت مواقفها ، الواحد تلو الآخر ، حتى استطـاعت أخيراً ان تستقطب حركة النضال العربي في كل مكان ، وفي صورتيه السلبية والايجابية، وفي مراحله المتتابعة من النضـال الوطني ، إلى النضـال القومي ، إلى التحويل الاشتراكي والتكامل الوحدوي .

ومنذ ان انبثقت هذه الثورة في مصر ودنيا العرب كلها ، كان لها انتاجاتها الكبرى ، ومن البدء واجهت هذه الثورة أضخم عقبات الواقع المصري والعربي ، وهي في أوج جبروتها وسلطانها ..

وتتابعت انتصاراتها ، ومن خلال الحروب السلبية كان لها كذلـك بناؤها وإنشاؤها . وعند كل منعطف انتصار ، تتضاعف المسؤوليات ، وتتكشف عقبات أعمق وأقسى في جذور الواقع القديم .

حتى استطاعت هذه الثورة ، بعـد سنوات من مرحلة تأكيد الذات ، ان تتحول من انقلاب ضد نظام ملكي ، إلى ثورة دائمة في سبيل تغيير شامل لبنـاء الحياة العربية بكامله ..

وان تتحول من ثورة قطر عابرة ، الى عصر تاريخي حاسم بالنسبة لأمة كاملة . عصر مليء بامكانيات التحول الفاصلة ، وصنع حضارة مستقبل انساني ، لها ملامحها الخاصة ، وطريقها الفكري والعلمي الخاص .

وكما انها استطاعت ان ترقى هذه المستويات متتابعـة ، من انقلاب الى ثورة دائمة ، ومن ثورة قطر الى عصر تحول تاريخي شامل لأمة كاملة ، كذلك فان الناصرية قفزت الى مقدمة الثورات الطليعية للعالم الثالث ..

فهي ثورة رائدة لثورات افريقيا وآسيا ، وحامية لعدد كبير منهـا .. وفي طريقها، طريق لشعوب متشابهة في شروط تحررها من الاستعمار ، ونضالها للقضاء على التخلف ، وشق مستقبل عادل تقدمي لانسانيتها .

ان تاريخ الثورات يطلعنا على حقيقة غريبة ، وهي ان الثورات إما انها اندفعت من نظريات مكتوبة ثم تخطت هذه النظريات بما تحدثه من ظروف جديدة تدفع الى فكر جديد ، وإما انها انطلقت من لا نظرية ، وبقيت بدون نظرية ، ثم انطفأت عند حدود بضعة احداث مادية، ضعيفة الأثر. ثم تولتها رمال التاريخ، فعفت على آثارها نهائياً .

وأما الناصرية ، فهي الثورة الاولى التي انطلقت من حدس باللحظة التاريخية المناسبة لحظة ثورة، وبالمستقبل ، عاماً غامضاً ، الذي سيتوقف على مدى الاستجابة لهذه اللحظة التاريخية وفهمها .

وتحققت بفعل ارادة انسانية خارقة ساعدتها على ان تكون سيدة كل ظرف مضاد ، تثيره هي ، ثم يقوم هو ليقضي عليها ، فتكون النتيجة ، تحول الظرف المضاد نفسه ، الى ظرف إيجابي . ويفجر بالمقابل ، امكانيات اخرى لم تكن الثورة تعرفها في نفسها من قبل .

ان هذا الحدس في خيال القائد وروحه ، هو الذي يشق طريقين متوازيين في وقت واحد :

- طريق تفجير الاحداث الثورية المتتابعة المتكاملة .
- وطريق توضيح الافكار الثورية المقابلة لهذه الاحداث .

فليست الفكرة النظرية هي مولدة الحدث الثوري ، وليس الحدث الثوري هو المكون لفكرته النظرية .

وانما هي فعالية الثورة المتكاملة : انها تفجر الحدث ، وفي الوقت نفسه ، تجعله يشع بنموذجه الفكري .

ومن هذا التفاعل الثوري الرائع بين قمة الحدث وقمة الفكر ، في كل منعطف من نضج الثورة خلال الفعل والواقع ، قامت هذه الحقيقة الكبيرة في دنيا العرب، وفي ذروة مريعة من صراع الأفكار والاحداث العالمية .

انها حقيقة الناصرية كثورة حضارية نموذجية ، تتولد عن جدل حي مبدع من فهم الواقع وتحويله ، وتنظير الفكر له وتوجيهه .

ان من يتأمل الثورة الناصرية من نهاية المرحلة الحاضرة ، ويحاول ان يرجع

بها تدريجياً عبر انتصاراتها المتلاحقة ، يستطيع ان يكشف عن طريق (منطقي) صارم ، اتبعته هذه الثورة منذ يومها الاول .

تقويض الملكية وطرد الاستعمار وكسر احتكار السلاح وتأميم القنال . ثم القضاء على الرأسمالية الداخلية وتحقيق الاشتراكية والديمقراطية . يصاحب كل ذلك ، خط طويل كثيف من مشاريع التنمية ، تشمل مختلف وجوه الحياة ، من خلال تصنيع جبار ، يدخل لأول مرة بلاد الشرق العربي ، من أبوابه العريضة .

وفي خط ثالث ، توضع كل هذه الانتاجية الثورية ، الانمائية والسياسية ، في خدمة قضية الثورة العربية ، وفي أي مكان اندلعت فهي من ورائه ، وفي أي مكان انتكست ، فهي قوة لها على الصمود ، وعلى محو الانتكاس وأصحابه .

حتى تطورت الناصرية في جميع بلاد العرب . أقامت مؤسساتها في القاهرة ، وعاشت معاني هذه المؤسسات وقواها الجديدة في نفوس العرب أجمعين . وانطلقت سوريا في أول الموكب . ثم تعثرت . وانطلقت الجزائر واليمن والعراق .

وخرجت الناصرية من قلب انسان وساعده ، لتصبح في قلب أمة وساعدها .

ان هذا الطريق ، الذي يبدو انه منهج منطقي صـــارم قد وعته الثورة منذ البدء ، ثم حققته خطوة فخطوة بنوع من التنبؤ والقدرة على السيطرة على المستقبل ومفاجآته ، ليس هو في حقيقته إلا طريق (التكامل الثوري) ..

فان المبادىء الستة التي قادت نضال (الضباط الاحرار) ، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ، قبل الثورة ، هي التي حددت معالم جديدة وعريضة لطريق العمل الثوري . ثم لم تنضج التفاصيل والمبادىء النظرية المتكاملة إلا بعـد عشرة أعوام كاملة ، في (ميثاق الاتحاد الاشتراكي) .

وهكذا فان كل خطوة ثورية ، كانت في حد ذاتها دليلاً نحو الخطوة التالية . فليس هناك من يفرض آراء مسبقة ، ولا من يحاول ان يأتي بنظرية (جاهزة) ليفصل الواقع حسب مقاييسها ، وبذلك يقضي على عفويته ويشوه انطـــلاقته . ويصبح الثائر غريباً عن عالمه ، يتخبط بين أفكار لا يفهمها ، لأنه لا يدري كيف يقيسها ويقيس الظروف عليها ، وبين وقـائع وحوادث كبيرة خطيرة ، تتطلب

حلولاً سريعة ومسؤوليات ضخمة ، فلا يقدر على الحـلول ، ولا تنهض كتفاه لعبء مسؤولية .

لقد وقفت الناصرية دائمـاً على خطوات متساوية من جميع الايديولوجيات (الجاهزة) ، وخاصة منها تلك التي كانت تحاصر الواقع العربي، وتجتاح أحزابه وفئاته المتصارعة .

فمن جهة كانت هناك القومية المثالية . ومن جهة أخرى تقوم المـاركسية بأجنحتها المختلفة . ومن جهة ثالثة تأتي النزعات الدينية الغيبية .

لقد دللت مواقف الناصرية على فهم موضوعي عميق لوضع القومية المثـالية . فمن زاوية أولى، تبنت الناصرية من القومية المثالية نزعتها الانسانية لتوحيد الأمة العربية،وما تشمله هذه النزعة من تأكيد تاريخي وثقافي لوجودالأمة واستمرارها .

ومن زاوية ثانية فقد تجاوزت الناصرية هذه القومية المثـالية ، إلى القومية البروليتارية او (الشعبية) .. وذلك في نقاط فكرية ومصيرية أساسية :

النقطة الأولى: لم تكتف الناصرية بتصور الاهداف من خلال الافكار او المثل ، عن جنة المستقبل القومي الوحدوي . بل راحت تتصور هذه الاهداف من خلال الوسائل . والتفكير في الوسائل يعني مواجهة الواقع . والعمل وحـده هو توجمة هذه المواجهة الضرورية .

وبذلك انتقلت القومية العربية على يد الناصرية ، من مرحلة ترداد الشعارات، وتأمل الافكار الصوفية ، إلى فعالية جبارة شاملة ، حركت كوامن الثورة في كل جزء من الوطن العربي .. حتى تلك الاجزاء التي وضعتهـا القوميـة المثالية الطوبائية ، في النصف الاخير من امكانية الانتفاض والتمرد .

والنقطة الثانية: فقد نقلت الثورة من يد (النخبة) الحاكمة إلى يد (الجماهير) الواسعة . وأصبح التوجه إلى الجمـاهير واستنفارها في كل معركة ، واستمداد التأييد والقوة منها ، هو أسلوب تنمية الديمقراطية النضالية في مشاركة الجمـاهير بالرأي والعمل ، وتوحيد النضال العربي فعلياً من وراء كل ساحة جديدة تفتتحها الثورية العربية مع أعدائها .

والنقطة الثالثة والأهم : هي ان الناصرية تجاوزت القومية المثالية ، إلى هذا المضمون الواقعي المتمثل في الاشتراكية ، ورديفتها الطبيعية ، وهي الديمقراطية الصحيحة المتحررة من سيطرة رأس المال والاقطاع .

وخلاصة القول ، ان تحويل احلام القومية المثالية إلى ثورات جماهيرية حقيقية ، وان اشراك اكبر قطاع شعبي ، هو العمال والفلاحون ، في صنع قضايا هذه الثورات خطوة فخطوة ، وان ربط المثل القومية بالمضمون الاشتراكي ، كل ذلك قد جعل من الناصرية الحركة التاريخية الوحيدة ، التي تتمثل فيها قومية الأمة العربية ، في ملامحها العصرية ، ومضمونها الشعبي التقدمي .

وتأتي (الماركسية) كأقوى ايديولوجية ثورية جاهزة ، في وجه الناصرية . ولكن الناصرية ، التي تميزت منذ البدء بأعمق اخلاص في فهم الواقع العربي ، واكتشاف امكانيات الثورة الفعلية في بنيته ، وامكانيات القوى المضادة لها ، شعرت بأن الماركسية قد تقدم حقائق علمية كثيرة تهتدي بها كل ثورة ، ولكن يظل للثورة العربية ما يميزها عن أية ثورة طبقية .

فهي أولاً ثورة قومية شعبية او بروليتارية ، لانها تتضمن وحدة مختلف الشعوب العربية في النضال المزدوج : من أجل التحرر من الاستعمار بكل أشكاله ، ومن أجل التحرر من التخلف بكل مظاهره المادية والحضارية .

وهي ثانياً ثورة أمة نامية وذات تاريخ عريق وحاضر متمزق ، وتشترك مع غيرها من الأمم النامية في تحرير مختلف الطبقات العمالية الكادحة في المجتمعات البورجوازية الرأسمالية . فان تخلص الامم النامية جميعها من الاستعمار ، معناه القضاء على شريان الحياة الأساسي للرأسمالية الغربية . فتتهاوى تحت ضربات البروليتاريا الداخلية الوطنية ، بعد ان تهاوت في الخارج على يد القوميات البروليتارية .

وهي ثالثاً تؤمن بأن تصفية الجيوب البورجوازية والاقطاعية في العالم العربي ، انما تتبع تصفية النفوذ الاستعماري نهائياً من المنطقة . ولذلك فان الصراع الطبقي يندمج في كلية الصراع القومي بمحتواه الشعبي الاشتراكي .

وهي رابعاً ، تنطلق نحو انشاء عالم ثالث مؤلف من أمم بروليتارية تطالب بالسلام العالمي الحقيقي البعيد عن المصالح الكبرى للكتلتين . لأن هذا السلام هو الشرط الحيوي لنمو هذه الأمم ، وتحقيق انسانيتها السلبية ، في المشاركة بصنع الحضارة لصالح الاكثرية المطلقة من سكان هذا العالم . ولذلك فهي تستبدل وحدة الطبقات العاملة في العالم ، بوحدة القوميات البروليتاربة التي هي الشرط الطبيعي للوحدة العمالية ضمن اطارها البروليتاري المكافح .

ومرة أخرى ، تبقى الثورة الناصرية منفتحة لكل منهج علمي في فهم الواقع وتغييره . وهي أقرب الثورات في هذا العصر ، وعلى مستوى عالمي ، إلى الانسجام مع ظروف القوميات الشعبية الجديدة . ولذلك احتلت مركز الريادة بالنسبة لثورات آسيا وافريقيا وجنوبي اميركا .

ولأن الناصرية ثورة قومية شعبية ، فهي لا تستطيع ان تتخلى عن ماضي الأمة العربية ، باعتباره تراثاً غنياً في شخصية هذه الأمة ، وحاضرها النضالي نفسه . والاسلام جوهر لهذا التراث . وهو في الاصل ثورة حضارية كبرى . ولذلك فان القومية العربية تتلاقى مع الاسلام من هذه الوجهة ، وهي انه في الاصل ثورة ومبادىء حضارة ، أسست ماضي الأمة بكامله .

ولكنها في الوقت نفسه ، تنكر كل تعصب ، ونزاع طائفي داخل الأمة الواحدة . وتهتم فقط ، في كل ما من شأنه ان يزيد وحدة الكفاح الشعبي لانجاز التحرر الكامل من الاستعمار القديم والجديد ، ومظاهر التخلف الحضاري .

ولذلك ، فان الناصرية استطاعت ان تقتلع بالتدريج جذور الافكار المتطرفة التي تحاول ان تنقل الثورية العربية إلى غير وطنها الحقيقي ، في الزمان والمكان . فهي لا يمكن ان تشد من قلب العصر إلى أعماق الماضي ، وتستهلك هناك بدون حاضر او مستقبل .

ولا يمكن ان تنقل إلى دائرة (الأممية)، في غير موطنها الاصلي ومشكلات هذا الموطن .

كما انها لا تستطيع ان تلغي الشعب ، وتعتمد على النخبة . ولا ان تستخدم

الاحلام والشعارات ، بدل الثورات الحقيقية ، كما كانت تفعل القومية المثاليــة الطوبائية .

ان هذه البنية الفكرية التي نضجت في قلب التجربة الثورية اليومية ، ونضجت على وهج هذه الثورية ، وتغذت من الامكانيات وعقباتها معاً ، من الانتصارات والنكسات ، وفتحت وعيها الكامل لشمول التجربة وخصائصها ، وعالجت الواقع المضاد بواقعية ثورية فذة فريدة .. هذه البنية الفكرية ، هي الدليل العقائدي الحر للناصرية ، الدليل الذي يقيم البناء ونظريتــه معاً ، يولد الحدث ومبدأه ، ينجز الفعل التاريخي ، ويخلد قيمته الحضارية في الوقت نفسه .

فلم يسبق ان قام مثل هــذا الحوار العفوي والواقعي ، بين شمول الفكر ومنجزات الثورة . ولذلــك لم يتحقق تدبير ثوري إلا في لحظة نضجه . وحتى النكسة ، فقد كان لها دائماً دور إيجابي في كلية الثورة .

فلم تتعرض الناصرية لأكثر الأمراض التي تتعرض لها المذاهب الثورية .

لم تعرف صراع الحرفية والحرفيين مع التطور والتطوريين، ولم تأسرها فروق مصطنعة بين الوسائل والاهداف ، ولم يجمدها انتصار عن تجــاوزه نحو انتصار أكبر . وبذلك فان الناصرية لم تكتشف افكارها وتنجز ثوراتها في طريق الشعب ومستقبله الاشتراكي فقط ، بـل أرست اخلاقاً ثورية جديدة ..

واستطاعت ان تنفتح على جميع التجارب الثورية في العالم العربي، وان تحتضن الاصيل منها وتغنيه . وتبطل الدخيل وتكشفه امام جماهيره .

ولعل اروع ما أنجزته الناصرية بعد الثورة الوطنية ضد الاستعمار ، وبعــد الثورة الاشتراكية .. هذه الثورة الثقافية العلمية التي تجتاح اليوم مختلف حقول المعرفة العلمية والانتاجات الادبية والفنية ، بصورة لم تعرفها أمة العرب ، حتى في اوج حضارتها الماضية .

فكأن الناصرية ترسي بذلك مبدأ حرية العقل او الفكر على أساس المعرفة الشاملة ، وليس الجهل المطبق ..

وهو المبدأ الذي يوازي مبدأ الحرية السياسية ، على أساس الكفاية الاجتماعية،

التي تحققها الاشتراكية .

* * *

وبعد ، فان الناصرية تنهض في دنيا العرب كأقوى عقيدة للانسان العربي المعاصر ، فيها يتعانق الفكر والعمل والايمان في شروط من ثورية الانتاج الحضاري واخلاقيته معاً .. مما يبشر فعلاً ، والانتصارات الثورية الشاملة تعم كل مكان ومرفق حولنا ، بمولد مستقبل افضل لأمة العرب .. بدأنا نحيا مقدماته وفتوحاته الحقيقية .

إن الناصرية بذلك تبدو الحركة الوحيدة والأولى ، في العالم العربي ، التي حاولت ان تجعل طريقها النضالي والسياسي مبنياً على مستويات ثلاثة ، تتداخل فيها النظرية الايدلوجية بالاستراتيجية الهادفة إلى التحقيق المرحلي للنظرية ، والفهم الجدلي لتحولات الواقع محلياً وعربياً ودولياً .

١ — مستوى النظرية الايدلوجية ، وسياق تكاملها بالرؤية والتحليل ، والمواجهة الحرة للايدلوجيات الثورية الاخرى .

وذلك ما لم يستطع حزب البعث ان يصل اليه رغم محاولته المستمرة من أجل تأليف نظرية ، من ينابيع مختلفة وأرومات فلسفية . وبقيت هذه الينابيع تؤلف تيارات وتحزبات متصارعة ، بدون جدوى ، وبغياب كامل عن الاحساس بتحولات الواقع ومتطلبات المعركة النضالية للوضوح والثبات والتكامل الواعي.

٢ — مستوى استراتيجية التحقق النضالي : فان الثورة الناصرية ، هي من اكثر الثورات العالمية ارتباطاً بمسيرة منهجية واضحة الخطوات والمراحل ، بالرغم من ان الخطوة الاولى ، لم تكن ترى بكل وضوح جميع تفاصيل نموّ المعركة والمواقف المطلوبة . وعلى نقيض الناصرية، فان القيادات البعثية لم تحفل مرة بوضع منهج أو محاولة منهج لكيفية العمل السياسي . حتى اتصف سير الحزب بالدوران حول الذات ، والبدايات والرجوع اثر كل منعطف ، نحو نقطة الصفر . والافتقار الكامل إلى أي وجه إيجابي في العمل . فكان الحزب أسير معاركه الجزئية السلبية المتواصلة . وحتى عندما استولى على الحكم في العراق وسوريا ، لم يستطع ان

يتحرر من سياسة الهدم ، فظل يتابع التهديم لكل قائم ، دون ان يعوّض عنها بشيء ، حتى ألفى نفسه خراباً وسط خراب .

٣ ــ مستوى الفهم الجدلي لتحولات الواقع ، محلياً وعربياً ودولياً ، وسرعة التلبية المدروسة لهذه التحولات ، وتوجيهها نحو خير الثورة وانتزاع إنجازات من مختلف التناقضات المحيطة بها .

فان تلك القيادة الاستثنائية المتجلية في امكانيات هائلة متنوعة ، لشخصية الرئيس (جمال عبد الناصر) ، قد حافظت باستمرار على قدرتها على التحكم في مفاجآت العمل الثوري وظروفه ، لصالح التقدم الثوري ومتابعة الانجاز المنطقي نظرياً ، والمتكامل عملياً .

وذلك ما يميز مرحلة الثورة الناصرية ، عن مخلفات العمل البعثي القديم ، الذي كان سجين مناطق ردود الفعل من مختلف الأحداث التي كانت تهاجمه ، ولا يملك هو تجاهها إلا الرد الغريزي المفتقر للرؤية الأصيلة والشاملة لابعاد المشكلة ، ومعطياتها المباشرة والمؤجلة ، واستباق النتائج ، والتحكم بها .

ولذلك فإن العسكريين الطائفيين ، الرافعي لواء الحزبية البعثية بعد الثامن من آذار ، كانت مطامحهم في طرح تجربة بعثية منافسة للتجربة الناصرية ــ كما قالوا في نشرة داخلية : على الشعب العربي ان يختار منذ الآن بين البعث ، وعبد الناصر ! ــ تعتبر مظهراً جديداً من المراهقة السياسية ، والعناد الفكري . بحيث ان محاولاتهم العابثة تلك ، قد ابرزت الى أي حد يمكن ان يبرز النقيض ليوضح مزايا نقيضه ، لا ليطمسها ويتجاوزها . وبذلك فإن مختلف (الإنجازات) البعثية المتابعة ، خلال تجربة حكم الحزب ، معارضاً للناصرية ، كانت بمثابة فضائح ودلائل عملية على عقم التفكير ، وضيق الرؤية ، وسيطرة المنفعة الحزبية الضيقة ، التي (يتمتع) بها الحاكمون المتبعثون الجدد ، إزاء التكامل الحاسم الذي كانت تظهر من خلاله التجربة الناصرية ، في مختلف حقول السياسة والاجتماع والتحول الاشتراكي والديمقراطي .

لقد خدمت هذه المنافسة الناصرية ذاتها ، بأن أبرزت معالمها اوضح فأوضح

أمام أعين الجماهير العربية في كل مكان .

وضمرت التجربة البعثية بالمقابل ، الى حدود التشبث بالسلطة في سوريا ، مهما غلا الثمن ، بعد أن ضاعت سلطة الفكر البعثي ، وسلطة التنظيم الحزبي ، ولم تبق له إلا هـذه المحاولة المستيرية التي يبديها عسكريون متشنجون خوفاً على رقابهم ، بالتمسك بمراكز قلاعهم وحصونهم ، باسم البعث ، والتجربة البعثية !.

الخلاصة

يمكننا الآن ، بعد ان ألممنا بمختلف الخطوط الرئيسية التي تحدد لوحة الفكر البعثي ، ومواقعه من تيارات الفكر الثوري العالمي من ماركسية ، ويسار غربي مستقل ، وتلقاء الناصرية ، يمكننا بعد ذلك كله ان نلخص الخصائص الرئيسية لهذا الفكر على الوجه التالي :

١ — المثالية في الفلسفة : وعلى الرغم من ان الفكر البعثي ليس له متون فلسفية محددة ، فان مواقعه وعناوينه الأيدلوجية، تصفّ كلها الى جانب المثالية. على ان نفهم من هذه المثالية ، رفع المبدأ القومي الى مرتبة المطلق واعتباره مصدر كل الفعاليات الحضارية ، والنظر الى الأمة باعتبارها ذاتاً مطلقاً ، دون اعتبار لشروطها الموضوعية المتغيرة ، ومراحلها التاريخيـة المتطورة ، وتنزيه الشخصية الحزبية ، والعلو بالقيادة الى مرتبة النبوة ، وتقديس المثل المجردة ، مع التعامي عن حقائق الواقع ، واحتقار الحياة المادية وقوانينها ، وتجاهل ثقل المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات العامة ، والضرب بعرض الحائط ، بكل علاقة اجتماعية موضوعية .

٢ — الغيبية في الاعتقاد : إن إحلال الفكر الاعتقادي والوثوقي ، بـدل التحليل العلمي، أبعد الحزب باستمرار عن اكتشاف القدرات الثورية لدى الجماهير. ونظر الى العمل النضالي وكأنه محكوم بقوى غيبية ، تدفعه من تلقاء ذاته الى حتمية الانتصار ، وهذا بالتالي يفرض على العضو تبعية اخلاقية وعقلية للقائـد ، وإيماناً به، على أنه هو القادر وحده على تحقيق معجزات الوحدة والحرية والاشتراكية.

بمجرد إلحاحه على حتمية تحقق هذه الاهداف. ولذلك لعبت كلمات صوفية كثيرة دور الطاقات الثورية لدى الاجيال الاولى من الحزب ، مثل (المرحلة التاريخية) و (المصير) و (قدر الامة) ، وغيرها من التعابير التي لا تستطيع ان تسمي القوى الاجتماعية القابلة وحدها لتحقيق الثورة . ومن هنا كانت عزلة الحزب الدائمة عن الجماهير ، حتى عندما كان الى جانب أهدافها . ولذلـــك كان يفوز بنتائج الانتصارات غيرُه من الاحزاب ، دون ان تعترف الجماهير له مرة بحق الوصاية عليها ، وقيادتها .

٣ ـ الطوبائية والليبرالية في الاجتماع : إن عدم التفكير في الوسائل المحققة للثورة ، من جهة ، وإهمال الجمع بين النضال السياسي والنضال الاجتماعي ، والتأمل في مستقبل كالجنة ، يعاكس الوضع الراهن ، المعبر عنه بشعار (الواقع الفاسد) ، والانغلاق التحريمي ضد أي تفاعل مع الفكر الثوري العالمي ، كل ذلـــك جعل اشتراكية البعث مجرد وصف اوصاف شاعرية لمستقبل العدالة . وهكذا كانت اشتراكيته تمت الى الطوبائية المعروفة في مطلع القرن التاسع عشر في اوربا . ومن ناحية اخرى فان الصورة التي يعطيها عمله السياسي تدل على فهمه للديمقراطية ضمن صيغتها الليبرالية ، أي ديمقراطية الحياة النيابية التقليدية ، المعزولة عن أي صراع اجتماعي .

وكان من جراء ذلـــك ان اتصفت مواقفه السياسية بالانتهازية والتناقض ، والتذبذب بين الأطراف اليمينية واليسارية الشيوعية ، مع الناصرية ثم ضدها ، ثم سعي التقرب منها وهكذا ..

وبذلك يمكن اعتبار البعث قبـل انحرافه انـه حزب اصلاحي ، لا ثوري ، تلفيقي وتوفيقي بين الاتجاهات المتعارضة ، لا جزري . سياسي وليس باجتماعي مطلقاً ، ديماغوجي ، وليس بعلمي او ايدلوجي. ولقد أدت هذه المنطلقات الفكرية الى النتائج الآتية :

١ ـ العجز عن إيجاد نظرية واضحة المعالم والمواقف ، وبالتالي العجز عن تنظيم خطط فكري للعمل الثوري ، وإعطاء الحزب نفسه الصدف السياسية ، وانحصاره

في دور ردود الفعل على مبادهات غيره .

٢ ـ العجز عن اتخاذ مواقف فكرية جريئة من عقائد المجتمع وتقاليده . فلقد بقي الالتباس يحيط برأي الحزب حول مفهوم الدين إجمالاً ، وحول تحليله لطبيعة التجربة الاسلامية . فلم يكن يملك مرة الحجة على دحض اتهامه بالإلحاد. كما لم يملك الحجة ايضاً على بيان موقفه العلماني ، الذي كان يُستنتج من جملة تصرفاته الهادفة الى الابتعاد عن الاحراجات الشائكة . ولذلك لم يستطع فكر الحزب أن يحلل التاريخ العربي والاسلامي ، وان يضع يده على معانيه الواقعية . وبذلك تجاهل أكبر مصدر للفكرة القومية التي يدعيها .

وكذلك فقد تمسك الحزب في علاقاته بين أعضائه وقياداته بألفاظ عن الاخلاق ، كثيرة ، توحي بنوع من الطهرانية ، التي ترتبط بقيم البورجوازية الثقافية الصغيرة . فيسودها الملق والتحفظ والتطهر ، أي مختلف مظاهر السلبيـــة المقنعة بكبرياء اللافعل ، والاحجام عن المبادهة وتحمل المسؤولية .

٣ ـ ظهور تيارات ثقافية وسياسية متضاربة داخل الحزب الواحد . فكما رأينا فان هنالك جيلاً اول كان خاضعاً لتأثير البرغسونية والحيوية الجديدة المعروفة عن (اندريه جيد) والرومانسية الجديدة التابعة لها . وهنالك تيارات ماركسية مقنعة ، ووجودية وعدمية وشوفينية متعصبة عمياء ، تؤدي أكثرها الى انتهاز من اجل زعامات الحزب الثقافية والسياسية .

٤ ـ الفهم الوهمي لشعارات الأمة . فلقد تمسك الحزب طويلاً بالمبررات النظرية المجردة للوحدة ، وللخصائص القومية ، كوحدة اللغة والعرق والأرض والتاريخ .. الخ . كما ان فكرة (البعث) نفسها كانت توحي بنزعة استرجاعية لنموذج حضاري غامض ، متأرجح بين الجاهلية والاسلام . وبذلك كانت قوميـة الحزب شاعرية الصورة ، بمضمون رجعي فكرياً واجتماعياً .

وأما الاشتراكية فلقد فهمت على انها حلم طوبائي ، معزول عن ظروفـــه وأداته الثورية وأصولة العلمية .

والديمقراطية ، هي ليبرالية برلمانية لا علاقة لها بالتحويل الاجتماعي الثوري .

والانقلابية ، عبارة عن معجزة علوية مجهولة المصدر، مجهولة الكيفية والهدف.

* * *

لقد توقف فكر البعث الرسمي عملياً كله ، عنـــد موقفه النقدي من الحكم البورجوازي الوطني في مرحلة النضال الاستقلالي ، خلال أواسط الأربعينيات. وأما النزعات الأخرى من ماركسية ووجودية، فلقد بقيت ضيقة التأثير، عاجزة عن تحويل أساسي لجذور الفكر البعثي ، الذي يرجع كله بميزاته وانحرافاته الى شخصية مؤسس الحزب نفسه ، وهو ميشيل عفلق.

وهذا يدل في الواقع ، على مدى التقصير الذي ارتكبه عدد هائل من مثقفي الحزب طيلة السنوات الحافلة بالازمات والانقسامات، التقصير عن تطوير او تعديل او تنمية الفكر البعثي ، بعيداً عن السلطات السحرية لعفلق والحوراني. حتى ضرب على هؤلاء المثقفين نوع من التلذذ بذل التبعية، ونفاق الاستزلام ، واسترضاء القادة ، دون التجرؤ مرة واحدة على تحديد نقد واضح موضوعي.

الى ان تراكمت العقد والانحرافات والأمراض الفكرية والأخلاقية. وتفجرت أخيراً من خلال مستقبل مناقض لمقدمات الحزب وآمال طلائعه.

وفي القسم التالي، سوف ندرس البنية التنظيمية للحزب ، ونرى مدى التجانس بينها وبين البنية الفكرية له ، التي كان لها الفضل الأكبر في جعل هذا الحزب يشبه أي تجمع أو جبهة بين فئات متنافرة ومتصارعة ، إلا ان يشبه النموذج الحزبي الحقيقي.

القسم الثالث

البنية التنظيمية للحزب[٧]

مَدْخَل

إن من أهم جذور مختلف النتائج السلبية التي انتهت إليها تجربة حزب البعث ، هو ان هذا الحزب لم يستطع في أية مرحلة ، من مراحل نشوئه وتطوره ، أن يكون منظمة متجانسة، تتبع القواعد والأساليب الموضوعية في علاقات مؤسساتها وأفرادها ، كما هو الحال في كل تنظيم حزبي يساري ، يبنى على العقل والتنسيق والتخطيط ، لا على الانفعال والرؤية الشخصية ، والمقاييس الآنية المتغيرة . لقد كانت مشكلة حزب البعث ، انه ظل ضائعاً بين ادعاء الطليعة ، وبين ان يحقق نفسه في حزب سياسي واضح .

ولذلك، فمنذ ان جاوز مراحل التكون الأولى ، وانخرط في المعارك السياسية المتوالية ، وخاصة في القطر السوري ، بدأت التناقضات التنظيمية ، الى جانب التناقضات الفكرية، وفي المواقف السياسية، تفعل فعلها في البنية الداخلية للحزب. إن فكر التبشير الذي يميز وجود الطليعة ، سوف يمنع ، في مرحلة تحول الطليعة الى (حزب) سياسي ، انبثاق منهج جدلي شامل يستند الى التحليل العلمي من جهة ، والى استيعاب ظروف الواقع وتحولاتها .

وإن الذاتية الحاكمة التطهرية ، التي هي خاصية (تنظيم) الطليعة ، إن كان الطليعة ثة تنظيم ، سوف تمنع ، هي بدورها ايضاً ، كل محاولة نحو إحلال العلاقات الموضوعية ، وإنشاء المؤسسات الحزبية ، بعيداً عن الروح الفردية ، ومقاييس التنافس التطهري التي تسود عادة فترة مراهقة الطليعة . حتى لقد أصبح الحزب

هــذا التجمع يملك داخله صراعاً ، أشبه بتجمع سياسي ، منه بمنظمة متجانسة . تيارات متناقضة بالفكر والنظرة الى العمل السياسي ، ويستوعب شللاً وشراذم مغلقـة ، تتوج على رؤوسها زعامات شخصية ، لا تختلف اطلاقاً عن الزعامات المعهودة في المجتمع العربي القديم ، إلا بقناع من الايدلوجيات الزائفة ، ترفعه هذه الشراذم فوق وجوهها .

إن حزباً ، عاش أكثر من عشرين عاما ، ولم يستطع ان يضع لنفسه (نظاماً داخلياً) يحدد بناء القواعد ، وعلاقاتها بقمم القيادات ، وشكل الانتخابات ، وتأليف المكاتب واللجان... وإن حزباً لم يعقد مؤتمراً واحداً قطرياً او اقليمياً ، إلا ليعصف ببعض قياداته ، ويطرد ويفصل ، ثم ليخرج وقد تضاعفت مشكلاته الداخلية ، بدلاً من التخفيف من كمها ونوعها .. وإن حزباً كف عن التفكير والدرس والتحليل ، وحرم على أعضائه التفكير ، وناهض مثقفيه ، وتوقف عقله كله عند حدود الشعارات العامة ، واعتبر مجرد تسجيل اسم العضو لديه ، كافياً لانه يجعله ثورياً وعقائدياً وطليعياً بالنسبة للأمة كلها ..

إن مثل هذا الحزب الذي لم يستطع مرة ان يحقق نظام الفرق والخلايا والمكاتب ، ولم يثبت على شكل معين لنظام القيادات ، داخل القطر ، وبين الأقطار ..

وإن حزباً انقسم شر انقسام الى قياده عفلقية تطهرية تتقنع بالأخلاق ، وتمارس عبقرية الدس والخديعة (المثالية) ، والى قيادة حورانية تؤمن بالانتهاز في السياسة ، وبالتبعية في التنظيم ، وبالغوغائية في النضال... إن هذا الحزب هو نفسه الذي قبلت مع ذلك ، الطلائع المثقفة ان تنضوي تحت لوائه قبل الوحدة ، من أجل ان تمارس فعاليتها في التحولات الاجتماعية المتسارعة من حولها ، داخل القطر السوري .

لقد رضيت به حزباً ، لأنه كان يعبر عن شعارات التغيير وسط عواصف من مؤامرات الاستعمار الجديد ، للقضاء على حيوية الشعب العربي في سوريا ، وتجميده .

وقبلت ان تنضم الى تجمعاته وأن تمارس في الوقت ذاته حق النقد والتجريح حتى بالنسبة لقياداته ، لأنه لم تكن ثمة حركة اخرى تلعب الدور التقدمي آنذاك ..

ولأن الحزب كان بقواعده اولاً ، وكانت هذه القواعد تؤجل معركتها مـع

قياداتها، ما دام الحزب منشغلاً بصراعاته مع أحزاب اليمين والسفارات الأجنبية .

وكان هنالك حد أدنى لمشروعية وجود هؤلاء القادة ، ما داموا يعملون صفاً واحداً مع أهداف قواعد الحزب والشعب ، وإن تباينت أهدافهم الشخصية ، وأساليب عملهم السياسي .

وبالرغم من ان اعتراضاً ايدلوجياً كبيراً يقوم ضد إعلان حل الحزب في سوريا، قبيل الوحدة ، فان مختلف المقدمات الموضوعية التي كانت ستؤدي حتماً الى مثل هذه النتيجة ، الحل بارادة الحزب او بفعل تناقضاته الذاتية ، كانت تشير الى انهاء دور الحزب في النضال ، او على الاقل ، انقضاء مرحلة كاملة من هـــذا النضال السلبي ، وضرورة التكيف والتلاؤم مع طبيعة المرحلة الإيجابية الجديدة ، التي يفترضها قيام دولة الوحدة .

لقد كان (عفلق) يحمل على (الحزب) لأنه انساق في تبعية شبه مطلقة لسياسة القيادة الحورانية ، وكان يعتقد ان أمراض الحزب ، لهذا السبب ، قد جعلت منه (ثوباً فضفاضاً يتسع لكل شيء) – والتعبير لعفلق نفسه – ولذلك فقد كان عفلق مؤمناً كل الايمان بضرورة حل الحزب و (تخليص) الأمة منه .

ومن العجيب ان الحوراني وعفلق التقيا لأول مرة حول هـذا الرأي ، الذي يقول بحل الحزب . وكان للحوراني تبرير آخر ، للتصدير الخارجي ، وهو ان وصول القادة الثوريين الى سدة الحكم ، يبطل عمل الحزب بين صفوف الجماهير !

وبديهي ان عفلق كان له تبريره الخاص ، من وراء التبرير الذي يقول بعدم صلاح الحزب الذي أصبح أداة طيعة بيـــد الحوراني ، ووسيلة لكل انتهازي طامع . إن عفلق كان يريد في الواقع إنهاء سيطرة الحوراني ، بانهاء الحزب نفسه . وكان يطمع بأن تسلمه القيـــادة الناصرية مهمة القيادة الروحية والفكرية لدولة الوحدة ، وحده طبعاً . وأما الحوراني فكان يريد خلاصاً من بعض قواعد الحزب ، التي كانت لا تكف عن مراقبة سلوكه ونقده وتجريحه . وفي الوقت ذاته ، كان يطمع ، من القيادة الناصرية ، ان تسلمه (حكم الاقليم الشمالي) من خلال دولة الوحدة ، وحده طبعاً !

إن الانفصام الرهيب هذا بين قيادة البعث وقواعده ، بين العقليات الشخصية التي تحكم هذه القيادة ومطامعها وخصوماتها (القيادية) فيما بينهـا ، وبين عفوية التنظيم واندفاع قواعده مع التيارات العامة للشعب وراء الزعامة الناصرية ، وما قد يظهر بينها أحياناً من زعامات فردية تقلد زعامات القيـادة وتستوحي منها أساليب تدليها ووسائلها ..

هذا الانفصام هو الذي أعطى للحزب طابـع التجمع أو الجبهة او الائتلاف ، بين كثرة من التيارات والزعامات والتبعيـات ، وألف نموذجاً خصباً لمختلف الامراض والانحرافات الفكرية والتنظيمية ، التي يمكن ان يعانيها حزب انفرط عقده ، وهو في أوج شبابه وانتصاراته الخارجية .

حزب بدون نظام داخلي ، بدون تشكيلات واضحة للفرق والقطاعات ، بدون مؤسسات للفكر والادارة والمال والتوجيه . حزب لم يعرف مرة من هو قائده الحقيقي ، وكيف يظهر القـادة ، وكيف يختفون . من يعينهم او من ينتخبهم . من يقيلهم او يفصلهم . لا رابطة بين القيادة في المركز ، وبين قيادات الفروع ، والأقطار . لا نشرة سياسية او ثقافية توزع بانتظام على قواعده ، لا ندوات ولا محاضرات ، لا نشرة خارجية ، إلا الصحيفة ذات الصدور المتقطع ، والتي تقع تحت سيطرة فئة معينة ، حسب صراعات المطامع والتيارات الداخلية .

حزب، كان نوابه متفرقي الآراء في مواقف حساسة. وكان وزراؤه يستوحون اجتهاداتهم الشخصية ، ولا سلطة للحزب عليهم . وكان كتابه ينشرون ايضاً آراءهم، من أقصى اليمين والرجعية الى أقصى اليسار والتقدمية ، على (مسؤوليتهم الشخصية) ايضاً .

حزب عاش بدون أي تنظيم إداري او مالي . لم تكن له مرة مالية واضحة . لم يستطع ان يضبط شهراً واحداً عدد الاعضاء الذين يسددون اشتراكاتهم ، أو الذين لا يسددون . حزب بدون سجل لأعضائه ، بدون تقاليد ومقاييس تضبط عملية الانتساب اليه . حزب لم يضع أية خطة لتربية أعضائه ما خلا فترة التبشير الأولى ، التي كان يتزعمها عفلق بأحاديثه الصوفية المعروفة .

حزب لم يكن يملك أي جهاز للمراقبة الداخلية ، للتفتيش الاداري والمالي . .

والخلاصة لقد كان الحزب (عشيرة) او (قبيلة كبيرة) ، بأفخاذ وفروع مختلفة متصارعة متباينة . وكان الحزب تجمعاً وجبهة ، ولم يكن مطلقاً مؤسسة بنظام وقيم ومستويات وعلاقات موضوعية داخلية .

ولقد كان كثير من الاعضاء يحسون هذه الامراض ويدعون إلى تفاديها . وكم من مرة اجتمع بعض القادة والاعضاء ووضعوا مسودات لنظام داخلي لم يطبق ، لتشكيلات لم تنفذ ، لمكاتب لم تعمل إلا لفترات ضئيلة ثم تذهب بدون أي أثر .

لم يكن ثمة أسلوب منظم من أجل محاسبة المسؤولين من القادة او الاعضاء على أفكارهم او تصرفاتهم ومواقفهم الخاصة والعامة . ولذلك فان سبيل التنفيس الوحيد ، هو التهديم الشخصي ، والدسائس ، وحبك المؤامرات بين الشراذم والكتل .

ان فقدان النقد والنقد الذاتي في جو عشائري تقليدي ، كان يبعث على انحرافات وعقد حزبية . وكان ذلك كله يجعل أصحاب السلطة فيه قادرين دائماً على فرض ديكتاتورية مقنعة بالاستاذية والأبوية وغيرها من سلطات مجتمع رجعي عشائري . هذه الديكتاتورية كانت تستأثر بكل شيء خارج الحزب وداخله ، وتقضي على بذور أية حياة حزبية واضحة المعالم . كان كل عضو عادي او قيادي يصل إلى منصب سياسي خارجي ، او مركز رئيسي داخل الحزب ، يعتبر نفسه انه قد تحلل من أية سلطة للحزب عليه . وبالتالي فانه يشرع لنفسه آراءه وسلوكه حسب اجتهاده الفكري ، او مصالحه الفردية .

وبالمقابل فان أي قائد ، كان أيضاً ، إذا فاز بسلطة نيابية او عسكرية او سياسية ، سرعان ما يجر وراءه شلته الخاصة ، ليسلمها المراكز إلى جواره . وتزول الشلة بزوال سلطة زعيمها وحاميها . او ربما استطاعت ان تتكيف ، مع الظروف المستجدة ، فانضمت إلى زعيم آخر ، جاء دوره بالنجاح والنفوذ .

* * *

ذلك هو حال الحزب بين عام (١٩٥٤ - ١٩٥٨) ، وتلك كانت لوحة أزماته الداخلية ، من خلال مظاهرها اليومية ، في حياة الحزب الداخلية .

ولكن المشكلات الثورية والتنظيمية التي كانت تختفي وراء هذه اللوحة وخطوطها العريضة ، تستحق الدراسة والتحليل ، لأنها تؤلف في الحقيقة ، عينات واضحة عن مختلف القضايا التي كانت تعترض جيلنا الثوري ، وهو ينتقل من مرحلة الطلائع التبشيرية ، إلى مرحلة تكون الاحزاب ، وخاصة حزب البعث ، بعد الحرب الثانية . ولعل هذه القضايا التي عرفها حزب البعث في سلسلة تناقضاته وأمراضها ، تصبح درساً فكرياً وسياسياً وتنظيمياً ، لكل مراحل تكون اليسار العربي الجديد . هذا اليسار الذي يحتاج الى وعي مخلص شامل ، لمشكلة الحياة الحزبية السابقة كلها .

ولذلك فسوف نعالج في هذا القسم مختلف القضايا الايدلوجية الناشئة عن تحول طلائع الثورية العربية ، إلى حزب ، هو البعث . وسوف نضع يدنا على معاني التناقضات التي عاناها التحول من الطليعة إلى حزب ، ومن حزب تبشيري ، إلى حزب سياسي فاعل ، كانت له مختلف التأثيرات على سياسة سوريا منذ عهود الديكتاتورية العسكرية ، إلى فترة قيام الوحدة ، ومن بعدها ، خلال مرحلتي الانفصال الرجعي ، ثم الانفصال العقائدي الذي قادته واجهة بعثية قديمة تخفي قوى عسكرية طائفية واستعمارية .

ولسوف نرى من خلال التحليل القادم ، كيف ابتدأت الانحرافات الداخلية تضرب وحدة الحزب ، وتفتت انسجام مواقفه ، وتفصل بين قياداته وقواعده .

وإذا كان حزب البعث ، قد مثل (الثورية العربية) في هذه المنطقة من العالم العربي ، خاصة ما قبل الوحدة ، فان تناقضاته وأمراضه وبذور انحرافاته ، يمكن ان تعتبر كذلك جزءاً حقيقياً من واقع هذه الثورية العربية ، في تلك الحقبة الحافلة المعقدة في تاريخ الكفاح العربي . خاصة وانه لم يكن ثمة حزب عربي تقدمي آخر ، ادعى حمل لواء هذه الثورية ، سوى البعث ، في المشرق العربي .

ولأنه لم يكن ثمة حزب آخر ، انخرط في مكافحة الاستعمار ومؤامراته ،

والرجعية البورجوازية، فإن أمراضه تصح ان تكون نموذج أمراض شاملة للجيل الثوري كله ، الذي لم يكن يرى ثمة حزباً آخر ، يعبر عن همومه القومية إلا هذا الحزب. بالرغم من ان كثيراً من قياداته الفكرية وقواعده، كانت كلما تقدمت بها تجربة العمل السياسي مع زعماء هذا الحزب ، كلما كشفت عن الأخطار التي تعصف ببنية الحزب الفكرية والتنظيمية . وتحاول هذه القيادات الفكرية الى جانب قواعد كثيرة ، أن تنبه الى الأخطار ، وان تعقد الاجتماعات والمؤتمرات غير الرسمية، من اجل الخلاص من الواقع المتمزق الذي حرمت الزعامات السياسية للحزب أي محاولة جديدة لتوضح عقده ، وشرح علله وتناقضاته ، ووضع الحلول الضرورية له .

وعندما تراكضت مختلف هذه القيادات وراء تحقيق هدف الوحدة مع القاهرة، كانت ترى اختتامـاً (مشرفاً) للحزب ، قبل ان يفضح امام الجماهير، ويسقط سقوطاً اخلاقياً وقومياً مروعاً .

ولكن لم يكن يخطر ببال احد من هؤلاء ، ان (بعثاً) آخر سوف يصيب الحزب المنحل فجأة ، بعد الثامن من آذار . وان هذا (البعث الجديد) سوف يتبنى دفعة واحدة مختلف وسائل وآراء وخيانات القوى الرجعية الأخرى ، التي كان الحزب القديم أكبر عدو لها . ولكن لكي نستطيع ان نفهم هذا الانحراف الرهيب ، نحو كل ما يعاكس تاريخ الحزب ومواقفه السابقة على الوحدة ، ولكي نستطيع ان ندرك السبب الحقيقي لهذا التحول من قيادة الثورة الأصلية للأمة ، الى قيادة الثورة المضادة، من أكبر قوة لمحاربة الانفصال والاستعمار والبورجوازية، الى أخطر أداة في يد كل هذه القوى مجتمعة ضد الوحدة والثورية العربية ، علينا ان نرجع الى هذا المبدأ التالي :

إن مجموعة الامراض الفكرية التي وقفت بعقل الحزب عند حدود التبشير والصوفية المتعالية الذاتية ، وإن مجموعة الامراض التنظيمية التي فككت هيكل الحزب ، وسمحت بتسرب جميع أرومات الامراض الخارجية من المجتمع العربي المتخلف ، قد أفادت في تحقيق هذه المهمات الآتية التي احتاجها انفصاليو الثامن

من آذار :

١ – حذف الحزب نهائياً كفكر وتنظيم .

٢ – إبعاد مختلف قواعده الجماهيرية السابقة .

٣ – إهمال قياداته الفكرية النزيهة التي استطاعت ان تحمي نفسها من التلوث في حمأة التناقضات السياسية التي غرقت فيها الزعامات التقليدية للحزب .

٤ – استثمار سمة الحزب التقدمية لخداع الجماهير .

٥ – تنشيط جميع تلك الأمراض التكوينية للحزب ، والاستفادة منها في تثبيت واجهة عقائدية مزيفة .

* * *

ولذلك فإننا سنلجأ في الفقرات الآتية ، الى تحليـــل مستفيض لأرومات الانحرافات ، نشأتها ونموها داخل بنية الحزب ، والتي هي في الوقت نفسه مقدمة رئيسية ، لكل هذا الانحراف الرهيب الذي سار عليه البعث العسكري الجديد وراء واجهات تقليدية، والتي هي أيضاً صورة نموذجية عن مشاكل الإعداد الثوري والعلاقات الموضوعية ، والصراعات القيادية والقاعدية ، التي تصح مختبراً واقعياً لحركة اليسار العربي ، في أخطر مرحلة من مراحل تكونه وتطوره .

الفصل الأول

مشكلة التكوين الحزبي

إن المرحلة الثانية من ظهور الطليعة العربية تتصف بسعيها نحو التكوين الحزبي على مستوى الجماهير من أجل توعيتها بالثورة المستمرة ، لا بالثورة الظرفية العابرة . ولا شك في أن هذه المرحلة الثانية يمكن تحديدها تاريخياً اعتباراً من أواخر الحرب العالمية الثانية .

لقد انطلقت الطليعة العربية ، من شعور أصيل باللحظة الحضارية التي تعانيها الأمة ، دون أن تفصح عن امكانيات هذه اللحظة إلا ببعض مظاهر التنبه ، التي اتضحت عند المثقفين المبعثرين في بعض المدن الرئيسية من الوطن العربي . لقد تحددت هذه اللحظة التاريخية بالنسبة للطليعة العربية ببعض خطوط عريضة ، منها أن العالم العربي يمر في مرحلة انبعاث شامل،وان هذا الانبعاث يصطدم بتناقضات كثيرة، بعضها مادي مباشر يتمثل في قوى الاستعمار والاحتلال، وبعضها معنوي غير مباشر يتمثل في رواسب التخلف المنبثة في خلايا المجتمع العربي . وأنه لا بد أولاً من تنظيم سياسي على مستوى الأمة عبر الحدود المصطنعة بين الاقاليم . وسيكون لهذا التنظيم السياسي هدف واضح أساسي ، هو طرد المستعمر وتوحيد الأقطار العربية ، والعمل على دفع الجماهير إلى خطوات الحضارة . ولقد تحولت هذه

الخطوط العريضة بسرعة الى شعارات سياسية طرحت على المثقفين أولاً، وانطلقت من بعض عواصم الشرق العربي وخاصة دمشق ثم بغداد وبيروت، الى ان انتشرت في جميع الاوساط المثقفة في الاقطار العربية. وما لبثت الطليعة التي نادت بهذه الشعارات حتى انقلبت الى حزب سياسي منظم، على مستوى الأمة ككل متجاوز الحدود والطبقات والفئات العنصرية، والطوائف الدينية. وأصبح خاصة بعد نكبة فلسطين الحركة الشعبية الأولى في العالم العربي، التي حولت التمرد ضد الاستعمار والفئات الحاكمة المتعاونة الى ثورة واعية، ذات مخططات تستند تارة الى العلم، وتارة الى الايدلوجيات الثورية المعروفة في الغرب، وتارة أخرى الى تاريخي قومي، والى نظرات متفرقة في السياسة والاجتماع. ولقد خاضت الطليعة بواسطة حزبها السياسي المنظم معارك سياسية فاصلة في أكثر الأقطار العربية كسوريا والعراق والاردن ولبنان، وغيرها من الأقطار الأخرى. فلقد دخلت معارك الصراع السياسي من بابها العريض بقليل من التخطيط الذهني، وبكثير من القوى العفوية الثائرة، والجرأة النادرة، والتضحية المثالية من قبل الآلاف المؤلفة من شباب الجيل الجديد. غير أن المعركة ما لبثت حتى طرحت مستويات أكثر تعقيداً وتشابكاً وغموضاً، بقدر ما ازداد المد الثوري لدى الجماهير، وطرحت مشكلات ايدلوجية ذهنية وعملية، لم تكن لتطرح من قبل في بداية المعركة. كما ان تغييرات كبيرة قد تعرضت لها خارطة العالم العربي خلال الخمسة عشر عاماً المنصرمة سواء في السياسة أو في المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وتكاد تكون الأمة العربية خلال هذه الحقبة الصغيرة من الزمن قد عانت حركية جذرية هزت جميع أسس الأنظمة السياسية والاجتماعية القائمة عليها. ومن هنا تكون هذه الطليعة الثورية، بصلتها مع التغييرات المختلفة التي حدثت في العالم العربي، قد عاشت تاريخاً حافلاً، يحتاج الى إعادة النظر في سبيل تحليل وقائعه، واستخلاص معاني تلك التجارب الخصبة التي أتيحت للجيل الطليعي في هذا العصر، دون ان تتاح مثلها لأي جيل سابق. وليس من شك في أن القطاع الحركي الذي يمكن ان يقدم لنا نموذجاً عن هذه التجربة الكبرى، يمكن ان يتحدد من خلال

المشكلات التي عانتها الطليعة داخلياً وخارجياً ، ولذلك فسوف نحاول فيما يلي ان نستخلص بعض معاني تلك التجارب ، لنستطيع ان نحدد مدى الانتصار ومدى الحقيقة ، مدى الفشل ومدى الزيف الذي تضمنته أكبر جماعية ثورية في مرحلتنا التاريخية الراهنة .

الحزب كأداة للتحقق الثوري :

ان من أولى المشكلات التي تعرض لها وعي الطليعة العربية هي التي تبدو له من خلال مسألة تحول الطليعة الى حزب سياسي . ولا شك في أن هذه المشكلة ليست من مستوى ذهني مجرد. بل قد يترتب عليها كثير من النتائج بالنسبة للعمل الثوري . فاذا كنا ننظر الى مرحلة الانبعاث ، من وجهة حضارية ، فاننا لن نتصور انبثاق سوى طليعة واحدة تعاني هذا الانبعاث وتدركه وتفجر امكانياته، وتعمل على تحويله الى اسس جوهرية لنظام الحياة الجديد . وأما مفهوم الحزب فانه يوحي بوجود كثرة في التنظيمات السياسية، التي يمكن ان تنطلق من شعارات وأهداف متقاربة او متباعدة . ومن جهة ثانية فان الطليعة ، تهدف في الواقع الى تغيير شامل لمنابع القيم والافعال والمظاهر الحياتية للمجتمع الجديد الذي تتصوره. انها تتحدث باسم التاريخ وتكاد تتصل بالمعاني الجذرية للانسان ، وهي لا تبحث عن عقيدة موقتة ، وإنما تريد أن تقدم الجذر الاصيل لكل اعتقاد مستجد في وجدان الأمة ، وكذلك ، فهي بقدر ما تتصور المثل الأعلى الذي ستوجه اليه فعالية الامة ، تطرح على الانسانية جمعاء جدارة هذا المثل من حيث انه حقيقة في ذاته ، وحقيقة مطلقة ضمن الجدلية الحضارية الشاملة . والطليعة كذلك ، تتطلب نوعية نادرة من الرجال الذين تصلح امكانياتهم لأن تكون في مستوى الامكانيات الرائدة القائدة في المجال الأساسي للمجتمع ، وهو مجال بناء النواة الروحية له . ان الطليعة تتطلع إلى استلهام وجهة نظر شاملة في الوجود وإلى إعطاء هذه النظرة كامل ما تمتلك من وعي واندفاع حيوي ، تكونها وتحولها باستمرار الى معين لا ينضب من القيم اليومية التي ستغير حياة الناس فعلاً من أعماقها .

أمام كل هذه التطلعات الشاملة يظهر الحزب بالنسبة للطليعة وكأنه ابتسار وجودي لا يمكنه ان يتوازى معها ، لا من حيث الشمول ولا من حيث الهدف التكويني الذي تسعى اليه . ومع ذلك فانه لا مفر للطليعة من أن تمهد بظهور الحزب السياسي المنظم المحدد بخطة واضحة وغايات اجتماعية مباشرة . فالطليعة لكي تتجسد كواقع ، لا بد لها من المؤسسة الحزبية التي تبرزهـا على مستوى العلاقات . ومن جهة ثانية فان الطليعة ذاتها تظل أشبه شيء بالمطلق بالنسبة للمؤسسة الحزبية . وقد يكون هـذا المطلق ، لشدة شموله ، قابلاً لمختلف وجهات النظر والمحتويات الايدلوجية التي سوف تجعل العمل عسيراً . اذ ان كل عمل انما هو تحديد وتوجيه معلوم . فالطليعة تحتاج الى الحزب كما تحتاج الروح الى الجسد إن صح التعبير ، كما يحتاج المبدأ الى التنفيذ ، وكما يحتاج المثل الأعلى الى التحقيق اليومي . غير ان الفقر النسبي الذي ستصاب بـه الأيدلوجية عندما تتحول الى جملة أهداف يومية يعتورها التغير من حين الى آخر حسب تطور الجماعيـة الثورية ، تعوّضه حيوية هذه الأهداف وفعاليتها التي سوف تبث حركة التعارض والتجاوز في بنيات الواقع كما هي .

فالطليعة تمتلك بذرة الايدلوجية . ولكنها لن تحيط سلفاً بمواقفها الواقعية . وكذلك فالطليعة تمتلك نية الثورة، ولكنها لا تستطيع ان تتنبأ بالثورة كوقائع وأحداث ، وما ينشأ عنها من تفاعلات جديدة . وقد تتضمن الطليعة نية التغيير ، ولكنها لن تقدر على تحديد خطة التغيير وتنفيذه . وعلى ذلك فان الطليعة هي عبارة عن امكان محض يحتاج الى التجسيد والتشخيص . وليس لها سوى الحزب الثوري وسيلة لأن تصبح على مستوى الفعل التاريخي .

ولكن الحزب كأداة للتحقق الثوري هو الذي عليه ان يقدم البراهين المتوالية الواقعية على اصالة انتمائه للطليعة . فهو عندما ينشغل بالثوريات اليومية ، لا بد له ان يؤكد صلته الرحمانية بالطليعة . بل إن عليه ان يكوّن هذه الطليعة ، مهما تحدد نظام الثورة ومهما عجزت الطليعة عن اختصار ذاتها في حركة وحيدة هي الحزب . وعلى ذلك فإن أول مستوى للتناقضات داخل الجماعيـة الثورية يتبدى

في أزمة المثالية التي سوف يحس بها أفراد طليعيون داخل الحزب أكثر منهم حزبيين خارج الطليعة . فالطليعة تقول بالتغيير ، وخطة الحزب تقول بطريق وحيد للتغيير . ليس هذا فحسب ، بل انها تتصور ملامح هذا التغيير ، ولذلك فان نية الثورة في وجدان الطليعة يتحول الى عبء المسؤولية في وجدان الحزبي . ان الحزب الثوري هو الاختيار ، هو الذي يشق الطريق ويعبده ويبني غايته ، هو الذي يقدم الغذاء اليومي للايدلوجية بواسطة سلسلة الافعال الثورية التي يطبعها على مادة الواقع ويصنع منها بالتدريج الواقع المتغير المطلوب . فالطليعيون داخل الحزب الذين يعجزون عن تحويل مثاليتهم إلى منجزات محددة ، قد يعيقون الحزب عن تحمل مسؤولياته الجزئية في مخطط الثورة السياسية . ومن جهة ثانية فان الحزبيين الذين قطعوا كل صلة لهم بالوجدان الطليعي ، سوف يعجزون عن التخلص من جزئيات الصراع اليومي ، ليرتفعوا بنظرة تحولية تحدد قيمة العمل ككل ، مدى نجاحاته وانتصاراته . أي انهم سوف يعجزون أيضاً عن المقايسة الحقيقية، لأن مقايستهم سوف تظل حبيسة أضيق نسبية. انهم يقيّمون الجزئية من العمل بالجزئية . وبذلك تستغرقهم هذه الجزئيات وتمتص وعيهم وتتكشف الجدلية، فاقدة عنصر الوعي منها ، مستسلمة لحركة الظروف العمياء . ومثلما تعزل المثالية الطليعيين داخل الحزب عن المساهمة اليومية، عن القدرة على اتخاذ المواقف المحدودة والمسؤولة ، كذلك فان الحزبيين المنقطعين عن استلهام الفكر الطليعي ، ينعزلون بالتدريج عن الحركة الاصلية للتاريخ ، ليضيعوا في التناقضات الجزئية التي قد لا تؤدي إلى أي نمو حضاري . إنهم مهمومون بالانتصارات الحزبية بالمعنى الضيق . وانهم منشغلون بردود الفعل ، على مواقف أعدائهم . ولذلك قلما ينتبهون إلى ان المبادهة هي التي ينبغي ان تكون لموقفهم ، وان يكون ردُّ الفعل لموقف أعدائهم.

ان هاتين العزلتين لفئتين من العاملين في الثورة هما التناقض الأساسي الذي تعانيه جدلية التحقق الثوري بين الطليعة والحزب. ولسوف ينعكس هذا التناقض على جميع مظاهر العمل الثوري ، ولسوف يبني بالتدريج قطبين متناقضين لا سبيل للقاء بينهما في تجاوز أعلى وأغنى، إنه قطب المثاليين من جهة وقطب الانتهازيين

من جهة أخرى . وبينهما يتعثر العمل الثوري لدى فئات متأرجحة بين القطبين ، أو انها قد تسعى الى تجاوز القطبين في محاولات متفاوتة الدرجة من النجاح والفشل ، ولكن التأثير الحقيقي مع ذلك في الجماعية الثورية سيكون من شأن هذا التركيب المتجاوز لكلا القطبين .

التكوين الداخلي للحزب :

لا شك ان الاسبقية في التكوين الداخلي للحزب من الناحية الزمانية على الأقل هي للأفراد الطليعيين ، الذين حاولوا ان يجسدوا ، ولو بصورة عامة ، نية الثورة الكامنة في وجدان الطليعة . وعلى ذلك فإن هؤلاء الطليعيين ، الذين استطاعوا ان ينتقلوا من مرحلة التصور الى مرحلة الدعوة والتخطيط هم الذين ستكون لهم القيادة بحكم أسبقيتهم للمبادرة ، وصلتهم باللحظة الحضارية أكثر من غيرهم. ان الدعوة التي يقوم بها هؤلاء الطليعيون ، سوف تتوجه بالدرجة الأولى الى دوائر من الأفراد الأكثر وعياً في مجتمع المدينة ، والأقرب الى حيوية الجيل ، والأكثر بعداً عن التجمد في قوالب الواقع الفاسد . ولذلك فان الجيل الاول في الحزب سيكون من الشباب الجدد ومن فئة المثقفين أو من هم على درب الثقافة ، أي من عنصر الطلبة الثانويين والجامعيين بالدرجة الاولى . ولا شك في أن الجيل الأول سوف يكون أقرب الى النموذج الطليعي ، لأنه هو نفسه يعتبر الصف الأول بعد صف القادة الطليعيين المؤسسين . وان على هذا الجيل تقع عقبات ضخمة . لأنه من جهة ينشد المثل الأعلى الذي يطرحه القادة الطليعيون ، باعتباره جوهر الدعوة التي يستجيب لها تكوين الشاب النفسي . ولأن عليه من جهة ثانية ان يمارس بدايات التحريض الثوري بين كتل الجماهير التي ما تزال الى حد بعيد دون مستوى هذا التطلع المثالي ، الذي يهدف اليه الجيل الطليعي الاول .

إن بين صف القادة الطليعيين وبين صف الجيل الاول المتحزب، صلات روحية عميقة ، تكاد تكون أشبه بصلة الابن بأبيه ، والتلميذ بأستاذه ، والمؤمن بقائده الروحي وإمامه . ومن هذا التداخل الشعوري الملتهب سوف تتكون صوفية

العمل الثوري الأول ، تلك التي ما زالت تعنى أولاً ، بالتكوين الفردي ، للعضو الحزبي . أي أنها تتوجه إلى أخلاقه الذاتية لترفعها الى مستوى الانسان العقيدي المؤمن بالتضحية الكبرى أولاً ، والذي قد يتصور جسامة العقبات التي تقوم في وجهه ، ولكنه يتجاوزها بحرارة الوثبة الإيمانية . وبالطبع ، فإن الدفق الايماني، بقدر ما يؤسس نفسية النضال لدى ذلك الجيل الأول ، ويحميها من الانتكاس واليأس ، يجعل طريقها الى العمل مغمضاً ملتبساً . ولقد يمكن ان يندفع أفراد هذا الجيل في شطحاتهم الصوفية لدرجة الانعزال عن الجماهير ، التي عليهم ان يحركوها ، وأن يبثوا فيها واقعية الثورة . فقد يكتفي بعضهم بتصور الانتصار والتمتع به في مستوى خيالي ، دون أن تكون لهم القدرة على تحقيقه عملياً . بل إنهم عندما يضطرون الى اتخاذ مواقف محددة تجاه بعض التحديات من الواقع الفاسد ، فانهم لن يستطيعوا اختيار الموقف الملائم للنزعة الصوفية المطلقة التي تغمر نفوسهم . ولقد تتعثر هذه المواقف بالخيبات الجزئية . بيد ان الوجدان الصوفي لدى هذا الجيل قد يرفض الاعتراف بهذه الخيبات ، ويتجاوزها بصور عاطفية كيما يتحاشى الاعتراف بخطأ تصوره للموقف وفساد أو ضعف أو ارتباك الوسيلة المتبعة لتحقيقه . أو ان هذا الطليعي المتصوف ، تلميذ القائد الطليعي الأول ، قد يصاب بتضخيم نتائج الخيبة فتزداد عزلته ، ويرتد الى سلوك تشاؤمي، أو سوداوية لا تخلو من بعض مظاهر التلذذ بالألم والفشل . وفي هذه المرحلة التي ما زال الصف الأول فيها يحس بتبعيته الروحية لقادته الطليعيين ، ويعنى باعداد فرديته مثالياً وأخلاقياً ، قد تجد بعض الاتجاهات الرومانسية طريقها الى عقيدة هذا الجيل ونفسيته المبهمة ، الضبابية ، في الوقت الذي تحتاج فيه الايدلوجية الانبعاثية الى مجهودات فكرية كبرى لاغنائها بالمضامين الثقافية والتجربة العملية ، وفي الوقت الذي تحتاج فيه عتبة النضال الى شق طريقها الى صميم الحياة .

وبذلك قد يكتفي التحريض الثوري، في مرحلة تأسيس الحزب ، او بالاحرى في مرحلة الانتقال بين الطليعة والحزب ، بهذا الاعداد الاخلاقي الشخصي لأفراد الجيل الأول ، الذي قد يتميز أحياناً بالجموح الصوفي ، وأحياناً أخرى بالتعلق

الرومانسي . وإذ يتمتع هذا الجيل بظمأ ثقافي ، يريد ان يستعين به من أجـل تغذية ثوريته الحالمة ، فانه سوف يبحث عن بعض المصادر الأدبية والفكرية ، التي قد يجدها فيا يشبه تجربته خاصة في حضارة الغرب . ولذلـك فسوف تتسرب بعض المضامين من الثقافات ذات الطابع العاطفي أو التجريدي أو الذهني إلى الخلايا الأولى من الأيدلوجية المنشودة ، والتي لم تزل في دور التلمس والبحث عن ذاتيتها .

وإذا بحثنا عن نوعية التركيب الاجتماعي لأفراد الجيل الأول،رأينا انها ترجع غالباً إلى ارومات أقل تماسكاً وشدة من غيرها من أرومات الواقع الاجتماعي ، الذي عاصر انضواء هذا الجيل . فلقد كان أكثرهم من أبناء الأرياف الوافدين على المدينة بقصد التعلم والدراسة ؛ فيجد هؤلاء الأفراد أنفسهم لا يستطيعون ان يقارنوا بين بنيتهم الريفية ، وبنية المدينـة ، ويجدون انهم مضطرون إلى تجاوز هاتين البنيتين معاً بما يمكن ان يؤسس لهم شخصية متميزة متفوقة. ولا شك في أن جاذبية الانضواء في صف العمل الثوري ، سوف تلعب دوراً أساسياً لدى الكثير من أبناء المجتمع الريفي ، الذين مستهم الثقافة إلى حد ما ، وبالنسبة أيضاً لأفراد الطبقة الشعبية في المدن الذين أتاحت لهم ظروف نادرة ان يدخلوا المدارس وان ينضووا بالتدريج في عداد المثقفين الثائرين ، هذه الطبقة الجديدة التي تطرح نفسها متميزة فوق جميع مقاييس الواقع الفاسد بمؤسساته الاجتماعية المتخلفة .

دوافع التحزب وجدلية الانتماء :

إن المجتمع العربي الذي تسلمته الطليعة الثورية من عصور الاستعمار ، بمرحلتيه التركية والغربية ، كان مجمداً ضمن مؤسسات عصبية تخلق دوائر مغلقة متنازعة ضمن دائرة القطر . ولكن التحريض الحضاري الذي عانته هـذه المؤسسات ، باحتكاكها مع الغرب ، عرّض الكثير من هذه القوالب للتخلع والاهتزاز من جذوره الوثوقية . فلقد طرحت الثقافة الوافدة إلينا من الغرب ، قيماً جديدة ، زلزلت تلك القيم الثبوتية العتيقة ، التي بررت التخلف والجمود عصوراً طويلة ، حتى

أصبحت أشبه بقيم دينية او سحرية لا ينالها الشك أو الاعتراض . وهكذا فان الطليعة التي أخذت تطرح ثوريتها ، محاطة بهالة من التوعية الفكرية ، راحت كذلك تطرح من خلالها قيما جديدة ، لها جاذبيتها بالنسبة للأفراد الذين تخلعوا عن قوالبهم السابقة ، وبحثوا عن معادل قيمي جديد من أجل التكوين الحضاري الذي سعوا إليه . وهكذا فقد تبلرت حول الطليعة الحزبية الأولى دوائر راحت تتسع بالتدريج بين الافراد الذين تخلوا عن جذورهم العصبية ، من عنصرية او او طائفية او طبقية ، ليبرزوا في حلة الانسان المتقدم المتطور . ومن هنا كانت هذه الطليعة تحقق رسالتها التاريخية عندما تمنح الافراد وجوداً ثورياً يعادله وجود حضاري تقدمي وبذلك تحول الاعداد الداخلي للحزب إلى نوع من اعادة النظر في التكوين الانساني للفرد ، من أجل ادخاله في علاقة ثورية ضد رواسب مفاهيمه وسلوكه وقيمه السابقة على انتمائه للجيل الثائر . ولكن هذه الثورية الذاتية ، قد نشأ منها تنازع وصراع ، أخذ مستويات ومظاهر مختلفة ، أما في نطاق معاناة الفرد ، او معاناة الجيل والحزب ، فلم يكن من السهل إذن ان ينتمي الشاب للطليعة بمجرد انتماء سطحي يكتفي بالتصنيف الخارجي ، بل كان على هذا الفرد أن يعاني مختلف المحرضات الثقافية والروحية التي تنشأ عن هذا الانتماء للجيل الطليعي.

وليس من شك في أن هذا الانتماء كان يطرح مسألة الخلق الوجودي . وعندما لم يكن لدى الجيل الاول أية منفعة او مصلحة يقدمها لافراده ، فلقد كان المثل الأعلى الأوحد للفرد المنتمي ، هو ان يختار النموذج الثوري ، لا بالمعنى السياسي فحسب ، ولكن من حيث بنية التكوين ذاتها . فلقد كان التحريض الداخلي ، يأتي من قيم تتربع ذروة العقيدة ويستلهمها الفرد كفكرة واحدة تتمثل في الحرية. فالانضواء تحت راية الجيل الثائر كان يدفع إلى معاناة الحرية قبل كل شيء . وهكذا لم يشعر قط أفراد الجيل الاول بأن انضواءهم للثورة يعني التزامهم للقيود . بل كانوا ما زالوا مشغولين بتحطيم قيودهم السابقة . وكان الالتزام الوحيد بالنسبة لهم ، يتمثل بمقدار ما يلتزمون تحطيم القوالب والدوائر المغلقة ، التي وجدوا أنفسهم أسرى لها في الواقع الفاسد . ومن هنا امتلأت الايدلوجية

الثورية بفيض أول من صوفية شاعرية ، لا تجد ذاتها إلا بقدر ما تمارس فعاليـة الانتزاع والتحرر من الأطر السابقة ؛ فظهر الفرد الطليعي ، وكأنـه أولاً فرد متمرد على المعطيات الطبيعية للقيم المتعارف عليها لدى الجماعة . لقد كان رفضه لأشكال الحكم التجزيئي التبعي ، صورة ضخمة رمزية عن رفضه لمستويات الحياة العامة في بلاده . وبذلك ، وجد الجيل الثاني نفسه على طريق الرفض الكامل لجميع البنى الأساسية للواقع الاجتماعي ، بل أكثر من ذلك ، فلقد توصل رفضه ذاك الى التخلي عن القيم الثبوتية التي حمت مجرد الوجود الخام للأمة خلال عصور الانحطاط والشعوبية . إن الفرد الثائر من الجيل الثاني ومن الجيل الثالث أيضاً ، كان يتصور معركته السياسية ضد الحكم في أقطاره ، توازي معركته ضد قزمية الواقع الاجتماعي حوله . وهكذا فقد كانت المعارك السياسية الأولى ، التي خاضها الجيل الاول والثاني ترمز الى أفراد هذين الجيلين ، الى معاناة المعركة التكوينية التي يخوضونها ضد الوجود المتخلف والمنحط بالنسبة لما يتصورونه عن مفهوم الانسان والعربي الانسان .

إن الاهداف السياسية في الوحدة والتحرر والعدالة الاجتماعية ، كانت بالنسبة لأفراد هذين الجيلين عبارة عن نقاط مضيئة في عالم مظلم . انها تمثل مستقبل الحرية بالنسبة لواقع العبودية ، وأنها النموذج المصغر عن عالم الكرامة الانسانية . انها عهد البراءة الاولى ، مقذوفاً به الى أفق بعيد في المستقبل .

ولا ريب في أن هذا التضمين النفسي والتعويضي الى حد بعيد لقوالب الشعارات السياسية ، لم يكن يخلو من تجاوز وهمي لعقبات الواقع . ولكن المعارك الاولى التي انجرّ إليها هذا الجيل ، كانت تقربه تدريجياً من واقعية المشكلة التي عليه ان يواجهها مهما ابتعد عنها في تصوراته الذاتية .

لقد كانت كلمات القادة الأوائل عبارة عن اشارة منيرة يرمون بها الى الأفق المظلم . وكانت هذه الاشارات تكفي لمد الشاب الطليعي بروحية خصبة من اجل العمل الثوري . وكانت هذه الكلمات ايضاً محرضات باطنيـة تجعل الجيل يشعر بخصبه بالامكانيات دون ان يقدر مباشرة على تحقيقها . ولقد كان من أثر ذلك ان

انصب اهتمام الجيل على تفجير هذه الامكانيات ، اكثر مما انصب على تخطيط القوالب التي ستشخص هذه الامكانيات ، او على العقبات الكأداء التي تمنع ، ليس تحقيق هذه الامكانيات فحسب ، بل مجرد تفجيرها ، او حتى الشعور بها .

وبينما كان صراع القوى السلبية المعاكسة لحركة الانبعاث ، يتابع طريقه بمعزل عن الاصطدام بوعي هذا الجيل او ردود افعاله ضده ، وبينما كان التاريخ يتحرك بإرادة الاغراب والمتعاونين على تنفيذ ارادة الاغراب ، وبينما كان يبدو سطح العالم العربي أشبه شيء بصحراء ميتة مجدبة ، كان التحريض الثوري يفعل فعله الكبير في أعماق الطليعة وينبث حولها ، بين أوساط المثقفين ، ويأخذ بالتدريج في إثارة الطريق أمام الجماهير ، التي لم تكن بعد قد جاوزت مرحلة الثورة الغريزية إلى مرحلة الثورة الواعية . وبقدر ما كانت هذه الطليعة تعمل على خلق الاضطراب في هذا السطح الهادىء ظاهرياً ، كان الواقع يتكشف عن موانع أصعب وأعقد وأعمق جذوراً مما تصورته هذه الطليعة في البداية . والواقع أن دوافع التحزب أخذت تتعدد بالتدريج ، بحسب القطاعات المغلقة التي أخذ ينفلت منها بعض الافراد لينضموا إلى القافلة الثائرة المتحررة . وما ان برزت حركة هذه الطليعة في أفق المجتمع السادر الراكد ، حتى اندفعت حولها نوعيات مختلفة من الافراد . وبينما كانت مثالية الفكرة في البداية تـُعدّ الفرد إعداداً ذاتياً بعدى ما تثير فيه من دوافع قيمية سامية ، فان المعارك السياسية التي خاضتها هذه الطليعة قد عوقتها إلى حد بعيد عن تفجير بذور ايدلوجيتها وعن متابعة اشادة مدرستها الثورية داخل الحزب وهكذا فقد انضوى تحت لوائها العدد الكبير من الافراد ، الذين جاؤوا إليها مندفعين بجاذبية الثورة والمثل الأعلى الحضاري ، إلى جانب رسوبات كثيرة عميقة ، أتوا بها من أرومانهم الاجتماعية في الواقع الفاسد . وهكذا حلّ مكان الاعداد الفردي داخل الطليعة هذا التضخّم الكتلي حولها . ولم يعد ثمة ما يسمح بخلق الفرد الثائر ، في حين كان خلق الكتلة الثائرة هو الغاية المباشرة التي يدفع إليها الصراع السياسي اليومي . وبذلك فقد طرحت مشكلة الكمية نفسها على الحركة الثورية . وأصبح لزاماً عليها أمام الاخطار

الكثيرة ، التي كونتها حولها ، ان تجد العون لا في العقيدة الثائرة وحدها، ولكن في الكتلة الثائرة ، في الجماهير الكبيرة التي عليها ان تربطها بمصيرها وان تلحقها بصفها ، وان تنشىء منها جيشاً كبيراً يردد شعاراتها ويندفع إلى اعدائها . ويفرض تغييرات سريعة حاسمة في شكل الحكم ، دون مضمون التكوين الحضاري ، هذا التكوين الذي يحتاج إلى تخمر وتوعية وتعميق متواصل للأسس الدائمة لجدلية النمو والتجاوز الحضاري .

وعند ذلك وجدت الطليعة نفسها أيضاً أمام مشكلة القدرة على اتخاذ المواقف المباشرة إزاء الاخطار الكبيرة المحيطة بها . فهي منذ ان أعلنت شخصيتها، حوّلت الشخصية التقليدية في المجتمع من حولها إلى متراس عملاق كثيف ، يمنع حركتها او يقف لها بالمرصاد ليفنيها قبل ان تفنيه . وبينما كانت الشخصية التقليدية تمتلك الكثير من وسائل الدفاع ، وأهمها انها شخصية موجودة فعلاً وانها تتمتع باستقرار المستنقع ذاته ، وانها تربض بقوة التاريخ ، وتجثم فوق امكانيات الثورة بجميع قوى الوثوقيات والعقائد العتيقة ، وتراث الخوف ، ونموذج العصبيات المختلفة ، كانت شخصية الطليعة هي في دور التكون والتلمس . ولم تكن قواها إلا في دور الامكانيات فحسب ، وكذلك لم تكن قدرتها على بث تقاليد الثورة ، بنفس قدرة الشخصية التقليدية في دعم هيبتها ومحرماتها ، زواجرها ونواهيها . ولكن مع ذلك فقد تحرك هذا السطح الخامد ، وظهرت حركة تيار جديد في المستنقع ، وأخذ العملاق يهتز من جذوره . ويبدو انه ليس سوى عملاق من غبار فانٍ عتيق . وبمعنى آخر فلقد دبت الجدلية الثورية في خلايا الجسد المتفكك . فانقسم المجتمع العربي إلى موج متحرك ، وإلى كتل مستنقعية راكدة ، يهددها هذا الموج مع كل هبة ريح ويقتطع منها كتلاً بعد كتل ، ليدخلها في دوامته الفائرة الغاضبة .

لقد واجهت الطليعة إذن في دائرتها المتحركة هذا التحول في إعدادها من النموذج الفردي الاخلاقي إلى نموذج الكتلة بكل ما فيها من قوى آلية وكمية من جهة ، وما فيها من قوى غريزية اندفاعية مضادة للوعي والتوجيه من جهة ثانية .

لقد أخذ الصف الاول من الطليعة ، وما تلاه من صفوف قريبة ، يرتفع

بالتدريج إلى رأس الهرم الثوري ، بينما تغشى القاعدة كتل ، رفدته من جميع القطاعات الاجتماعية . وأصبح بذلك التمازج بين الرأس والقاعدة والاتصال بين الافراد الواعين والكتل المائجة ، متعثراً مضطرباً . حتى ان الاطر التنظيمية من جهة ، والتوجيه العقائدي من جهة أخرى ، أخذا يعانيان عجزاً واضحاً عن صهر الكتل وتفتيتها ومحاولة تحويلها إلى خلايا تنبض بالوعي والحركة ، بنوع من الاستقلال والتواصل في الآن ذاته . وأدى ضعف هذه الصلة بين التمايز القيادي والتجانس الكتلي في هرم الحزب الثوري إلى الانفصال بين التوجيه والتبعية . فكان التوجيه لا يدرك حركية القاعدة ، كما ان حركية القاعدة لم تعد تستوعب مضمون ذلك التوجيه الذي أخذ صفة نظرية بعيدة عن خاصية الكتلة في المبادهة والحركة السريعة . نشأ عن ذلك ان الايدلوجية امتصتها بالتدريج ثوابتها ، ورضخت لمصير الشعار . فالكتلة تحتاج إلى مختصرات أشبه بالاشارات لتوقعها في طريقها . وتريد لهذه المختصرات الثبات والاستقرار ، كثبات العقائد الوثوقية التي جلبتها معها من رواسبها في المجتمع المتخلف . ولقد خرجت هذه الشعارات بالتدريج عن حركية الايدلوجية في مستواها الفكري او أخذت تمارس فعاليتها بمقدار نجاحها في جذب كتل أخرى او ضمها إلى صفها ، لمواجهة الاخطار المتعاظمة حولها ، كتعاظمها في تحديها هي ذاتها . غير ان هذا التثبيت السكوني للشعارات أفقدها خلال المعارك المتواصلة نجوعها الثوري بالتدريج او جعلها أشبه بلافتات الدعاية ، اكثر منها بأفكار تحريضية خطيرة . ولا شك في أن انقطاع الصلة بالتدريج بين التوجيه والتبعية ، سوف يمحو الفروق الأساسية بين الكتل التابعة للطليعة ، وبين الكتل التابعة لنقيضها في الواقع الفاسد . فيهدد ذلك بظهور مشكلة القمّية والقاعدية . كما يهدد بانعزال هذه القمة واجترارها لذاتها ، دونما قدرة على الخلاص من تقاليدها كطليعة في المرحلة الاولى من مباشرتها للتنظيم الحزبي .

سيكولوجية التوجيه والتبعية :

لقد كان من السهل في بداية المعركة القومية تحديد الواجهات الاولى المتصدية للقوى المعادية . وكان من السهل أيضاً توجيه الخط الشعبي ضد هذه الواجهات . ولذلك لم يكن التوجيه يتخطى مستوى التحريض والحماس العاطفي . لقد كان يكفي للمناضل ان تنكشف أمام براءته العفوية بعض العقد التي يرزح تحت عبئها واقع الأمة ، يكفيه ذلك لأن يتزود بمؤونة من القوى السلبية ، يوجهها إلى بعض المظاهر المباشرة لهذه العقد . وعلى ذلك لم يتوفر ثمة شعور قوي لدى الطليعة بضرورة التنمية المتكاملة لعناصر النظرية الثورية . وكان مجرد الايمان بضرورة العمل الثوري ، يولد لدى الجيل قدرة عملية ، تكاد تصل إلى أوج فعاليتها ضد العقبات القريبة في الواقع الفاسد . فالايمان بحركة التاريخ الراهنة ، من حيث انها حركة انبعاث ، هو المحرض النفسي الذي يجعل العمل الثوري يستبق إلى حد بعيد عمليات التخطيط . بل ان الركون إلى مثل هذا الايمان كان لا يخلو من خلق بعض النتائج الصوفية التي لا تحتمل مواجهة الواقع وتحليله إلى مختلف عناصره ، وكذلك فان هذا الايمان لم يستفد من تجارب الثوريات المختلفة ، التي سبقته في عالم الغرب مثلاً . وقد ظل يعاني عقدة ضد النظرة التحليلية العلمية للواقع الثوري . كما ان هذا الايمان كان يمنع بصورة غير مباشرة تولد الفكر الجدلي عند الموجهين من أفراد الطليعة . فلقد كانت الصورة التي رسمها هؤلاء بالنسبة لمستقبل المعركة تنكمش في خط وحيد الاتجاه . ولا شك ان هذا الخط لا يعزف سوى سيكولوجية الأمل بالنصر المستمر . حتى ان هذه الصورة لم تكن تسمح إلا بتصور العقبات ضمن خطوطها العريضة ، دون القدرة على استكناه مختلف قواها الخفية ، واستدراجها إلى ساحة المعركة . فمثل هذا الايمان ، ان كانت له فضائله في تنمية الحماس ، إلا انه لا يلبث هو نفسه ان يصبح حاجزاً يقف أمام تولد الفكر الثوري ، بما يملك من شمول وقدرة على الاستقصاء تتزايد باتساع مجال المعركة وبمدى ما تصيب من الأسس العميقة للعمل الثوري . هذا إلى جانب كون ان الايمان قد يخلق طبقة من الموجهين الذين يكتفون بالتزود من معينه

ويتصورون انهم قد ملكوا طريق الحقيقة ، وان على الآخرين ان يكونوا تُبّعاً أمناء لخطواتهم ، ولما يشيرون إليه في أفق المستقبل . تلك الطبقة من الموجهين قد تبرز بين صفوف الطليعة ، وتقع دون شعور منها في هوة الانفصال بينها وبين فهم الوقائع المستجدة أمام تحديات المعركة . وإذ تتمسك هذه الطبقة بتعليلاتها الاولى ، وترى انها هي التعليلات النهائية التي لا تقبل التعديل والتغيير ، فانها تحجب نفسها عن تطورية الحركية الثورية ، وبالتالي فانها تقف دون وعي منها أيضاً عقبة في وجه بقية الصفوف من الثائرين . ومما لا شك فيه أيضاً ، انه مثلما تقوم طبقة من الموجهين المعصومين عن التغير والتطور تقوم تحتها أيضاً طبقة من الاتباع تزيد في تبعيتها ، كلما زادت الأولى في تمسكها بعصومية تبريراتها الاولى، وخططها الاولى للعمل . وتستمد الطبقة الموجهة من الطبقة التابعة ، ثقة بنفسها وقوة على الصمود الذي ليس هو إلا الجمود . فالتابعون يتخلون بسهولة عن شخصيتهم ، وبالتالي عن نظرتهم النقدية وهم يشعرون بلذة سلبية كبرى كلما تفننوا في اظهار إخلاصهم للطبقة الموجهة . وهم يرفضون ان يسموا اخلاقهم تبعية ؛ وبالتالي انهم ينزلقون من مستوى الانتماء إلى مستوى التبعية . والحقيقة أن من الصعب أن نفصل بين تبعية الفرد للموجه ، وبين انتمائه للثورة وعقيدتها ، وذلك لأن هذه الثورة تظل مجردة ان لم تتبد من خلال من يمثلها من القادة والموجهين . وعند ذلك يقع الفرد ، من حيث لا يدري ، في ازدواجية الانتماء والتبعية ، حتى تطغى تبعيته للموجه على انتمائه للعقيدة ، ومن ثم فإن طبقة الموجهين تتناسى هي أيضاً أنها ليست سوى أداة لتشخيص العقيدة ، فتقع في اختلاط بين ما تتصوره طبقتها ، وبين واقعية الجدلية الثورية . والحق أن الحركة القومية قد تقع في كثير من المشكلات الناجمة عن ذلك الشعور الفياض الذي يملكه أفرادها ، وهم مندفعون إلى تحقيق براءتهم الانسانية عن طريق الثورة ، والثورة إلى درجة الصوفية . ولذلك فإن مثل هذا الحماس يولد ذاتية مشبعة بالاندفاع ، تعصم نفسها عن أية نظرة نقدية استرجاعية ، كما تنفي عمن يمثلها أية امكانية في الانحراف او التردد او العجز عن فهم اللحظة المتطورة من الجدلية الثورية . ولذلك كانت

مسألة التنظيم الداخلي في الحزب الطليعي تلقى أكبر الصعوبات أمام هذه الذاتية المتطرفة ، التي تتملك كلّاً من الطرفين : الموجه والتابع . فلقد يأخذ النضـــال القومي طابعاً شرفياً ، كأنما هو نضال بين أفراد الأسرة او أفراد العشير . وقد يأخذ امتداداً من كثير من مشاعر العصبية . وبذلك تبدو الثورة القومية و كأنها ثورة الغريزة الاولى التي لا تخلو من تعصب مطلق يعادل الشرف والكرامة في الفرد والجماعة . والواقع أن الثورة القومية لا تستطيع ان تقطع جذورها ، عن هذا الدفق الطبيعي الغريزي لدى الانسان ، وخاصة منه ذلك الانسان المرتبط بتراثه بعيد حيث الأرومة القبلية والعشيرية . بيد ان الثورة القومية ، إذا ما استفادت من هذا المعين الغريزي في بداية انطلاقها ، فانها ينبغي ان تتجاوزه إلى مصادر ترتفع إلى مستوى الوعي الايدلوجي الحقيقي . إلا ان قيام مثل هاتين الطبقتين : التوجيهية والتبعية ، يجسّم تجسيماً ضخماً تراث المضمون الغريزي للثورة القومية . ولذلك فانه يعتبر من أقوى العقبات التي تقف في وجه اتصال الثورة القوميـــة بالايدلوجية الجدلية .

ويمكننا القول إن الحقبة الأساسية التي مرّ بها صراعُ الطليعة العربية ، تعتبر الى حد بعيد واقعة تحت سيطرة هذه السيكولوجية الغريزية في الثورة القوميـة . ولذلك فإنه بقدر ما أعدت هذه السيكولوجية مـن قوى ثورية ومن إمكانيات في العمل والنضال أصبحت في الحقبة التالية مشكلة أساسية أمام الوعي الثوري من جهة ، وأمام تخطيط العمل في الواقع المثار عليه ، من جهة أخرى .

وإذا ما قارنا السلوكية الشيوعية ، والسلوكية البعثية في الطليعة العربية ، نجد ان الأولى تسعى الى خنق المشاعر القوميـــة العفوية منذ البداية لتجرد أفرادها هكذا ، من كل مضمون ذاتي ، ثم تسلمهم لعملية حقن منظم بالأفكار الجاهزة ، التي أتقنت سبكها وحبكها تجربة الشيوعية العالمية خلال نصف قرن من الزمن . فبينما ينبثق الشاب القومي في نضاليته و كأنه فارس من فرسان الجاهلية ، ممتلئاً شعوراً بالكرامة والفخر ، ناظراً الى العـالم من حوله نظرة من يحتاج الى الغوث والإنقاذ منه ، فان فارس الشيوعية العربية خاصة، يبرز و كأنـــه يشعر بنشوزه

وشذوذه عن الدفق الطبيعي الذي يتأجج في صميم الواقع . ولذلك فان عقدة الشذوذ هذه لكي يخفيها الشيوعي يسعى الى إحاطتها بهالة من الافكار الايدلوجية ذات الطابع المنطقي الصارم . ومع ذلك فان الشيوعي العربي لا يستطيع ان يتخلى عن حاجته لبعض العواطف الطبيعية . ولذلك فانه ينمو في البؤر العنصرية ذات المشاعر القومية المضادة للقومية الكبرى التي تحيط بها . وهـــذا ما طبع الشيوعية في عالمنا العربي ، بصورة الشعوبية الجديدة ، إذ اعتمدت الى حد بعيد على الفئـــات المنفصلة عن أرومة الأمة ، إما لدافع عنصري أو طائفي في أغلب الأحيان .

وكان من جراء هـــذا الفارق الأساسي بين سيكولوجية التنظيم الشيوعي والتنظيم الطليعي القومي ان ظهر الحزب الشيوعي وكأنه مدرسة فاشستية في طريقة ضبطها لسلوكية أفرادها ، هذا الضبط الذي يقوم على نوع من الارهاب الداخلي الذي يقنع بـه الشيوعي بدون قسر . وذلك لأنه نتيجة ضرورية لمنطق عقيدته . ولذلك فان الشيوعي يعوض بقوة تنظيمه الداخلي ، عن كثير من عقد النقص التي يعانيها تلقاء معاكسته الخبيثة لحركة الانبعاث القومي حوله . وان هذا التنظيم هو الذي حمى الاحزاب الشيوعية العربيـة باستمرار من الاضمحلال النهائي . وهو الذي جعل يمدها بالقوة والصمود والاستمرار كلما تغلب عليها المد القومي وجعلها تنعزل أكثر فأكثر عن الواقع الشعبي .

فالموضوعية القاسية التي يقوم عليها تنظيم الحزب الشيوعي، هي التي تفقر الفرد من بداهته الشخصية وتجرده الى أبعد حد من إمكانياته الفكرية المخالفة للتوجيه الايدلوجي ، الصارم المنبثق عن القيادة ، التي تعتبر أفرادها مجرد أدوات نهائية للتنفيذ المطلق . وبالمقابل فان الذاتية المتخمة باندفاعها الغريزي الحماسي الذي يتمتع به القومي ، قد تعيق قيام نظام، أساسه التقدير بحسب علاقات موضوعية خالصة. ولذلك فإن الحقبة الاولى من نضال الطليعة العربية ، التي استفادت الى حد بعيد من هذه الذاتية والتي جعلت أفرادها أشبه بفرسان في حلبة الشرف والعزة ، هي التي أخرت ايضا ظهور المرحلة الثانيـــة التي تتطلب استبدالاً أساسياً لهذا المفهوم

الفروسي في التنظيم الداخلي ، الذي سينعكس خارجياً ضمن خطط مدروسة مقنعة ، الخطط التي تنبثق عن الفهم الجدلي الذي يكافىء التناقضات العميقة الغنية في الواقع الثوري. ولكم حاول الحزب الشيوعي أن يحارب فروسية الحركة القومية بتحديها ، لكي تدفع بقواها الى معارك جانبية تبدد من قواها وتكشف إمكانياتها. كما ان الدعاية الشيوعية حاولت ان تستفيد من سذاجة الحركة القومية في نشأتها فتقدم محصولاً فكرياً غنياً يعوض عن ضآلة الذخيرة الثقافية التي تمتلكها الحركة القومية . ولذلك كانت تسعى الى اجتذاب بعض العناصر المثقفة التي قد تنخدع بالمظهر الفكري والتي تتمتع بقابلية الانخداع ، قائمة على أساس بعض مصالحها العنصرية او الطبقية . وفي الوقت الذي لم تطرح الحركة القومية شعاراً طبقياً ، كان الحزب الشيوعي يحاول ان يفتت النضال الشعبي بدعوته الى الطبقية. ولا شك في أن الايدلوجية القومية، كان من اول ما تنبهت إليه ان الشيوعية تستفيد فائدة كبيرة ، في اثارتها للنعرات التجزيئية المختلفة في الواقع العربي، كالإقليمية والطائفية والعنصرية ومنها الطبقية . بينما كانت هذه الايدلوجية تشعر ان الشرط التاريخي الخافي يدعو الى إبراز البرجوازية ، لا على انها طبقية عادية في المجتمع العربي ، بل إظهارها وكأنها انفصال مصلحي يضع نفسه في خدمة الاستعمار ضد الثورة القومية الشاملة . وبينما كان على الايدلوجية القومية ان تنتبه الى الشروط المتناقضة المتنامية في الواقع الثوري ، فتوسع من نظرتها لتشمل مختلف الاتجاهات وتستفيد من قواها الذاتية ، بصورة مطابقة للواقع الذي تهدف إلى تحقيقه في مجال الثورة ، فان الشيوعية المحلية ، كالشيوعية العالمية ، كانت تستفيد من ادعائها الفهم الجدلي ، في تبرير انتهازية مواقفها المتناقضة، لا ذلك التناقض الذي تحتمه حركية الشروط الثورية . ولكنه تناقض الانتهاز ، الذي ينظر فقط الى مصلحة الحزب ، دون مصلحة الحركة الثورية الشاملة . فالفقر الايدلوجي الذي طبع الحركة القومية في خطواتها الاولى ، قد سمح للشيوعية ان تعرض غرورها الذاتي ، بما تملك من حصيلات ثقافية متنوعة . غير ان الحدس الذي كانت تمتاز به الحركة القومية ، حدسها الذي يجعلها وحدها تمثل واقعية الثورة التاريخية ، كان يعصمها الى حد بعيد

عن تضليل نفسها ، وتضليل شعبها من ورائها . وكان هـذا الحدس وحده كافياً للوقوف امام جميع التخريجات الفكريـة المصطنعة التي كانت تصدرها الاحزاب الشيوعية ، لتبرير معاكستها للخط القومي الوحدوي .

ومع هذا فإن واقع نمو الانبعاث الثوري ، قد أثبت أصالته ، أمام جميـع محاولات الانحراف التي جاءت من الشيوعية او غيرها من الحركات ، التي حاولت ان تزيف وجه الثورة العربية ، وان تحولها عن طريقها الاصيل . ولكن هذا لا يمنع من ان نتفهم التحولات التي طرأت على هذا الواقع الثوري والتي لم ترتفع الى مستوى ادراكه وقيادته هذه الحركة القومية ، عندما عجزت عن تجاوز نفسها ، أي عندما لم تلحق بما يتطلب منهـا الوعي الثوري من تزوّد بالفكر الجدلي وبالتخطيط المتماسك المدروس .

ولا شك في أن مرحلة انبثاق الطليعة الاولى ، هذه المرحلة الفروسية المثالية ، حققت أكثر ما كان ينتظر منها ، وخاصة على مستوى التحريض الشعبي ، عندما تمكنت من خلق الحركة في مستنقع الجمود والاستسلام. ونقلت الجماهير ، وخاصة جماهير المدن الى حركة مواجهة للمصير، لم تبلغها من قبل ابداً . ودفعت بطلائعها الى معارك حاسمة ثبّتت الشعارات الأساسية ، وخلقت تلك الهزة الصميمية التي أدخلت المجتمع العربي في حركة تواصل ثوري . أي انها استطاعت ان تثبت تشخيص الثورة التاريخية لدى الجماهير ، استطاعت ان تنشىء وحدة الثورة قبل أن تنشىء وحدة الأمة .

المعاناة الانقلابية بين الفرد الضائع والثائر الملتزم :

لقد تحققت اذن عملية التشخيص الواقعي للانبعاث عندما خاضت جماهير المدن خاصة ، ثوراتها المتواليـة ، لتأكيد شعاراتها بمقابل انهيـار القيم التقليدية ، التي تحرس الانظمة الرجعية ، المتحالفة بصورة طبيعية مع حارس الاوضاع الفاسدة في المجتمع العربي : الاستعمار الغربي خاصة . ولكن تلك الفروسية التي برزت مـن خلالها الحركة الانبعاثية في تنظيمها شبه العفوي ، ما عتمت حتى بدأت تشكو

من تناقضات داخلية ترجع ، في الأساس ، إلى العجز عن التلاؤم مع معطيات الواقع الثوري ، تلك المعطيات التي كانت هي السبب في وجودها وفي تكوينها. وعند ذلك تتابعت سلسلة من الفشل الجزئي في بعض مجالات المعركة . وذلك عندما انتقلت عقبات الواقع من مرحلة المقاومة الغريزية إلى مرحلة المقاومة المخططة ، التي سبقت إلى حد ما وعي الحركة الثورية لضرورة تجاوز التنظيم العفوي إلى التخطيط الايدلوجي . ولذلك فان فئات كثيرة ، سواء من طبقة الموجهين ، او من طبقة التابعين ، لم تحتمل صدمات الفشل . فكان لها مواقف ارتدادية مختلفة ، جعلت إلى حد ما الحركة القومية قابلة لأن تشوبها النزعات الانهزامية، التي رفدتها أحياناً عن طريق تطور الحياة الأدبية والفنية في المجتمع ، فلم تلبث النزعة الفروسية ، عندما فقدت قدرتها على معاكسة مصائر الفشل المحيطة بها أن ارتدت إلى نوع من التطهرية التي تبرر عجزها عن العمل بالخوف من التلوث، هذا الخوف الذي ليس هو إلا صورة عن التهرب من عبء المسؤولية .

ازدواجية العفلقية والحورانية

ان سلوك التطهرية ، إذا ما حاولنا أن نتبين خصائصه الأساسية ، كما اتضحت في فترة الانتقال بين مرحلة التنظيم الفروسي العفوي وبين مرحلة التنظيم الايدولوجي الجدلي ، تقوم على تشبث لا يخلو من بأس ومن صوفية غالباً ، بالشكل المبهم للأهداف الأولى ، التي حدست بها الطليعة في بدء تنظيمها . ولقد يبدو هذا التمسك أو التشبث شبه طفولي إلى حد بعيد، لأنه يشبه تشبث الانسان الذي يقف على الشاطىء متمسكاً بانقاذه قبل أن يرمي نفسه في لجة البحر . ان التطهري انسان تطغى عليه تصورات ما يجب أن يكون ، وتتضاءل أمامه عقد الواقع كما هو كائن . وهو في الحقيقة ليس بالانسان المثالي الذي كانه في مرحلة الفروسية . بل إنه عبارة عن انسان يدعي انتصارات الفروسية الأولى ، بصورة سلبية مجمدة، دون القدرة على تأكيدها بانتصارات جديدة. وكذلك فان التطهري إذا ما واجه مفصلاً واقعياً فرض عليه تحديد موقف عملي ، فانه يسارع إلى التقليل

من أهمية المبادرة ؛ وقد يسخر ممن يقدمون على المبادرة . وهو خوفاً من ان يتهم بالانتهاز يفضل عدم الفعل نهائياً . وفي الحقيقـــة فان التطهري يشكو من عقدة انتهاز معاكسة . فالانتهازي إذا كان يستثمر الظروف العملية باسم العقيـــدة ليحولها إلى مكاسب شخصية ، فان التطهري يستثمر عدم الفعل ، من أجل اسباغ ثوب من المثالية عليه بادعائه الانضواء تحت ملكوت المثل . وليس من شك في ان الانتهازي الذي يتبضع بجبنه وذكائه العملي ليس أكثر خطراً على الحركة القومية من التطهري ، الذي يتبضع بشكلية العقيدة ، ويجمد عندها ويجمّدها . ذلك لأنه ، إذا ما سمح لأية نواة في هذه العقيدة بالتفتح والنمو ، فإنه من العقم بحيث يخشى ألا يستطيع هو نفسه أن يعلو إلى مستوى هذا التفتح ، ولذلك يفضل لها الكبت والاختناق ليحمي نفسه من مسؤولية التغيير .

ولكن كلًا من سلوكية التطهري ، وسلوكية الانتهازي ، تظلان إلى حد ما تفرضان ذاتهما داخل مجرى الحركة الثورية . فالانتهازي الذي استفاد من الفشل بصورة إيجابية من أجل تأكيد هذا الفشل وربطه بمسؤولية العمل ذي الاتجـاه الواحد النظيف المتصاعد ، لا يتخلى عن ادعـاء الارتباط الصميمي بالحركة الثورية . ولكنه يستثمر إلى حد بعيـــد نكسات الفشل من أجل تدمير براءة الحركة من داخل ، وتحويلها إلى مجرد حركة عادية ، تتقبل واقعية العقبـات وتسلم بها ، وتروح في عملية تلاؤم معها على حساب ثورية الحركة الأصليـــة . والانتهازي ، وهو نقيض التطهري ، يفيد فائدة كبرى من سلبية التطهري ، لأنه يرى نفسه سيد المجال العملي لوحده من جهة ، ولأنه يستخدم سلوكية التطهري السلبية كصورة واقعية مشخصة عن الفشل ، فشل العقيدة في أسلوبهـا المثالي . وكلما استطاع الانتهازي أن يجر الحركة إلى دهاليز سياسية ، أفقدها وعيهـــا بذاتها ، وسهل عليه بالتالي أن يجردها تدريجياً من ثوريتها ومن براءتها تلقاء ذاتها . وما إن يلوثها بمسؤوليات انتهازية في عين نفسها ، وعين الجماهير المراقبة لها ، حتى يفقدها بذلك نصاعة كرامتها في عين ذاتها . وبالتالي فإنه يستعملها كما يشاء لخدمة أغراضه الشخصية . فمن هو الانتهازي في الحركة الثورية حقاً ؟.. إنه الثائر بدون

ثورة ، وانه الطليعي بدون طليعة ، وانه القائد بدون جمهور ، وانه العقيدي بدون عقيدة ، وانه رجل الساعة الذي يستطيع ان يحول طاقات الثورة ونتائجها إلى سلتم من أجل فرض قوته على الجماعة . إن وجود التطهري يساعد على ابراز دور الانتهازي . فذاك الذي يتنزه عن العمل ، يقابله ذاك الذي ينغمر فيه إلى أذنيه ، وذاك الذي يدّعي انسجامه مع المرحلة التاريخية ، يقابله ذاك الذي يفرّغ المرحلة التاريخيـــة من مضمونها وينقلها إلى مستوى المصالح المتضاربة في سوق السياسة اليومية . وذاك الذي ينفر من السياسة باسم الفكرة ، يقابله ذاك الذي ينفر من الفكر باسم السياسة ، باسم الحكم ، باسم السرعة في تحقيق الأهـداف ، باسم استباق الزمن وتسخيره لخدمة الحركة ظاهرياً .

بين الضياع والالتزام :

ومثلما كشفت الحركة الثورية ، في تحديها المستمر المتعمق لعقد العقبـات القائمة ، عن بعض نتائج النجاح والخيبات ، التي أبرزت نموذجي الثائر التطهري والثائر الانتهازي ، كذلك فان الخيبة قد تدفع الى ظهور نماذج أخرى بين هذين التطرفين . منها نموذج الفرد الضائع ونموذج الثائر الملتزم . ان الفرد الضائع داخل الحركة الثورية ليس من العسير الالتقاء به ، بل لعلنا نلتقي بأمثاله كثيراً ، كلما واجهت الحركة مفصلاً أساسياً في تطورها . فالفرد الضائع هو ذلك الثائر الذي أسرته ثقافته النظرية الخاصة ، بدون ان يستطيع إدراك العلاقات الجوهرية بين نوازعها ونوازع الايدلوجية الثورية في مرحلتها الحماسية الأولى. فان هذه الايدلوجية التي استنفدت قوى التحريض في معاركها الاولى ، أصبحت بدون مضمون ، ما دام الواقع الثوري الذي تواجهه ، يدفعها الى التمسك بأطرها السابقة دون القدرة على معاودة النظر في أسسها الفكرية وطرقها العملية . ومن هنا فإن الضائع هو الذي أحس قبل غيره بازدياد الهوة بين المضمون الحماسي الأول للايدلوجية ، وبين مناعة العقبات القائمة . فلم يعمل ، من جهة على تسهيل ذلك التفاعل بين ايدلوجية الثورية ، وبين ما يمكن ان تكتسبه من محاولتها لإعادة النظر في بعض أسسها من

اجل فهم التغييرات الجديدة في الواقع الثوري . ولم يعمل من جهة أخرى على تحقيق الثورة على وسائل الثورة الاولى . فكان الفشل النسبي للحركة مثار تمسك بفشل ينمو باستمرار نحو السلبية الكاملة . فذريعة الفشل النسبي يتشبث بها الضائع من اجل استخلاص النتائج السلبية لثقافته النظرية . وعلى ذلك فقد يبحث عن مبررات شبه مذهبية ليعلل سلبيته او ضياعه . وقد يلتقي بنزعات فكرية كثيرة يحفل بها عصرنا، عصر الضياع والثورة . ويحاول ان ينسج منها مضمونه الشخصي، او بالاحرى تفسيره الشخصي للأيدلوجية الشاملة دون ان يشعر بأنها أيدلوجية ينبغي ان تتلاءم مع الايقاع المصيري للتاريخ، قبل ان تتلاءم مع نزوات الأفراد. اما الضائع فهو الذي يستغني عن كل مقياس ليقيم مقياس نزوته فقط . ونزوته ليست هي في النهاية ، مهما حشد حولها من الهالات الفكرية ، إلا فراراً من مواجهة المشكلة بدلاً من الالتفاف حولها بما ليس منها .

إن نموذج التطهري والانتهازي قد يتصاعد الى قمة الحركة فتكون له مهمة قيادية . بل في الواقع ان هذين المرضين يخصان (المشكلة القمية) في أغلب الأحيان . وبالمقابل فان نموذج الضائعين يترسب في القاعدة ، ويساهم في خلق المشكلة القاعدية . فهو من حيث يرفض المسؤولية ، فانه يرفض كذلك التبعية ، سواء للقائد التطهري أو القائد الانتهازي . وهو لا يلبث حتى يتسرب الى نفسه الكثير من عقد الضياع الشائعة بين الشباب المثقف في مجتمع المدن العربية . ولكنه يظل يحمي نفسه بستار الانضواء ، هذا الانضواء الذي عمل على تجريده من كل التبعات العملية ، بحيث لم تبق منه سوى هالة شاحبة . ويجد الضائع أخيراً نفسه وجهاً لوجه أمام بعض ما يشيع عن التفكير الوجودي ، فيتبناه بسطحية وعجالة اكتشافه عن شعوره بالذنب الدفين، ذلك الشعور الذي يظل يفتك بوجدانه لاعتقاده بأنه تخلى فعلاً عن ثوريته ليدعي ثورية بلا هدف، ثورية بلا تبعات، ثورية ترفض التنظيم والالتزام المباشر .. انها في النهاية الثورية العبثية بدون أي مضمون فكري مشروع ، أو واقعي خصب .

وليس من شك في ان المنطلق واحد بالنسبة للفرد الضائع والثائر الملتزم. وهو

ادراك عبثية الوسائل القريبة من أجل انتصار الثورة . ولكن ، بينما ينكفيء الضائع إلى فلسفة تبرر استمرار العبثية ، فإن الملتزم يبحث عن انضواء أعمق في الثورة ، كما يساعد على ظهور جماعية فكرية واقعية معـاً تتجاوز عقبة الفشل النسبي أو تعاود حركة النمو الجدلي في صميم الثورية . فالانضوائي لا يقبل ان يخدع نفسه سواء من أجل سلوك التطهر أو الانتهاز أو الضياع . إنه وحده الذي يصدر عن ادراك شامل لضعفه وقوته معاً ، ضعف الواقع الفاسد وقوته مقابل الثورية . ان الانضوائي هو الثائر الذي يريد ان يتحد بصميم الجماعيات الثورية لكي يعيها من داخل ويساهم في تنشيطها وايضاحها لوسائلها الحقيقية . وهو كذلك يرفض ضياع الفرد ، ولكنه يدرك ضياع الانسان عامة ضمن حدود الواقع الفاسد الذي يحيط به . وفي الأصل فإن هذا الواقع هو الذي يملك قواه لأنه هو الموجود اولاً . وهو الذي ضرب جذوره في أعماق التاريخ . وفي الأصل ايضاً ان الجماعية الثورية هي التي لم تزل في حدود الامكان ، وهي التي لا تعرف قواها بعد ، وان كانت تثق بأن هذه القوى هي التي ستصنع المستقبل . فالانسان العربي الضائع ضمن الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتخلفة هو الحقيقة الكلية التي يسلم بها الثائر الانضوائي ، وهو الذي بواسطته يقشع الانضوائي عن وجـدانه كل محاولة لخداع الذات او تضليلها . انه يدرك المشاق الكبرى التي ينطوي عليها هذا الضياع الكلي ، ولكنه هو الذي يشعر قبل غيره بمعنى هذا الضياع وبآلامه . انه وحده الذي يتألم عن انسانية أمته ، وبالتالي فهو وحده الذي يسلم بعنف الانهيار الذي تعانيه هذه الانسانية ، التي لم يصل وعيها بضياعها إلى درجة التحرك ضـد نفسها حركة شاملة جذرية .

الانضوائي يرفض ان ينخدع بالانتصار القريب ، كما انه يرفض ان يقع أسير اليأس من فشل راهن أو تتابع سلسلة الفشل ؛ وذلك لأنه يثق أولاً بأن لحظة إنسانيته هي لحظة انبعاث . وان هذا الانبعاث يباشر في حركة جماعيات جدلية قد تكون خافية المظاهر ولكنها قريبة من إحساس كل انضوائي أصيل . وليست تلك الثقة بنوع التفاؤل الكاذب أو الحماس الانفعالي ، أو بنوع من الكذب على

الذات لأن الانضوائي ، رغم انه انسان جرّدَ وجدانه عن ظلمات الصوفية والوثوقية ، إلا انه رجل عقلي . ولكن عقليته هذه هي أساس الصوفية الإيجابية. إن عقليته تدله على ان التاريخ هو جدل ، وان هذا الجدل ليس مادياً أو روحياً، وليس عبارة عن قوى غامضة أو قوى جزئية ؛ ولكنه التاريخ في ذاتيته وفي موضوعيته معاً . في حركيته وفيا نسجت هذه الحركية من أحداث حضارية كبرى، تنبىء عن أن هناك اتجاهاً قد يستعمل الانتصار والفشل ، الفرح واليأس، الشجاعة والجبن ، ولكنه اتجاه مع ذلك ينمو باستمرار متجاوزاً كل انتاجاته ؛ وان بامكان الانضوائي ان يفهم هذا الاتجاه وان يؤمن به ، على انه ليس مجرد مصير جزئي لإنسان أو لأمة ، بل انه مصير الحضارة لكل أمة تعاني حركة التسامي والاندماج في هـذه الحضارة ، على ان لا نفهم من الحضارة انتاجاتها المحددة ، بل ذلك العنصر الذي هو سبب هذه الانتاجات في الماضي والحاضر والمستقبل .

فالانضوائي يدرك ان ما ينبغي ان يفعله مرتبط تماماً بما ينبغي ان يؤمن به ، وان ما ينبغي ان يؤمن به ليس هو إلا صورة حية بل صوفية لما يمكن ان يعرفه. وبينا يتعلل الضائع بعقيدة عبثية تشمل الوجود والانسان والتاريخ ، فإن الانضوائي انسان يعلم انه لا ينبغي ان ينكر هذه العبثية أو يفر منها ؛ ولكنه إذا ما حياها حقاً ، فانه استطاع ، لا ان يتخلص منها ، ولكن ان يتغلب عليها ، بفعلٍ تكمنُ كلُّ قيمته لا في نتيجته ، ولكن بمقدار ما يحتمل من معاناة كاملة مخلصة .

ومن الخطأ ان نظن ان الانضوائي هو انسان وثوقي ؛ بل قد ينتشر نموذج الوثوقي حتى في المجالات الثورية . غير ان الفرق الأساسي بينهما، هو ان الوثوقي متفائل . وتفاؤله ذاك لا يُبنى على أساس اكتشاف الحقيقة ، بل على أساس الفرار منها وتضليل النفس عنها . ان الوثوقي بالنسبة للانضوائي ، هو الانسان الذي يجهل أنه يخدع نفسه . ولذلك فانه يتمسك بصوفية أخرى تحتم الانتصار وتغض الطرف عن الفشل وتلغي الخطأ ، وتتجاهل الشر ، وتصبح في النهاية أشبه

شيء بسلوكية النعامة التي تخفي رأسها في الرمل لتتجنب الاعتراف بواقعية الخطر المتجسم في الصياد الذي يتبعها . هذا فضلاً عن ان الوثوقي يسعى، دون ان يدري ايضاً مثل التطهري ، إلى إنكار التغير . ويعجز عن فهم الجدلية الحضارية، ويقبع في زاوية مضيئة محدودة بإيمان ساذج يختصر نفسه ببعض الأفكار التي ترفض الاعتراف بقياس الوقائع الناجمة عن تطورية الجدلية . أما الإنضوائي فهو القدي يعبر عن انضوائيته كما يلي : انني أثور لا لكوني أثق بالانتصار ؛ ولكنني أثور لأنه من العبث ألا أثور ؛ أي ان اللامعقولية الحقيقية ليست تلك التي تكمن بالتشبث بها ، أو الاعتقاد بها كما قد يفعل الضائع أحياناً . ولكن اللامعقولية معاناة ، ولا يمكن ان تكون مجرد حكم عقلي ؛ وإلا لم يفترق الوجودي الثائر او الانضوائي عن الشاك السفسطائي ؛ وذلك لأن الشاك يبحث عن الحقيقة بالنسبة لذهنه ولا يجدها ايضاً، أي انه يود الحقيقة في مجالها المنطقي، بينما يغوص الوجودي الانضوائي في أعماق بحران العبثية ، ولكنه ينمو بمواجهتها أعمق فأعمق ومعاناتها بكل توتر وحدة . فالعبثية بالنسبة للوجودي الانضوائي ليست هي متضمنة كلها في هذا الحكم وهو : لا معنى لأي شيء ! فهو من حيث لا يريد أن يقرر حكماً فانه يقرر حكماً بالفعل ، يتضمنها في تلك العبارة فيما لو قالها على طريقة الانسان الضائع بدون انضواء . إنه من داخل هذا (اللامعنى لأي شيء) يسعى أن يثبت معناه ، على ان لا يكون ذلك المعنى مرتبطاً بالفكرة المطلقة او بالتعليل النظري ، بل يثبته بأن العبثية ذاتها هي فعل . وأنه لا يمكن الانتصار عليها إلا بمواجهتها بالفعل . ومع ذلك فلا انتصار نهائياً عليها . وإلا وقعنا ثانيــة في وهم تضليل الذات ، وأنكرنا ذلــك الجدل الوجودي بين إرادة خلق المعنى ، وبين إرادة تجاوز كل معنى .

ان الجدلية الحضارية تنقلب الى جدلية وجودية ، عندما يبرز أفراد على مسرح اللحظة التاريخيــة ، لكي يطبعوا ارادتهم على وجه الوقائع ليغيروه من العماء الى الوضوح ، من المادية الى الانسانية، من الضياع المغفل الى الحرية الخالقة. فالجدلية الحضارية هي أولاً نوع من استلهام الحق في المعاناة ، ولذلك ما إن تتطلع بعض

الوجدانات الى هذا الحق ، حتى تنقلب الى مطالبة نضالية بالمعاناة . وبدلاً من ان تكون هذه المعاناة بمجرد قابليـــة انفعالية امام الشرور ، امام النواقص ، أمام السوالب ، فانها ستكون جدلية بينها وبين هذه الأطراف المضادة ، من أجـــل الوصول الى مركبات خالقة تدريجياً عن مشروع حرية الانسان التي هي الترجمة الواقعية عما يمكن ان يصير إليه حق المطالبة بالمعاناة .

في مناخات الفشل والارتداد مثلما يحيـــا نموذج التطهري ونموذج الانتهازي بمقابله ، كذلك يحيا نموذج الضائع والملتزم ، وتنتج عن ذلك صورة يومية للمعاناة داخل الحركة الثورية ، إنها الصورة التي تطلعنا على تناقضات الجدلية الوجودية ، التي لا تجري بـــين أقطاب فكرية أو مفاهيم مجردة ، ولكنها تحدث بين بشر حقيقيين. إنها المعاناة التي تنجم عن تصادم مواقف هؤلاء النماذج، وهي في حركتيها اليومية المباشرة . وهكذا فلا يمكن ان تدرس التناقضات الداخلية في الحركة الثورية إلا بنوع من المعاناة أيضاً، فالمعاناة هي منهجنا الحي للكشف عن أية معاناة أخرى. ان مواقف الرجال خلال مفاصل العمل الثوري هي التي تترسب كحقيقة واقعية في سياق هذا العمل ، وهي بالتالي تجسد فعالية الثورة بالنسبة لأبنائها مـــن داخل ، كما بالنسبة لمردودها الثوري خارج الحركة . وفي الواقـــع عندما نعترف بهذه التناقضات الداخلية ، فنحن لا نضع يدنا على نواقص ، ولكننا نضع يدنا على عناصر المعاناة ذاتها . فالثورة يجسدها ثائرون ، والثائرون تنتظمهم حركة طليعية أو حزبية . واذا ما شئنا اذن ان نقيّم الثورة ، فلنحيَها كما هي . إن من نتائج بعض مواقف النزعة التطهيرية هي أنها ترفض من الاساس الاعتراف بمثل هـــذه الموقفية داخل التجربة الثورية . وهي تود ، خوفاً من الاعتراف بالنقص ، ان تطمس حدود المواقف ، وان تتجاهلها ، وبالتـــالي ان تسعى إلى إلغاء أية رؤية منعكسة على الذات . غير ان المعاناة قائمة ، وخلال هذه المعاناة تتضح قيم المواقف الثورية . وبقدر ما تحتدم عناصر هـــذه المعاناة ، تتجسد الجدلية الوجودية ، أو بالأحرى جدلية المواقف التابعة للأفراد الثائرين أنفسهم . وهذا فرق جديد آخر بين جدلية المعاناة في الحركة الثورية العربيـــة ، وبين سلوكية التبعية في التنظيم

الشيوعي . فان هذا التنظيم يرفض ، في موقف تطهري آخر ، الاعتراف بوجود التناقضات الداخلية ، ولذلــك فهو يكبت حرية التشكلات الفردية ، ويصمها بالتخريب مباشرة. عند ذلك يخضع الجميع لنوع من ديكتاتورية التنظيم، ويكون المجال مفتوحاً من جهة أخرى امام ظهور تيار ، اذا ما تسلم قوة القيادة الداخلية، فتك بالاتجاهات الأخرى الموجودة فعلاً داخل الحركة رغم إنكارها . ان ديكتاتورية التنظيم اذ تكبت تلقائية الموقفية ، إنما تسعى الى ربط الفرد الثائر نهائياً بمصدر وحيد التوجيه ، بحيث قد يفقد هذا الفرد بالتدريج صلته مع جدلية الواقع الثوري ، ليستغرق نهائيـاً في نوع معين من الثورية ، هو الذي يخططه له الحزب . اما الانضوائي الذي يعاني الجدلية الموقفية في الثورية العربية ، فهو بقدر ما يستغرق في انضوائيتــه يصبح أكثر صلة بثورية الواقع من جهة ، وبثورية الانضواء من جهة اخرى ، ولعل ذلك هو الذي يجعل معاناة الثائر العربي أعنف وأعمق وأشد تمزقاً. لأنه يجعل من ثوريته نقطة التقاء بينجماعيات الواقع وجماعيات التنظيم. ولا شك في أن بين الجماعتين تظل ثمة فروق، قد تصل الى درجة التباعد أو التنافر او درجة الالتقاء والتوازي . وعلى ذلــك فان الانضوائي ، يعتبر نفسه مرتبطاً اولاً بجدلية الواقع الثوري، أي بجدلية الانبعاث، قبل ان يكون مرتبطاً بالحركة التنظيمية التي تدعي انبثاقها عن جدلية الانبعاث. ان مثل هذا الارتباط، هو الذي يؤكد ، بالنسبة للثائر المنضوي ، أصالته من حيث هو يحيا تجربــة الانبعاث كشرط وجودي بديء ، قبل ان يحيا صورَ تنفيذ هذا الشرط ، مــن خلال وجهات نظر التنظيم الحزبي . وبقدر ما تتوفر هذه الاصالة ، أو بقدر مـا يعمق مثل هذا النوع من الموقفية ، يظل الجسر قائماً بين الانبثاق الطليعي وبـين التنظيم الحزبي . وبالتالي فانه بقدر ما تتاح لمثل هؤلاء الأفراد تغطية القاعدة من جهة ، والتسامي إلىمراكز القيادة من جهة اخرى ، يتخذ الحزب صورته الشرعية باعتباره التجسيم اليومي الحقيقي عن انبثاق الطليعة . وعلى العكس من ذلــك ، فانه إذا ما منعت التناقضات الداخلية انبثاق كثرةٍ في المواقف الانضوائية الأصلية، فإن التنظيم الحزبي نفسه سوف يبتعد كثيراً عن كونه الصورة اليومية للطليعة

المنبثقة عن لحظة الانبعاث . وبالتالي فسوف يصبح حزباً بين الأحزاب الأخرى، ويفقد بذلك فرْقَـه النوعي الأساسي، الذى مهد له قيادة الحركة الثورية. وعندما يصل التنظيم الحزبي الى هذا المستوى من فقدان الشخصية الطليعية ، فإنه سوف يصبح على عكس مهمته الأساسية، أي انه بدلاً من ان يجتذب الطليعيين الثوريين من بين صفوف الأجيال الصاعدة البريئة ، فإنه سوف يجتذب العناصر الانتهازية ويفسح لها المجال بين صفوفه . ويتحول بذلك الحزب الى فئة تصطرع مع بقية الاحزاب ، من اجل التسلط على الحكم والانتفاع بمراكز الوظائف الكبرى في الدولة . أي ان الحزب بكامله قد يصبح في وضع الانتهازي ويتحول هكذا الى عقبة من أعقد وأقسى عقبات الواقع الفاسد نفسه المضاد للجماعية الثورية .

فلا شيء إذن يكفل تلقائية انبثاق المواقف الطليعية الاصلية ، بين التناقضات الداخلية للتنظيم الحزبي ، مثل هذا السعي المخلص في جزئيات العمل الثوري ، لأن ُيصاعد الحزب نفسه الى مستوى الطليعة التي هي الأصل ، المبرر الوحيـــد لوجوده ، والمصدر الوحيد لمشروعيته . وبعبارة أخرى فإن الذي يحفظ للتنظيم الحزبي قدرته على تغيير الواقع فعلاً ، وقيادة الجماعيـــات الثورية المطابقة للحظة الانبعاث ، بل شمولها وعمقها الوجودي ، هو مقدار صلته بالنموذج الطليعي ، أو بالأحرى بمقدار ما ينفتح في داخله عن إمكانيـــات طليعية متتابعة متنامية حسب مراحل تطور الجدلية . فذلك هو المقياس الأساسي الذي بموجبه يمكن محاكمة التناقضات الداخلية من جهة ، ومحاكمة التصرفات الثورية التي يلتزمها الحزب من جهة أخرى .

فالطليعة مع ذلك ليست صيغة خيالية او مثالية . لأن الثورية العربيـــة في الأصل ليست حركة عابرة ، كما انها ليست وجهة نظر جزئية تنبثق داخل مجتمع يسير في تقدمه الطبيعي . فكما قلنا منذ البدء إن الثورة العربية هي بداية تكوين وجودي لأمة تريد ان تتحد بمصيرها ثانية ، داخل الحضارة الانسانية ؛ وعلى ذلك فان الثورة السلبية التي قد تظهر أولاً من خلال النضال السياسي ، ليست هي إلا بمثابة رأس جسر من المجتمع الراكد إلى مستوى الشعور بلحظته الانبعاثية . ومن

هنا كان لزاماً ان نتصور ان كل عملية ثورية في الأساس إنما هي تعبير عن تحقيق انبعاثي ، وهذا التحقيق الانبعاثي هو في الأصل عملية حيوية تصدر عن امكانيات الأمة نفسها ، وهي تواجه مسألة وجودها ، مسألة انعزالها ، او مشاركتها للمصير الانساني . وبذلك فان الثورة العربية هي الحركة الرائدة الطليعية من أجل بناء وجود انساني لأمة تعاني لحظة انبعاث ، لحظة تمخض عن امكانيات جديدة لا نهاية لها . وكل حركة ثورية تبتعد عن هذا الأصل التكويني الشامل ، فانها لا تلبث ان تستغرقها جزئيات الواقع الفاسد، وتصبح هي نفسها أداة لاستمراره وبقائه ، بدلاً من ان تكون أداة لتحطيمه وتجاوزه . وهكذا سقط حزب البعث في منتصف الطريق . سقط الحزب ، وبقيت الطليعة ، التي سارت وراء الريادة الجديدة للثورة العربية .

العلاقات الموضوعية والتقييم الموقفي :

ينبغي اذن ان نسلم منذ البدء ان جو الحياة الثورية داخل التنظيم الحزبي ذي الصلة الطليعية ، إنما هو جو معاناة . فليس هو في الاساس جو انتظام سكوني يعتمد على مجرد العلاقات الموضوعية الجامدة . ان الافراد الثوريين في هذه المعاناة يحيون أيضاً معاناة وجودهم الخاص من خلال معاناة وجود الطليعة بالنسبة لأمتهم. ومن خلال هذه المعاناة يبرز الافراد في عنف هذا الصراع ، بين تجربة حريتهم وتجربة الحرية التي يشرعونها لأمتهم . فمن الطبيعي إذن ان تبرز التناقضات . ولكن هذه التناقضات ليست سوى جدلية وجودية ، تنمو من تواجه المواقف الثورية لدى الافراد أنفسهم . وفي الأساس فان الثورية لم تكن ثورية فئة او طبقة او جماعة ، بل انها ثورية شخصية ، وذلك لانها تنبثق عن شخصية الأمة وهي في معاناتها الاشمل والاخطر من أجل مشكلة وجودها أولاً . ولذلك فان المعاناة داخل التنظيم الحزبي إنما هي معاناة شخصية . وبالتالي فان للفرد وزناً أساسياً داخل الحركة الانبعاثية . فلا يمكن ان نستغني عن مواقف الافراد ، لفلسفة تنظيمية أخرى ، تدعي قيام العلاقات الموضوعية ، وتتحدث باسم هذه العلاقات

الموضوعية ، وليس هدفها من وراء ذلك سوى قهر الامكانيات الفردية ، و كبت عمل التلقائية ، وبالتالي اعدام امكانية انبثاق المواقف ، بما فيها من حركية وجدلية نامية خالقة . ففي تجربة المعاناة هذه ، مثلما يسعى الفرد الثائر إلى تحقيق الشخصية الحرة بالنسبة لأمته ، فهو يريد أيضاً ان يحققها بالنسبة لذاته . وهكذا كانت الصلة عضوية حيوية بين ثورية الفرد وثورية الأمة ، في مثل هذه الحركات التكوينية الكبرى ، التي تهدف إلى قلب كيان إلى كيان آخر . والفرد المنضوي في هذه الحركة ، هو اكثر الافراد من بين جيله ، شعوراً بضرورة المعاناة . ولذلك فانه من خلال الثورة القومية يريد ان يواجه مشكلة وجوده هو بالذات . فليس هناك انفصال واقعي بين العلاقات الموضوعية او بين تشكلات المواقف، إذا ما فهمت هذه العلاقات من حيث انها هي الصورة الخارجية المنعكسة على جملة الحركة الثورية من قبل اشعاع جدلية المواقف الداخلية ؛ تلك الجدلية التي هي العملية الحيوية الاولى لتكون الفرد بمقابل الافراد الآخرين ، والافراد بمقابل هيمنة الشعور بمسؤولية الريادة والطليعة . أما إذا فهمت العلاقات الموضوعية ، من حيث انها أطر خارجية تماماً عن محتوى المعاناة الثورية ، فإن ذلك سوف يجعل من الحزب فعلاً عبارة عن تنظيم منفصل عن واقعية التجربة التكوينية للأمة . ان العلاقات الموضوعية ليست أطراً خارجية ؛ وإلا فانها سوف تقضي على حركة المضمون الثوري . ولكنها تصبح بالتدريج صورة واقعية عن الثورية كلما اقتربت من بينه الجماعيات الجدلية وأصبحت جزءاً فعالاً منها . فما هي هذه العلاقات الموضوعية اخيراً ؟ . انها إذا ما نظرنا اليها من وجهة جدلية المواقف داخل المعاناة ، رأينا انها عبارة عن سلسلة من الايضاحات تتحقق مع تحقق العمل وتناقضاته الخاصة ، لتصل هذه الايضاحات أخيراً إلى نوع من المقاييس التي تحدد ما يشبه القيم ، تفيد في تأصيل جدلية المواقف وتبعدها بقدر الامكان عن الانحراف ، او الضياع ، او الاستغراق في الزيف وتضليل الذات .

وفي الأصل فان ما تعنيه جدلية المواقف ليس هو مجرد الالتزام الفردي ؛ او بالأحرى فان الموقفية ليست هي الفردية بالمعنى المألوف للكلمة ، والحق أن

الفردية قد تكون مضادة للموقفية . وذلك لأنهـا قد توحي بعزلة الكائن أو خضوعه خضوعاً أعمى لنوازعه ونزواته الجزئية العابرة . أي أنها انغلاق انساني ، تضمر امكانياته او يذوب ثقله بالتدريج من ميزان الواقع الثوري. وعلى العكس فان الموقفية هي هذا الانفتاح الحي الخصب ، من الفـرد إلى حلقات ، تتسع باستمرار ، من المواقف التي يلتزمها الآخرون . فالموقف هو الحد الفاصل بين عزلة الفرد وسديمية الجماعة . انه الجسر الذي يحقق امكانية الفرد لارتباطه مع الجماعة ، تلك الامكانية التي تنقل الجماعة ايضاً من وجودها السديمي المجرد إلى وجود واقعي ، يتمثل في جملة المواقف التي يتخذها الأفراد الآخرون . وعلى ذلك فان حيوية الانضواء تمنح أصالتها بالدرجة الأولى من فعالية هذه المواقف وبما يمكن ان تخلقه في حركتها الجدلية من تشخيص مسؤول لمفاصل العمل الثوري .

ولذلك فان الفرد الذي ينتظم في اطارات العمل الثوري ، لا يشعر أنه قد تنازل عن حريته ، ولكنه على العكس ، فإنه يلتقي بالحقل الطبيعي لتشخيص هذه الحرية . غير انه من جهة أخرى ، إذا ما انخفض التوتر الثوري داخل هذا التنظيم ، فان المواقف تخسر الشيء الكثير من أصالتها ، وتجنح نحو الجفاف ، وبالتالي يمكن ان يصبح ادعاؤها وسيلة لتغطية الانتهاز داخل هذه الحركة .

إن الشباب العربي الباحث عن مجال تحرره العفوي ، يقذف بنفسه إلى تجربة الثورة الشاملة ، من أجل ان يحقق هذه الثورة ، بالنسبة لتكوينه الوجودي هو ؛ ولذلك فلا يمكن ان يتنازل عن موقفه داخل الانضواء . وكثيراً ما ينقل هذا الفرد مشكلات تكوينه الأول ، الذي تلقاه من جو تربيته في ذلك الواقع الفاسد الذي يود التمرد عليه ، ينقل هذه المشكلات إلى مجال معاناة القضية الشاملة داخل التنظيم الثوري . وعند ذلك فان معاناته الشخصية سوف تبدأ في الواقع، في اللحظة التي تمتد منها الجدلية الوجودية إلى جذور تلك التكوين الخام الأول. وهنا فان حالات من التمزق الذاتي قد تتلبس هذا الفرد ، وهو يحاول ان يبحث عن موقفه كثوري لا في الشعارات فحسب ، ولكن في الموقف الانساني الجذري.

الصراع التعويضي داخل التنظيم :

قلنا ان هيمنة القيم الطليعية على جو التنظيم الثوري هي التي تكفل إلى حد بعيد توجيه الجدلية الموقفية ، بين الثوار الانضوائيين ، إلى ما فيه تأصيل هذه الثورية ، من حيث التكوين قبل السلوك الخارجي . غير ان الأفراد عندما ينضمون تحت لواء هذه الحركة ، حاملين معهم ترسبات التكوين الخام الأول ، الذي تلقوه من مؤسسات الواقع الفاسد ، قد لا يرتفعون جميعاً إلى مستوى الموقفية الايجابية . فان الهيمنة الطليعية تفترض نماذج عالية في الايجابية الثورية ، تتلخص كلها في دعوة للبطولة . هذه الدعوة التي قد لا يستطيع تلبيتها جميع الأفراد بنسب متقاربة ، ما دمنا نعترف اولاً بان المحصلة الفردية عامل أساسي في المعاناة الثورية ؛ وعلى هذا الأساس فكثيراً ما تترسب ردود فعل متفاوتة القيمة، هي أقرب إلى مركبات الفشل والارتداد في موقف الفرد ، قبل ان يكون في موقف الحركة . ومن هذه الردود السلبية تتشكل عقد ، هي بمثابة عقبات في مسألة النمو الثوري ، داخل معاناة الفرد والجماعة معاً .

ولعلّ أخطر ما يحمله الفرد إلى الحركة الثورية ، تسليمه اللاشعوري بينه وبين نفسه ، بالانسحاق الذاتي ، أمام المؤسسات الرجعية التي تكبت تحقق شخصيته في الواقع الفاسد . فبين هذا التسليم بالانسحاق ، وبين النزوع نحو التمرد من أجل الفوز أولاً بالحرية الشخصية ، وبين هذا المستوى الصراعي وبين مستوى الدعوة الطليعية التي يتلقاها داخل المعاناة ، تتألف جدليات عنيفة تتراوح بين التصعيد والانهيار ، بين الصمود والاستسلام ، بين الألم والفرح ، وهكذا يتحول نداء الهيمنة الطليعية بالنسبة لهذا النطاق من المعاناة ، الى نداء للاخلاص . اخلاص المعاني لمعاناته . ولا يعني الاخلاص للمعاناة ، في نطاق تجربة تولـّد الموقف عند الفرد ، إلا نوعاً من التحدي المستمر بالنسبة لذاته ، كما تواجه فعلاً عقباتها الداخلية وتحاول أن تتغلب عليها ، تفتتها وتفتح أفقها لتقبل الدعوة الطليعية بكل وضوح وبساطة . ولكن من جهة ثانية ، فإن الأمر لا يتم بمجرد هذه القسوة شبه الأخلاقية التي يمارسها الفردي ضد ذاته . فليس هناك طريق واحد لبلوغ البراءة

الإيجابية ، كما أن هذه البراءة نفسها لا يمكن ان تختصر بأهداف آنية . انها ليست شيئاً ثابتاً يمكن تملكه مرة والى الأبد . فالبراءة التي يطمح إليها ذلـــك الفرد المنضوي ، من أجل تشكل موقفه الثوري،هي نفسها تحدّ داخلي في صميم المعاناة. إنها الشرارة البيضاء التي تتوهج من صراع العناصر المتناقضة . فهي ليست بذروة مكانية تقع على مسافة من تجربة التأصيل التكويني. كما أنها ليس لها وضوح الذروة، بل إن مثل هذا التصنيف ، بين أعلى فأسفل، لا وجود له في واقع المعاناة في جدلية التحقق الثوري المخلص لذاته . بل بالأحرى هناك عملية غرز وحفر في الذات وفي تربة الواقع نفسه . وبالتالي لا يمكن أيضاً حل تلـــك التناقضات بمجرد اصطناع النظرات التأملية ، المجردة ؛ فموقف الثائر من مؤسسة العائلة والطبقة، من مؤسسة الأخلاق والدين ، من مؤسسة التراث وأشكال الطغيان والتسلط ، في مجرانـــ الواقع الفاسد ، لا يمكن أن يتضح بمجرد اعلان شعارات فكرية خارجية . إن الثوري يجر مشكلات هذا الموقف إلى صميم التنظيم الثوري. وبقدر ما يفهم دعوة الإخلاص من الهيمنة الطليعية على وجدانه ، ويصل الى أبعد مراميها بسلم بينـــه وبين نفسه ، بأن ثوريته لا تتوجه الى العالم الخارجي بمعزل عن ذاته ، وان ثوريته هـذه لا تكتفي بقلب أوضاع سياسية في مجتمعه ، بل إنه يحس إحساساً متمزقاً مأساوياً ، بأن صراع الجدلية الوجودية ليس له مجال ، من البدء حتى النهاية ، إلا داخل حدود موقفه . بل إنها هي التي سوف تبرز قيمة هذا الموقف . وأما عندما يعجز الفرد عن استيعاب هذه الدعوة ، فإنه لا يعجز بصورة إدراكية ، وإنمـــا يكون العجز من ناحية الإخلاص الذي لم يتوفر له بعد ، خلال معاناته لجزئيات العمل الثوري . ولسوف يضع حداً فجاة لكثير من الأسئلة الأساسية ، ويقدم لها أجوبة عريضة سطحية ، قد تفيده في الاستمرار ، بمجرد الاستمرار . ولكنها لن تفلح في ربطه بالجدلية الموقفية ، أي لن تفلح في جعله ثائراً على مستوى التكوين ، بل سوف يبقى ثائراً على مستوى الشعارات المباشرة . وحتى عندما يبقى أسير هذا المستوى ، فإنه لن يكون قادراً على استخلاص النتائج المطلوبة منه . وعند ذلك فإنه سوف يلجأ الى أنواع من السلوك التعويضي ، الذي لا يخلو هو نفسه مـــن

انتهازية أخلاقية ، او بالأحرى ثورية . فهو بدلاً من ان يعترف بأنه ما زال أسير التجربة ، فانه يدعي امتلاكها امتلاكاً كاملاً . وبدلا من هـذا التلمس المتواضع الصامت للكشف عن أصدق المواقف وأكثرها قرباً من البراءة ، فانه سوف يضج صاخباً باعلان مواقف مصطنعة تريد تحقيق قيم في الأفضلية ، لم ينجح في إيجاد أسسها منذ البدء .

ولقد يتجلى هـذا السلوك التعويضي لدى الأفراد الذين لم يستجيبوا لدعوة الاخلاص.. الذين لم يستطيعوا التزام التحدي ضد ذاتهم المصنوعة من قبل مؤسسات الواقع الفاسد.. الذين غطوا عجزهم ذاك بأكبر الادعاءات الثورية داخل التنظيم.. الذين وقعوا بوهم اقناع الذات بما لم يقدموه فعلاً ، لدرجة تصديق الكذب على النفس قبل الكذب على الآخرين .. هؤلاء هم الذين يتآمرون ، من حيث لا يدرون ، على حرية المعاناة داخل التنظيم . وهم الذين يقفون بالمرصاد للأفراد ذوي المواقف الأصيلة باسم تماسك التنظيم نفسه . فيمنعون الانبثاقات الطليعية من القاعدة الى القمة ، كما أنهم يؤلفون طبقة صماء بين تفاعل القيادة والقاعدة . وكثيراً ما يساعدهم هذا العوام على السطح ، على تسلم مهام قيادية خطيرة . واكثر من ذلك فقد يتسربون الى صميم التوجيه ، وعند ذلك يبدأ سرطانهم في تحويل خلايا الحركة لافتراس بعضها بعضاً . ومع ذلك فان تكاثف هذه النوعيـة من النماذج المزيفة داخل التنظيم ، هي نفسها التي تؤلف القطب الآخر في تجربة المعاناة، من أجل الاصالة والبراءة لدى الآخرين . ان بروزهم داخـل التنظيم ما هو إلا عينة عن بروز الواقع الفاسد ، الذي كانت الحركة ، من أجل الانقضاض عليه . وكما ان نمو جدلية الثورة بالنسبة للحركة ، يزداد كلما تكشف الواقع الفاسد عن مؤسساته الاخفى ، كذلك فان بروز هذا الاستقطاب المزيف داخل جدليـة المعاناة في الحركة، يمكن ان يكشف عن امكانيات صراعية أقوى فأقوى في هذه الجدلية الداخلية .

وإذا كان واقع كل تنظيم ثوري يتطلب تسلسلاً في المهام والمسؤوليات ، فان مطامع التزعم التي تأسر بعض الأفراد بأهداف وصولية ، هي تغطية في الأساس

لعجزهم عن معاناة التحدي لأصولهم غير الثورية ، هذه المطامع هي التي ستدخل خللًا في قيم هذا التسلسل . وهي التي ستساهم الى حد بعيد بفصل هذا التسلسل من محتواه الثوري ، وتجعل منه علاقات جامدة ، قد تسميه علاقات موضوعية ، لتبرير تسلطه وتحكمه الغفل ، من أي توجيه شخصي . فلكي يخفي المزيفون الداخليون مطامعهم في التزعم ، فانهم يحمّلون مسؤولية الفشل الذي يجرونه على الحركة ، إلى هذه العلاقات الموضوعية التي ساهموا هم أنفسهم في تجميدها وإبعادها عن حيوية التفاعل الثوري الداخلي .

وهؤلاء ، إذا ما بلغت بهم وصوليتهم حد التشبث ببعض المراكز القيادية ، فانهم يدفعون بالحركة إلى خوض معارك خارجية مزيفة ، لكي يمنعوا جدليتها الداخلية من ممارسة ثوريتها ، ضمن حدود الحركة نفسها . وذلك لأن هذه الثورية الداخلية ، إذا ما تابعت نموّها ، فسوف تكشف عن عقد هؤلاء المتزعمين المزيفين ، وسوف تجرفهم وتبطل فعاليتهم ، وتقضي بالتدريج على تثبيت هذا التقليد الخبيث ، تقليد الوصولية في تزعم المراتب القيادية داخل الحركة .

ان الحركة عندما تفقد قدرتها على كشف عقباتها الداخلية ، أي عندما تفقد تحدّيها لذاتها وثوريتها على ذاتها ايضاً ، فان انتاجها الثوري الخارجي سوف يتابع حركة ضعف مستمرة ، توصله إلى انعدام التأثير في الجماهير المتحلقة حول الحركة . وبذلك يسهل على الواقع المستنقع حولها ، ان يمتصّ قواها بالتدريج ، وان يعزلها عن دورها التاريخي [1] .

---

١ ـ كتب هذا الفصل في الاشهر القليلة السابقة على ثورتي البعث في العراق وسوريا عام ١٩٦٣ . ولقد نشر في كتاب (مصير الايدلوجيات الثورية) خلال شهر تموز من العام نفسه . ونعيد نشره في هذا الكتاب ، لأن كتاب (مصير الايدلوجيات الثورية) لم ينشر على نطاق واسع لاسباب كثيرة . ان هذا الكتاب كان احد الاسباب المباشرة التي دفعت قيادة البعث الى سجن مؤلفه بعد الثامن عشر من تموز مدة ستة شهور في سجن (المزة) . وكان هذا الفصل بالذات هو موقد الحقد البعثي على الكاتب ، ومعه مقالات اخرى نشرت في صحف بيروت اثناء مؤامرة البعث على وحدوية الثورة والانحراف بها الى الثورة المضادة .

القسم الرابع

البعث ومأساة النهاية

الفصل الأول

الوحدة قبل ١٩٥٨

بالرغم من ان فكرة الوحدة كانت ولا تزال أكبر المحركات الثورية العربية المعاصرة ، فان الاحداث السياسية الكبرى التي وقعت باسمها من قريب أو بعيد ، جعلتها خاضعة لأضواء مختلفة ، ولأبعاد في الرؤية الثورية ، تكشف عن تفاصيل في الموضوع نفسه ، ولكنها تفاصيل تغير من هذا الموضوع كلية .

ومهما يمكن ان يقال في أي هدف ثوري آخر ، فان هدف الوحدة يظل هو نفسه اللحمة الأساسية لأي تكوين تقدمي ، ينجم عن نضج الوعي السياسي من جهة ، وتحتمه التطورات التاريخية من جهة أخرى .

ولكن بالمقابل ، فان النكسات التي اعتورت تحقق هـــذا الهدف ، والقضايا الفكرية والقومية التي أنضجتها هذه النكسات نفسها تلقاء الوعي الثوري ، قـــد جعل بعض الثوريين يندفعون دون قصد فكري واضح ، الى نقل هذا الهدف نحو المرتبة الثانية من اهتماماتهم . كل ذلك تغطية إيجابيـــة لمرحلة السأم المترسبة عن حصائل الخيبات المتوالية . ونحن لا يمكننا إلا ان نقر بأن ذخيرتنا الثورية لم تزل

تتغذى بالدرجة الاولى ، من فيض الانفعالات الانسانية الطيبة . ولعل الفشل هو من أكثر هذه الانفعالات قدرة على البحث عن المعوضات الوجدانية والعقلية. فقليلاً ما تروى الثوري العربي أمام الخيبة ، وعاند في مواجهتها ، بدلاً من التغطية والفرار من صورتها الشوهاء .

وهذا يجرنا في الواقع الى تلمس معنى الخيبة في العمل الثوري كتوطئة ضرورية، لمعاودة طرح مشكلة الوحدة والانفصال ، ما دامت هذه المشكلة قد ابتليت بأفدح الخيبات، وما دامت هذه الخيبات هي التي، مع ذلك ، تحرك جدلية العمل الثوري، في منطقتها الانسانية الذاتية، قبل ان تكون في مخطط الواقع الموضوعي.

فبدلاً من ان تعاني الثورية العربية من مركب الفشل ، والتلذذ بسلبيته ، فانها ملزمة ان تعيد طرح أصالتها على بساط البحث والتحليل ، في كل مرة يتلبسها هذا المركب العقيم . وانه لمن السهل ان يتراءى لنا مبدئياً ان الفشل قبل ان يكون مركباً ، فان له أسبابه الخاصة . وان هذه الاسباب ، بقدر ما بعثت على تحقق الخيبة في مرحلة سابقة ، فان وعيها في مرحلة لاحقة ، ومن خلال تركيباتها الموضوعية ، هو الذي يولد نقيضها. والمهم أولاً ان نبحث عن الحركة بعد النكسة. فهي دليلنا المتبقي عن حيوية الثورية ككل . وهي التي تثبت لنا ان هذه النكسة ليست سوى جزء من الحركة، وبالأحرى فهي لحظة معينة من تطور الثورية نفسها. انها فترة مرض في جسم حي ، لن تثير فيه إلا مقاومة جديدة .

وخطوة أخرى : ان الكشف عن أسباب النكسة عملية معقدة . وذلك لانها عمليـــة تجري في جو منفعل ، مستغرق في تشنجات اليأس ومحاولات التعويض الكاذبة المختلفة. وحتى لو سهلت رؤية هذه الاسباب ، فاننا لن نراها إلا من خلال سياق تراجعي ، ينمو كله من لحظة الصفر هذه . لحظة من الترسبات الكثيفـــة خلفها حطام الآمال والمشاريـع . وفي حال الكشف عن الاسباب ، ينبغي لنا ان نضع نصب أعيننا هذا المحذور الخطير: فنحن لا نريد ان نعرف أسباب الهزيمة لكي نقوم بعملية تراجعية من التمني المقلوب ، فنقول لو أننا فعلنا كذا بدلاً من كذا لما توصلنا الى هذه النتيجة . فلا فائدة مطلقاً من هذا التمني المقلوب ، لأنه يتوجه

الى عناصر من الماضي ، حدثت ضمن سياقها العضوي الخاص ، وما كان لها ان تحدث بعد الشكل الذي وقعت فيه. فللماضي حقيقته المطلقة ، التي لا سلطان لأي ارادة ثورية عليها مهما بلغت ثوريتها وصلابتها . وكذلك ينبغي لنا أن نأخذ حذرنا من المبدأ التقليدي الشائع ، الذي يقول بأن دراسة احداث التاريخ تعطينا دروساً لنحسن الصنع في الحاضر والمستقبل . فذلك المبدأ ما هو إلا جزء من الفلسفة المثالية ، والمحافظة في ميدان السياسة ، والتي تقف على طرف نقيض مع الفلسفات الثورية . فليس هناك درس ، بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، يمكن للمفكر ان يشتقه من الوقائع الماضية ، لأن الأصل في الموقف الثوري انه يقوم على قدرة خارقة ، تتدخل في الاحداث نفسها ، من أجل تغييرها ، بما قد لا ينسجم مع سيالتها الواقعية الأصلية . وان هذا التدخل القسري والعنفي ، لا بد بالاحرى ، من ان يمنع التكرار ، حتى لو كانت حركة التاريخ نفسها تقوم على التكرار . وهذا ما لم يثبت امام بديهيات المذاهب التقدمية في فلسفة التاريخ .

ولكن من ناحية اخرى فان التشابه في أطر الاحداث الانسانية ، مثل الانتصارات والانكسارات ، وقوانين نشوء الدول وانحلالها ، وأعمار الحضارات وغيرها ، هذا التشابه فسرته المذاهب التقدمية ، والجدلية منها خاصة ، على انه راجع الى وحدة الحركة التاريخية ، وليس الى وحدة الاحداث ، او المضمون ، الذي هو مجموعة من التفاصيل ، لها تغايرها الكمي والكيفي ، ولا يمكن ضبطه في نمطية واحدة .

واذا طبقنا هذا على موضوعنا مباشرة ، طالعتنا اولاً هذه الصورة الواضحة عن التشابه في النكسات التي ألمت بالثورية العربية ، منذ ان دخلت مرحلة التفاعل الكبير ، بعد نكبة فلسطين ، الى يومنا هذا. ولكنه تشابه من حيث الاسم فقط ، لا من حيث حقيقة الفعل او الحدث . فنحن لا نملك إلا اسماً واحداً هو الفشل او الانتصار ، عن كل عملية فشل او انتصار . انه الاسم الذي يوحد بلفظة مفردة ، مجموعات من الاحداث ، لها آلية متشابهة ، ولكن مضمونها الواقعي يختص دائماً بشخصية منفردة ، لا بد من دراستها للكشف عن اصالتها ذاتها .

وبمعنى آخر فان لكل تحقق فاشل في سياق الثورية تجربته الخاصة ، ومغزاه القومي ، وله ظروفه الموضوعية ، التي مهما تشابهت مع ظروف فشل آخر ، إلا ان لها لونيتها الخاصة ، وشخصيتها الواقعية المتميزة .

نحن عندما ننظر الى واقعة الفشل في ذاتها ، فلا يمكننا إلا ان نعتبرها واقعة سلبية بكل وضوح . ولكن الخطأ الذي نرتكبه في مثل هذه العملية ، هو أننا نرى الى الواقعة بمفردها ، ونتشبث بها ، ونمتصها في معاناة قومية شخصية ، لا تستطيع تشخيص هذه الواقعة في مجالها القومي الموضوعي .

ولنشرح هذه الفكرة قليلاً :

أولاً ، ان مشكلة الثورية القومية ، والثوريين القوميين ، انهم يعانون قبل ان يفعلوا . وبكلمة اخرى فان الثورية القومية تنطلق اولاً من شعور بالمفارقات ، ناتج عن مقايسة قيمة بواقع . وهذا الشعور يظل حبيس الوجدان الشخصي للأمة . فالموقف الثوري ضمن هذا السياق ، هو نسيج هذا التفاعل بين القيمة او المثل الأعلى وبين الواقع ، بدءاً من القيمة اولاً .

ومن هنا تفقد الواقعة الثورية تشخيصها الموضوعي ، المنفصل عن أي تقييم وجداني . فبدلاً من ان نكتشف الواقعة وهي في حدودها المشخصة ، وفي ملامحها الواقعية الخارجية عن هواجسنا وانفعالاتنا ، فاننا نعطيها غالباً طابع الأزمة الفردية . وكذلك نضيع معنى الواقعة ، وأكثر من هذا ، فاننا نعزلها عن سياقها التاريخي . وهذا أخطر ما في عملية الفهم القومي للوقائع الثورية . ولذلك فان هذا الفهم لن يستطيع ان يرقى الى أعلى من المعاناة الادبية والشعرية . وتظل عملية الكشف الفكري الشامل ، من أشق ما يواجه الثوري ، مفكراً كان او عاملاً .

ان التأثر الادبي او الشعري ، لن يغير شيئاً من الحادث المؤثر ، بقدر ما قد يبعث على تكونات فولكلورية ، تقنع بحالة الانفعال السلبي لدى الوجدانات الشعبية الاسيانة .

ولعل هذه الظاهرة كانت من أكبر نواقص العمل الثوري ، الذي كان

يمنع ، بصورة عفوية ، قيام أي استيعاب فكري للمعطيات المتغيرة، في سياق هذا العمل الثوري نفسه . بل ان الكيفية التي كان يتحقق بموجبها هذا العمل ، كانت تفرض باستمرار التزود من التأثرات الآنية لدى الجماهير .

ولذلك ، فان العمل الثوري كان يظل دائماً أسيراً للبدايات . انه في البداية ، وهو مضطر دائماً ان يبدأ . ولكنه لم يعرف الاستمرار ، الاستمرار الذي يتطلب قلباً جذرياً لطبيعة هذه الثورة ذاتها . وإذا ما بدا ان الواقع الثوري هو في ثورة مستمرة ، فان هذا الاستمرار ، ليس في حقيقته سوى سلسلة من البدايات ، التي لا تتخطى أبداً نقاط الانطلاق ، لتصير حقيقة ثورية ، لها ملامحها الموضوعية المستقلة ، لها أزماتها ونضوجها الذاتي .

وحتى عندما كان هناك حزب منظم ، يدعي ملكية الثورية العربية ، فانه لم يعرف في تاريخه ، الطويل نسبياً ، أي سياق من الاستمرار سواء في فكره الثوري ، أو عمله السياسي . بل كان تاريخه عبارة عن حلقات من البدايات المغلقة، تقوم بينها فجوات صماء ، بحيث تجعل كل حلقة ، حركة تلمس بدائية،لا تستفيد مما سبقها ، ولا تفيد مما سيلحقها . وهكذا كانت هذه الحلقات تقع في مرض التكرار العقيم ، فتولد نفس الاخطاء مع اختلاف الظروف ، حتى يتحول العمل الحزبي أخيراً إلى هدف في ذاته ، بعد ان يعجز عن جعل نفسه بمثابة الأداة الحقيقية . وبذلك يتجمد الحزب ، ويؤلف من نفسه مرضاً جديداً ، من أخطر أمراض الواقع نفسه . لأنه مرض مسلح بوعي كاذب ، يصور نفسه عكس حقيقته ، ويملك قوة الاقناع ضمن التبريرات ذات المنطق الايديولوجي المنمق .

فاذا ما مارس هذا الحزب ، عبادة نفسه ، برر هذا بأن الحزب هو ضمانة الثورة للأمة كلها .

وإذا ما دفع بأفراده إلى ممارسة الارهاب ، فتلوثت أيدي شبابه بالدم والتعذيب والقتل والسحل ، سمى الحزب ذلك بمرحلة تثبيت حكم الحزب . وإذا ما وقف عاجزاً عن التفاعل مع الجماهير بين الصف الثوري الحقيقي ، وبين الصف الرجعي ، في حيرة عقيمة ، فانه يخترع لنفسه خطأ (ثالثاً) ، يلغي حدود المعركة

الأساسية ، ويصطنع وصاية كاذبة على أهداف الشعب ، يخص بها نفسه ، من دون جميع القوى الثورية الأخرى .

ان هذا الحزب ، عند كل مفصل قومي حاسم ، يجد نفسه مضطراً ان يبدأ من جديد ، بطرح أهداف ، وخلق معارك داخلية ، ومعاناة تناقضات ، من مستوى التنظيم الذي لا يلبث حتى يصاب بالتشرذم والتجنح الشخصي، إلى مستوى المواقف السياسية الكبرى ، التي تتحول إلى معارك جانبية ، لتغطية الساحة الأصلية .

وبالمقابل فان ثورة واحدة في عالمنا العربي ، هي التي استطاعت ان تحطم حصار البدايات ، وان تنطلق في عملية تكافؤ من النضوج في مختلف المستويات ، فتقفز من مرحلة مشبعة بتحقيق الهدف فيها ، إلى مرحلة أعلى وأشمل . انها الثورة النموذج التي تفجرت قبل اثنتي عشرة سنة في مصر العربية . حتى لقد استطاعت تلك الثورة ان تخضع واقع ذلك القطر ، إلى حتمية منطقية في انجاز المراحل المتتابعة ، أشبه ما يمكن ان يحدث في عقل فلسفي مجرد مغرم بالتنظيم .

وأما المشرق العربي ، فهو الذي ما زال يدور في حلقات البدايات المغلقة ، بين الثورة الجماهيرية العفوية ، وبين الثورة المضادة (المدروسة) . سواء نظم هذه الثورة المضادة الاستعمار عن طريق الانظمة والطبقات الرجعية في أقطار المشرق ، او عن طريق حركات يسارية زائفة ، كما هو مخطط الاستعمار الجديد اليوم .

والحقيقة ان من أعجب الظواهر الغريبة التي تكشفت عنها تجربة الثورة في هذه المنطقة من العالم ، ان تكون الثورات الجماهيرية ، هي التي ينقصها التنظيم ، والوعي الموضوعي بمخطط الفعل وتطويره وانضاجه ، وان تكون الثورات المضادة بالمقابل ، هي التي تسلح بالتنظيم والرؤية الواقعية للاحداث ، والقدرة على تحويلها إلى عكس أهدافها .

ولقد تطور الاستعمار من شكله القديم إلى شكله الحديث ، دون ان تتطور آلية الثورة بالمقابل . وبالتالي فانه حقق (ثورة) في تقنيته . فهو لم يعد يقتصر على استخدام فئات منتفعة من الشعوب الثائرة . ولم يعد يقف عند حدود تنمية

طبقات بورجوازية غير وطنية ، لتقسيم وحدة الموقف الثوري الشعبي من داخل . بل انه يتوصل إلى حدود استخدام بعض القوى اليسارية نفسها ، وهي القوى التي قام مبرر وجودها كله على محاربة الاستعمار وأدواته الداخلية .

ان بعض القوى اليسارية ، في المشرق العربي – بمعنــاه الجغرافي الحرفي – وهي في صراعها من أجل تلك الطاقات الجماهيرية ، انحــدرت إلى ذات وسائل الاستعمار ، ووجدت نفسها في موقع الاستعمار نفسه . وحققت له أهدافه بسهولة ويسر ، سواء أكان بينهما حلف مقصود او غير مقصود .

ولا شك ان هذه الظاهرة ، ظاهرة استخدام الاستعمار لليسار او بعض قوى اليسار العربي ، تستحق دراسة وتحليلاً خاصين ، لانها أبرز صورة عن التحكة الثورية ، في هذه المنطقة من العالم العربي .

والذي يهمنا نحن من هذا الاستطراد الاضطراري ، هو الاشارة إلى عمليــة استغفال الفكر الثوري في عقر داره ، عندما يمتد التضليل الاستعماري إلى منطقة الايديولوجية العربية وإلى معتنقيها ، وقادتها أنفسهم .

فما زال مقياس العمل من أجل الوحدة ، هو المعيار الأساسي ، لأي موقف يساري عربي .

وكل تضليل آخر يريد ان يطمس هذا المعيار ، وينقله إلى المرتبة الثانية من أهداف الثورة العربية ، باسم اية يسارية او حزبية (تقدمية) ، انما يفقد هذه الثورية نواتها القومية الاساسية .

ولكن بالمقابل ، فان هدف الوحدة العربية ، يغتني من مرحلة إلى مرحلة في سياق التجربة والنضال . فكل تجربة ايجابية او سلبية خاصة ، تثير أسئلة جديدة. ولا تلبث هذه الأسئلة حتى تفتح آفاقاً جديدة من الفهم والاستيعاب الفكري .

وبذلك فان هذا الهدف ، ليس تثبيتاً جامداً للثورية . بل انه هدف يتضح هو ذاته ، من خلال العمليات المتتابعة من أجل تحقيقه . ويتجدد مع كل منعطف قومي ، حتى انه يظل هو المعيار لأية يسارية عربية .

ولو حاولنا الآن ان نستعرض مراحل نمو هــذا الهدف في الوحدة ، عبر

منعطفات النضال القومي ، لاستطعنا ان نقف بكل سهولة ، على الطابع الدينامي والانضاجي لتوضيح فكرة الوحدة ، وهي في سياق العمل الثوري .

* * *

اننا ، دون ان نستغرق في بحث تاريخي مطول ، نستطيع ان نشير إلى ان طاقة الوحدة العربية ، كانت هي المحرك الأساسي والمستمر ، لأكبر الاحداث التاريخية للأمة ، منذ مراحل الجاهلية والاسلام الأول والانحلال ، ثم اليقظة الجديدة المعاصرة . ونكتفي الآن بدراسة التطورات الفكرية والحضارية والنضالية التي طرات على مفهوم الوحدة خلال مرحلة اليقظة العربية المعاصرة ، ضمن خطوط عريضة سريعة .

لا شك ان البديهية الأولى التي استفاق عليها فجر اليقظة ، هي ان البديل الوحيد لكل شرور الواقع المتدهور في مختلف مظاهره الانسانية والمادية ، هو لمّ شعث الأمة العربية ، بعد تحريرها من الاستعمار التركي ثم الغربي . ان هذه البديهية تتضمن نزعة عميقة لفهم مشكلة الأمة العربية التقليدية والجوهرية في آن واحد . ولكن فجر اليقظة ما كان ليستطيع ان يتصور الوحدة إلا كمستقبل مثالي ، يعوض الامة عن كل مظاهر انحلالها . وبذلك فقد اتخذت الوحدة اذن صورة النزوع نحو الكمال ، او التحقيق الطوباني .

فمثلما كانت ثقافة القرن السابع عشر والثامن عشر في أوروبا ، تطرح على الوجدان القومي اهداف الحرية والمساواة والعدالة ، بصورة شعرية أدبية ، كذلك فان الرواد الاوائل لليقظة العربية ، كانوا ينادون بالوحدة ، وهم يتمثلون من خلالها تلك الجنة القومية للوسط الطبيعي المساعد على تفتح انسانية الأمة خارج عقباتها وأمراضها الداخلية والخارجية .

وينبغي ان نعترف أولا ان هذا المضمون الطوباني للوحدة ، لم يكن خطأ ، أو تعبيراً عن قصر نظر في الفهم الواقعي . ولكنه مضمون مشروط بظروف التفتح الاول لأمكانيات اليقظة ، التي تنصف عادة بالرؤية العريضة للواقع ، والطموح الاخلاقي الشارد لاستبدال عقد الذل والمهانة وأمراض التخلف التي تتكشف أمام

وعي حالم .

وكذلك ينبغي ان نشير إلى أن هذا البعد الاخلاقي الطوباني لفهم الوحدة ، بقي مغلقاً لتيار العمل الثوري حتى مراحله الأخيرة اليوم ، لدى اكثرية العاملين في الحقل القومي .

وإذا كان هذا البعد يبدو طبيعياً في فجر اليقظة ، إلا انه سوف يتحول إلى مركبات خطرة ، في مراحل متأخرة من نمو العمل الوحدوي .

وربما كان من أبرز مظاهر هذه المركبات الخطرة عدم تحديد الصورة العملية لاسلوب تحقيق الوحدة . فيظل هذا الاسلوب رهناً بالظروف السياسية التي تواجه امكانية التحقق الوحدوي .

وانه لمن التناقض الفاضح ان يصير المضمون الاخلاقي الطوباني للوحدة ، إلى مضمون سياسي ، رهناً بظروف الحكومات وحدها ، او بالاحزاب المشرفة على هذه الحكومات .

فمن النتائج العملية التي تترسب عن هذا التناقض الفارق الكبير بين أية صورة عملية للوحدة ، عندما تتحقق ، وبين زخمها القيمي في الوجدان القومي ، بحيث يسمح هذا الفارق في تكون وسائط حزبية بين الطرفين ، فتضع نفسها بالتدريج بديلًا للاثنين معاً .

ولكن بالمقابل ، فانه لا بد من تكون هذه الوسائط الحزبيـــة ، التي تنظم عملية تحول المثل الأعلى إلى مؤسسة واقعية لها قوتها وجدارتها في التفاعل مع غيرها من المؤسسات الاجتماعية ذات الصفة التقدمية . وبعبارة أخرى ، لما كان هدف الوحدة في بعده الاخلاقي الطوباني ، هو من نطاق المشاعر الذاتية الأولية للأمة ، فانه يحمل من العمومية والشمول الغامض ، ما يجعل من المتعذرعلى هذا الوجدان القومي الاقتناع بأية صورة لتحقيق الوحدة . هذا فضلًا عن ان عمومية هذا الهدف تعطي مختلف الامكانيات المتناقضة لتصور تحققه ، حتى يتراوح هـذا التناقض بين البورجوازية المحافظة وبين اليسارية التقدمية .

ومن هنا جاء التصور الأول للوحدة (بين الحربين العالميتين) عـارياً عن أي

تحديد لشكل دولة الوحدة ، او لنظامها الاقتصـــادي والاجتماعي . بل كان الاهتمام القومي منصرفاً أولاً لتجميع رقع الوطن الممزقـــة في أرض واحدة . ولذلك يمكن القول ان المضمون الوطني والكفاحي ، هو الذي ملأ تصور الوحدة في هذه المرحلة .

فلقد كان نضال العرب ضد الاحتلال الاجنبي ، يفترض تجمع اكبر قطاع وطني ، سكاني وجغرافي ، لتعزيز المقاومة المباشرة . حتى يصح القول ان الوحدة كانت تعادل ، حسب هذا البعد ، فكرة التجمع المادي ، دون تحديد الاطـــار السياسي والاجتماعي لهذا التجمع .

وكذلك فان هذا البعد لفهم ومعاناة الوحدة لم يكن خطأ . بل انه يعتبر أول مكتسبات المضمون الواقعي لهذا الهدف . وسوف يظل جزءاً أساسياً من مضمون الوحدة .

وعلى هذا الأساس ، تقدمت الوحـــدة الكفاح الشعبي في أقطـار المشرق، خاصة مجتمعات العواصم والمدن الكبرى . وذلك لأن هـــذه المجتمعات كان احتكاكها اليومي بمؤسسات الاحتلال الاستعماري يثير فيها باستمرار غرائـز التجمعات العضوية،وهي تهددها تجمعات أجنبية مغايرة في شؤون حياتها اليومية. وبدلاً من ان نقول ان البورجوازية الناشئة وحدها ، هي التي قادت هذا النضال الوطني ، في المدن ، بناء على شعورها بمصالحها المادية المهـــددة من قبل المؤسسات الاقتصادية التابعة للاجنبي المحتل ، فان هذه البورجوازيـة لم تكن تملك أي وعي طبقي ، يميزها عن بقية الطبقات في مجتمع المدن المتطورة ببطء شديد نحو الشكل العصري . بل كان الطابع العضوي للمجتمع يمنع مثل هذا التمايز الطبقي .

ولنفصل هذه النقطة قليلا : اننا على سبيل الحصر ، نقول ان مدناً عربية مثل دمشق وبيروت والقدس وحيفا وحلب وحماه وحمص وبغداد والبصرة والموصل كانت ذات تركيب ديموغرافي (سكاني) يتبع نموذجاً خاصاً ، حتى أواخر الحرب العالمية الثانية .

وإذا درسنا هذا النموذج بسرعة ، اطلعنا على وضع طبقي غريب أقرب الى

التداخل العضوي ، منه إلى التمايز اللاامتجانس . ولا يشبه أي نموذج من تطورات المدينة في الغرب ، إلا بصورة بعيدة وعريضة غالباً .

فالصورة الاولى التي يبرز منها تركيب هذه المدينة العربية اجتماعياً، هي صورة الاحياء المغلقة ، التي تشكل بالنسبة لبعضها دوائر شبه مستقلة ، لها وجودها الطبقي والاقتصادي والسياسي الخاص . فيتزعم هذه الاحياء بعض الأسر ذات العراقة ، المنحدرة اما عن عائلية عشائرية او رئاسة دينية وطائفية ، او سيادة ناتجة عن مناصب في الحكم ، ودوائر الدولة ، منذ أيام الاحتلال التركي . ولا شك ان هذه الزعامات لا بد ان تقترن بتفوق مادي معين . فلا الاقطاعية بمعناها الاصطلاحي ولا البورجوازية الصغيرة او الكبيرة ، هي التي تحدد هذه الزعامات الاسروية . ولكن هذا لا يمنع في الوقت ذاته ان تمد بعض هذه الأسر بسلطانها إلى الارياف المجاورة للمدينة ، فتسيطر عليها . إلا ان نفوذها الاجتماعي ضمن الحي والمدينة ، يتسلسل في الأصل عن التركيب العضوي الابتدائي للمجتمع المديني ، والمعقد في ابتدائيته تلك .

وأما العلاقات الاجتماعية ضمن الاحياء ، فتحددها صلات القرابة بالدم او التبعية العشائرية ، او الحماية المعنوية ، والطائفية. ولذلك فان هذه الصلات تفرض نوعاً من التضامن العضوي ، على أساس هذه العلاقات المختلفة . وأما الاحياء الفقيرة نسبياً فهي التي تظل نهباً للاحياء المتفوقة الأخرى ، فتضطر إلى طلب الحماية من بعضها ضد بعضها الآخر . وكثيراً ما ظلت هذه الاحياء مفتوحة أمام المنبوذين والمهاجرين والافراد والجماعات المتنقلة، التي لا تملك أرومة اجتماعية ثابتة.

وهنالك نوع ثالث من هذه الأحياء كانت تؤلفه في الاصل بعض الجماعات الوافدة ، الحاملة لنوع من العلاقات الاجتماعية فيما بينها : إما على أساس الجنس او الطائفة الدينية او العمل اليدوي الذي تمارسه كوسيلة للمعاش .

وهكذا ينبغي ان نلاحظ ان مقياس العمل ، سواء منه الزراعي او التجاري او اليدوي، لم يكن في هذه المدن العربية القديمة، مقياساً أساسياً دائماً للتمايز الطبقي بين أحيائها ، وبين سكان هذه الأحياء أنفسهم .

ولهذا يصح ان نقول ان الرابطة الأصلية التي تجمع سكان هذه المدن فيما بينهم، لم تكن قومية او اقتصادية ، بقدر ما كانت رابطة ناتجة عن مجموعة من القيم والتقاليد والعادات التابعة لنموذج المجتمع العضوي ، غير المتمايز في الوظائف او الأعضاء .

وهذه الرابطة ، المنحدرة أولاً ، من نظام قيمي وسلوكي — وان كان جامداً ومؤلفاً — هي التي تفسر لنا هذا الحلف العفوي ، الطويل الأمد ، الذي كان قائماً بين المجتمع العربي والمحتل التركي . دون ان تقود هذا الحلف أية انقسامات جذرية تهدد بعداوات قومية بين الشعبين . فالدين وهو أقوى مظهر لهذه الرابطة العضوية ، كان يجمع بين الشعبين ، دون ان يكون ثمة تصادم بين نظامين مختلفين من المبادىء والسلوك والعادات اليومية . كما سوف يحدث بالنسبة للمحتل الأجنبي الأوروبي .

والواقع ، ان هذا التركيب الديموغرافي لمجتمع المدن العربية ، المترسب من عصور الانحطاط ، والمستمر خلال النصف الاول من هذا القرن ، هو الذي يقدم المعنى المباشر لهدف الوحدة. فلقد كان هناك اصطدام شامل بين نظامين متغايرين كل التغاير بين المحتل والمدينة العربية . فكان نداء الوحدة المتصاعد من أعماق الشعب ، يعبر بصورة مباشرة عن الدفاع عن هذا الوجود الخام لنموذج الوحدة العضوية بين الروابط والقيم وصور السلوك اليومية لدى الفئات الاجتماعية. ولذلك لم يحمل نضال الوحدة أي نزوع نحو التغيير ، بل على العكس ، فانه في مرحلة الكفاح ضد المحتل الاجنبي ، كان حرس الوحدة الشعبي هو المحافظة ، والتمسك بمختلف الوسائل ، من اجل الابقاء على كل ما يؤلف وحدة الحياة العربية كما هي في واقعها . ولم تكن معركة الصراع بين القديم والجديد، إلا صورة اخرى محولة عن الصراع بين نموذج الحياة التقليدية العربية ونموذج الحياة (المتفرنجة) المأخوذة عن الاجنبي مباشرة .

ان هذه المحافظة على نموذج الحياة التقليدية ووحدتها العضوية ، ما هي إلا تعبير عن الدفاع الغريزي للمجتمع العربي الذي أحس بخطر الفناء يحدق بـه من قبل

المحتل الاجنبي .

فلقد كان هذا الاحتلال لا يشكل تهديداً مباشراً لأمن وسلامة المجتمع العربي آنذاك فقط ، بل كان يتعدى ذلك الى القضاء على أسباب بقائه ، في غزوه المستمر لأنماط الحياة العربية ، وما تحمله من تحديات معقدة، تكمن وراءها حضارة كاملة متقدمة مئات السنين عما كانت عليه الأمة العربية .

فهدف الوحدة العربية ضمن نطاق هـذا الصراع المباشر بين الغزو الحضاري وراء جنود الاحتلال ، وبين الانكماش الغريزي لأنماط الحياة العربية ، كان اذن نداء غريزياً هو الآخر، نحو المحافظة على ما يجعل جعل الوجود العربي يستمر ، ولو ضمن شكله الابتدائي .

ولذلك فان هذه الوحدة، فضلاً عن أنها نزعة نحو التجمع والتراص في المعركة، فانها لم تكن تبحث في شكل الوحدة السياسي ، إلا عن الصيغة الاقرب الى تراث الدولة العربية . فكانت الملكية او الامبراطورية او الامارة، هي الصورة المقترحة من قبل وجدان الأمة . وان كان بعض المتنورين من المثقفين العرب، منذ مطلع هذا القرن ، كانوا ينادون بالجمهورية والديمقراطية ، إلا ان هذا النداء بقي غير مفهوم من قبل الجماهير التي لم تكن مشكلتها آنـذاك لتطرح عليها مثل هذا الاختيار .

ونخلص ممـــا تقدّم ان مضمون الوحدة العربية ، خلال مرحلة النضال ضد الاحتلال الاجنبي ، كان في مراتبه الواعية العليا ، عبارة عن نزوع مثالي طوباني لفكرة التجمع السكاني والوطني ، الخالية من أي تحديد لشكل الوحدة او نظامها الاجتماعي . وكذلك كان مضمون هذه الوحدة في مراتبـــه الدنيا ، وفي أصوله الشعبية ، تعبيراً عن المحافظة على الكيان القائم للمجتمع العربي ، بما فيه من أنماط سلوكية وتقاليد ومفاهيم اخلاقية وغيبية ، كدفاع غريزي ضد الغزو الحضاري الكامن وراء المحتل الاجنبي .

بل ان الصورة المقترحة التي يطرحها مثل هـــذا المضمون لشكل الوحـدة السياسي ، لا يخرج عن النمط التقليدي للدولة العربيـة القديمـــة ، كالخلافة او

(الملكية الدينية) والامبراطورية او الامارة الصغيرة .

ولذلك كان من نتائج هذا التصور الشعبي ان تطلعت الجماهير في البلاد المحتلة إلى ملوك وأمراء العرب ، في أقطار أخرى تبدو أكثر تمتعاً بالاستقلال الذاتي ، كالعراق خاصة – وكان فيصل وغازي قبلتين للجماهير في سوريا الكبرى ، ورمزين لوحدتها – والاردن والسعودية ومصر الملكية .

غير ان استقلال كل من سوريا ولبنان ، أثر الحرب العالمية الثانية ، قد أعطى دفقاً قومياً واجتماعياً جديداً لفكرة الوحدة . والواقع انه خلال الثلاثينيات من هذا القرن ، فان الاسر المترهلة للاحياء المغلقة في مدن سوريا خاصة ، وبعض البلدان العربية المجاورة ، أخذت تنمو نمواً اقتصادياً خاصاً ، تجمع فيه بين التجارة والصناعة الآلية المبتدئة والاقطاعية المجاورة للريف ، والمناصب الرئيسية في الحكومات شبه الوطنية ، التي كان المستعمر يضطر إلى تأليفها أحياناً تحت ضغط الجماهير الثائرة .

ثم لعبت هذه الأسر دور الوسيط بين المستعمر المحتل وبين الشعب الثائر . وراحت تنتزع من الطرفين مصالح وامتيازات سياسية واقتصادية نامية بصورة مطردة . وهذا ما جعلنا نعتبر ان قيادة هذه المرحلة من النضال التحرري والوحدوي كان تحت قيادة البورجوازية العربية الناشئة ، شريطة ان نفهم هذه البورجوازية على ضوء التحليلات السابقة ، لنميزها عن أية بورجوازية غربية أخرى .

ان هذه الطبقة الوسيطة بين المحتل والشعب ، هي التي كانت تنتظر السيادة الكاملة كوريث محتوم للمستعمر بعد جلائه عن القطر .

وهكذا جاء الاستقلال بفكرة الكيانات بدلاً من ان يكون طريقاً طبيعياً للوحدة . وأخذت الطبقات البورجوازية في الاقطار العربية المجاورة ، الخاضعة الى أنظمة جمهورية وملكية تتمسك بفكرة الكيان القطري ، وتبحث عن مبررات مختلفة لوجوده . ولكنها مع ذلك ، كانت تطرح فكرة الوحدة العربية ، من جهة اخرى . إلا ان هذه الوحدة كانت تعني لدى البورجوازية العربية الناشئة ،

مزيداً من اتساع رقعة التجارة والتبادل وتنقـــل رؤوس الاموال بين الاقطار المجاورة .

بينما كان الجزء الاقطاعي من هـــذه البورجوازية يحذر من أي تغيير نحو الاتساع ، فذلك يناقض النزعة الى الاستقرار في الارض المحدودة ، والسلطان المطلق عليها . وبالرغم من هذا التناقض بين صفوف البورجوازية : بورجوازية التجارة ، وبورجوازية الاقطاع ، وبورجوازية الصناعة الآلية الناشئة ، إلا ان فكرة الوحدة العربية كانت تجد قبولاً عاماً. خاصة وأن هذه الفكرة كانت تلوح للداعين من هذه البورجوازية أشبه بحلم بعيد التحقيق . ثم ان استخدامها كهدف سياسي يومي في الدعاية لحكوماتها ، له فائدته في تخدير عواطف الجماهير من جهة، وفي التدليل على كون هذه البورجوازية الحاكمة ما زالت ضمن السياق الطبيعي لنضال الجماهير .

وأما طلائع التقدمية العربيةالتي بدأت تتجمع منالعناصر المثقفة من مجتمعات المدن ، او من المتمدنين من الريفيين ، فلقد كانت بحاجة الى متابعة النضال ضد الاستعمار ، بالرغم من جلاء جيوشه ، او من اختفائها المباشر عن مسرح الحياة في المدن .

لقد طرح الاستقلال لبعض الأقطار ، والمعاهدات المختلفة لأقطار اخرى حول استقلال ذاتي او ظاهري ، مضموناً جديداً لفكرة الوحدة ، متأثراً بنشوء هـذه البورجوازياتالعربية الحاكمة، كبديلعنحكم الاحتلال المباشر. فان هذا الاستقلال قـــد أنشأ عقبة اخرى امام الوحدة ، بالكيانات السياسية المستقلة التي سورت حدود الأقطار المستقلة ظاهرياً . وكان من جراء ذلـك ايضاً ان تناقضت مصالح الفئات الحاكمة ، فخلقت معارك سياسية يومية فيما بينها ، تنعكس على اجراءات انفصالية متزايدة بين حدود الأقطار .

ولذلك ما لبثت التقدمية العربية ان أدركت ان النضال ضد الفئات الحاكمة هو جزء ضروري وحتمي من أجل القضاء على التجزئة .

بينما راحت هذه الفئات البورجوازية تطرح بينوقت وآخر مشاريع وحدوية

مختلفة ، كوحدة سورية ولبنان ، ووحدة سورية والاردن ، ووحدة سورية والعراق ، وسورية الكبرى الخ …

وبقيت الجمهورية الناشئة في سورية متأرجحة بين محورين سياسيين كبيرين ، ثبتهما كل من الاستعمار الانكليزي والاستعمار الأميركي الجديد ، هما محور الأسرة الهاشمية بين العراق والاردن ، ومشروعها هو سورية الكبرى بما فيها العراق ، ومحور العائلة السعودية والملكية الحاكمة في مصر ، ومشروعها تثبيت الاوضاع الراهنة للكيانات القائمـــة في المشرق العربي ، واكتساب بعض العهود في سورية ولبنان الى صفها .

وبين نهاية الحرب العالمية الثانية وتحقيق وحدة عام (١٩٥٨) أخذت فكرة الوحدة مختلف المفاهيم والابعاد . ولكن هذه المفاهيم على اختلافها ، كانت ترجع كلها الى المضامين السياسية التي تطرحها مشاريع الفئات الحاكمة بالاتفاق مـــع جوانب متناقضة من الاستعمار الانكليزي والاميركي .

وبالمقابل فان مفهوم الوحدة الاصيل ، لم تستطع ان تطرحه الفئات الشعبية في هذه المنطقة الحيوية من العالم العربي ، إلا بعد ان دخل الصراع ضد الاستعمار في طور جديد ، كشف فيه عن تحالفه مع الطبقات الحاكمة البورجوازية الاقطاعية ، وخاصة بعد نكبة فلسطين ، التي جاءت ذروة كبرى لكشف هذا التحالف .

ومع ذلك فان الجماهير العربية لم تنطلق ادانتها للفئات الحاكمة إلا من الناحية القومية ، وليس من الناحية الطبقية ، فاعتبرتها فئات ضالعة مع أعداء الأمة من استعمار وصهيونية .

ومن هنا جاء شعار الوحدة العربية ليمتع ثانيـــة من حيوية الدفاع الغريزي للأمة ضد خطر الفناء المادي ،الذي تمثل في تثبيت دولة باغية في قلب الوطن العربي .

ومع ذلك فان الاستعمار حاول محاولات يائسة جديدة لتحويل النضال العربي نحو معارك مصطنعة جديدة . فأراد ان ينقل الحرب الباردة العالمية بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي الى المنطقة العربية ، ويجعلها تتأثر من خلال الحدود التي يرسمها الاستعمار الغربي لها .

وهنا تشبثت البورجوازية العربية بمفاهيم الحرية والديمقراطية، متلاقية كذلك مع المواقع التي حددها لها الاستعمار، ضد الشيوعية التي لم تثر بعد أي تجد مباشر للشعب العربي، خلا بعض مواقف الاحزاب الشيوعية في المنطقة.

فاقترنت مشاريع الوحدة التقليدية، كسوريا الكبرى، مع الاحلاف. بل ان اميركا التي أرادت ان تستبدل مشاريع انكلترا العجوز في المنطقة، كسورية الكبرى، بالاحلاف (حلف بغداد، وفراغ ايزنهاور) قدمت أسوأ فهم للأماني القومية في المنطقة. وكانت احلافهـــا خطوة نحو الوراء بالنسبة لمشروع سورية الكبرى، او وحـــدة العراق وسورية، الذي خدع كثيراً من الطلائع المثقفة والتقدمية لما يحمل من بريق الوحدة، بالرغم من اللغم الاستعماري الذي يحمله.

ان طرح هذا التحدي الجديد عن طريق الاحلاف الاستعمارية، قد أثار تعميقاً جديداً لنضال الوحدة. فهو نقل لأول مرة فكرة الوحدة من يد البورجوازية، التي اضطرت ان تقف الى جانب هذه الاحلاف، لتحافظ على حماية الاستعمار لها بعد خيانتها لقضية فلسطين، نقلتها الى الطلائع المثقفة الاقرب الى الاصالة الشعبية والنزوع العفوي للأمة.

ولقد زاد في كشف هذه البورجوازية في المشرق العربي، خروج حكم ثوري واضح وقومي تقدمي في مصر، بسياسة تحرر كامل من الاستعمار ومؤسساتـه الداخلية وأحلافه، واستطالاته الرجعية والاقطاعية. فانتقلت بذلـــك الثورية العربية الى أنصع مرحلة في تاريخها الحديث، وأشملها وأقواها أثراً. وكان نضال الجماهير في المشرق العربي ضد الاحلاف والبورجوازية الحاكمة يتلاقى بصورة عفوية وحتمية مع نضال الثورة الناصرية الجديدة في مصر العربية. بل ان القيادة الثورية كلها انتقلت مباشرة الى الناصرية، كلما حققت هـــذه الناصرية ذروات في الانتصارات الداخلية والخارجية، لم يعرفها تاريخ الثورة العربية من قبل.

حتى ان الطلائع المثقفة التي كانت تتجمع في حزب سياسي، في المشرق، وجدت قيادتها الحقيقية في الثورة المصرية. ولم يستطع هذا الحزب ان يتابع نضاله ضد الاحلاف والمؤامرات الاستعمارية البورجوازية في الخارج والداخل، إلا باعتباره

حليفاً طبيعاً للثورة الناصرية في مصر .

وهكذا سارت الانتصارات في كل من مصر وسوريا ضد الاستعمار في خطين متوازيين متساندين ، الى ان بلغت هذه الانتصارات نقطة تركيبها في عمل قومي ايجابي شامل ، كنتيجة حتمية للنضال السابق . فكان ان قامت وحدة ١٩٥٨ بين الاقليمين الشمالي والجنوبي للجمهورية العربية المتحدة .

وبذلك تحولت مختلف المضامين السابقة للوحدة العربية الى تجربة واقعية فذة ، احتملت امكانيات جمة من التحققات الايجابية والسلبية .

لقد كانت الوحدة التجربة متجاوزة للوحدة الهدف ، بكل تطلعاتها السابقة . وقدمت لأول مرة على مسرح التاريخ العربي الحديث، حقيقة شاملة متنوعة لأعظم نوازع الوجود العربي اصالة واستمراراً .

وكانت قضية هذه التجربة تتمثل في هذا التركيب المتعارض الحاد : الوحدة كثورة ، والوحدة كدولة .

وبين هذين القطبين نمت هذه التجربة ، وعانت تناقضاتها ، وولدت مؤسساتها وأثارت مشاكلها السياسية والفكرية .

وما زالت مراحل الانفصال التي تلتها تعاني من حصائل هذه التجربة ، فتعمق النضال الوحدوي والاشتراكي بمكتسباتها الايجابية، وتعمق الفكر القومي كذلك بما طرحته من قضايا وأسئلة أساسية .

وهذا ما سنحاول ان ندرسه بالتفصيل في الفصول القادمة ، ابتداء من تجربة الوحدة الى نكسات الانفصال المتتابعة، علنا نواجه هذه الفترة المتأزمة من تاريخنا المعاصر بشيء من الجدية والمسؤولية الصادقة .

الفصل الثاني

موقف البعث من تجربة الوحدة

وإذا ما حاولنا ان نتابع تطور الموقف العقائدي والعملي للحزب تجاه شعار الوحدة أولاً ، ثم تجاه تجربة الوحدة المتحققة ، فاننا سنجد ان (فكر) الحزب لم يضف شيئاً جديداً على فكرة الوحدة كشعار سياسي ، وطوباني في وقت واحد.

وان امتناع الفكر البعثي عن تحديد أية صيغة لشعار الوحدة ، بدون تلك العودة الصوفية إلى نموذج الوحدة العربية في التاريخ قديماً ، قد ساعد على خلو الطريق إلى الوحدة من أي مشروع حقيقي لها .

والواقع أن القيادة الحورانية والقيادة العفلقية ، قد دخلتا تجربة الوحدة ، من الباب السياسي الضيق لها فقط . وانساقت هاتان القيادتان ، بفعل الظروف السياسية وحدها ، إلى اعلان هذه الوحدة .

وعلى الرغم من ان الشروط الموضوعية التي حققتها معارك الاستقلال السياسي ، من الأحلاف والمؤامرات الأجنبية والرجعية ، قد وضعتا كلًا من سوريا ومصر ضمن مستوى متجانس ، من حيث الصراع المشترك ضد الأحلاف ، وتحطيم حصار الأسلحة ، والحوار مع المعسكر الشرقي ، إلا ان القيادة البعثية ، لم تحقق الوحدة

بناء على استجابتها لهذه الشروط الموضوعية ، بقدر ما استجابت لمطامحها الخاصة ، في تجاوز الحزب ، والاستئثار مرة أخرى بقيادة دولة الوحدة .

وفي الوقت الذي اندفعت فيه قواعد الحزب ، مع بقية الجماهير العربية في سوريا ، نحو تبني الوحدة ، وقيادتها الناصرية ، دون أدنى خلفية ، فان القيادة البعثية ، كانت تحلم بأشياء أخرى من وراء هذه الوحدة .

ولقد (أخلص) كل من عفلق والحوراني في اعلانهما لحل منظمات الحزب ، في الاقليم الشمالي ، بل وعمل كل منهما ما يمكنه من أجل إقناع بعض الأعضاء بضرورة هذا الحل (عقائدياً) طبعاً . حتى ان بعض أزلام كل من القائدين ، كانا يصدان أعضاء الحزب القدامى ، كلما حاول بعضهم ان يستجدي منصباً أو مكاناً في دولة الوحدة .

وبالطبع أيضاً لم يكن رد هؤلاء ، بأن الحزب قد انقضى ومضى نهائياً ، مانعاً من التسابق بين أفراد الشلة الحورانية خاصة على الفوز بالمناصب الوزارية وما تحتها وكذلك حاول عفلق والبيطار ، بالقدر الذي تسمح به حيويتهما .

ومع ذلك فان الجماهير ، ومنها جماهير كبيرة من قواعد الحزب السابقة ، قد صدمتها المفاجأة ، عندما رأوا مرة أخرى الحوراني وزمله يستلمون مقاليد الأمور في الاقليم الشمالي .

وبدأ عفلق من جهة أخرى ، يتوجس خيفة من هذا الاستيلاء الجديد للحوراني على مقاليد الأمور في الاقليم الشمالي .

ومنذ الأسابيع الأولى للوحدة ، سمع أصفياء عفلق بوادر التشكيك والتساؤلات حول مصير الأحلام ، التي نسجها عفلق من وراء تحقق الوحدة ، بالنسبة لعودة نفوذه ، الذي حجبه نشاط الحوراني طيلة السنوات الأربع السابقة على الوحدة .

وأخذ عفلق في مرحلة تالية يشكو من تسلط الحورانيين ، ثم يشكو من ازدياد اتساع المسافة بينه وبين الرئيس عبد الناصر . حتى خيل له ان الحوراني ، قد نجح مرة أخرى في اكتساب عبد الناصر الى جانبه ، وإبعاد عفلق .

وفي مرحلة ثالثة،راح عفلق يستدعي بعض أصفيائه من أعضاء الصفوف الأولى من الحزب ، ويتبادل معهم الهواجس والشكوك والانتقادات ضد الوضع القائم، كعادة عفلق .

وعندما سأله بعضهم : ولماذا تسرعت في قبول حل الحزب ؟ أجاب عفلق ، وكرر هذا الجواب دائماً ، بأنه فعل ذلك استجابة لطلب الرئيس ، الذي وضع حل الحزب شرطاً لإقامة الوحدة .

ولقد خدع كثير من البعثيين بهذا التعليل ، الذي يحمّل جمال عبد الناصر مسؤولية حل الحزب في سوريا ، بينما أظهرت الحقائق فيما بعد ، ان كلًا من عفلق والحوراني ، هما اللذان (تبرعا) لدى الرئيس بحل الحزب .

وبهذه المناسبة لا بد من الاشارة إلى ان اتفاق الحوراني وعفلق على حل الحزب ، جاء هو ايضاً نتيجة موقف شخصي ، لم يعرض على القواعد ، ولم تسهم أية منظمة شرعية داخل الحزب في مناقشة القرار ، أو إعلانه . بل ان عفلق قد اكتفى بدعوة مجموعة من الشباب القياديين،وعرض عليهم القرار،ونفذه، بالطبع، حتى قبل ان ينتظر آراء أحد من هذه المجموعة .

ولقد كشف الرئيس جمال عبد الناصر ، فيما بعد ، السبب العميق الذي أدى به إلى فقدان ثقته كاملة بهذا الثالوث : عفلق والبيطار والحوراني .

إن هذا السبب يرجع إلى تلك الروح الفردية ، التي كانت تدفع بكل فرد من هؤلاء إلى الدس عند سيادة الرئيس ضد رفاقه الآخرين ، وتناول بعضهم بعضاً بتهم الانتهاز والخيانة ، والعمالة أحياناً . كل ذلك في سبيل ان يفوز أحدهم بالمركز الأول في حكم سوريا .

ثم تجرأ هؤلاء فطلبوا من الرئيس تأليف (لجنة سرية) منهم طبعاً، لكي تحكم دولة الوحدة من وراء أجهزتها ومجالسها ووزرائها ، تماماً على طريقة العصابات. وأكثر من هذا ! ، فلقد تبين للرئيس، بعد ان قطعت تجربة الحكم مرحلتها الأولى، تبين له ذلك الاقطاع المهووس ، الذي اندفعت إليه فئات حزبية انتهازية ، من أجل الاستئثار بمصالح الحكم في سوريا ، وطبعه بصفة فئة معينة ، تجعل مجموع

الشعب يستريب في الهدف القومي الشامل ، الذي من أجله قامت دولة الوحدة .

لقد رفض السوريون ان يعطوا وحدتهم للحوراني وزمرته ، وأظهروا تذمرهم من هذا المد (الحوراني) الجديد الذي أخذ يعصف بمصالح الدولة . خاصة وان وزارة الاصلاح الزراعي ، المنشأة حديثاً ، قد سيطر عليها الحورانيون ، من الوزير إلى كافة مستويات الوظائف . وبدأت فضائح توزيع أراضي (الغاب) ، تنتشر روائحها بين المواطنين .

لقد تبع المد الحزبي إذن ، خلال دولة الوحدة ، مد نفعي انتهازي ، نبه الرئيس إلى الدافع المشين الذي انتهت إليه الفئات البعثية ، وهي تحاول الاستئثار بالحكم والمنافع .

ويمكن القول ان أول مظاهر خيبة الأمل عند شعب الاقليم السوري ، قد سببتها صور الاستئثار البعثي الحوراني بشؤون البلاد ، تحت شعار الوحدة وحمايتها من الرجعية .

ومع ذلك ، وبالرغم من ان نتائج إطلاق يد الحورانيين في حكم الاقليم الشمالي ، بدأت تتضح وتتراكم أمام أنظار الشعب ، فان القيادة الناصرية في القاهرة ، لم تبادر هي إلى إبعاد البعثيين من سدة الحكم ..

ولكن فشل الشكل الأول الذي تألف بموجبه الحكم في ظل الوحدة ، كان يدفع بالزمر الانتهازية من البعثيين الحاكمين ، إلى اصطناع الأزمات بينهم وبين جانب آخر من الحكم داخل الاقليم ، إلى ان أخذ العفالقة يعدون مؤامرة من أجل إبعاد الحوراني ، من رئاسة المجلس التنفيذي في الاقليم الشمالي ..

وعند هذا الحد فلقد سعى الأطراف البعثيون أنفسهم ، بفضل دسائسهم ضد بعضهم من جهة ، وبسبب فشلهم في الحكم ، وتحكم مصالحهم الفردية بشؤون البلاد ، إلى بداية أزمة الثقة بينهم وبين القيادة الثورية في القاهرة . ووجدوا أنفسهم أخيراً أمام الحاجة إلى إستنفار (حزبهم) الذي حلّوه ، من أجل ان يقوموا بمناورة ضغط جديدة ضد الحكم الناصري الوحدوي .

وهكذا قرروا الاستقالة ، والانسحاب من الحكم ، على شكل مظاهرة جماعية ،

توحي للشعب ، بأن (ممثليه) من أبناء الاقليم الشمالي قد رفضوا الاستمرار في حكم الوحدة .

لقد كان الهدف من الاستقالة الجماعيـة للوزراء البعثيين الحورانيين ، ومعهم (صلاح البيطار) ، يتحدد في النقاط الآتية :

١ ـ إن انسحاب الوزراء البعثيين يعني انسحاب الاقليم الشمالي من الوحدة ، وهذا رمز عن الانفصال الذي تمناه هؤلاء القادة ، منذ أقدموا على تنفيذ خطتهم السلبية تلك .

٢ ـ وبالتالي فإن على أعضاء الحزب السابقين ، أن يعيدوا تشكيل الحزب ، من اجل مقاومة الحكم الناصري للوحدة .

٣ ـ وأمام العالم العربي ، فلقد أمل هؤلاء في تأليب الرأي العام التقدمي ، الذي لم يزل يثق بأصداء إيجابية من سمعة البعث السابقة ، من اجل عزل الحكم الوحدوي عن التيار الثوري الشامل ، في الوطن كله .

٤ ـ ومن ناحية اخرى ، فقد طمح هؤلاء الى خلق ردة فعل بين الأوساط البعثية والصديقة من ضباط الجيش . خاصة وأن السياسة السلبيـة التي اعتمدها الحوراني ، قد ضللت بعض هؤلاء الضباط ، مما تسبب في تسريحهم من الجيش . ولسوف يكون لهؤلاء دور ممتلىء بالحقد ، يوماً ما ، بعد الثامن من آذار ، ضد القيادة الناصرية في القاهرة ، والجماهير الوحدوية في الاقليم الشمالي .

ولكن القادة البعثيين ، لم يستطيعوا ان يحققوا شيئاً مما أملوه من وراء انسحابهم من حكم دولة الوحدة . فسرعان ما اصطدموا بالحقائق التالية :

١ ـ إن إحياء أسطورة الحزب من جديد ، ليست عملية سهلة بالشكل الذي تصوروه . فالحزب الذي انحل رسمياً من قبلهم ، كان منحلاً عملياً من قبـل ، وذلك باعتراف عفلق نفسه ، وكل القياديين الآخرين .

٢ ـ ثم إن القواعد الحزبية السابقة ، حتى لو اجتمعت ثانية ، إلا ان لها مواقف متناقضة :

فمنها ، وهي القواعد الأوسع والأقرب الى الجذور الشعبية ، كانت قد فقدت

ثقتها منذ زمن طويل ، بالقيادة الحورانية والقيادة العفلقية على السواء . وأصبحت مرتبطة فكرياً وانفعالياً بالقيادة الناصرية ، التي بلغت أوج شعبيتها خلال العامين الأولين من الوحدة ، ليس بالنسبة لسوريا وحدها ، ولكن بالنسبة لأقطار المشرق العربي كله . ولذلك فإن هذه القواعد لم تتأثر بالمسرحية الانفصالية التي قام بها الحورانيون ، وسبقهم من قبل عفلق نفسه ، من خلال استقالتهم الاجماعية من الحكم . ومنها أيضاً فئات كثيرة لم تستطع ان تقبل التبريرات المختلفة التي تذرع بها الحورانيون والعفالقة من اجل الانقلاب على حكم الوحدة .

لقد كانت تلك التبريرات عبارة عن اتهامات ، يرفضها الحس الطبيعي ، حتى قبل أن يطالب بالبراهين الواقعية على صحتها .

وكانت هناك أيضاً عناصر قيادية قد اندمجت بتجربة الوحدة ، وشاركت بانتخابات الاتحاد القومي ، ومارست أدواراً سياسية في مجلس الأمة . وكانت ترى ان ثمة أخطاء لا يخلو منها اي حكم . ولكن هذه الاخطاء لا تدعو بالضرورة الى الانسحاب من الوحدة نهائياً ، والعمل على فصم الاقليم الشمالي عن الجمهورية .

إن هذه العناصر القيادية وقطاعاتها من القواعد ، هي التي سوف تؤلف الجناح اليساري الوحدوي الاشتراكي من حزب البعث ، وينفصل نهائياً عن جناح الحورانيين من جهة ، والجناح العفلقي من جهة أخرى . ويؤلف (الحركة الوحدوية الاشتراكية) ، التي سيكون لها شأن رئيسي في محاربة الانفصال ، وكشف القيادات البعثية ، ثم دخول معركة جدية مع أجنحة الحزب الانفصالية ، بعد الثامن من آذار .

وكان من أكبر تناقضات موقف القيادات الحورانية والعفلقية الانفصالية ، الوضع الثوري الوحدوي ، الذي كان عليه الحزب في العراق إبان الانحراف القاسمي ، بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام (١٩٥٨) .

فبينما كان الحزب في العراق يقود معركة مقاومة الانحراف الشعوبي الدموي ، ويقدم يومياً عشرات من شبابه ضحايا الاعتقال والتعذيب والسحل ، وخاصة بعد المحاولة البطولية الجريئة للاطاحة بحكم قاسم ، عن طريق تنفيذ اغتياله ، من قبل

(إياد سعيد ثابت) وزمرة من رفاقه .

في هذا الوقت بالذات ، كانت القيادة العفلقية التي نفت نفسها الى بيروت ، تعلن على الملأ، وبدون حياء، إدانة هؤلاء الشباب ، وتعمل على فصلهم من الحزب، بحجة ان عقيدة الحزب لا تؤمن بالاغتيال الفردي .

والحقيقة أولاً هي ان عفلق ، منذ ان قاطع الوحدة ، وفرّ الى بيروت ، حتى قبل ان يقطع الحوراني علاقته نهائياً بالحكم هو وجماعته ، راح يجهد في سبيل لإبعاد العراق عن الانضمام الى الوحدة بعد ثورة الرابع عشر من تموز . ولذلك غدر بهؤلاء الشباب ، كعادته، عندما زجت بهم سلطات قاسم في السجون ، وحكمتهم بالاعدام. فخلا الجو أمام عفلق ، وبعض الانتهازيين من قيادات البعث في العراق، فحاول ان يعيد تأسيس الحزب ، بعيداً عن قادته الوحدويين ، بعيداً عن أهدافه القومية الأساسية ، بغياب المؤسسين الحقيقيين للحزب ، الذين قادوا المعارك السرية ضد حكم نوري السعيد ، ثم قاوموا الانحراف القاسمي ، ودفعوا الثمن غالياً .

فبعد ان ألقي القبض على (إياد سعيد ثابت) وجماعته ، وفر عدد آخر من القادة الى سوريا ، وخرج (فؤاد الركابي) الأمين القطري للحزب في العراق ، قام (عفلق) بتنفيذ سرقة الحزب من مؤسسيه ورواده الأوائل ، وتسليمه لحفنة من الانتهازيين الجدد ، الذين سيلعبون أقذر دور فيما بعد ، بعد ثورة الثامن من شباط عام (١٩٦٣) .

ومنذ ذلك الوقت دأب عفلق ، وهو في بيروت ، وباسم (القيادة القومية) على لإرسال نشرات داخلية الى فروع الحزب ، خارج سوريا ، وخاصة الى العراق، تعمم على القيادات (الموثوقة) فقط ، وفيها يدعو عفلق الى محاربة الجمهورية العربية المتحدة ، ورميها بمختلف الاتهامات .

ولا حاجة الى القول بأن هذا الانقلاب الخطير الذي أصاب القيادة العفلقية في بيروت ، والقيادة الحورانية في دمشق ، إنما مرجعه بالدرجة الاولى ، شعور كل منهما بأن أحلامهما في الاستيلاء على حكم سوريا من خلال دولة الوحدة ، قد ذهبت أدراج الرياح .

والحزب الذي تآمرتا على حله، عادتا اليوم الى استدعاء شراذمه من هنا وهناك دافعتين إياها في طريق الضلال والخيانة .

وليس من شك في ان عدداً من الفئات الحزبية قد استطاعت القيادة ان توحي لها بما تشاء من تخرّصات ضد الجمهورية وقائدها . ومن ناحية ثانية فقد عمل الحوراني وجماعته إلى خلق جو من عزلة الشباب الثوري بعيداً عن دولة الوحدة . وراحت جماعتـه تشن حرباً دعائية مسمومة ، وترمي كل بعثي قديم ، ما زال مدفوعاً بتأييده الطبيعي للدولة الوحدة والتعاون معها ، بالعمل لحساب المخابرات .

ومنذ ان توقفت عمليـــة نمو الوحدة ، واستتب الأمر للانحراف القاسمي في العراق ، وانكمشت الوحدة ضمن حدود الاقليم الشمالي ، وتابع قادة الحزب في الداخل والخارج ، حملاتهم ضد الجمهورية وقائدها ، وكان لا يزال لهذه القيادات بعض الأثر على الرأي العـــام الثوري المثقف ، بدأت هوة تنفتح بين الحكم في الاقليم الشمالي وبين مئات المثقفين .

ومن هذه الهوة ، بدأت الشراذم الانفصالية من رجعية وشعوبية وطائفية ، تهيء نفسها لتضرب ضربتها في فصم سوريا عن مصر .

ولقد ثبت فيما بعد ، ان كلّا من الحورانيين والعفالقة كانوا في الواقع يقفون في موقع واحد انفصالي . الأوائـــل سعوا الى الانفصال ، واتصلوا بالضباط ، وأقاموا حواراً حتى مع ضباط النحلاوي قبل الانفصال بشهور قليلة .

وبالرغم من ان هدف القيادة البعثية آنذاك كان هو الانفصال في عينه ، فان العفالقة كانوا يقنعون هذا الهدف ، بشعار (تصحيح الحكم) من داخل الوحدة نفسها . وهكذا حاول البيطار بشكل خاص ان يتمسك بهذا الشعار ، وان يدعو له بين البعثيين القدامى .

بينما كان رأي الحوراني واضحاً كل الوضوح ، وهو انه لا خلاص إلا بإعادة (استقلال سوريا) ، و (تحريرها) من (الحكم الناصري) ..

وكان عفلق هو بدوره يفلسف (ضرورة) الانفصال بأن الانفصال (كان لا بد منه) وذلك لانحراف الحكم ..

ولكن عندما ظهرت قوانين تموز الاشتراكية ، في الصيف الاخير من عمر الوحدة ، وبدا ان الوحدة تشهد تحولاً جذرياً في مضمونها التقدمي الجديد ، بطلت أكثر الحجج المصطنعة التي كانت ترددها شراذم القيادات البعثية آنذاك .

ومن ناحية أخرى ، فقد ذهل الاستعمار ، والمخابرات البريطانية خاصة ، أمام هذا التحول الجديد ، وما تبعه من تدابير أخرى تستهدف تغيير بنية الحكم كلياً في الاقليم الشمالي .

واما الرجعية البورجوازية ، التي كانت قد عقدت آمالاً طوالاً ، من أجل استرجاع نفوذها الاقتصادي أولاً ، واستثمار الفراغ السياسي ، فقد صعقتها الضربة الاشتراكية الجذرية ، وانتقلت مباشرة إلى دور العمل السريع، ووضعت قواها وأموالها في خدمة المؤامرات الاستعمارية الهادفة إلى فصم الوحدة .

أخذ الحوراني يعمل بسرعة ، من أجل ان يكون له قصب السبق في الانقلاب المتوقع ، بين وقت وآخر . غير ان كثرة من ضباطه كانوا بعيدين عن السلطة العسكرية المباشرة . ومع ذلك فقد حاول جهده ان يحفظ لنفسه مكاناً بين المتآمرين من جماعة (النحلاوي) .

وبكلمة واحدة ، فلقد كانت القيادات البعثية ، بمختلف أجنحتها العفلقية ، والحورانية ، والبيطارية ، تعد نفسها من أجل استعادة نفوذها السابق ، بعد وقوع الانفصال وبذلك لا يمكن تبرئة أي طرف منها من المساهمة، ولو بطريقة غير مباشرة ، في الإعداد للحظة الخيانة الكبرى .

ومهما يكن من أمر أخطاء الحكم ، ومن المزالق السياسية الداخلية التي وقع بها الحكم في الاقليم الشمالي ، فانها بمجموعها لا يمكن ان تدين الوحدة ذاتها ، ولا يمكن ان يكون الانفصال بديلاً عنها .

ولقد وقع الانفصال في الوقت الذي سارت فيه الوحدة نحو أعظم مضمون تقدمي لها سيكون بمثابة الحل الجذري لمختلف التناقضات الأخرى ، وهو الاشتراكية . ووقع الانفصال في الوقت الذي اتجهت فيه الوحدة ، نحو تعديل أساسي في بنية الحكم كله داخل الاقليم الشمالي .

وهذا ما يفسر ذلك الاسراع الذي أدّى إلى تنفيذ المؤامرة ، قبل ان تبدأ التغييرات الجديدة بإنتاج مفعولها الشعبي .

ومنذ ذلك الوقت تحولت القيادات البعثية التقليدية إلى مواقع الرجعية الجديدة . وأصبح همها الوحيد المحافظة على مصالحها الخاصة ، والاستئثار بالنفوذ الحزبي من جهة ، والتوجيه السياسي المنحرف .

لقد تخلت عن الوحدة والاشتراكية نهائياً . وكل المواقف الأخرى التي انجرّت إليها القيادة العفلقية البيطارية ، فيما بعد ، بين الوحدة والانفصال ، إنما كان هدفها الأول هو إبعاد الناصرية عن العودة إلى سوريا والعراق ، أي لإبعاد أعظم نموذج للثورية الوحدوية والاشتراكية وصلت إليه الفكرة العربية ، في عصرنا الحاضر .

وما تلك الشعارات الأخرى ، كالوحدة المدروسة ، والوحده الثلاثية ، والاتحادية .. وغيرها إلا أقنعة وحدوية لروح انفصالية واعية لذاتها ، مخططة أخبث تخطيط لاغتيال الثورات الشعبية المتألبة ، التي فجرها الانفصال ، من أجل استعادة الجمهورية العربية المتحدة .

الفصل الثالث

البعث حزب انفصالي

ان عاماً آخر ، يمر من عمر الانفصال، كما يثبت، بأعنف مما أثبت في أعوامه السابقة ، ان الوضع الطبيعي بالنسبة لسوريا ، هو الوحدة ، ولا شيء إلا الوحدة في كيانها الاصلي، وهو الجمهورية العربية المتحدة. وان الوضع الشاذ وغير الطبيعي، هو الانفصال. ومهما تعددت أشكال هذا الانفصال، من الشكل الرجعي متحالفاً مع الانتهازية الحورانية والشيوعية الهجينة ، الى شكله البعثي (العفلقي) ، فان ثمة حقيقة واحدة أساسية ، وهي ان سوريا لن تتخلى عن مركزها في الثورة العربية ، كطليعة لنضال الوحدة والاشتراكية ، من قواعدها الشعبية ، ومن منظماتها الوحدوية .

واذا كانت الرجعية قد استطاعت ان تضرب الوحدة الثنائية الاولى في ٢٨ أيلول ، ثم استطاع البعث (العفلقي) ان يطرح نفسه كأفضل وريث تقدمي للانفصال ، فيضرب الوحدة الثلاثية ، ويجهضها ، وهي لم يجف مدادها بعد ، فان ذلك كله يدل على ان الانفصال لا حماية له مطلقاً ، سواء من قبل الرجعية ، أو من قبل التقدمية المزيفة. وان أية أداة لتثبيت مواقع اتفاقية (سايكس بيكو)،

قبل ما يقرب من نصف قرن ، لن ينجح في عصر حتمية الوحدة والاشتراكية ، بالنسبة لسوريا خاصة .

وعلى العكس ، فانه منذ ان تحول هدف الوحدة الى حقيقة في وحدة (١٩٥٨) ، لأول مرة في التاريخ العربي المعاصر ، فقد وجد بذلك المقياس الواقعي ، الواضح كل الوضوح ، لكي يستخدمه الشعب في تمييز كل عمل سياسي ان كان الى جانب أهدافه ، او ضدها .

فالرجعية في الانفصال الاول ، التي قفزت الى الحكم ثانية بعد طول انتظار يائس ، حاولت ان تقدم مقاييس أخرى تعويضية . فطرحت شعارات الحرية السياسية ، والرخاء الاقتصادي ، والديمقراطية البرلمانية والحزبية . واعتقدت أنها بذلك تستطيع ان تدفع بهدف الوحدة الى المرتبة الثانية او الثالثة من شعارات الشعب .

ولكن هذا الشعب الأبي ، الذي سلحته الملمات بأعمق وعي سياسي وأشمله ، ما لبث حتى شعر بصورة مأساوية صارخة ، بما أضاعه مع ضياع الوحدة . وبأسرع مما كان ينتظره الاستعماريون وأذنابهم من الرجعية البورجوازية ، والمغامرين العسكريين ، فقد تحول الانفصال الى كارثة جماهيرية ، دخلت المنازل ، وحركت النساء والاطفال ، وجميع الرجال ، الذين لم يكن لهم أي نصيب سباق في العمل السياسي .

فكشفت الجماهير اللعبة ، وهي لم تزل بيدي صانعيها .

وبفضل حقيقة الوحدة ، التي كانت ملء حواس الجماهير ووعيها ، تبين الناس ان الحرية السياسية المزعومة ، التي أتى بها الانفصاليون ، كتعويض عن الوحدة ، ليست سوى حرية لأعداء الشعب ، للمتاجرين بقوته ، البورجوازيين والاقطاعيين ، ومحترفي سياسة المزرعة . فعادت طبقة (الحكم الوطني) بكاملها الى مواقعها في سياسة الحكم والاقتصاد ، واستخدمت الاجنحة الانتهازية من اليسار السابق .

تعاون معها جناح شيوعي كامل ، على أمل استعادة بعض مراكزه التي كانت

له أبان عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٧، عن طريق اتخاذ الرجعية نفسها سلماً تصعده ثانية .

وتعاون مع الرجعية الحاكمة، الجناح الحوراني من حزب البعث ، الذي أعلن حل منظماته بارادته منذ قيام الوحدة . ولم يكن لهذا الجناح أهداف قومية واضحة ، إلا الوصولية والاستيلاء على الحكم ، من خلف الرجعية . تماماً كما هو حال الجناح الشيوعي .

وأما شعار الرخاء الاقتصادي، فقد ترجمته الرجعية الى اطلاق حرية الاستيراد، وإلغاء القوانين الاشتراكية من تأميم لبعض المعامل والبنوك ، وإعادة النظر في قانون الاصلاح الزراعي للاجهاز على مصالح المنتفعين به من الفلاحين . فكان هذا الرخاء المزعوم ، سبباً في اضمحلال الثورة القومية المتبقية ، وتبديدها في استيراد السلع الاستهلاكية . ومن جهة اخرى ، فان هذه السياسة الاقتصادية لم تنجح في إعادة الرساميل المهاجرة، ولم تستطع ان ترحي بالثقه حتى بالنسبة لأصحاب رؤوس الاموال الذين يعتبرون أنفسهم القيمين على عهد الانفصال ، وأصحابه الشرعيين .

وكذلك كان مصير شعار الديمقراطية البرلمانية. فلقد رجعت الوجوه التقليدية الى البرلمان . بعثت بها التكوينات العشائرية والاقطاعية والطائفية ، للمجتمع القديم السابق على الوحدة والاشتراكية . ومنعت الجماهير بالمقابل ، من حق ابداء رأيها سواء في الصحافة او عن طريق المؤسسات الحزبية. فلقد عرفت الرجعية رأي الجماهير فيها ، منذ الساعات الأولى من الانفصال ، عندما اندفعت هذه الجماهير ، منذ الساعات الأولى من الانفصال ، إلى مقاومته ، والتصدي لدباباته ومدافعه .

وهكذا فان القائمين على الانفصال ، الذين حسبوا انهم يعيدون إلى سوريا (الأوضاع الطبيعية) التي فقدتها في زمن الوحدة ، قد أدركوا خلال شهرين فقط عقم محاولتهم . فقد دخل أكبر قطاع جماهيري عرفه النضال في سوريا ، إلى قلب المعركة ضد الانفصال والانفصاليين، بمختلف أوجههم وشعاراتهم المزيفة . وكان ان تفجرت هذه المقاومة أخيراً في ثورة حلب من آذار ١٩٦٢ ، بعد ان قام الانفصاليون العسكريون أنفسهم ، بحجز حكمهم المدني بكامله من رئيس

الجمهورية إلى الوزارة إلى أغلبية أعضاء البرلمان في سجن المزة . وتلك كانت من أغرب ظواهر الانقلابات العسكرية ليس في سوريا فحسب، ولكن في العالم أجمع.

فكان كل ذلك دليلاً على افلاس الانفصال يعلنه أصحابه والمسؤولون عنه . وكان كل ذلك أيضاً برهاناً على ان الوضع اللاشرعي، واللاطبيعي ، الوضع المرضي بالنسبة لسوريا ، هو الانفصال .

وبذلك انقضت مرحلة الديمقراطية الزائفة من عمر الانفصال الأول، بعد ثورة حلب . ودخلت سوريا مرحلة أخرى ، تقوم على ديكتاتورية الانفصال وفلسفته . فطرحت حكومة (بشير العظمة) عن طريق الاتجاه العفلقي ، المتمثل في وزير الاعلام آنذاك ، شعار (الوحدة المدروسة) او (الوحدة المستأنية) ضد(الوحدة الفورية) او (الآنية) .

وكانت تلك هي البذرة الشيطانية لمأساة الانحراف الرهيب ، الذي تكشف بعد ثورة الثامن من آذار من العام الماضي . لقد كان حكم بشير العظمة وفلسفة الوحدة المدروسة والمستانية التي أتى بها نموذجاً بل مشروعاً مصغراً لم يدعمه الوعي الديماغوجي الكامل والقوة العسكرية الباطشة الكافية .. مشروعاً يتطلب تنفيذاً محكماً ، لن يتحقق إلا بعد ٨ آذار .

ومع ذلك فان شعار الوحدة المدروسة يتضمن إقراراً بان الانفصال العادي ، كما هو ، عاجز عن طرح أي مبرر لوجوده . وليس هو إلا الحالة السلبية لغياب الوحدة الاصلية . وتأتي فكرة (الوحدة المدروسة) لتعطي للانفصال طابعاً مؤقتاً ، كتمهيد لوحدة جديدة أخرى . غير ان هذا التمهيد ، سوف تستطيع الأساليب السياسية الخبيثة تمييعه ، ومده إلى أقصى مدة ممكنة .

غير ان البعث كان عليه ان يلعب الدور الأخطر ، ان يشكل من نفسه أكبر عقبة مدروسة في وجه تحقيق الوحدة ، وأشرس دفاع مستميت عن الانفصال العادي بكل بشاعته .

هو الذي جعل من نفسه الأداة الدامية لتثبيت مختلف النكسات القومية والاقتصادية والانسانية ، التي ألمت بالقضية الثورية ، ليس في سوريا وحدها ،

ولكن في الوطن العربي كله ، كنتائج محتومة لاستمرار الانفصال .

وكانت بداية المغامرة العفلقية في ميثاق الوحدة الثلاثية الصادر في السابع عشر من نيسان العام الفائت .

لقد تحول شعار الوحدة المدروسة إلى شعار الوحدة الثلاثية . وحاول البعث ان يصطنع معركة تضاد بين الوحدة الثنائية والوحدة الثلاثية . واخترع حولها قضية كاذبة ، حاولت ان تصبح بديلاً عن القضية الأصلية .

بينما كان الشعور الجماهيري العام يعتبر ان اعادة الجمهورية العربية المتحدة باقليميها الشمالي والجنوبي ، هو الثأر المنتظر من الانفصال . وبالتالي فان انضمام العراق الى هذه الجمهورية ، يحقق كذلك وضعاً طبيعياً ، ناضلت الجماهير من أجله منذ ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ ، عام الوحدة ، والنكسة الشيوعية . تلك النكسة التي حطمت امكانية نمو الوحدة الأصلية ، وكانت أحد أسبابها غير المباشرة في جمودها وضعفها فيما بعد .

فليس ثمة معركة تضاد إذن بين الوحدة الثنائية والوحدة الثلاثية . أو الرباعية أو الخماسية ، لدى وعي الجماهير ، ما دامت كل عملية وحدة ، لا بد ان تبدأ من نواة تحققت فيما مضى ضمن شكل وحدة الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن اصطناع هذه المعركة ، كان هو أمل البعث الوحيد في خلق البلبلة أولاً لعرقلة مسيرة الجماهير الوحدوية التي خرجت مظفرة بعد ثورتي العراق وسوريا ، ومن البلبلة إلى الانقسام في المعسكر الوحدوي . ومن الانقسام الى تصنيف الجماهير بين جماهير (سائبة) وجماهير (منظمة عقائدية) .

ثم يرفع البعث ستاراً آخر عن فصل جديد في المعركة المصطنعة . فإذا به يطرح استقلال النظامين ضمن الدولة الاتحادية . فبدلاً من الوحدة الكاملة ، هناك اتحاد مليء بتحفظات كثيرة ، تتحدث بلغة ايجابية عن مفاهيم انفصالية كاملة .

فاذا بنظام الجمهورية العربية المتحدة ، يصبح نظام (اجهزة) بعرف البعث ، يقابله نظام الجماهير العقائدية التي يقودها الحزب الثوري ، الطليعي ، العقائدي . .

الخ .. من مصطلحات القاموس الماركسي المشوه عند البعثيين .

ومن خلال مختلف المصطلحات (العقائدية) التي طرحها المتفلسفون الجدد من البعث ابان الأشهر القليلة التي عاصرت ميثاق الوحدة الثلاثية ونكستها القريبة ، كان الحزب يطرح نفسه كصنم معبود ، بديلاً عن كل الأهداف العفوية للأمة : فقوة الحزب ووحدته أصبحتا بديلاً عن وحدة الأمة وقوتها .

وحرية الشعب ، هي تبعيته المطلقة للحزب .

واشتراكية الوحدة هي توزيع البعثيين (بعدالة حزبية) على جميع مراكز الدولة .

كل ذلك كان يمكن ان يناقش لو ان هذا الحزب ، كان حزباً حقاً !

ولكن انتصار (الحزب) بعد الثامن عشر من تموز ، كان بنظر أبسط الناس، بمثابة أكثر الانكسارات شؤماً على اصحابها (المنتصرين) .

فما ان تفرد الحزب في الحكم في سوريا والعراق ، وأوشكت (امبراطورية) البعث على القيام ، حتى امتص الحزب العتيد جميع الازمات التي خلقها من حوله، ثم هضمها بطريقة عقائدية ، وأنضجها، وتفجرت من داخله عقائدياً ايضاً. فأطاحت بحكم المراهقين السفاحين المنحرفين في العراق .

ودخل الحزب في سوريا ــ حزب لم يكن موجوداً ابــــداً قبل الثامن من آذار ــ وهذا له بحث آخر خاص ــ في دوامة الاقتتال على الحكم بين رؤوسه وشراذمه .

نعم ، لقد أعطى الحزب عن نفسه أفجع الامثلة ، بما قدمه من انتاج عقائدي لذاته ولشعبه خــــلال عام . ولم تفده جميع محاولاته في ان يخلق ثمة استمراراً وانسجاماً بين هذا (الحزب) (البعثي) في الحكم وبين حزب ما قبل عام١٩٥٨، الذي خاض معارك التحرر ضد الرجعية والاحلاف الاستعمارية ، وساهم في خلق الوحدة .

وإذا تساءلنا عن السبب في هذا التناقض الصارخ بين الحزبين لكان الجواب بسيطاً : فالحزب قديماً، عندما طرح نفسه كأداة لنضال الجماهير ، لا كسيد لها ،

تبعته هذه الجماهير بل (استخدمته) لتحقيق انتصاراتها السلبية . وانتهت مهمته في الواقع، في القطر السوري، عندما اوصل هذه الجماهير إلى أول انتصاراتها الجماهيرية في الوحدة . وكان اعلانه لحل نفسه بمثابة تكريس لقيامه بمهمته السابقة .

ولكن هذا الحزب ، عندما بحث عن نفسه بعد الثامن من آذار ، وقال له العسكريون انك موجود حقاً ، بل يجب ان توجـــد ، لم يعثر إلا على شراذم وأشخاص ، يدعون الحزب لأنفسهم ، كل على طريقته و (مزاجه) الخاص .

واما الحزب في العراق ، الذي اعتبرته الجماهير منذ كفاحه ضد الشيوعيين ، انه حزب الوحدة ، فقد كان له وجود بقدر ما يعمل على تحقيق الوحدة !

ولكن عندما أسكرت قيادته المراهقة الاتجاهات العفلقية والتمويهـــات والتلويحات العفلقية بالامبراطورية والأباطرة ، فقد انطلت عليها الخديعة العفلقيـة ثانية . ولم يكن عفلق يريد من العراق إلا قاعدة ، يقفز منها إلى سوريا ليجهض الثورة الوحدوية في الثامن من آذار .

وكان له وللعسكريين السوريين الطائفيين من حوله، الذين خدعوه واستعملوه هم من حيث استعمل هو الثورة العراقية .. كان لهم ما أرادوه جميعاً ، عفلـق والعسكريون .

ولكن بالمقابل ، بدأ دفع الثمن :

لقد انهار جيل كامل من الشباب العربي في العراق ، الذي لم ينقصه الاخلاص والعاطفة المشبوبة بقدر ما افتقر إلى القيادات الواعية السليمة والناضجة . انهـار هـــذا الجيل ، وتلوثت أيدي بعضه بالدم والارهاب . وتحمل كله مسؤولية فشل مرحلة من أغنى مراحل النضال العربي ، تحولت امكانياتها كلها إلى عكس أهدافها .

وانهارت أمجاد الحزب الماضية في سوريا،ولطخ حاضره الأسود لوحة انتصاراته السابقـــة . وتحول ، تحت ضغط المطامع الشيطانية الحاقدة لمن تبقى من قادته وشراذمه ، أشرس عقبة في وجه الثورية العربية .

وها هو الآن بعد ان شيع ميثاق الوحدة الثلاثية، التي تفنن في تشويه نصوصها، ثم في تعطيلها ودفنها اخيراً، ها هو الآن يستعد ايضاً لتشييع نفسه.

ومن عجائب التاريخ ألا يهمل الزمن أبطاله وأعداءه بالثواب والعقاب معاً. أما أعداؤه، فانهم يقتتلون اليوم فيما بينهم أعنف اقتتال قلما يوجد حتى بين الخصوم، وما صراعهم الوحشي مع أعدائهم من الوحدويين إلا صورة منعكسة، صورة مكبثية (نسبة الى مكبث) عن صراعهم ضد بعضهم بعضاً.

وأما ابطال التاريخ، فهم الذين يصنعون من حطام النكسات مشاعل الانتصارات القادمة. هم الذين يتابعون بناء طريق الشعب، بأيدي الشعب، ومن أجل اهداف الشعب.

لقد حفل العام الماضي بالأحداث القومية الكبرى. ولكن معنى هذه الاحداث هو المتبقي وحده، كمغزل مارد، ينسج النضال اليومي لشعبنا حوله بطولاته الايجابية يوماً بعد يوم.

فهل يحق لنا ان نيأس، وهل نقول ان الوحدة مثلاً مستحيلة من بين أهداف الشعب، خاصة بعد ان خان أكبر احزاب الوحدة هذا الهدف، وتحول من رائد لها الى عدو شرس ضار؟.

كلا.. ألم نقل في مطلع هذا البحث ان الاحداث قد صيرت من الوحدة أكبر المقاييس، بحيث ان هذا المقياس لأصالته ووضوحه، قد نقل معركته الى ما بين صفوف المعسكر الوحدوي نفسه، ليكشف الزائف من الحقيقي من قياداته. لقد سقط حزب البعث في طريق الوحدة الأولى، وكان سقوطه آنذاك أحد الاسباب غير المباشرة في زعزعة كيان التجربة هذه.

ولكنه سقط مرة ثانية، بأوضح وأفجع صورة، وهو على عتبة التجربة الثانية. وذلك هو الكسب القومي، بالرغم من الحصيلة السلبية على الصعيد الانساني. لقد استطاع ان يؤخر قيام الوحدة الثانية، ولكنه لم يمنع هذا القيام الى الأبد. وبالرغم من أنه قد احدث فراغاً نضالياً في هذه المنطقة من العالم، إلا ان لهذه الظاهرة التاريخية جانبها الآخر الايجابي.

فلقد فتح الطريق واسعاً امام الجماهير التي تمرست ضمن هذه المراحل الشاقة من النضال، من سقوط الطلائع وتناقضها وتشرذمها، لكي تخرج قادة جدداً ، تستفيد من الدروس الماضية ، وتمهد الطريق مرة أخرى ، امام وحدة تاريخية كبرى ، ترتفع الى مستوى المعارك الحاسمة التي سبقتها وولدتها .

ولقد ولدت الوحدة الثلاثية، ضعيفة مصطنعة في كثير من مفاصلها، وانعكس ذلك على بنود ميثاقها . وشعر بهذا الضعف الشعب العربي ، صاحب الحق الاول في هذه الوحدة . شعر بمدى التفاوت الهائل بين مده الوحدوي، وبين هذه الثمرة الفجة . ولكن التاريخ خدم شعبنا ثانية ، فأتاح له من يكشف عن نتائج المحاولة قبل تكبد متاعب المحاولة ذاتها .

الفصل الرابع

البعث وشعارات الوحدة المختلفة

الوحدة الشاملة :

لقد كان قيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ من وحدة مصر وسوريا ، الحدث الفاصل بين مرحلتين ، مر بها شعار الوحدة العربية ، من قبل هـــذا الحدث ، ومن بعده .

فمن قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة ، كان شعار الوحدة العربية محور المثل العليا القومية . وكانت قيمته الكبرى تأتي من كونه البديل الوحيد عن واقع الأمة العربية من مختلف نواحي التخلف السياسية والاجتماعية ، والحضارية العامة. فالوحدة هي الجنة المفقودة ، هي البعث الحقيقي لوجود الأمة على مستوى العصر والتحديات التاريخية الجديدة .

وكانت الرؤية الفكرية لشعار الوحدة عبارة عن تطلعات ومطامح ، وصور تنبؤية عن مستقبل افضل بالنسبة للأمة . وبقدر ما كانت طبيعة الفكر الوحدوي آنذاك ، غارقة في النزعة التبشيرية للوحدة، بقدر ما كان رجال السياسة والحكم، يشعرون بفقدان الثقل الواقعي من كل هذه الاحلام . وعلى هذا الاساس فان

الساسة المتهنين التقليديين كانوا يبنون الثقة بأنظمتهم ، ويبشرون أنفسهم بطول مقام واستقرار ، بالرغم من بوادر التهديدات التي كانت تهب عليهم ، من حين الى آخر ، من خلال ثورات شعبية عفوية ، سريعة التفجر ، سريعة الخمود والزوال .

واما في مرحلة ما بعد تحقق الوحدة السورية المصرية ، فلقــد امتلأ شعار الوحدة ، أكثر الشعارات العربية مثالية واستقبالية ، بمضمون التجربة الواقعيــة لأول مرة .

وحتى عندما وقع الانفصال الاول الرجعي ، ثم الانفصال الثاني البعثي في ١٨ تموز ١٩٦٣ ، فان النكسة ساهمت هي ايضاً في تعزيز واقعية الشعار الوحدوي ، وكشفت عن إمكانياته العملية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الوحدة تجربــة ، وليست مثلاً أعلى ، وتاريخاً حقيقياً ، وليست مستقبلاً منتظراً . وبدلاً من التأمل في وحدة لا ظل لها على الارض ، فقد قدمت الجمهورية العربية المتحدة ، النموذج الاول لها. وانقلب التأمل الى تحليل لواقع، واكتشاف لظروف ، وتفهم لشروط الوجود العربي المتغير . ودخلت هكذا فلسفة المنهج العملي الى الوعي الثوري ، وطورته الى أبحاث علمية موضوعية . وبـدأ الوعي الثوري هذا يبحث عن أداة التحليل في النظريات الثورية العلمية ، ويدرس ادوات التحويل والتغيير، في هذا البحث المتشعب عن التنظيم السياسي الشعبي، ودخلت مرحلة التفكير في الوسائل والغايات ، واستراتيجية العمل الثوري والمفهوم المرحلي وغـيره من تقنيات علم الثورة المرتبط بمسؤولية قيادية تحويلية لواقع عربي كامل كجزء أساسي من ثقافة الثوار العرب ، وكدليل نظري لمختلف خطوات العمل الجماهيري .

وأصبحت ثنائية الوحـدة والانفصال محركاً تاريخياً واقعياً لمختلف الاحداث الكبرى في المنطقة العربية ، سواء في جانب المبادهات الثورية او المناقضة وسواء في جانب ردود الفعل عليها . حتى يمكن القول ان كل تعميق للتطبيق الثوري في اتجاه الاشتراكية الحقيقية انما كان تعبيراً فعلياً عن الثورة الوحدوية التي فجرت طاقات الجماهير الشعبية ، ودفعت قادتهـــا الثوريين الى اكتشاف طريق العصر ، ككل ثورة تهدف الى التحويل الجذري الشامل لحياة شعبها .

ومن خلال جدل الوحـــدة والانفصال على مستوى الاحداث الكبرى ، والتحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية ، فان رحلة شاقة لشعار الوحدة بين مفاهيم مختلفة قد طرحت خلال عملية النمو الجدلي للوحدة .

وكان بعض هذه المفاهيم « الوحدوية » قد طرح لدوافع سياسية على مستوى السياسة العربية بين مختلف الأنظمة الحاكمة . وبعضها الآخر ، قد طرح مـن خلال النزوع الوحدوي المتنامي ، الذي أوجده نموذج الوحدة الأولى المتحققة ، إلى تكرار التجربة ، وما قد أثاره هذا النزوع من مفاهيم مضادة وحـــدوية في الظاهر ، انفصالية في جوهرها وحقيقتها .

في خط الشعارات السياسية الوحدوية نستطيع ان نميز هذه العناوين : وحدة الصف ، وحدة الهدف ، التضامن العربي ، وحدة العمل الواحـد المشترك . وفي خط الشعارات في معركة الوحدة والانفصال بين اقليمي الجمهورية العربية المتحدة، يمكن ان نميز عدة عناوين مزيفة ، مضادة كلها للميل الطبيعي الذي أوجده نموذج الوحدة الأول ، نحو إعادة الكيان الوحدوي المفقود .

من هذه الشعارات المضادة : الوحدة الشاملة ، الوحدة المدروسة ، وحـــدة الحزب الحاكم أو الوحدة المحورية ، وحدة صراع التجربتين البعثية والناصريـة او الوحدة الصراعية ، لقاء الثورات .

ولنبدأ بتحليل هذا النوع من سلسلة الشعارات الوحـــدوية المزيفة ، المضادة لمعركة الثأر من الانفصال ، واسترداد كيان الوحدة الأولى ، ضمن تطويرات الثورية العربية في الاتجاه الاشتراكي الشعبي .

وبالرغم من القاسم المشترك الواحد الذي يؤلف جذر هذه الشعارات الوحدوية الاسم ، الانفصالية المضمون ، فان بينهـــا اختلافات تتبع تكتيك تطورات الانفصال نفسه والعقليات المسيطرة عليه . وهو بالتالي يكشف عن امكانيات الانفصال نفسه ، وصورة الايدلوجية ، وما يمكن ان تثيره هذه الامكانيات من قوى وحدوية مقابلة في الفكر والعمل معاً .

١ – الوحدة الشاملة :

وهو الشعار الأصلي للوحدة، في مرحلة ما قبل قيام أول نموذج واقعي للوحدة، كما تجلى في الجمهورية العربية المتحدة .

ولقد رفعه أصحاب الانفصال الرجعي مباشرة بعد الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١ ، وحاولوا ان يستغلوه كبديل عن الوحدة الجزئية، التي وقعت بين قطرين عربيين . غير ان هذا الشعار الذي علقت به كل خصائص المرحلة التبشيرية السابقة، من غموض وتجريد وعمومية ، قد انسجم مع طبيعة هذه الردة الكبرى الرهيبة .

فالوحدة الشاملة لا تطرح مشروعاً مباشراً لأية وحدة ممكنة ، ولا تحدد نموذجاً معيناً لدولة الوحدة ، ولا للأداة الثورية التي تحققها . وفوق هذا فهي لهذا الشمول الذي تدعيه ، تقف عقبة أمام أية بداية لوحدة جزئية تنطلق على طريق الشمول التدريجي .

وبهذا يدخل شعار الوحدة الشاملة في باب المزايدات الخيالية ، لمنع الممكنات التي يسمح بها الواقع الراهن . ومن خلف هذا الشعار ، كان الانفصاليون الرجعيون يرمون إلى عدة مطامع سياسية واقتصادية ، واجتماعية وفكرية .

فقد أراد الانفصاليون ، وأسيادهم الاستعماريون ، رد الحياة إلى عهد كامل بنظامه السياسي وطبيعته الاجتماعية ، وتقاليده الفكرية . وأرادوا ان يمحوا بالمقابل ، عصراً عربياً ثورياً ، بكل مكتسباته وأنظمته ومفاهيمه ، من عمر التاريخ . فقد ذهل الناس وهم يشاهدون أعمدة الرجعية والعمالة تعود كلها دفعة واحدة ، إلى مناصب الحكم في سوريا وتجر وراءها نظامها السياسي المهترىء القائم على حكم برلماني صوري متخلف من نموذج البرلمانية في المجتمعات النامية الضائعة بين سلطانها التقليدية ، في العشائرية والاقطاعية والبورجوازية التجارية والاستعمار الجديد .

ويجيء هذا النظام المنخور مسلحاً « بحرية » ضد « ديكتاتورية » و «استقرار» ضد الثورية ، والامان لاعداء الشعب ومستغليه بدل الرقابة الجماهيرية .

وتنبعث ثانية مفاهيم « الاخوة » بين حكام العرب، بصرف النظر عن مواقفهم

السياسية ومواقعهم الاجتماعية وارتباطاتهم الاجنبية .

واكثر من هذا يطمع الانفصاليون في نشوة انتصارهم المبدئي في تحقيق حلف بين هؤلاء الحكام ، لضرب الحصار حول النظام الثوري الوحيد المتبقي ، آنذاك في دنيا العرب ، وهو الحكم الناصري في القاهرة .

وكنتيجة محتومة لعودة حكم المزرعـــة في الداخل ، والتحالف الطبيعي مع الحكام الرجعيين فان الارتباطات مع الغرب والحوار مع مصالحه الاستعمارية هو الصورة التقليدية ايضاً عن وجه هذا الحكم خارجياً . وهذا يفترض بالمقابل ضمور روادع سياسة عدم الانحياز ، أمام طغيان موجة عودة النفوذ الاجنبي ، واستبعاد صداقة الدول الاشتراكية .

وأما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، فان أحد الاسباب الاساسية لوقوع الانفصال ، هو نضج المحتوى الاشتراكي للوحدة ، ولذلك فان شعار « الوحدة الشاملة » كان يتضمن على صعيد القطر الواحد ، تحالف الطبقات او بمعنى آخر ، رد امتيازات الطبقة الاقطاعية والبورجوازية ، عن طريق الغاء قوانين تموز سنة ١٩٦٠ الاشتراكية .

وهكذا يعود زمام المبادرة سياسياً واقتصادياً ، إلى رؤوس المجتمع الهرمي المتخلف ، الذي كانت الوحدة من أجل تطويره وتحويله نحو القاعدة الجماهيرية في السلطة السياسية والنفوذ الاجتماعي .

وبذلك يرتبط شعار « الوحدة الشاملة » في ظروف الانفصال الرجعي الاول ، بالطبقة البورجوازية والسياسة التقليدية ، ويهدف في الواقع الى إلغاء أعظم وأعمق مرحلة من الفعالية الثورية بين النكبة والوحدة ، واعادة الاوضاع إلى ما قبل عام (١٩٤٨) عندما كان التغني بشعارات الوحدة وقفاً على زعماء مرحلة الكفاح الوطني ، الذين يمتّون الى الطبقة العليا في المجتمع بصلة الوضع الاقتصادي ، والسلالة العائلية ، زعامات الاحياء والعشائر والطوائف والمزارع والمعامل .

ومن خلال الزحف « الانفصالي » الرجعي الذي شهدته سوريا والمنطقة العربية المجاورة في اشهره الاولى ، انبعثت كافة المفاهيم التقليدية في الاقليمية والشعوبية ،

وانتعشت كذلك حرب الثقافات والاعتقادات . فعادت إلى المسرح الفكري النزعات المحافظة . وحتى الأدب ، فقد شهد طغياناً جديداً لجيل منقرض بقيمه ومفاهيمه، ولكنه عاد بقوالبه البلاغية ومنابره الجمجمعة، وصيغه البلاغية المتخفية ، ومواقعه اللاانتمائية مع حفنة من الفوضويين من الشباب ، الحاقد على جيل الشباب الثائر الوحدوي والاشتراكي .

حتى لقد اضطر الحكم الانفصالي والرجعي ، بعد ان واجهته العواصف الشعبية من كل مكان ، للتدليل على نواياه « الوحدوية »، ان يطرح في صحفه مشروعاً للوحدة الشاملة ، لا يخرج في حقيقته عن صيغة أخرى ، لجامعة عربية جديدة . ولقد عنى أصحاب الوحدة الشاملة ، من ادعائهم هذا دائماً ، وحدة حكام من أنظمة سياسية ، رغم تشابهها الجوهري ، إلا ان الكراسي والعروش والحدود تبقى قائمة . ومن خلالها تتوطد دعائم هذه الانظمة ، وتحميها من خلفها طبقة اقطاعية بورجوازية ، متفقة المصالح ، تتبع نظاماً « حراً » اقتصادياً وتعتمد على توسيع رقعة التبادل التجاري ، حتى دون ان تقيم أية صناعة منتجة جدياً . وبالطبع يأتي وراء هذا الحزام من الحكم الرجعي والنفوذ الطبقي ، حزام آخر ، من المصالح المتفاعلة مع القوى الغربية ، واستراتيجية توزيع النفوذ الاجنبي ، على الاراضي العربية .

ولكن من جديد تضع الاحداث حداً لنفوذ شعار ، بعد ان تزول الظروف التي أحيته واستغلته لحماية موقعها الانفصالي .

فان التراجع المتواصل الذي مني به العهد الانفصالي الرجعي ، والتخبط المتواصل الذي وقعت به حكومات متتابعة تسقط وتقوم في كل شهر تقريباً ، أمام تضاعف الكفاح الوحدوي الجماهيري الذي لم تر سوريا مثيلاً له من قبل ، قد أسقط كذلك سحر شعار « الوحدة الشاملة » . وكذبت الوقائع المتردية في كل ميدان ، كل دعوى في الوحدة ، او في تصحيح الوحدة السابقة .

فانقلب العسكريون الانفصاليون على انقلابهم السابق في (٢٨) اذار ، اي بعد حوالي ستة أشهر من (٢٨) ايلول (١٩٦٠) .

وفتحوا الطريق امام ثورة الوحدة الاصلية في حلب .

وفي سبيل اجهاض هذه المحاولة من أجل اعادة الوحدة ، قام شعار جديد مضاد ، هو « الوحدة المدروسة » !

٢ - الوحدة المدروسة :

على الرغم من ان شعار « الوحدة الشاملة » قد استغل من قبل الانفصاليين الرجعيين لتغطية جريمة (٢٨) ايلول ، إلا انه يبقى في حد ذاته شعاراً تقليدياً ، له قيمته الكبرى ، من حيث انه هو الهدف الأخير للثورية العربية ، عندما يتم لها تحقيق نواة الوحدة التقدمية ، وتوسيعها تدريجياً ، حتى تشمل الوطن العربي كله .

ولكن شعار « الوحدة المدروسة » بالمقابل ، حديث النشأة ، وقد ولدته ظروف معينة ، هي الظروف التي تضع حداً للانفصال ، وتوشك على إعادة كيان الوحدة الأصلي .

وقد برز هذا الشعار لأول مرة ، بعد ثورة حلب في مطلع نيسان من عام (١٩٦٢) ، عندما وضعت هذه الثورة سوريا مرة أخرى على طريق العودة الى كيان الجمهورية العربية المتحدة .

ثم برز في جولة ثانية ، بعد ثورة الثامن من آذار ، وحين انفتح الطريق للمرة الثانية امام عودة الكيان الوحدوي المفقود .

وفي المرتين هاتين، كان هذا الشعار بمثابة الشعار المضاد للوحدة الحقيقية، ومع ذلك ، فان هذا الشعار يسجل خطوة على الأقل ، بالنسبة لشعار «الوحدة الشاملة» أثناء الانفصال الرجعي الاول . فهو يقر - ظاهرياً على الاقل - بعودة كيان الوحدة ، وان قطب الوحدة هو القاهرة .

ولكنه من ناحية ثانية ، يحاول ان يجهض الاندفاع الثوري لاعلان هذه الوحدة . وبذلك يحفر هوة بين اعلان الثورة وبين مرحلة التحقيق . وخلال ذلك يتم للانفصاليين الجدد ، ضرب الثوار من خلف ظهورهم ، وتمكين أسس عهد جديد من الانفصال الحقيقي .

هكذا حدث بعد ثورة حلب ، وهكذا حدث بعد ثورة الثامن من آذار .
وكان كل عهد يعقب هاتين الثورتين يشهد تطرفاً مريعاً نحو أعنف أشكال الانفصال .

الانفصال الذي يتحول من التقنع والاندفاع ، إلى السفور والهجوم .. . بل وإلى تجريم الوحدويين واتهامهم ، واضطهادهم شتى أنواع الاضطهاد الفاشي الوحشي.
وبالرغم من ان بعض المثقفين قد خدعوا أحياناً ، عن حسن نية ، بشعار الوحدة المدروسة أملاً منهم في تأسيس بنيان قوي للوحدة الجديدة ، إلا ان مطلقي هذا الشعار ومروجيه ، كانوا يقصدون دائماً شيئاً آخر ، كما بينت الاحداث فيما بعد .

ان شعار الوحدة المدروسة ، في ظاهره ، يريد ان يخلق أوهاماً عديدة تعرقل مسيرة الوحدة الاصلية ، منها :

- ان الوحدة المدروسة هي نقيض الوحدة الفورية . وان الاولى تقوم على التأني والبحث عن الأسس السليمة لقيام دولة الوحدة . بينما تقوم الثانية على الاعلان الفوري لعودة سوريا إلى كيان الجمهورية العربية المتحدة ، بدون معاودة لطرح مشكلة الحكم وغيرها .

- ومن هذا الوهم الأول ، يتفرع وهم ثان ، ناشىء عن هذا (البحث في أسس دولة الوحدة) . فكأنه يريد ان يوجه الانتقادات إلى شكل نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة ، ويعارض في طبيعة النظام القائم . وبذلك يخلق انفصامات ومضاعفات ، قد تؤلف عقبات حقيقية أمام عودة الوحدة .

- وتعتمد « الوحدة المدروسة » على اسطورة ، لعب بها الانفصال وقتاً طويلاً ، هي اسطورة اخطاء الوحدة الماضية .

وعلى الرغم من اعتراف اقطاب الوحدويين أنفسهم بوقوع نوع معين من الاخطاء في تجربة الوحدة الماضية ، إلا ان الاستغلال الانفصالي لها ، أراد أن يستخدمها وسيلة « فكرية » لاذكاء الاحقاد على القيادة الثورية في القاهرة وتهديم الأسس الايجابية التي ستنطلق منها التجربة الجديدة . وخلق معركة حقيقية بين دعاة الوحدة المدروسة ، والوحدة الفورية . حتى لقد قال أحد (مفكري) البعث،

ايام حكومة بشير العظمة ، واثناء الانفصال الاول ، « ان دعاة الوحدة الفورية ليسوا أقل خطراً من دعاة الانفصال » . وبذلك وضع مشروع الصراع الدموي الذي سيقوم يوماً ما ، بين البعثيين والوحدويين في أعقاب ثورة الثامن من اذار .

ولقد أدى شعار « الوحدة المدروسة » من الناحية العملية ، بعد ثورة حلب ، واثناء حكومة بشير العظمة إلى أعنف صورة عن الانفصال ، بلغت ذروته في « مؤتمر شتورا » الشهير آنذاك .

* * *

ولكن لم تظهر وسائل استغلال هذا الشعار بأوضح شكل لها ، إلا بعد انحراف ثورة اذار . وعندئذ ظهرت تخريجات نظرية كثيرة ، تعتمد كلها على تعميق الخلافات بين ثورة اذار وبين القاهرة . وتستقي من شعار « الوحدة المدروسة » القديم وتطوره إلى شعارات جديدة مختلفة .. منها :

وحدة الطليعة الثورية :

والمقصود بها طبعاً ، وحدة الحزب الحاكم في كل من سوريا والعراق آنذاك . والتبرير النظري لها يعتمد على انتقاد معاكس . وهو ان التجربة الثورية في القاهرة ، هي ثورة قمة بدون قاعدة منظمة في حزب . واصحاب هذا الرأي يعارضون الجماهير بالطليعة المنظمة . وبذلك يفرغون الوحدة من مادتها الاصلية ، وهي الجماهير الوحدوية التي أثبتت وعيها الثوري ، وقدرتها العملية في مناسبات فاصلة كثيرة في العراق وسوريا معاً . واكثر من ذلك ، فقد أثبتت أسبقيتها حتى على هذه الطلائع ، التي كثيراً ما فقدت حس الواقع ، وانحرفت وانعزلت وعانت مختلف عقد الطبقة الفوقية ، المطالبة بحقوق الوصاية عليها ، بدون أدنى تفوق حقيقي عليها .

وهكذا طرح الحاكمون في سوريا آنذاك وحدة الحزب كبديل عن وحدة الشعبين .

الوحدة الثلاثية :

وكتغطية لشعار وحدة الحزب الحاكم ، طرح البعثيون شعار « الوحدة الثلاثية » . وقد اعترف البعثيون في تقاريرهم السرية ، ان الوحدة الثلاثية لم تكن إلا شعاراً تكتيكياً ، في سبيل معارضة شعار « الوحدة الثنائية » بين مصر وسوريا . وبالرغم من ذلك ، فقد أيد الوحدويون هذا الشعار ، واعتبروه تعبيراً عن الوضع الثوري الراهن ، المتجانس في بغداد ودمشق والقاهرة .

ولكن هذا التأييد باسم وحدة أشمل ، لم يمنع الوحدويين من التشكيك في حقيقة نوايا البعثيين الحاكمين، سيما وان سلسلة التدابير المتخذة من أجل التمكين للحزب من حكم سوريا ، كانت تدل دلالة واضحة على النزعة الانفصالية الجديدة، التي يسترها الحزبيون بغطاء الوحدة الثلاثية .

* * *

الوحدة الصراعية ، او وحدة صراع التجربتين :

ومن حيث الصورة التي ستقوم عليها الوحدة الثلاثية ، فان بعض نظريي البعث ، دعوا هذه الوحدة ، بالوحدة الصراعية . لأن هذه الوحدة ستضم دولتين، دولة القاهرة ودولة بغداد ودمشق . وبمعنى آخر فان البعثيين كانوا يحلمون من وراء مبدأ : صراع التجربتين الناصرية والبعثية ، داخل دولة الوحدة، ان قامت، ليس التفاعل والتنافس في سبيل تركيب أعلى ، ولكنهم كانوا ينوون ضرب القاهرة من خلف .

وعلى الرغم من ان هذا الشعار قد انعكس تقريباً على نصوص ميثاق السابع عشر من نيسان ، في سبيل إقامة الدولة الاتحادية، واعتراف هذا الميثاق باختلاف أدوات الحكم داخل الدولة ، وتنوع التنظيمات السياسية فيها أيضاً ، فان البعثيين رفضوا مع ذلك قبول الفئات الوحدوية الى جانبهم في كل مستويات الجيش والحكم ، داخل القطر السوري . وبذلك مهدوا لاقامة انفصال حقيقي داخل هذا الاتحاد ، يستقل الحزب فيه بحكم العراق وسوريا ، وتستقل القاهرة بحكم القطر

المصري ... ويا لها من دولة وحدوية ان قامت على هذه الأسس !

* * *

الوحدة المحورية :

بعد وقوع الانفصال البعثي الدامي في يوم الثامن عشر من تموز عام (١٩٦٣)، وقد ذهبت مبررات ميثاق السابع عشر من نيسان، لم يبق إذن أمام الحكم البعثي في سوريا والعراق، إلا الاعلان عن المشروع القديم المبيّت، من خلف شعارات الوحدة الثلاثية، والوحدة المدروسة، والوحدة الصراعية وغيرها. فكانت الوحدة المحورية بين العراق وسوريا، وأخذت تعبر مراحلها بصعوبة وتردد شديدين. فكأن عقدة الذنب، بضرب الوحدة الثلاثية، كانت تضع العراقيل النفسية في طريق المضي بها إلى النهاية، هذا إلى جانب الحصار الشعبي الذي كان يطوق الحاكمين، ورد الفعل السلبي الذى تلقاه كل خطوة جديدة على طريق هذه الوحدة.

فقد فهم الشعب العربي في كل مكان ان هذه الوحدة، انما هي تكريس جديد لفصل المشرق العربي عن القيادة الثورية في القاهرة، واقامة قلعة محورية، لمنع التفاعل بين جناحي الوطن العربي، غربي القنال وشرقها. ومن ناحية ثانية، فقد بقيت مراحل هذه الوحدة تعاني من التعثر والعزلة، إلى ان فاجأتها ضربة الثامن عشر من تشرين، التي اسقطت حكم البعث في العراق، وفتحت الطريق من جديد أمام تفاعل وحدوي صادق بين بغداد والقاهرة.

* * *

لقاء الثورات :

وأمام العزلة الرهيبة التي ضربها الشعب العربي حول الحكم البعثي بعد ان اتضح انحرافه الانفصالي، وشاعت أساليبه التضليلية والدموية، وفي الوقت الذي تم فيه الانتصار الحزبي بعد الثامن عشر من تموز، الذي هو بمثابة الفشل الاكبر والسقوط النهائي، راحت الدعاية البعثية تروج لشعار جديد، لعله يعوض عن

الوحدة ، وهو مبدأ تلاقي الثورات . والمقصود بالثورات طبعاً ، الثورة البعثية في العراق وسوريا ، إلى جانب ثورة القاهرة والجزائر وصنعاء .

وعندما انهار حكم الحزب في العراق استمات البعثيون في سوريا من أجل اية خطوة تنفيذية نحو تحقيق مبدأ تلاقي الثورات هذا . فلقد أصبح ذلك المبدأ بمثابة سبيل الانقاذ الوحيد المتبقي أمام الحكم في سوريا .

ومع ذلك فان دعاة هذا الشعار ، كانوا يعنون به اعترافاً بالأمر الواقع ، ومصالحة مع الثورات الاخرى الحقيقية تحميهم من غضب الشعب، الذي يحاصرهم في كل مكان ، بتصميمه الوحدوي ، وثأره الدموي .

ولعل هذا الشعار يرفع عن حكم البعث صفة « الثورة المضادة » من تزييف في الشعارات ، ورجعية في المضمون الاجتماعي ، وفاشية في السياسة والحكم ، والعلاقة مع الجماهير والمنظمات السياسية الاخرى .

* * *

ان هذه الرحلة الشاقة الحافلة التي قطعها شعار عودة الكيان الوحدوي ، بين الشعارات المزيفة المضادة ، قد برهنت على حقيقة واحدة أساسية ، وهي ان التجربة الاصيلة الاولى التي امتلكها الشعب مرة ، ثم أضاعها ، هي التي تؤلف النموذج الواقعي الذي كان مرة من أجل ان يستمر ، ضمن تطوراته الخاصة ، وتصححه ظروفه الموضوعية وتنقله بالتدريج من نواة وحدة جزئية ، إلى الوحدة الشاملة الحقيقية .

ولهذا تشبث الشعب السوري دائماً ، ومن خلال أشرس المعارك التي دخلها مع الحكومات الانفصالية المتتابعة ، تشبث بوحدته الاولى ، واعتبر عودتها هو الضامن الوحيد لكل وحدة أوسع وأشمل في المستقبل .

الفصل الخامس

البعث والانفصال الرجعي

لقد كانت مواقف القيادة البعثية التقليدية ، من الطرف العفلقي الى الطرف الحوراني ، من تجربة الوحدة، ترجع في الأساس الى منطلق واحد متجانس : وهو محاربة عبد الناصر ، وإن أدت هـــذه المحاربة الى فصم عرى الوحدة ، والعودة بسوريا الى وضعها القديم قبل (شباط) من عام (١٩٥٨) . وكان الحوراني وجماعته ، يتابعون سلسلة من المحاولات التنفيذية، من أجل إعادة الكتل العسكرية والمدنية السابقة الى طور الفعالية والعمل السياسي . بينما راح عفلق ، من منفاه (الاختياري) في بيروت ، يتابـــع إصدار النشرات الى فروع الحزب خارج سوريا ، وخاصة لبنان والعراق .

ولقد انطوت هذه النشرات على دعوة صريحة ، موجهة الى (القيادات فقط) دون القواعد ، من أجل تشويه سمعة الناصرية ، واتهام القائد العربي بكل صفة ، والدعوة صراحة الى نسف تجربة الوحدة ، بالتدليل على فساد هذه التجربة ، مرة بوصفها خاضعة لحكم (ديكتاتوري) ، ومرة أخرى بوصفهـا داخلة تحت النفوذ الأمريكي !

ولكن عفلق مع ذلك ، ومن خلال صديقه البيطار في دمشق ، كانا يغلفان

دعوتهما الانفصالية بواجهة مضللة ، تدعي هدف تصحيح الحكم ، دون المساس بالوحدة .

وذلك هو الرأي الذي كان يواجه به البيطار الشباب البعثي ، الذي أدركته تجربة التمزق منذ ذلك الحين .

فمن خلال الدعوة الى (تصحيح الحكم) ، كان القادة البعثيون يحفرون هوة الانعزال عن تجربة الوحدة كلها ، ويعدون الشباب بأساليب من الخداع والتضليل ، من اجل (النضال) ضد الحكم الناصري كله .

لم يكن ثمة تحليل موضوعي للأخطاء التي وقعت بها التجربة الأولى لاقامة دولة الوحدة ، ولكن الحقد وحده ، واليأس وحده ، هما اللذان دفعا بالقادة البعثيين الى إدانة كل حكم لا ظل لهم فيه ، ولا سلطة لهم عليه .

ولقد ثبت ، كما سبق القول ، أن الحوراني وبعض تابعيه ، كانوا على صلة بمؤامرة (النحلاوي) . وثبت ان اتصالات كانت تجري بين الطرفين لتبادل الرأي والعون عند الحاجة .

ومن ناحية أخرى فإن عفلق كان يعدّ الحزب في العراق ليلعب دوراً انفصالياً في يوم ما .

فلقد أتاحت له عملية الانقلاب على (قاسم) ، الفاشلة والتي اقتصرت على محاولة الاغتيال التي قام بها (إياد سعيد ثابت) وزمرة من رفاقه الجريئين ، أتاحت له التخلص من التنظيم البعثي السابق وقادته . وساعده اعتقال العشرات من أعضائه ، وتشرد عشرات آخرين منه خارج العراق ، على إعادة تكوين حزب جديد ، بقيادة جديدة ، سوف يبرز من عناصرها (علي صالح السعدي) ، وزمرته المعروفة .

وحين وقعت نكبة الثامن والعشرين من ايلول عـــام (١٩٦١) ، أسرع الحوراني الى تأييدها علناً ، والاجتماع الى المسؤولين عنها . ودفـع معه (صلاح البيطار) الى التوقيـع على وثيقـــة الانفصال . واشترك (عبد الله عبد الدائم) بحضور المؤتمر السياسي الذي عقـــده الانقلابيون الانفصاليون في نادي الضباط .

وأما عفلق ، وكان لم يزل في بيروت ، فلقد حاول ان يفلسف الانفصال ، وصرح

لي شخصياً بقوله : إن الانفصال كان (محتوماً) وسبب ذلك في رأيه ان الحكم كان يسير الى هذه النتيجة بالضرورة !

وأعقب هذا الرأي صدور بيانين متناقضين عن (القيادة القومية) للحزب في بيروت ، أجمعا على إدانة كل من الوحـــدة والانفصال معاً ، بنوع من التدليس العجيب . وكان عفلق الذي أوحى بهذين البيانين ، يريـــد ان يبقى على الصفة (الوحدوية) للحزب ، فيبدي غيرته على تجربة الوحدة التي راحت ضحية (الاخطاء المتراكمة) و (سوء فهم المسؤولين) لمعنى الوحدة . وفي الوقت نفسه يفترض ان الانفصال ، وإن حققته مؤامرة رجعية إستعمارية ، إلا انه كان نتيجة محتومة لا مهرب منها . ولا فرق بعد ذلك من سوف يحقق الانفصال ، ما دام واقعاً لا محالة!

ولكن عفلق ، منذ ان عاد الى دمشق بعد الانفصال ، وكأن هـذه العودة نفسها تعطي للانفصال (شرعية) بينما فقدت الوحدة هذه الشرعية بنظره ، منـذ ان عاد عفلق الى سورية اعتصم بخطة من المواربة والمخاتلة ، بحيث جعل الكثيرين من شباب الحزب ينخدعون بمظهر وحدوي مصطنع ، يتلبسه عفلق ، كلما أدرك تدريجياً فشل الانفصال بتدعيم دولته الجديدة ، وعودة النضال الوحدوي الى ساحة المعركة أقوى فأقوى .

لقد كانت خطة عفلق التي كشفها تتابع الأحداث فيما بعد ، تعتمد على العناصر الآتيـة :

١ ـ لقد اعتبر عفلق أن الانفصال ، يقدم له مرة اخرى ، فرصة جديـــدة سانحة ، من أجل إعادة نفوذه الى الحزب ، عن طريق تأسيسه ، بصورة جديدة ، تبعد عنه منافسيه من القادة السابقين ، وتعزل عنه مفكريه وقادتـه المناضلين ، وقواعده الناصرية .

٢ ـ ومن أجل ذلك ، فلقد اعتصم وراء غموض كثيف ، بجعـل موقفه الفكري والسياسي من تجربة الوحدة السابقة ، ومن الانفصال الراهن ، بعيداً عن التحديد ، قابلاً للميـل تارة جهة الموقف الوحدوي (المعتدل) ، وتارة اخرى جهـــة الموقف الانفصالي المقنع ، والمنطلق من مبدأ عودة الحياة الديمقراطية الحد

سوريا ثانية .

٣ – وهذا الغموض والميوعة في موقفه من الوحدة والانفصال ، وفرّا عليه أولاً مسؤولية التزام رأي واضح منذ الايام الاولى من انقلاب ايلول . فلم تضبطه الجماهير متلبساً مباشرة كزميليه، الحوراني والبيطار ، ضالعاً مع المتآمرين بأقواله وتوقيعه وأفعاله .

٤ – وأدرك عفلق ان الانفصال ، الذي تملكته الرجعية بكل قواها ، سوف يخوض قريباً معركة استمراره ووجوده مع الجماهير الغاضبة . ولذلك فلقد فضل عفلق ان يترك ساحة العمل هذه المرة أيضاً للحوراني ، الذي اندفع بصورة عمياء في تأييد الانفصال ، بصورة لم يعد يستطيع فيها التراجع .

ومن ثم فقد حقدت الجماهير على الحوراني ، وضاعف من حقدها عليه كونه واحداً من زعماء التقدمية والوحدة . ولقد رأته اليوم مكرساً للانفصال ضالعاً مع الرجعية والمتآمرين ، حليفاً لأعداء الأمس ، عدواً لدوداً لعبد الناصر ، وكل ما يمثله عبد الناصر في نظر الجماهير .

٥ – استطاع عفلق ان يقف كذلك في موقع غامض ملتبس ، بالنسبة لقضية إعادة تأليف الحزب في سوريا . فلقد استمر في استقبال الشباب وقياداتهم المختلفة . وحافظ على موقف الاصغاء أكثر من الافصاح ، والحوار المنتج مع أي طرف .

وبالرغم من ان قواعد الحزب السابقة كلها قد رفضت الانفصال منذ وقوعه ، وانخرطت مباشرة مع جماهير العمال والفلاحين في حلب ودرعا خاصة ، ومن ثم مع جماهير الطلاب في دمشق ، انخرطت في مناضلته بالمظاهرات الدامية ، فان شراذم القيادات ، من الصفوف الأولى في الحزب ، كانت اتجاهاتها تتبلور بالتدريج حول ثلاثة محاور رئيسية . ولم تظهر هذه المحاور إلا بعد ان قطع الانفصال مرحلته الأولى ، وشارف على انعطاف (٢٨) آذار عام ١٩٦٢ .

ولا بد هنا من الاشارة الى ان الحزب كمؤسسة فكرية سياسية ، كان غائباً غياباً مفجعاً عن ساحة العمل النضالي طيلة الانفصال تقريباً ، ما خلا مواقف زعمائه الشخصية ، التي نعرض لها في هذه الفقرة .

المحاور الثلاثة

لقد تبلورت مواقف زعماء الحزب إذن حول ثلاثة محاور اساسية ، هي كالتالي :

١ – **المحور الانفصالي المتطرف** : الذي مثله أكرم الحوراني ، وفئة من رجاله القدماء ، ومن بعض الضباط الكبار المسرحين الذين شغلوا مناصب وزارية في بدء عهد الوحدة .

فهذا المحور الذي مارس الانفصال عملياً في سلوكه وآرائه ، منذ أيام الوحدة ، وبعد استقالة البعث الجماعية من حكم الوحدة ، كان مستعداً مباشرة للدخول في حوار مع متآمري (٢٨) ايلول .

ولكن أكرم الحوراني الذي أذهلته عودة الرجعية الجذرية كلها الى مواقعها السياسية السابقة ، التي تشبه مواقعها قبل نكبة فلسطين ، كان يبحث لنفسه عن مكان (تقدمي) في الخط الانفصالي .

ولذلك اعتبر فصم الوحدة سبيلاً لعودة سوريا الى وضعها – (المثالي) في رأي الحوراني – الذي كانت عليه ، ما بين عام ١٩٥٤ – ١٩٥٨ .

وهذا ما جعله ينادي بالعودة الى النظام النيابي القديم ، ويندفع الى ترشيح نفسه هو وزملاؤه عن مدينة حماه .

وحين تآمرت عليه رجعية الحكم الانفصالي آنذاك ، ولم تدع زملاءه يمرون معه الى المجلس النيابي ، بدأ الحوراني يمارس معارضة من نوع خاص في المجلس .

لقد كانت هذه المعارضة تقوم على الفكرة الخبيثة الآتية :

إرعاب أقطاب الرجعية من حين إلى آخر بعودة (الخطر الناصري) إلى سوريا .

وعندما صوت المجلس على إلغاء جميع القوانين الاشتراكية ، انفجر الحوراني معارضاً .. إن هذا التدبير (الأحمق) سوف يمهد حتماً لعودة عبد الناصر !

كانت خطة الحوراني ومحوره في هذه الفترة تقوم على الأسس الآتية :

١ – الانطلاق من تحويل الانفصال إلى (وضع طبيعي) لسوريا ، يشابه وضعها قبل الوحدة .

٢ – رد النضال إلى مرحلة صراع نيابي سياسي ، بين التقدمية والرجعية ، بمعزل كامل عن شعار الوحدة ، أو شعار الاشتراكية بمفهومه الاجتماعي .

٣ – إعادة ضباط الحوراني إلى الجيش ، لتسهيل عملية الالتفاف عليه مرة أخرى في لحظة من لحظات التفجر السياسي المحتملة .

٤ – وفي الوقت ذاته يقوم جهاز فكري سياسي من أجل تجريح الوحدة ورئيسها ، واعتبار شعار الوحدة كله من مستوى خيالي غير قابل للتحقيق ، والدعوة إلى وحدة (شاملة) بعيدة ..

٥ – واما خطة الحوراني تجاه زملائه من قادة الحزب السابقين، فكانت تقوم بالطبع على جذب العناصر الانتهازية ، وعلى رأسها البيطار . ولكن البيطار ، عندما فشل في الانتخابات ، ولم تمنحه الرجعية شرف الدخول إلى مجلسها ، مارس انعطافاً جديداً في سياسته، فبدأ يمهد لإدانة الانفصال وأصحابه، ومنهم الحوراني. ولذلك فقد عمد الحوراني إلى محاربة عفلق والبيطار، مستخدماً اتهاماته السابقة لهما.

* * *

غير ان الأحداث التي وضعت الانفصال سريعاً في قفص الاتهام ، وألبت عليه الجماهير يوماً بعد يوم، وأثارت الجيش الذي لم يلبث حتى استيقظ من هول المفاجأة التي وقع فيها .. هذه الأحداث حطمت خطة الحوراني سريعاً ، ووضعته مع زملائه من زعماء الانفصال الرجعيين والعملاء في صف واحد . وبدأت عزلته عن الجماهير ، وعن قواعد الحزب ، تضرب حوله نطاقاً من الادانة الكاملة .

ونأتي الآن إلى المحور الثاني :

٢ – المحور الثاني : ويمثله عفلق ، والبيطار بصورة تابعة ، وقلقة . فلقد أنقذته مخاوفه من التردي في موقف انفصالي خالص مثل زميله الحوراني ، منذ الثامن والعشرين من ايلول . ولعل وجوده في بيروت في تلك الآونة ، قد أبعده عن التورط بما تورط به الحوراني والبيطار .

ولكن ذلك ، لا يعفي عفلق من نية الانفصال ومن الحقد على الوحدة وزعيمها . تلك النية التي كانت تبرز أحياناً من خلال أحاديثه الخاصة ، وحتى من

خلال بيانات (القيادة القومية) التي لم تكن نميز بين ادانة حكم الوحدة ، وبين إدانة الانفصال ، في المستوى نفسه من السلبية .

لقد بقي عفلق يراقب تطور أوضاع الانفصال تدريجياً ، عن بعد ، وتطور الدعوات المتلاحقة من أجل إعادة إنشاء الحزب ، دون ان يبين عن موقف واضح محدود . ولكن عفلق مع ذلك ، كان يختار ، بنوع من الخفاء والدهاء ، أعوانه من ذلك الصنف من البعثيين القدامى ، الذين يتحلون بانتهاز (مثالي) وتبعية للأقوى وطواعية للتوجيه ، بدون تعلق بالأهداف والمبادىء ، بقلق (صبياني) بالطبع ! وراح عفلق يجدد دوره في منتصف الطريق بين الحورانيين ، وبين الوحدويين من قواعد الحزب وقياداته .

ثم بعد ثورة حلب في مطلع نيسان من عام (١٩٦٢) تحرك عفلق خطوة من أجل ان يمسك بطرف من زمام الأحداث .

كانت حركته تتجه أولاً للاجهاز على بقية الصلة الواهية ، التي كانت تربط الحورانيين مع الحزب .

كان عفلق يرى أن ذلك الوقت هو الذي يتيح له الفرصة الذهبية، للتخلص من عدوه الأكبر ، الحوراني . وإن اسلوب التخلص ، ينبنى هذه المرة على مبررات قومية . فإن الحوراني قد تورط الى أذنيه في دعم الانفصال وتكريسه ، وفي إجهاضه لثورة حلب ، وفي نشره للأكاذيب التي تهدف الى تشويه سمعة زعيم الوحدة نفسه .

وكان غضب القواعد البعثية قد بلغ حده الاقصى . وبدلاً من ان يدع عفلق الفرصة تفوته الى الأبد مرة اخرى حاول ان يصيب عدة أهداف بحجر واحد:

١ – هدف الإطاحة بالحوراني خارج الحزب بصورة رسمية مشروعة .

٢ – هدف إعاده تكوين الحزب تحت ستار وحدوي ، يتم له إقصاء الحوراني أولاً ، ثم إقصاء الناصريين .

٣ – إعادة استلام زمام المبادهة لدى الانتلجانسيا السورية والبورجوازية الصغيرة لإنشاء جسر وسط بين تطرف الانفصال وتطرف الناصرية .

وعلى هذا الأساس ، فلقد أوكل عفلق مهمة إعادة إنشاء الحزب الى لجنة من بعثيي العراق ، بينهم زملاء للسعدي .

فعقد مؤتمر حمص في شهر أيار من ذلك العام للقيادة القومية . وتقرر خلاله إقصاء الحورانيين عن الحزب ، وإعادة تشكيل فرعه في سوريا، تحت إشراف تلك اللجنة العراقية .

ولا شك في أن عفلق أراد من هذه اللجنة ان تضرب صفحاً عن جميع قواعد الحزب ومنظماته السابقة . كان عفلق يتهم القواعد في سرّه بالناصرية. ويتهم جزءاً كبيراً من القيادات بالحورانية . وبذلك أراد بضربة واحدة أن (يمسح) وجود الحزب وتاريخه كله ، وأن يبدأ هكذا من خلايا طلابية صغيرة .. من الصفر !

كان عفلق يحلم بعودة إلى أوائل الأربعينيات ، بنوع من الخرف السياسي ! كان يريد ان يتجاهل حقبة كاملة من عمر البلاد والحزب .

وأصدر (الحزب الجديد) منشوراً اول ، يعلن عن بدء تشكيله ، وعن استبعاد الحورانيين ، وينحي باللائمة على (أخطاء الوحدة) ويدين الانفصال بلهجة واضحة . فاعتبر الوحدويون من أعضاء الحزب ، ان هـذا البيان خطوة لا بأس بها ، وان كانت ما تزال تشكو من عقد الحقد على التجربة السابقة .

ولكن عفلق ما لبث أن اتبع البيان الأول هذا ببيان آخر ، لم يعلم بـه الوحدويون إلا بعد توزيعه . وسجل البيان الثاني ردة لئيمة نحو موقع انفصالي صارخ ، لم تنفعه الشعارات الوحدوية ، المنثورة بلا معنى أو قيمة بين سطوره . وعند ذلك بدأت نوايا عفلق و (حزبه الجديد) تتضح أمام قواعد الحزب الوحدوية.

وأصبح الجناح الوحدوي الكبير الذي يضم أكثرية هذه القواعد ، وقياداتها المناضلة المعروفة ، والمؤسسة للحزب منذ سنين طويلة ، اصبح هـذا الجناح أمام أمر واقع يتطلب منه القرار الحاسم الأخير ، بالانسلاخ عن الحزب نهائياً . وأما عفلق فلقد أطلق يد (اللجنة العراقية) في تأسيس الحزب مرة اخرى ، بعيداً ، كما قلنا ، عن مختلف فئات الحزب السابق .

وكان رد الفعل لدى كثير من قادة هذه الفئات سلبياً ، يستهجن أولاً انعقاد

المؤتمر في حمص ، دون دعوة أحد منهم ما عدا عفلق وحده . ويستنكر ثانياً أن يعهد الى لجنة عراقيــة بانشاء الحزب بعيداً عن مؤسسيه وأعضائه الأصليين - ثم كانت تلك البيانات المترددة بين الانفصال والوحدة ، والتي كانت تعجز عن إخفاء موقعها الانفصالي ، كلما استثارتها الأحداث الشعبية ، ذات الاتجـاه الوحدوي الصافي .

ولكن ماذا استطاع ان يجمع حزب عفلق الجديد بـين صفوفه ، من الفترة الواقعة بين شهر أيار (١٩٦٢) ، الوقت الذي انعقد فيـه المؤتمر القومي بغياب ممثلي الحزب في سوريا ما عدا عفلق ، وبين ثورة الثامن من آذار عام (١٩٦٣)؟ إن عدد الحزب العفلقي الجديد ، لم يتجاوز مائتين او ثلاثمائة عضو ، أكثرهم من طلاب الثانويات في دمشق خاصة .

ولقد ثبت ان الحزب الجديد لم يستطع ان يمتد الى أكثر محافظات سوريا ، لم يصل مثلاً الى حلب ، الى اللاذقية ودرعا وحمص وحماه ..

والى جانب هـذه الحفنة من المراهقين كان هناك بعض أصفياء عفلق ، من الحزبيين القدامى ، أمثال (شبلي العيسمي) و (منصور الاطرش) و (إميل شويري) .. وآخرين ..

ولقد برز (حمدي عبد المجيد) ، أحد أعضاء اللجنة العراقية ، في مهمة (الوصي الدائم) على الحزب وقيادته . وبقي يمارس هذه المهمة بدأب ودهاء حتى ما بعد الثامن من آذار . ويرجع إليه (فضل) كبير في تنفيـــذ الانحراف الانفصالي وتهيئته بين الضباط والمدنيين ، تحقيقاً لمشروع السعدي ، الذي كان ينيب عنـــه (حمدي عبد المجيد) هذا .. في دمشق .

المحور الثالث : وهو المحور الوحدوي الذي استقطب أكثرية قواعد الحزب السابقة وقادتها المناضلين ، وخاصة في المحافظات ، من الفلاحين والعمال والمثقفين .

لقد كان هذا المحور هو الذي تحمّل أعباء النضال عملياً طيلة تاريخ الحزب قبل الوحدة . وكان هو من ناحية ثانية ، بعيداً عن ان تمثله قيادات سياسية محددة . ولقد انفعل دائماً مع بقية الجماهير تلقاء الأحداث والملمات القومية ، دون ان

ينتظر توجيهاً من قائد ما . ولذلك اعتبر نفسه جزءاً طبيعياً من الجماهير المناضلة ، جزءاً طبيعياً منها .

وكانت قياداته تمارس باستمرار نوعاً من المعارضة الداخلية في الحزب ، حتى اتضحت معالم هذه المعارضة خلال مؤتمرات كثيرة رسمية وغير رسميه ، كان يتنادى إليهـا هؤلاء الشباب ، ويتدارسون أوضاع الحزب ، ومواقف قادته المتناقضة ، وخط الانتهاز من جهة ، متمثلاً في الحوراني وجماعته ، وخط العجز والحرد ، متمثلاً في عفلق وزاويته ..

ومنذ ان تحققت الوحدة ، تحررت هـذه القواعد وقيـاداتها من مسؤولية انحرافات القادة وأخطائهم ، واندمجوا نهائياً في القواعد الجماهيرية للوحدة وزعيمها. وكانت سلسلة المواقف ، وخاصة لأشخاص قياداتها،من تجربة الوحدة ومنعطفاتها، ومن بعدها الانفصال ، تسير في خط مناقض تماماً لخط المحورين السابقين .

فأولا : قابلت عناصر هذا الجناح استقالة الوزراء البعثيين باستياء واضـح ، وتساؤل عن حقيقة الاغراض (الشخصية) و (الانفصالية) التي حركت هذه الاستقالة الجماعية .

وثانياً : فلقد اندفع القادة الوحدويون الى المشاركة في تجربة (الاتحـاد القومي) ورفضوا مقاطعة انتخاباته، كما أوعز بذلك عفلق والحوراني. ثم شاركوا في تجربة (مجلس الأمة) ، فانتخب بعضهم نواباً عن الاقليم الشمالي فيه . وكان لمواقف بعضهم ، وخاصة منهم الاستاذ (أديب النحوي) ، أثر واضح في النقـد البنّاء الذي مارسوه داخل هذا المجلس .

وثالثاً : كانت لقاءات بعضهم مع أقطـاب المحورين الحوراني والعفلقي ، خلال تجربة الوحدة ، تكشف دائماً عن هوة تزداد اتساعاً بينهما . وكان الموضوع المطروح دائماً من خلال المناقشات الحامية ، وهو كيفية حماية الوحدة عن طريق مزيد من التدابير الوحدوية، بينما كان أقطاب المحورين الآخرين يحتّمون مصيراً، لا مفرّ منه وهو الانفصال . وكان صلاح البيطار ، بعد فشله في النيابة ، يتحول تحولاً نهائيـاً الى جانب الوحدويين . حتى غفر له هـؤلاء توقيعه على وثيقة

الانفصال ، وحاولوا ان يجددوا ثقتهم به .

إن هذا الجناح الوحدوي، الذي استقطب قواعد الحزب من قبل، واجتمعت له القيادات المناضلة ، أخذت تتبلور حدوده ، أكثر فأكثر ، بعد ضربة الثامن والعشرين من ايلول .

لقد أدان هؤلاء الانفصال منذ ساعاته الاولى . بل واندفعت بعض القواعد في حلب ودرعا خاصة ، الى المقاومة الفعلية .

وتحت ضغط بعض قادة هذا الجناح، بكى البيطار ندماً على توقعيه . واستمداداً من نفوذ هذا الجناح انطلق عفلق في مقاومة الحوراني ، حتى استطاع ان يفصله عن الحزب ، في مؤتمر أيار .

غير ان المقابلات المستمرة ، والمناقشات الحامية، وسلسلة الضغوط التي مارسها قادة هذا الجناح مع عفلق من جهة والبيطار والحوراني ، ومع من دعوا أنفسهم (بالقيادة القطرية) فيما بعد ، من أجل تأكيد خط وحدوي للحزب يمكن ان تتلاقى عليه أكثرية القواعد والفئات ، كل ذلك ذهب أدراج الرياح . وذلك بعد ان أوغل الحوراني في مواقفه الانفصالية المتشنجة . وبعد ان أسفر عفلق عن موقف انفصالي منافق بعد مؤتمر حمص . ولم يبق إلا ان يتخذ هذا الجناح طريق البراءة الكاملة من الحزب ، والانطلاق نحو تنظيم جديد . كان هو : **الحركة الوحدوية الاشتراكية .**

ولقد كان على هذه الحركة ان تحفظ تراث الحزب النضالي، وشعاراته الوحدوية والشعبية . فاندفعت الى استقطاب قواعد واسعة جديدة من العمال والفلاحين . واستطاعت خلال أشهر قليلة ان تعبىء الجماهير تحت شعار واحد مباشر : عودة الجمهورية العربية المتحدة بأقليميها الشمالي والجنوبي .

وبذلك برز تنظيم الوحدويين الاشتراكيين الى جانب تنظيم (القوميين العرب) حصناً جديداً للنضال الوحدوي الواضح ، دون أية جلجلة أو تردد . واستطاعت سوريا بسرعة ان تستعيد هويتها الوحدوية ، فتحولت المدن والمدارس والمعامل والمزارع الى ساحات للعمل النضالي . واكتسبت الوحدة وزعيمها بذلك

تأييداً مضاعفاً ، مدعوماً بأعنف نضال شعبي ، شهدته سوريا حتى ذلك التاريخ ضد الانفصاليين من جميع الزمر ، الرجعية والانتهازية والشيوعية المزيفة .

القطريون :

بين هذه المحاور الثلاثة ، التي انقسم إليها حزب البعث بعد الانفصال ، كانت هناك تجمعات وفئات كثيرة ، تتفق حول بعض مبادىء دون مبادىء أخرى ، أمثال جماعة (القيادة القطرية) التي حاولت ان تقف أيضاً في خط وسط بين الحوراني وعفلق . وبالرغم من موقفها الانفصالي الواضح ، فقد كانت ترفع شعاراً تعويضياً ، هو عودة وحدة الحزب .

وبالطبع فان هذه الجماعة لم تحاول ان تضع (المبادىء) التي يمكن ان يتلاقى عليها مختلف الأطراف . وقد تبين بعد قليل ان شعار (وحدة الحزب) بمعزل عن كل المعارك الوحدوية الانفصالية التي انخرط فيها الجميع ، ليس قادراً على طرح أية مشكلة حقيقية ، تستقطب الجهود .

وتبين ان هذا الشعار كان محاولة أخرى لتغطية النوايا الانفصالية لهذه الجماعة . خاصة وان بعض أقطابها، كانوا من أتباع الحوراني دائماً. ولذلك لم يكن ثمة تأثير واضح لهذه الجماعة على الأحداث .

إلى ان أتيح لها ان تلعب دوراً (حورانياً) جديداً، بدون شخصية الحوراني، بعد الثامن من آذار . فاستطاعت ان تتغلغل داخل الحكم البعثي ، وفي خلاياه الحزبية ، وتنتشر خاصة بين تنظيماته العسكرية ، حتى لم يبق لعفلق سوى القشرة الخارجية . بينما تعاونت هذه الجماعة مع الحورانيين ، على ملء فراغ الحزب في الحكم والجيش معاً ، والسيطرة على الوضع بصورة غير مباشرة .

الوحدويون المستقلون :

بقيت هنالك بعض الفئات من القيادات الفكرية والسياسية القديمة ، بمعزل

عن التيارات الأساسية التي قسمت الحزب الى عفالقة وحورانيين وناصريين، وكان من أبرزها ، الحلقة التي ألفها الدكتور (جمال الأتاسي) ، والاستاذ (عبد الكريم زهور) ومعهما بعض الشباب الآخرين أمثال (الياس مرقص) ، الذي لم يكن من أصل بعثي ولكن من أصل ماركسي ، التقى مع التجربة الوحدوية ضمن خطوط عريضة .

وكان يتعاطف مع هؤلاء مثقفون بعثيون ومستقلون كثيرون ، منهم مثلاً المفكر الدكتور (بديع الكسم) ، والدكتور (سامي الدروبي) وغيرهما .

لقد اتضحت مواقف الدكتور أتاسي والاستاذ زهور ، منـــذ الايام الأولى للانفصال . بل لقد تميزت جماعتها منذ أيام الوحدة ، بموقف وحدوي واع ، منذ مرحلة الوحدة نفسها .

وخلال مراحل الصراعات التي دخلت فيها أجنحة الحزب وفئاته المختلفة بعد الانفصال ، استطاع الأتاسي وزهور ان يخرجا مجلة شهرية سياسية .

ومن خلال المقالات التي كتباها في هذه المجـــلة ، وفي جريدة (البعث) الاسبوعية ، ظهرت مطالعة واعية للمشكلة كلها . فوضعت (أخطاء الوحدة) في محلها الطبيعي ، بدون أي استغلال انفصالي مضخم لها . كما تحددت مسؤوليـات تخريب الوحدة ، والاجهاز عليها يوم الانفصال .

ودخل (عبد الكريم زهور) خاصة في معركة جريئة عنيفة مع زميل الأمس : أكرم الحوراني نفسه . ففضح مواقفه ، وعرّى شخصيته الانفصـــالية ، وفند اتهاماته الباطلة للرئيس عبد الناصر .

لقد استطاع تجمع الاتاسي وزهور ، ان يفرض شخصية وحدوية خالصـة ، وفكراً ثورياً علمياً ، خلال معارك الدعايات والاكاذيب العلنية والجماعية ، التي شنت على الوحدة والوحدويين خلال الانفصال .

وعندما عانى الانفصال محنة وانعطافاً هـددا جذوره كلها بعد ثورة حلب ، عزم على تشكيل حكومة مبهمة الهوية ، تخدع ببعض البيانات والاسماء ، وتخدر الشعب الغاضب ، إلى حين جولة انفصالية جديدة .

وعهد إلى البيطار بتأليف هذه الوزارة ، فأخرجها من خلال وزارة (بشير العظمة) الشهيرة . وعرضت على تجمع زهور والاتاسي ، فرفضها التجمع كلياً وجزئياً .ولكن (عبدالله عبد الدائم) قبل الدخول فيها –على مسؤوليته الشخصية– كوزير للاعلام فيها .

وعندما راح هذا التجمع يمارس نشاطه من خلال مقالات وحدوية في جريدة البعث ، كانت الازمات تحتدم بينه وبين العفالقة من عدد إلى آخر . و كلها تدور حول الخط الوحدوي الذي ينتهجه زهور والاتاسي .

وعندما أوقفت الجريدة عن الصدور ، لم تبق ثمة علاقة فكرية او سياسية ،بين هذا التجمع وبين العفالقة خاصة .

إلى ان وقعت ثورة العراق،فدعي كل من الاتاسي وزهور إلى زيارة بغداد. وكان موقفهما مزيجاً من الاعجاب بتنظيم الحزب (الحديدي) هناك ، وخوفاً شاملاً من (الفراغ الفكري) الذي (تميز) به قادة الحزب الجدد في بغداد ، ومن انعدام التجربة السياسية لديهم ، ومن هذا الغرور الصبياني الذي أخذ يدير رؤوس بعضهم وهم على قمة الانتصار المبدئي .

وحين وقعت ثورة الثامن من آذار ، ودعي (الاتاسي) و (زهور) إلى المشاركة في الوزارة كان أول ما يشغلها هو تحديد دور العسكريين في هذه الثورة ، ومدى التوازن الذي يمكن ان يقوم بين التنظيم الحزبي المدني والتنظيم العسكري الذي استلم السلطات من أوسع الابواب .

وكان أن بدأت بوادر المخطط الانفصالي المبيّت تظهر أمام عينيهما ، داخل الحزب وعلى صعيد الحكم والجيش . غير أن هذا التجمع بقي يمارس ضغوطه المختلفة على بعض المسؤولين العسكريين والمدنيين الذين يكنون الاحترام لرجاله ، من أجل السير دون مواربة لتحقيق الوحدة .

ثم تميزت مواقف (عبد الكريم زهور) أثناء محادثات الوحدة بروح موضوعية الا حزبية . واختلف عن رفاقه الحزبيين بروحه الوحدوية الواضحة ، وآرائه الفكرية التي كانت تلقى صدى إيجابياً لدى الرئيس .

ومنذ ان تم التوقيع على ميثاق السابع عشر من نيسان ، انسحب زهور والأتاسي من الحكم . ثم حدث أن افترقا عن الحزب نهائيـــاً . وأصبحا موضع اضطهاد غير مباشر من قبل السلطـــات . وانضم (سامي الدروبي) إليهما بعد استقالته ، واعتزل العمل السياسي .

ثم استقال الفريق (لؤي الاتاسي) من قيادة مجلس الثورة ، عقب أحداث (١٨) تموز . وتألف بذلك جناح جديد وحدوي مناهض للبعث المفلقي وخطه الانفصالي ، اندمج فيما بعد بالاتحاد الاشتراكي العربي بالاقليم الشمالي .

* * *

ذلك هو مجمل الوضع الذي وصلت اليه انقسامات الحزب ، بعد ان تطورت من مرحلة الاتجاهات إلى التيارات ، إلى مرحلة الأجنحة ، حتى عصفت به تناقضات حاسمة تلقاء الموقف من الوحدة .

فخرج الجناح الحوراني ، وحاول ان يقود مرحلة الانفصــــال الرجعي ، ثم اندحر بعد الثامن من آذار . ثم بعثت بعض قواه من خلف بعض العسكريين والمدنيين المسيطرين تحت شعار البعث العفلقي .

وخرج منه الجناح الوحدوي الناصري . فتألفت نواة حركة سياسية جديدة ، هي حركة الوحدويين الاشتراكيين التي لعبت دوراً هاماً من الانفصال الأول ، إلى مرحلة ثورة الثامن من آذار ، إلى ان اندمجت في الاتحاد الاشتراكي العربي ، في الثامن عشر من تموز (١٩٦٤) .

وبقي التشرذم العفلقي وحده ، مع بضعة مئات من صبيان البعث الجدد ، وحفنة من صائدي المنافع من البعثيين القدامى ، بصرف النظر عن المبـــادىء والمواقع القومية والسياسية .

وهو الحزب (الجديــــد) الذي (أجهض) تاريخ الحزب القديم الأصيل ، وانحرف اكبر انحراف وأخطره . وقدم نفسه أكبر عقبة للثورية العربيــــة في منطقة المشرق العربي . وساهم أخطر مساهمة في تعويق حركة الوحدة والاشتراكية عامين تقريباً في هذه المنطقة كلها .

الفصل السادس

من ٨ آذار الى ١٨ تموز

ساعدت جريدة الحزب في أعدادها القليلة ، التي أصدرتها خلال الانفصال ، وخاصة مقالات الاستاذ (عبد الكريم زهور) على استعادة شيء من قيمة الحزب وسمعته الوحدوية بين الاوساط الشعبية ، والفئات المثقفة ، ولذلك فحين وقعت ثورة العراق ، تقبلت جماهير سوريا الحدث ، بترحاب عميق مخلص . فقد وجدت فيه طريقاً نحو الخلاص من الانفصال الذي اعتمد حكمه في عهد رئاسة (القدسي) خاصة ، على دعم قوي من قبل (عبد الكريم قاسم) الى جانب دعم النفوذ الانكليزي ، والرجعي العربي في المنطقة كلها .

وبذلك ارتفعت أسهم الحزب مجدداً ، دون ان تدري الجماهير بحقيقة الانقسامات ، التي فصلت عن الحزب ، في سوريا خاصة ، أهم القواعد والقيادات الوحدوية فيه ، وأبقت على الطغمة العفلقية وحدها .

ولكن تتابع الاحداث السريعة فيما بعد ، في كل من دمشق وبغداد ، بعد ثورتي شباط وآذار ، كشف عن ذلك المخطط الانفصالي المبيت الذي تقع مسؤوليته في الدرجة الاولى ، على (ميشيل عفلق) والقيادة البعثية في العراق آنذاك ، وعلى رأسها علي صالح السعدي وأتباعه ، وعلى تيار قيادي في التنظيم العسكري السري ،

الذي لعب من وراء ثورة آذار ، ضمن خطة رهيبة للاطاحة بالقادة الوحدويين في الجيش قائمة وراء قائمة .

لقد أظهرت تقارير المؤتمرات ، البعثية العفلقية ، الخطوط العامة الرئيسية التي حددت سياسة الحزب في هذه الحقبة الخطيرة ، من تاريخ التحولات التاريخية في العراق وسوريا بين الثامن من آذار والثامن عشر من تموز ، والثامن عشر من تشرين عام (١٩٦٣) .

ويمكن تلخيص هذه الخطوط ، كما برهنت عليها الاحداث فيما بعد ، كما يلي:

١ — الظروف المختلفة لكل من ثورتي شباط وآذار ، وتوزع القوى وراء كل منهما :

فلقد ضرب التنظيم العسكري للبعث العراقي ، مختلف التنظيمات العسكرية الوحدوية الأخرى ، وكشف أمرها لعبد الكريم قاسم ، وأجهضت محاولات كثيرة للاطاحة بالحكم القاسمي. ثم استطاع ان يضرب لوحده تقريباً ذلك الحكم، في ظرف معين ، ووفق خطة معينة ، لم تكن غريبة مجهولة من قبل دوائر الاستخبارات الاجنبية ، كما تحدثت بذلك بعض الصحف اليسارية في أوربا .

وبذلك يمكن القول ان البعث هو الذي تفرد وحده تقريباً بضربة الثامن من شباط في العراق . وكانت القوى الاخرى المنظمة والمستقلة ، مدنياً وعسكرياً ، مضطرة للتعاون معه ، في سبيل منع أية ردة من القوى الشعوبية الاخرى .

وأما البعث العفلقي في سوريا ، فكان على العكس تماماً ، إذ ان تنظيمه المدني الجديد ، كما أوضحنا ، كان من الضعف والهزال بحيث لم يكن قابلاً للمقارنة مع أي جناح بعثي آخر ، حوراني او وحدوي .

ولكن تنظيماً عسكرياً سرياً ، كان يعمل ضمن التنظيم الناصري الشامل في الجيش ، كان له خط آخر .

كان هذا التنظيم يعمل مستقلاً تقريباً عن أي جناح من أجنحة الحزب المتصارعة خارج الجيش . وكان يعمل بوحي من عزمه على الوصول إلى السيطرة أولاً ، تحت أي شعار كان .

ولقد تميز هذا التنظيم بالخصائص الآتية التي منحته قوته وانسجامه الداخلي :

– كانت جل عناصره من الضباط الصغار، او من أصحاب الرتب العسكرية المتوسطة . وكانت تنتمي إلى جذور طائفية معينة ، بالصدفة أولاً ، وهي الجذور العلوية أولا ، والدرزية ثانياً ، والاسماعيلية ثالثاً .

– ولقد تلاقت هذه العناصر من دروب مختلفة، وإن كانت تجمعها كلها تقريباً صفة الانتماء القديم لحزب البعث . فمن هذه العناصر ، من نشأ في ظل التنظيم الحوراني القديم ، وحمل خصائصه وميوله وأساليبه في العمل . ومنها ، من نشأ في كنف جناح حوراني غير مباشر ، هو جناح الدكتور (وهيب الغانم) في اللاذقية .

– ثم شارك بعض هؤلاء في ثورة حلب ، بدافع وحدوي خالص . ولكن إجهاض ضباط الحوراني ، المسرحين منهم خاصة ، لهذه الثورة في مؤتمر حمص العسكري فيما بعد ، ووقوف الحوراني سلبياً منهم اثناء اعتقالهم ومحاكمتهم من قبل الانفصاليين ، قد جعلهم يحقدون عليه وعلى جناحه كله ، ويتبعون توجيهاً خاصاً من قبل (محمد عمران) من جهة ، و (صلاح جديد) من جهة أخرى . مع العلم انه لم تتحدد خلال هذه الفترة بعد هوية واضحة لطابع هذا التوجيه .

– ولم ينشط هذا التنظيم العسكري السري – وبعض قادته كان مسرحاً او معتقلاً خلال الانفصال الاول – إلا بعد أن تحققت ثورة الحزب في بغداد . وظهر (عفلق) وكأنه هو وحده صاحب الكلمة المسموعة عند قادة الحزب في العراق . ومع ذلك فقد بقي التنظيم ضيق الحدود ، لا يتجاوز بضع عشرات من الضباط . ولكن الانسجام والتفاهم بين عناصره ، كان من القوة والتصميم بحيث أهله لأن يلعب ذلك الدور الخطير فيما بعد من وراء الوحدويين كلهم مدنيين وعسكريين .

وأما البعث المدني في سوريا ، فقد بقي قبل آذار وبعدها ، وخلال مختلف تطورات الأوضاع هناك حتى يومنا هذا ، هزيلاً كماً وكيفاً ، وأضعف من أي تجمع آخر أو جناح آخر ، كما قلنا ، في الحزب وخارج الحزب .

ولكنه كان يستمد القوة من مركز عفلق بالنسبة للحزب في العراق ، ومن قوة الحزب كله هناك .

وأما القوى الوحدوية الناصرية الأخرى في الجيش والشعب ، فقد كانت تمسك بزمام المبادهة في كل شيء ، صباح الثامن من آذار .

كانت هناك عدة حركات كبيرة : القوميون العرب ، الوحدويون الاشتراكيون ، الجبهة العربية المتحدة ، الى جانب تجمعات وتنظيمات وحدوية لا حصر لها . وكان الجيش يخضع الى عدد هائل من الضباط والقادة الكبار الوحدويين الذين شاركوا في ثورة آذار ، وقبضوا على زمام الأمور فيها . ولكن شيئاً واحداً كان ينقص كل هذه القوى الجبارة : التنظيم الموحد ، والتخطيط الموحد .

وذلك هو سلاح التنظيم الطائفي البعثي .

٢ – التحليل السياسي المغلوط ، الذي انطلقت منه قيادة البعث العفلقي السعدي ، للأوضاع الجديدة التي نجمت عن ثورتي شباط واذار بالنسبة لحالة الجماهير العربية داخل المنطقة ، وظروف الحكومات الرجعية المحيطة ، ولوضع الدول العربية المتحررة ، في كل من القاهرة والجزائر وصنعاء .

لقد بني هذا التحليل على المسلمات (الموهومة) الآتية :

أ – إن سيطرة الحزب المادية على الحكم في العراق ، يتيح للحزب في سوريا ان يجرب خطة الغدر بالقوة الوحدوية الأخرى ، ويدخل معها في سلسلة من التصفيات ، تنهي نفوذها على الجيش أولاً ثم على الجماهير .

ب – إن اتباع خطة التمويه على الجماهير الوحدوية في القطرين الثائرين ، والدخول في حوار طويل متشعب مع القاهرة من اجل (وحدة جديدة مدروسة) يعطي مزيداً من الوقت ، من اجل استكمال خطة التصفية للناصريين .

جـ – ومن جهة اخرى ، فان القيام بحركة امتصاص لبعض المنظمات الوحدوية ، في سوريا ، بوسائل مختلفة ، يساعد على التخلص من منظمات سياسية ، يمكن ان تلعب دوراً منافساً للحزب ، ومزايداً على الشعارات في عين الجماهير .

د – إن التهيئة لحركات انقلابية في أقطار مجاورة ، كالأردن ولبنان ، يساعد

في أقرب وقت على السيطرة التامة على المنطقة كلها . وبذلك يقوم حاجز منيع في وجه الناصرية ، يحقق حصاراً (تقدمياً) لها في عقر دارها .

من مجمل هذا المخطط تظهر النوايا المبيتة للقيادة العفلقية السعدية ، والقيادة العسكرية للتنظيم الطائفي السري في سوريا .

انها النوايا التي تتلاقى شاءت أم أبت ، مع تقاليد العمل الاستعماري كله في هذه المنطقة ، وهو الابقاء على جناحي النسر العربي مشطوراً إلى شطرين : شرقي السويس وغربيه .

وهو ايضاً : كبح الموجة الاشتراكية بزعامة عبد الناصر وبن بللا ، والاجهاز عليها نهائياً .

ولقد تحقق جزء كبير من هذا المخطط ببراعة فائقة ، وبثمن باهظ دفعته الأمة ، ودفعه الحزب ، كل على طريقته .

لقد تتابعت عمليات الاستيلاء على المناصب الحساسة الضاربة في الجيش ، من قبل عناصر التنظيم العسكري الطائفي ، الذي قبل بواجهة عفلق المدنية ، ما دام مقبولاً من العراقيين .

وتمت تصفيات مريعة للضباط الوحدويين بقوائم من التسريحات ، بالعشرات والمئات .

وتابع البعث المدني لعبة المفاوضات، والاغراءات مع قادة المنظمات الوحدوية في سوريا . وشلّ بذلك نشاطها ، وحصرها في منطقة رد الفعل . ودخل البعث العراقي والسوري في محادثات طويلة مع القاهرة ، من أجل وحدة ثلاثية لن تتحقق . وبذلك استطاع ان ينتصر موقتاً على غضب الجماهير وحذرها .

وضرب البعث في العراق أجنحته الوحدوية السابقة . ثم اغتال منظمات وحدوية اخرى .

اصطنع حرباً في الشمال مع الأكراد ، دفع إليها الجيش العراقي بكامله . وتفرد هو بالسيطرة على بغداد ، بفضل الحرس القومي .

وبدأت فصول الارهاب في العراق .

وفشلت ثورة (١٨) تموز في دمشق، كآخر محاولة لإيقاف الانحراف البعثي.
وتمت السيطرة كلياً على العراق وسوريا، في أظلم حقبة من تاريخ هذين البلدين.
وإلى هنا والمخطط يسير مظفراً، من مرحلة إلى مرحلة.
غير ان الانتصار كان غشاء رقيقاً دامياً لهزيمة منكرة شنعاء.
تفجر الوضع في العراق فجأة، ومن بين صفوف البعثيين أنفسهم
وتهدمت الأمبراطورية (العفلقية) على رؤوس أصحابها. ثم ما لبثت أصداء الكارثة ان انتقلت الى صفوف الحكام في سوريا.
وبدأت معركة التفجرات الداخلية. وكان مدارها إلقاء التبعات ومسؤوليات الانهيار في العراق تارة على السعدي، وتارة على عفلق، أو على الجناح الذي وصف بأنه الجناح اليميني.
وانطلقت موجات من التصفيات المتبادلة بين الزعماء، فأقصي (علي صالح السعدي) من قيادة الحزب، ثم من الحزب نهائياً. ولم يعترف السعدي بفصله فأنشأ لنفسه قيادة خاصة. ثم توالت عمليات الطعن المتبادلة بين الأطراف. فأقصي جناح (الشوفي) في سوريا، ومعه قيادات عمالية. واتهموا بالشيوعية او ما يشبهها.
فصل صلاح البيطار مرة اخرى من الحزب.
أبعد ميشيل عفلق الى اوربا.
سلخت قواعد برمتها من الحزب.
ثم لم يبق من الحزب في الحكم إلا شعاراته، وبعض أتباع العسكريين.
أمين الحافظ يسعى الى التقرب من القاهرة.
تتضاءل صفة البعث من الحكم الى الحد النهائي.
أمين الحافظ يفشل في إقناع الجمعية السرية العسكرية بالتفاهم مع القاهرة.
يذهب هو الآخر في رحلة (مرضية) الى فرنسا.
ولكن لنحاول الآن ان نتابع فصول النهاية بين الثامن عشر من تموز الى حين أخذت واجهة الحزب تنسحب بالتدريج من الحكم منذ أواخر صيف عام (١٩٦٤).

الفصل السابع

حكم الحزب الواحد

كيف يحكم النظام الاشتراكي ؟ ذلك هو السؤال الذي تواجهه كل تجربة ثورية انقلابية تتصدى لتحقيق مشروع حضارة شاملة، يقوم على تغيير كلي لأسس الحياة المادية والفكرية لمجتمع ما .

وقد يرد الجواب على الخاطر بسرعة ، فيقول أحدنا : ان كل تجربة اشتراكية لها جهاز سياسي يشرف على عمليات التحويل الاشتراكي ومنعكساته السياسية . وان هذا الجهاز يتألف من الاشتراكيين المنضوين في تنظيم شعبي يقود الثورة في طريقها المرسوم ، ويحرسها من امكانيات الانحراف نحو مختلف الامراض التي تعتري الثورة ، من منعطف إلى آخر ، في دربها الطويل الصعب .

أي ان النظام الاشتراكي يؤمن بنوع آخر من الديمقراطية التي تتحقق عن طريق الحزب الاشتراكي الواحد .

فما هو حكم الحزب الواحد في الدولة الاشتراكية في صورته الاصلية ، وما هي نماذج الانحراف والتزييف التي يمكن ان تلحق به ؟

هذا سؤال آخر . ولكن بدلاً من ان نجيب عليه نظرياً فقط ، فان أمامنا،

وعلى مسرح الاحداث العربية ، واقعاً حياً ، يمكن ان نتأمله ونحلله ، فنصل الى كشف حي مباشر يقدم لنا أسس نظرية الحكم بالحزب الواحد ، في النموذج الأصلي ، وفي النموذج المعاكس .

ولكن قبل ان نبدأ بتشريح الواقع نفسه لا بد من مدخل نظري سريع ، لاستجلاء مفاتيح البحث ، ووضع المبادىء الأساسية أمام القارىء ، تلك المبادىء التي توضح باختصار معنى الحكم بالحزب الواحد .

ان الحضارة المعاصرة تقدم لنا نموذجين كبيرين عن فلسفة الحكم . النموذج الديمقراطي الغربي الذي يؤمن بالمشاركة في الرأي ، دون المشاركة في العمل .

والنموذج الاشتراكي الذي يمثله الاتحاد السوفياتي ومن يتبعه من الدول الاشتراكية الاخرى . وفيه تقوم الديمقراطية على أساس تحقيق مراحل متتابعة في طريق المشاركة في العمل ، قبل المشاركة في الرأي .

وباسم المشاركة في الرأي تتنوع أداة الحكم في الديمقراطيات الغربية ، عن طريق تنوع الاحزاب السياسية .

وباسم المشاركة في العمل تتوحد أداة الحكم في الديمقراطيات الاشتراكية ، عن طريق تفرد الطبقة العاملة بواسطة حزب واحد بالحكم .

غير ان النمطين من الديمقراطية الغربية الرأسمالية ، والاشتراكية يخفيان (في الحقيقة) وراءهما نوعين من الديكتاتورية .

فالديمقراطية الغربية تخفي ديكتاتورية اتحاد المصالح الرأسمالية في الاحتكارات العالمية . والديمقراطية الاشتراكية هي الصورة السياسية عن ديكتاتورية الطبقة العاملة المالكة لوسائل الانتاج . أي أنها حكم الأغلبية بواسطة الاغلبية المتمثلة في الحزب الاشتراكي الواحد .

والديكتاتورية الرأسمالية مصيرها بالتدريج الى النموذج الفاشي والنازي ، كلما واجهتها ازمات اقتصادية تهددها بالانهيار الكامل . فتعمد حينئذ الى إلغاء مظاهر الديمقراطية السياسية وتبرز (الارهاب) الخفي الى مسرح الحكم مباشرة . وتختلق صراعات سياسية عالمية تتيح لها توجيه الانتاج نحو ادوات الحرب ، لتقضي

على البطالة الداخلية . ثم تسير سيرها المحتوم نحو الحرب ، او ما يشبه الحرب .

والحقيقة أن أية رأسمالية هي دبكتاتورية كاملة ، ما دامت تحتكر مصادر الانتاج ووسائله وتوزيعه . ولكن رأسمالية الغرب الاوروبي استطاعت ان تحتفظ بديمقراطية الرأي ، كقناع سياسي دائم لها ، وذلك لأن البورجوازية فيها قد وصلت الى السيطرة على الانتاج والسياسة ، عن طريق ثورات وطنية حملت ثقافة الحرية والمساواة ضد الارستقراطية والملكية المطلقة . وترعرعت هذه البورجوازية الاوروبية خلال شروط حضارية نادرة في التاريخ الانساني . انها شروط التحرر الفكري من الغيبيات وظهور الاكتشافات العلمية الباهرة ، والسيطرة على المادة ، وتحويلها الى خدمة الانسان لأول مرة في التاريخ .

ومع ذلك ، وعن طريق (ثقافة) عنصرية جديدة ، تحولت حرية الرأي الغربية الى النازية والفاشية ، أي الى ديكتاتورية عادية كاملة .

أما اذا أتينا الى الدول الناشئة حديثاً ، فإننا نجد الرأسمالية الجديدة فيها ، تنتقل فوراً الى مرحلة الديكتاتورية الكاملة ، عن طريق تدعيم الاستعمار لحكومات رجعية او عسكرية فيها . هذا ان لم تسارع هذه الدول فتتبع ثورتها الوطنية التي أدت الى استقلالها السياسي بثورة اجتماعية داخلية تؤدي الى استقلالها الاقتصادي ، من بورجوازية داخلية مدعومة بالاستعمار الغربي .

وبذلك لم يكن ثمة سبيل امام البورجوازية في الدول النامية للبقاء ، سوى استخدام وسائل الاستعمار ذاتها في الارهاب . فهي تعجز عن اخفاء مصالحها تحت ستار ثقافي عال ، لا تسمح به شروط التخلف الاجتماعي العام الذي ما زالت الدولة النامية خاضعة له ، مثلما تفعل بورجوازية الغرب الاوروبي .

فلا يبقى لها سوى احد اسلوبين : فأما ان تعتمد على مصادر التخلف ذاتها في مجتمعها ، فتقيم حكومات ذات مظهر ارستقراطي يتخذ شكل الملكيات والامارات ، واما ان تعمد الى السيطرة على الجيش ، وإقامة حكم ديكتاتوري عسكري مباشر . وسبيلها الى الاسلوب الأول هو النظم الاقطاعية والعشائرية والجمعيات الدينية والطائفية . وسبيلها الى الاسلوب الثاني هو الاحزاب العنصرية المتمكنة من

القوى العسكرية .

وإذا انتقلنا الآن الى مسرح الواقع العربي لنرى من خلاله تجارب حكم الحزب الواحد طالعنا شكلان لهذه التجارب .

أولهما الشكل الأصيل ، وهو حكم الحزب الاشتراكي الواحد ، كتعبير عن إرادة الأغلبية الثائرة ثورة التحرر من بقايا الاستعمار ، وثورة التحويل الاشتراكي في الوقت ذاته .

وثانيهما ، وهو الشكل المضاد ، أي حكم الحزب الفاشي الواحد ، كتعبير عن إرادة الاقلية في السيطرة على الحكم ، وإجهاض الثورة الاشتراكية والوحدوية ، وخلق بورجوازية عسكرية تتلاقى حتماً مع البورجوازية الاقتصادية .

وهكذا فان التاريخ يتيح للأمة العربية ان تشهد على أرضها صورة مجسمة ، مليئة بالوضوح والدلالات النظرية والايدلوجية للتجارب الثورية الأصلية ، والثورية المضادة في الوقت ذاته .

وبقدر ما تمضي الثورة المضادة في عرض مختلف امكانياتها السلبية ، بقدر ما تبرز الامكانيات الايجابية لدى الثورة الاصيلة ، وتتأكد حتمية نجاحها ، واتحادها بالتدريج مع المصير التاريخي لمسيرة الأمة .

فالنقيض يبرز النقيض من حيث انه يعمل على زواله . ولكنه بالعكس فانه يؤكد وجود نقيضه ، ويعمل على زوال نفسه .

فقبل ظهور اول حكم ثوري في العالم العربي بمصر ، لم يكن ثمة تعارض بين أشكال الحكم المسيطرة على الأقطار العربية . اذ كانت هذه الاشكال ترجع كلها الى جذر واحد يمكن وصفه بأنه حكم وطني الصورة ، ولكنه استعماري بورجوازي وإقطاعي في مضمونه وواقعه .

ولقد قام الصراع عنيفاً بين هذا الحكم الثوري في مصر وبين أنماط الحكم الرجعي الاخرى في البلاد العربية ، وخاصة في المشرق ، وذلك منذ مراحله الاولى .

وقبل ان يتخذ هذا الصراع شكل معركة بين اشتراكية تهيء لتغيير أسس الواقع العربي ، وتدخله الحضارة من احدث أنظمتها الانسانية تقدمية وعدالة

وتحرراً حقيقياً ، وبين رجعية تتغذى من طبقات متراكمة من امراض التخلف المزمنة ، وتتمسك بأعتق الانظمة الاجتماعية وأبعدها عن العدالة والحضارة ، فلقد طرحت ثورة مصر أولاً شعار التحرر من التبعية الاستعمارية في مختلف صورها .

وهكذا فان التناقض بدأ اولاً في ثنائية التبعية واللاتبعية . وكانت معارك الجلاء وتحطيم حصار الأسلحة والعدوان الثلاثي بعد تأميم القنال .

وبالمقابل فقد كانت معارك التحرر من التبعية الاستعمارية بالأحلاف وغيرها ، تتابع في سوريا ، وكان منطق توالي هذه الانتصارات في كل من مصر وسوريا لا بد ان يوصل الى اول انتصار إيجابي . فكانت الوحدة . وعند ذلك أصبح التناقض بين حكم الوحدة وبقية أشكال الحكم في الأقطار العربية ، يأخذ شكل البناء القومي مقابل الجمود الانفصالي .

ثم حينما طرح حكم الوحدة الصورة الاجتماعية الجديدة للبناء القومي في الاشتراكية ، تحول التناقض الى هذه الثنائية الشاملة : التقدمية المتمثلة في الوحدة الاشتراكية ، والرجعية والمتمثلة في الاقطاع والبورجوازية والتبعية الاستعمارية .

ولكن عندما برزت مشكلة الوسائل الموضوعية التي يستطيع الشعب بواسطتها ان يحمي مكاسبه ، وبينما كان الحكم الثوري في مصر فقط ، يعتمد على تأييد شامل ومطلق لكل خطواته النضالية ، ليس من الشعب المصري فقط ، ولكن من كافة شعوب الأمة العربية ، ومن فوق حكامها وحدودها المصطنعة ، فانه أصبح من الضروري تحويل هذا التأييد إلى عمل مشترك ومنظم . عندئذ طرحت مسألة التنظيم الشعبي الذي سيتسلم بالتدريج سلطات الحكم الوحدوي الاشتراكي .

وإلى هنا فان التناقض في أشكال الحكم ، في العالم العربي ، بقيت عند حدود الثنائية الحادة ، التقدمية والرجعية ، التحرر والتبعية ، الوحدوية والانفصالية .

ولكن ثورة الجزائر التي انتقلت من مرحلة الحرب المسلحة إلى مرحلة إقامة الدولة الاشتراكية ، قد أعطت لوناً جديداً لصورة الحكم الثوري في البلاد العربية . فاذا بها تقيم دولة المجتمع العربي العصري ، بأحدث الأساليب الاشتراكية ، وبأداة تنظيمية هائلة فريدة من نوعها في تاريخ الثورات القومية والاشتراكية ،

ألا وهي جبهة التحرير الجزائرية التي تتحول الى حزب شعبي كبير في ظل بناء الدولة الاشتراكية .

ثم ان الطرف المقابل ، الطرف الذي كان يشكل قطب التناقض في أشكال الحكم العربية أي الرجعية المتحالفة مع الاقطاع والبورجوازية داخلياً، والاستعمار خارجياً، قد دخله لون جديد يعتمد على بقايا حزب تقدمي انتهت الى لون آخر ، هو لون التقدمية المزيفة ، التي انتهت مهمته الثورية عند قيام وحدة سوريا ومصر . ولكنه استطاع ان يعود الى صورة الحكم الثوري الاشتراكي بواسطة التنظيم الشعبي الحقيقي ، في كل من الجزائر ومصر .

وهنا نصل الى لب الموضوع ، فنقوم بمقارنة توضح لنا هـذا الفارق التجريبي المحسوس بـين الشكل الفاشي لحكم الحزب الواحـد ، والشكل الديمقراطي الاشتراكي ، كما تبرزه لنا تجربة الجزائر ومصر ، والحكم العسكري الطائفي في سوريا ، الذي يدعي حكم الحزب الواحد التقدمي .

فأولاً ، صحيح ان الحكم الثوري في مصر لم يبدأ من تنظيم شعبي ، وإنما بدأ من تنظيم عسكري ، ولكن الأوضاع الحزبية في المجتمع المصري الملكي لم تكن تسمح مطلقاً ببروز مثل هذا الخط الثوري الذي أتت به التجربة الناصرية ، وثبت انه الخط الضائع من لوحة الصراع الحزبي في مصر ، ولكنه هو مفتاح مختلف المشكلات لمصر ولواقع الأمة العربية كلها .

فلقد كان التنظيم الحزبي الثوري في مصر تتوزعه قوتان ، قوة الماركسية غير الواعية لخصوصية المجتمع المصري ومشكلاته القومية والاقتصادية ، فبقيت قوة ضعيفة منقسمة على ذاتها ، محصورة بين فئات ضيقة من المثقفين . وقوة الحماس الديني الذي كان يكتسح القواعد الشعبية ، دون تحليل علمي للواقع ، ودون قدرة على وضع الحلول العصرية .

فالشيوعيون والاخوان المسلمون ، هما الحزبان الوحيدان اللذان يتقدمان لقيادة الثورة المحتومة والمعبأة في وجدان الجماهير الغاضبة .

وبالطبع فان واحداً من هذين الحزبين لم يكن يمثل طبيعة هذه الثورة المعبأة،

ولا طريقها ولا أهدافها الخاصة .

ولذلك فان التنظيم العسكري الذي قاده عبد الناصر كان يملك الحدود الأساسية لأهداف الثورة ، وكان يملك طريق التنفيذ ، وهو القوة العسكرية، التي حققت الثورة وفتحت الطريق أمام الانجازات ثم انسحبت بالتدريج إلى مهماتها الأساسية في الثكنات .

وتلك هي ايضاً إحدى الميزات الكبرى للثورة الناصرية ، ولولاها لاستمر الحكم عسكرياً وخلال سلسلة من الانقلابات العابثة كما حدث في سورية .

ثم تتابعت الناصرية نظراً وعملاً ، من خلال تجارب النضال الفاصلة ، مؤيدة من قبل شعبها وشعب الأمة العربية ، دونما حاجة مباشرة في البدء إلى تنظيم هذا التأييد ، إلا حين بلغت الثورة الناصرية مرحلة التحويل الاشتراكي الكامل ، وما يرافقها كذلك من نقل السلطات إلى أيدي المنتجين عن طريق الديمقراطية اللاطبقية . وعندها ظهرت مسألة الثورة للشعب إلى الثورة بالشعب . وبدأت عملية (الاتحاد الاشتراكي العربي) .

لقد جاء تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي بعد إزالة الطبقة البورجوازية كنفوذ سياسي واقتصادي داخلي .

وجاء كذلك بعد ان تفجرت امكانيات الانطلاق نحو التحويل الاشتراكي والديمقراطي . وبذلك كان الحكم الثوري الذي تحمل عبء الكفاح السلبي وحده، قد هيأ الطريق وأزال العقبات ، لكي تقوم تجربة حكم اشتراكي أصيل يتصاعد من التنظيم الشعبي .

اما الحزب الحاكم في الجزائر ، فلقد انطلق من تكوينات أخرى . فلقد كان على جبهة التحرير ان تبدأ من حرب حقيقية على أرض الوطن لاسترجاعها من يد المستعمر ، فولدت هكذا من حدود الثورة الوطنية ، ولكنها حققت ذروة قلما عرفتها هذه النوعية من الثورات .

لقد كان الشعب الجزائري كله ، كماً وكيفاً ، هو في حالة حرب عملياً ضد المستعمر . وحينما تحققت معجزة الانتصار الكامل على القوى الاستعمارية، تحولت

الثورة الجزائرية مباشرة من الشكل الوطني إلى الشكل الطبقي الداخلي . وتلك معجزة أخرى قطعت الطريق على مرحلة شاقة من الحكم البورجوازي المدعوم بالاستعمار الجديد .

والحزب الذي يتولد اليوم ، ضمن أفضل شروط الوعي النضالي والاشتراكي ، من مادة الكفاح السلبي التي اختمرت في خلايا الجبهة سابقاً ، هو الذي يخوض اليوم إحدى أكبر تجربتين في الثورية العربية ، ويشكل مع التجربة الناصرية تكاملاً وترادفاً عميقاً ، بالرغم من اختلاف مصادرهما . إلا انهما يتلاقيان اليوم على الصعيد الايجابي ، من حيث خلق الدولة العربية العصرية المتحررة من أية تبعية للاستعمار خارجياً ، والخالية من أي نفوذ للرجعية والاستثمار في الداخل .

وبالمقابل يأتي الحكم العسكري الطائفي في سورية ليشكل أبرز نموذج مسخ عن تجربة حكم الحزب الواحد ، كما هي في الجزائر خاصة .

فهذا الحكم يدعي أولاً انه حكم حزب . ولكن الوقائع والحقائق تقول انه حكم أفراد . بعضهم من بقايا قادة حزب ، وبعضهم التحق بهذه البقايا انتهازاً ووصولية . فلقد انتهى حزب البعث في سوريا عام ١٩٥٨ ، كتنظيم موضوعي بقواعده وقيادته . انتهى رسمياً باعلان من قادته ، وعملياً بذلك التبعثر والتشتت الذي أصاب قواعده وأفراده .

وعندما حاول عفلق ثانية ان يعيد تنظيم الحزب بعد الانفصال ، واجهته مختلف العقبات — التي سنتحدث عنها فيما بعد — وهو يعلم وعشرات من الشباب الآخرين الذين رافقوا هذه المحاولة في كل مراحلها ، يعلمون ان التنظيم الجديد لم يستطع ان يضم إلا بضعة عشرات من الشباب الصغار والجدد بقيادة بعض أصفياء عفلق . حتى جاءت ثورة آذار التي قفز فيها إلى المقدمة بعض ضباط صغار من بقايا تنظيم عسكري بعثي قديم ، جمعتهم الفة الطائفة أكثر من الفة حزب منحل ، ووحدت شهواتهم للحكم أحقاد شخصية ضد حكم الوحدة الذي أبعدهم عن المراكز العسكرية الأساسية آنذاك .

ولذلك جاءت نغمة (الحزب) ، وارادته في الحكم ، وكل الأساطير الأخرى

عن تجربة (بعثية) مناهضة للتجربة الناصرية ، وما رافق ذلك كله من أنواع الدعايات الفاشستية المعروفة عند النازيين والفاشستيين ، إلى سقوط حكم الحزب في العراق ، كل ذلك من أجل خلق وهم (حزب) غير موجود عملياً .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة وهي : ان الحزب غير موجود لا فكراً ،ولا عقيدة، لا قيادات ، ولا قواعد ، والموجود منه فقط هم من اعتادوا على ادعاء ملكيته ، عفلق والبيطار ، ومن يهمهم الاحتماء وراء واجهته وتاريخه من العسكريين ، ومن الانتهازيين المدنيين .

ولذلك جاءت محنة هذه التجربة المزعومة كلها ، فتحول (الحزب) العتيد إلى مجرد أداة متنوعة الاستعمال لأهداف متناقضة .

الانفصاليون الحورانيون استعملوه كأداة للارهاب،للاجهاز على جميع القوى الوحدوية الشعبية التي كانت في يوم من الأيام سند الحزب ، يوم كان حزباً .

والانفصاليون الرجعيون استعملوه كأعنف أداة (تقدمية) مزيفة ، لتوقف زحف الناصرية بقواها الاشتراكية .

والطائفيون استعملوه لإخفاء مطامع شخصية في الوصول الى الحكم والتسلط على الفئات الأخرى .

والاستعماريون وجدوا فيه كذلك أحدث أداة تقدمية مزيفة،لخلق التشويش على التقدمية الأصيلة ، واضاعة معالم المعركة العربية الأساسية بين قوى الوحدة والاشتراكية وقوى الانفصال والرجعية .

ومن هذه الحقيقة الرهيبة ان (الحزب) غير موجود ، جاءت كذلك محنة الشعب السوري بتسلط فئة لا ترعوي أمام عقيدة أو فكرة أو حرمة ، إلا بقاؤها واستمرارها . فكانت أعنف تجربة ارهابية انتقامية شهدتها مختلف فئات الشعب السوري، بصورة لم يسبق لها مثيل حتى في أظلم عهود الاستعمار التركي والفرنسي .

ثم جاءت محنة العروبة كلها في هذا الانتكاس والاعاقة التي مثلها حكم حزب غير موجود إلا كعصابة ، فتأخرت قضايا النضال العربي عن قطف ثمرة وحدة جبارة سنة أخرى من عمر التاريخ المتوثب .

فاذا كان لنا أخيراً ان نقارن بين تجربـــة الحكم في سورية وتجربة مصر والجزائر ، فان هذه المقارنة رغم ما تثير في النفس من غضب وشعور بالمهانة ، فان علينا ان نحمد لواقع الثورية العربية انها لا تقدم لنا ذروة إلا وتقوم مقابلها ذروة نحو الأسفل ، لا يقوم أصل إلا ويتبعه مسخ ، لا تتكوّن حقيقة إلا ويرد منها الزيف .

وهذه المقارنة الحسية هي التي تعطينا في الحقيقة الفارق الايدلوجي والعملي فيما يمكن ان تكون عليه تجربة حكم الحزب الواحد في نطاقها الاشتراكي التقدمي المدعوم بأكبر القواعد الشعبية والمحقق لأعمق الأهداف في خلق المجتمع العادل العصري .

وكذلك تقدم لنا هذه المقارنة تجربة حكم الحزب الواحد الارهابي الفاشي، المعزول عن مختلف قواعد الشعب ، والمعاكس في سيره لأهداف الأمة الحقيقية ، والمدعوم من قبل قوى التخلف جميعها داخلياً كالطائفية والطبقية،وقوى الانفصال الاستعمارية خارجياً .

اننا نشهد أمامنا وملء حواسنا أكبر الدروس الايدلوجية النظرية من أفجع التجارب السياسية . اننا نشهد الصورة وعكسها ، الأصل والمسخ معاً . وذلك هو منطلق تربيتنا الثورية تتيحه لنـــا ظروف الواقع ، لعلنا نكون أقدر على فهم مستقبلنا وقيادته بأقل عدد من التشويهات والمسوخ .

١ – ١٨ تموز : المجزرة الكبرى

ومنذ أكثر من عام وقع يوم فريـد ، سيكون له أثره في كل يوم آخر يأتي بعده . فان الثامن عشر من تموز عام (١٩٦٣) لم يكن تاريخاً لفشل مؤامرة ، ولكنه تاريخ سقوط حزب كامل ، في أوج انتصاره ، وعربدة الدم في أنيابـــه وبين مخالبه .

لقد كانت معركة صغيرة في رقعـــة من الارض محدودة ، وخلال زمن لم يتجاوز الخمس عشر دقيقة .ولكنهم أرادوها أكبر معركة، فمدّوها الى كل مدينة،

وكل حي ، الى كل بيت في سوريا . وأرادوها معركة تتجـــدد كل يوم ، والى أطول زمن ممكن .

وكانت النتيجة ان خسروا كل مدينة وكل حي وبيت . فصارت معركتهم مع شعب كامل ، بتجاربه وتقاليده وفضائله وجذوره التاريخية كلها .

وخسروا الزمن كذلك ، فأصبح مستقبلهم هو مصيرهم . ومصيرهم هو الزوال الى الابد .

لقد قاتلهم بضعة أنفار من المغاوير ، فحولوا أفواه المدافع على المدينة كلها ، ورشوا بالنــــار الرجال والنساء العزل في الشوارع . وداهموا البيوت ، وجروا الرجال من أسرتهم ومن بين أطفالهم ونسائهم . لم يفرقوا بين مريض وصحيح ، بين قادر وعاجز .

لقد فرضوا المعركة على الجميع ، عمــلوا كل ما بوسعهم لكي يصبح الشعب السوري بين عشية وضحاها أكبر عدو لهم . فتحمل الشعب عبء المسؤولية ، وقبل المعركة ، وراح كل يوم يعدّ لهم يوماً كالثامن عشر من تموز . ولكن في هـــذه المرة ، لن يعد المؤامرة بضعة أفراد ، ولن ينفذها بضعة مغاوير ، ولن تكون ساحة الأمويين ، ساحة للمعركة وحدها .

فالشعب ، من كل فئـة ، من كل مدينة ، من كل حي وبيت ، هو الذي سيشترك بالمؤامرة الكبرى ! والارض ، ارض كل مدينة وقرية ، هي التي ستنقلب في لحظة الى جحيم جبار . سينقلب حصار الصمت حول الطغمة العفلقية الدامية ، في لحظة الى حصار النار . وحولهم سيرون أشباح ضحاياهم ، تنبعث من مراقدها ، من جروحها وآلامها ، ومن أقبية المزة وسجون سورية كلها ، لتنادي بالثأر ، من لصوص الثورات ، من (الجدعان) الجلادين وراء الدبابات والحصون .

يوم الثامن عشر من تموز عام ١٩٦٣ ، ليس يوماً تاريخياً ..

لأنه اليوم الذي فيه وقعت أكبر مجزرة في تاريخ سوريا الحديث ..

لأنه اليوم الذي عممه الطواغيت على كل أيام السنة من عمر عهدهم الاسود ، فصار لهم في كل يوم مجزرة ، وفي كل ساحة ميدان للسحل والقتل .

لأنه اليوم الذي سقط فيه تاريخ حزب كامل ، ليبدأ تاريخ أخطر عصابة عقائدية تمارس حلفاً اسود مع قوى الخيانة والرجعية والانفصال والاستعمار ..

لأنه اليوم الذي تفجرت فيه دفعة واحدة قوى الثورة المضادة كلها في أشرس محاولة للاجهاز على كل مكتسبات الثورية العربية انسانياً واجتماعياً ..

ان اليوم الثامن عشر من تموز هو التاريخ الحاسم لتحقق كل هذه الأحداث ، والمعاني الهامة من ورائها . وفوق ذلـك هو المنعطف النهائي لتصفية مختلف القوى الحزبية التي سبقت عهد الوحدة والاشتراكية . فالبعث ، وهو آخر شكل مـن حزبية ما قبل الوحدة ، وأكثر ثوب مهلهل اجتمعت فيـه رواسب تلك المراحل التي اجتازتها الثورية العربية ، قد تفجرت من خلاله مختلف امراض الحزبيـة وعقدها ، وصفّت نفسها ، وهي تحسب انها تصفي قوى الشعب المعدة لتجربة افضل في الوحدة والاشتراكية .

فتدخلها هذه القوى صافية من أوشاب الماضي ، متهيئة لأن تنتظم في أكبر قاعدة سياسية لدولة الوحدة القادمة .

ولكن ، مع ذلك ، فان هذا الحدث الخطير ، يوم الثامن عشر من تموز ، لم تتضح بعد ، كل خفاياه ولا بعضها .

فان أسئلة خطيرة ما زالت تدور في أذهان ، حتى أقرب الناس الى المشاركة في هذا الحدث ممن كانوا في صفه ، وممن كانوا في صف مكافحيه ، وممن كانوا مـن ضحاياه ايضاً .

من هذه الأسئلة مثلاً :

الى أي حد شارك البعث نفسه في الاعداد للحدث ، تخطيطاً او دفعاً ، وحتى تنفيذاً ؟ والى أي حد ساعدت قوى (اخرى) من وراء البعث نفسه في التهيئة له ، وفي تضخيمه عند وقوعه ، وفي المساعدة على (اصطياد) كل مـــن هو في الصف الوحدوي سواء شارك في ١٨ تموز او لم يشارك ؟.

ان الوقائع التي تثير هذه الأسئلة كثيرة ومتعددة . بل ان كثرتها وتتابعها وانكشافها لضحايا الحادث خاصة في السجون ، وأثناء مهازل التحقيقات ، وملابسات

الأحكام التي صدرت بحق بعض قادة الحدث والمشتركين فيه . ومن هـذه الوقائع التي تثبت ضلوع البعث في الاعداد لعملية الثامن عشر من تموز ما يلي :

أولاً : لقد انشغلت دوائر البعث العسكرية والمدنية، تحت اشراف المخابرات، باعداد (لوائح) عديدة، وكان المطلوب من (الأعضاء) حصر أسماء فئات مختلفة . منها ، أسماء جميع الضباط الكبار والصغار وصف الضباط ، من الذين شاركوا في أي نشاط وحدوي سري او علني ، وممن كانت لهم مراكز هامة أثناء الوحدة .

ولذلك عندما وقعت احداث الثامن عشر من تموز ، فان سلطات البعث لم تنتظر حتى جلاء نتائج التحقيق الأولية ، بل اندفعت فاعتقلت مئات مـــن العسكريين ، وساقتهم من قطعـاتهم ومن بيوتهم الى السجون .. والى التعذيب مباشرة .

ومن هذه اللوائح ، ما أعدها المدنيون البعثيون ، بالتعاون مع المخابرات طبعاً ، في حصر مختلف أسماء القـادة والبارزين من الاساتذة والمحامين والموظفين وأبناء الأحياء،ووجهاء القرى، العاملين في الحقل الوحدوي. سواء أكانوا ينتمون الى المنظمات الوحدوية المعروفة ، او غير ملتزمين .

ثانياً : ومثلما لم يكن لأعضاء (الحزب) من عمل طيلة الفترة بين سرقة ثورة الثامن من آذار ، خلال شهر نيسان ، حتى الثامن عشر من تموز ، إلا التجسس على الوحدويين ، وإعداد اللوائح بأسمائهم في كل مكان، كذلك فقد كان (الحزب) بثوريته الجديدة طبعاً، يطبق نظاماً عسكرياً خاصاً على المئات القليلة من أعضائه. ويقوم بتدريبهم على السلاح وحرب الشوارع ، ويقـــدم لهم أسلحة الجيش . كل هذا ، حتى قبل ان (يعلن) الحزب عن تنظيم (الحرس القومي) . وكانت قيادات المدنيين كذلك ، تقوم (باستنفارات) موهومة للأعضاء المسلحـين في الأحياء ، وتحت جنح الظلام ، لتعدهم هكذا من اجل « اليوم الموعود » الذي ما فتيء البعثيون يتكلمون عنه سراً وجهاراً .

ثالثاً : وقبل موعد تنفيذ الانقلاب بيومين او ثلاثة ، لم يكتم بعض أقطاب العسكريين البعثيين والمشرفين على الشعبة السياسية ، انهم ينتظرون بعد يومين وفي

الساعة الحادية عشرة « مناورة » بالذخيرة الحية في شوارع دمشق .

ثم يروي الضباط الوحدويون كيف انهم اعتقلوا اما مساء اليوم السابق للحادث او في صباحه . ويروي البعض الآخر كيف وجدوا أسلحة قطعاتهم مستنفرة ، منذ الصباح الباكر ليوم الثامن عشر من تموز ، وكيف ألقي القبض عليهم في هـذا الوقت بالتحديد .

رابعاً : ولقد قام قسم من ضباط المخابرات وعملائهم المستورين بنشاط غريب قبل أسبوع من وقوع الحادث . ويروي المعتقلون من الضبـاط الوحدويين في سجن المزة ، كيف ان فلاناً وفلاناً من عسكريين ومدنيين، كان لا همّ لهم سوى البحث عن ضباط وحدويين معروفين ، يكشفون لهم عن (العملية) ويدعونهم للاشتراك فيها ، بل ويطلعونهم على ساعة الصفر ، حتى قبل ان يتلقوا منهم الموافقة على الاشتراك .

ان الأكثرية الساحقة من الضباط الكبار خاصة ، قـد ثبت ان (علمهم) بالمؤامرة كان عن طريق بعثيين مقنعين .

خامساً : وتأتي مهزلة محكمة « الضللي » فتلفظ أحكاماً عجيبة ، تخطىء العدل حتى في توزيع الظلم . وتتكشف مؤامرة المحكمة للمعتقلين في المزة ، ودور « التطبيقات » التي قام بها الضللي نفسه في السجن ، وتحت جنح الظلام مع بعض العناصر ، في ليلة اعلان الأحكام .. وقد عرفنا جميعاً ان « الاحكام » كانت معدة من قبل ، حتى قبل وقوع الانقلاب الفاشل . وكان من المفروض ان يعدم عدد من القادة العسكريين والمدنيين معاً ، وان يحكم بالاشغال المؤبـدة عدد آخر ، وبأحكام مختلفة لا تقل طبعاً عن خمس سنوات تصدر بحق الباقين وبأكبر عدد ممكن .. كل هذه (الشروط) لم تتحقق الا بصورة ملتوية ومحرفة ، حسب الضغوط المختلفة التي مارستها أجنحة الحزب المستورة والخفية .

سادساً : وهكذا يمكن اعتبار عملية الثامن عشر من تموز من تأليف وإعداد ، بل وتنفيذ الحزب نفسه . وأما الفئة القليلة من الوحدويين الذين اشتركوا وخططوا ، فقد ثبت لهم أنفسهم انهم كانوا مدفوعين بقوى خفية من وراء ظهرهم للاستمرار

ضمن اسلوب معين ومنهج مفروض . لقد كان جو (المخابرات البعثية) مسيطراً تقريباً ، سيطرة كاملة على مختلف مراحل اعداد الانقلاب وتنفيذه . وكم من مرة حاول القائمون عليه تأجيل التنفيذ ، وتحديد ساعة الصفر .

* * *

والآن .. هل يمكن ان يخفى السبب او الاسباب القليلة ، ولكن الخطيرة ، التي دفعت بالبعث الى خلق كل ما يمكن خلقه من اجل التحريض على الانقلاب ، والاعداد والدفع المادي والمعنوي نحو تنفيذه ؟

لا شك ان هذه الاسباب، لا ترجع الى ظروف البعث المدني والعسكري أثناء ثورة الثامن من آذار وبعدها فقط . ولكن قد ترجع الى ما هو أشد خطورة وأعمق دلالة .. انها ظروف الانفصال الرجعي في الأشهر الأخيرة من عمره ، قبل ثورة آذار . ان قصة هذه الظروف لم تعد خافية على احد . وهي بكل بساطة قصة عهد مزيف ، مفروض على البلاد بقوة التآمر من قبل بعض العسكريين والمدنيين ، من أبناء البورجوازية الرجعية الدمشقية ، وبعض أصحاب العروش الضليعة مع الاستعمار الانكليزي . فكان عهد الانفصال الذي لم ينجح في إعادة (الحياة الطبيعية) المزعومة الى سوريا ، والتي افتقدتها بعد تحقق الوحدة والاشتراكية .. وكل ما استطاعت ان تفعله مختلف وسائل الديمقراطية الرجعية خلال سنة ونصف من عمر الانفصال الاول ، هو انها ضاعفت إيمان الجماهير بالوحدة وقائدها . وعبأت قوى شعبية عمالية وفلاحية ، لم يسبق لها ان دخلت ميدان معركة سياسية من قبل . فلقد كان من (فضائل) الانفصال على قضية الوحدة ، انه حرك أكبر قطاع شعبي ، ودفعه في ميدان المعترك القومي ، حتى أصبحت قضية الوحدة بالنسبة لشعب سوريا ، هي قضية الوجود اليومي لكل فرد فيها .

وعندما عجزت وسائل تلك (الديمقراطية) المرمة ، عن تدعيم الانفصال ، وعن جعل نفسها بديلاً منافساً او افضل ، عن الوحدة ، واضطرت حكومات الانفصال المتتابعة (كل شهرين واحدة تقريباً) ان تدخل حرباً شعواء مستمرة مع مختلف قوى الشعب يومياً .. وأدرك الاستعمار ، الانكليزي خاصة ، حارس

الاوضاع الجديدة في سوريا منذ الثامن والعشرين من أيلول عام (١٩٦١) ، ان المد الوحدوي يتعاظم معركة بعد معركة ، وان مواقع الانفصال والرجعية تتهاوى ، وتخلد تدريجياً الى استسلام غبي . ومن ناحية اخرى فقد نقلت له مخابراته أنباء التنظيمات الوحدوية الكثيرة التي تغطي جميع قطاعات الجيش ، وتتحفز لانطلاقة جديدة ، تجهز على الانفصال الرجعي المحتضر ، والذي أنهكته معاركه المتواصلة بينه وبين قوى الشعب الوحدوية ، بينه وبين تناقضاته الذاتية الخاصة ..

لما أدرك الاستعمار البريطاني كل هذا ، أدرك ايضاً ان الثورة الوحدوية لا بد واقعة .. ومن عادة التخطيط الانكليزي ألا يجعل قواه تتصدى للموجة الغاضبة ، بل تحني رأسها تحتها وتجعلها تمر .. بسلام موقت .

وهكذا كان .. فان الهدف الاستعماري لم يتغير . ولكن الوسيلة هي التي ستتغير هذه المرة . فلن تحمي الاهداف المعادية للشعب ، قوى من داخل الشعب ولكنها مكشوفة العداوة مع مصالحه القومية الحقيقية ، كما كان دور الرجعية بالنسبة للانفصال الأول . فلا بد من تجديد الانفصال بقوى الوحدة نفسها .

وهكذا انطلق زياد الحريري مستبقاً ساعة الصفر بيوم كامل ، على رأس قوى وحدوية أصيلة من الجبهة . انطلق ليحقق فرحة الشعب بفتح الطريق أمام الوحدة .. وليحقق شيئاً آخر في نفسه ، لا علاقة له بالشعب ، ولا بالوحدة .

ووضع القادة الوحدويون وتنظيماتهم أمام الأمر الواقع . فلم يسعهم إلا التصديق ، بالرغم من الشكوك التي بدأت تخامرهم منذ ساعات الصباح الأولى للثورة في الثامن من آذار . وبعد ان ألّف الوزارة الأولى (صلاح البيطار) .

وفي غفلة من بعض كبار الضباط الوحدويين ، ساعد (زياد الحريري) القلة من الضباط البعثيين على العودة إلى الجيش ، ثم على التسلل إلى المناصب الحساسة في القطعات ، والمكاتب الرئيسية . وبينما راح (زياد الحريري) يعتقد ان البعثيين ليسوا سوى أداة في يده لضرب الوحدويين ، وانهم ما زالوا قوة كبيرة تتمتع بتاييد كاسح من الجيش والشعب معاً ، فان البعثيين كانوا قد أدرجوا اسم (الحريري) في قائمة تسريحات ، سوف تعلن في وقت معين .

وبعد ان أجهز البعثيون على الحريري وجماعته، لم يبق إلا تصفية القوة الأخيرة للوحدويين . ولكن التسريحات المتتابعة، والمناورات الخادعة على مستوى السياسة والوزارة ، قد كشفت البعثيين أمام الشعب قبل ان يستطيع (الحزب) تصفية قوى الوحدويين نهائياً في الجيش ، ودون ان يجرؤ على التصدي لها بين صفوف الشعب مباشرة .

عندئذ كان الحل الوحيد هو اصطناع مؤامرة ، لا بد ان يسعى إليها الضباط المسرحون . شرط ان تشمل أكبر عدد ممكن من هؤلاء الضباط داخل الجيش وخارجه وان تحدث في أعنف شروط ممكنة ..

وهكذا يجد الحزب المبرر الأكبر لإنجاز تصفيات نهائية في صفوف الوحدويين، ويصبح المسيطر الوحيد على سوريا ، كحال الحزب في العراق . وعندئذ (يبعث) مشروع سوريا الكبرى . وتكون نواته وحدة محورية بين بغداد ودمشق ، تحت ستار (امبراطورية) البعث . ثم لا تلبث الأوضاع في الاردن ان تصفى هي ايضاً .. وتنغلق دارة الوحدة المحورية ..

والخطوة الرابعة في المخطط الانكليزي العفلقي :

الالتفاف على عبد الناصر من وراء ظهره ، وفي عقر داره !

(العبارة بعثية بألفاظها وصياغتها) .

ان مركز المحور في هذه الخطة اللئيمة ، هي مؤامرة انقلاب فاشلة ، تحقق التصفيات المنشودة ، وتقيم عهداً من الارهاب المطلق ، يحمي (مسيرة) الثورة ، تحت ظل اقامة الامبراطورية العفلقية .

وتقدم القناعات الايدلوجية الضرورية لأصحاب الوجدانات المرهفة ، بأن الثورة ، إنما هي في مرحلة دفاع عن النفس . وبذلك تتهيأ مختلف الظروف اللازمة لتحويل الحزب إلى عصابة نازية في يد بضعة عسكريين ومدنيين، تخطط لهم دوائر المخابرات الاستعمارية ، وهم ينفذون ، ويقبضون أجوراً في ترقيات إلى رتب العميد والفريق واللواء ..

والآن بعد مضي عام على أحلام أصحاب الثورة المضادة وأسيادهم من

مستخدميها، يمكن الاعتراف ولا شك ان نصف المخطط على الأقل قد تحقق. وأن أخطر مراحله في الثامن عشر من تموز ، وما بعده ، قد نفذ ايضاً .

ولكن الامبراطورية العفلقية الكرتونية لم تقم حتى اليوم . بل نشهد قطبي هذه الامبراطورية خارج العراق وسوريا ، بل خارج البلاد العربية كلها :

عفلق عند أخيه في (بون) . والسعدي ، في (مدريد) يحيا في كنف أظلم ديكتاتورية مهترئة في أوروبا ، بل في العالم كله .

ومنذ ان قدم (السعدي) لأول مرة إلى دمشق بعد ثورة آذار ، وقابلته الجماهير الغاضبة وأفزعته .. وصرخ في وجه حراسه من بعثيي دمشق : ماكو دم .. ماكو ثورة !

كانت تلك الصرخة هي عنوان مخطط الدم ، للثامن عشر من تموز ، ولساعة الصفر من أجل قيام امبراطورية عفلق والسعدي .

فماذا كانت نتيجة ساعة الصفر تلك ، انها صفر . ولكن بعد بحر من الدماء .

٢ ـ انجازات حكم الحزب الواحد

ان من يتابع سلسلة المواقف والحوادث التي كان من ورائها الحكم البعثي طيلة ما يقرب من عام مضى ، قد يدهشه التناقض العجيب في الفكرة وعكسها ، في الشعار ونقيضه ، في الموقف وضده ، الذي طبع تاريخ التسلط البعثي على العراق وسورية ، ثم سورية وحدها .

وقد يرجع بعضهم هذا التناقض الى عوامل مختلفة . منها تلك الهوة التي تفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنيـــة في الحزب والحكم معاً . ومنها تفكك الانضباط وانعدام المسؤوليـــة . ومنها ظاهرة التشرذم حتى في القطاع الواحد العسكري والمدني .

ومن العوامل ما قد يتخطى نهائياً هذه الظواهر ، لينفذ الى العقل الخفي الكامن وراء ذلك الحكم ويوجهه ضد مصالح الحزب نفسه ، وضد مصالح الشعب ، وضد الأهداف القومية والاشتراكيـة . وهو العقل الاستعماري المعهود ، والذي يجدد

من وسائله وأدواته ، بحسب تطور ظروف الثورة العربية ، التي تتحداه وتطارده في معاقله وخططه .

والحقيقة الأساسية في كل هذا ، ان الحزب غير موجود .

وبالرغم من جميع محاولات الخداع اجماعي والتضليل والدعايات حول شعارات الحزب وتنظيماته ، وحول ثقافة الحزب وجماهيره المعبأة و (مسيراته) العمالية ، و (مهرجاناته) الفلاحيــة ومختلف أشكال (الاتحادات) ، فالحزب لم يكن موجوداً يوم الثامن عن آذار ، وظل كذلك غير موجود حتى الثامن عشر من تموز ، ثم زالت آثاره وبقاياه نهائياً بعد هذا التاريخ الحاسم .

ولعل بعض الناس خدع وما زال مخدوعاً بشيء ما ، اسمــه حزب البعث الاشتراكي . والسبب في ذلك يرجع من جهة الى جهل هؤلاء بواقع الحزب من الداخل . ويرجع ، من جهة اخرى ، الى التأثر ببضائع الدعاية التي يصدرها الحكم الفاشي في دمشق ، وكلها تحمل عناوين الحزب ، وتدعي تاريخه ونضاله السابق لنفسها .

ان الأدلة على عدم وجود الحزب ، ليست مجرد براهين منطقية او عقلية ، بل هي وقائع سياسية واجتماعية ، أصبح بعضها جزءاً حقيقياً من تاريخ سورية الحديث .

ويمكن ان نكتفي بسرد بعضها الآن :

١ ـ لقد أعلن قادة الحزب ، بالرغم من خلافاتهم الفكرية والشخصية ، حل تنظيمات البعث في سورية التي أصبح اسمها الاقليم الشمالي ، وذلك في مستهل وحدة الثامن والخمسين . ولقصة حل الحزب من قبل هؤلاء القادة ظروف وعوامل خفية ، من المستحسن ان نورد بعضها الآن بسرعة بعــد ان كنا تحدثنا مفصلاً عنها فيما سبق .

ان هذه الظروف والعوامل ترجع في أصولها الى واقع الحزب وتناقضاتــه الذاتية في الفترة الممتدة بين سقوط حكم أديب الشيشكلي عام (١٩٥٤) وبين قيام وحدة الجمهورية العربية المتحدة في عام (١٩٥٨) .

ومن أهم هذه التناقضات ان الانفصام الشنيع قد وقع بين القيادة والقواعد ،

بل بين الصفوف الاولى فيما بينها، وبقية القواعد الجديدة، التي نمت واتسعت بشكل كمي، خلال هذه الفترة الحافلة من تاريخ الثورية العربية في سورية .

في هذه الفترة كانت القواعد تتابع سيطرتها على المدارس وشوارع المدن الرئيسية في البلاد ، وتستمد قيادتها الروحية من الانتصارات الرائعة المتتابعة التي كانت تحققها القيادة الثورية الناصرية في القاهرة .

وبذلك كان القادة البعثيون ينضوون بالتدريج تحت جناح القيادة الناصرية ، فيفيدون من شعبيتها لتمكين مراكزهم امام الرجعية الرأسمالية والدينية . كما يفيدون من قوى الشارع التي كانت تحركها القواعد بفعل ثوريتها العفوية . وكثيراً ما كانت ثورية القواعد تضع هؤلاء القادة في مراكز حرجة ، وتدفعهم دون إرادة منهم الى بعض المواقف المتطرفة . بينما اقتصر (نضال) هذه القيادة على النشاط في مسرحين :

- مسرح المناورات والمساومات السياسية بين كواليس المجلس النيابي ، وفيه كان للقيادة الحورانية التأثير الأكبر على مجموعة النواب البعثيين .

- ومسرح الدسائس العسكرية في الجيش ، وحروب التكتلات والتسريحات المتبادلة ، التي نجحت القيادة الحورانية ايضاً في مضمارها ، ووصلت الى انجاز تصفيات متتابعة بين اوساط الضباط من أصحاب الاتجاهات الاستعمارية والرجعية .

بينما انعزلت القيادة العفلقية تدريجياً في احدى الزوايا المظلمة من مقر الحزب . ولم يبق لعفلق امام نجاح الحوراني في كواليس البرلمان والجيش ، إلا حق الندب والشكوى من (انتهازية) الحوراني ، تبريراً لعجز فيزيولوجي نفسي محاط بصوفية غيبية ، في شخصية عفلق .

وفي هذه الفترة بدأت ظاهرة التشرذم في هيكل الحزب الأساسي وفروعه . وكان اول من شجعها الحوراني نفسه ، الذي آمن دائماً باسطورة الزعيم التقليدي وأتباعه من الازلام والمحاسيب ، وبالمقابل فان بعض المثقفين الذين صدم الحوراني غرورهم الشخصي ، وتخطى عجزهم ومثاليتهم الفارغة ، قد أخذوا يتحلقون حول فيلسوف العجز والحرد عفلق ، ومارسوا معه حرداً طويلاً عقيماً ، جعلهم غرباء

معه عن العمل النضالي في القواعد ، وعن جو العمل السياسي والعسكري الذي احتكر قيادته الحوراني وجماعته .

ولقد تأزمت هذه التناقضات داخل الحزب بتأزم المعارك الثورية والسياسية التي كانت تحيط بالبلاد ، وتقودها من انتصار إلى انتصار وراء القيادة الناصرية ، إلى ان حل الانتصار الأكبر ، وانقلب حكم الوحدة إلى واقع .

واتفق القادة المتصارعون في الحزب على حله ، وكان لكل منهم أسبابه الخاصة في ذلك .

– اما « عفلق » الذي كان من أكبر المتحمسين لفكرة حل الحزب ، فقد دأب على الشكوى من سيطرة الحوراني على سياسة الحزب، وتسخيره لخدمة أفكاره الانقلابية . فكان الحوراني هو أول من استخدم الحزب ستاراً للعمل العسكري الانقلابي ، والنشاط البرلماني للسيطرة على الحكم . ولذلك فان عفلق كان يصرح باستمرار ان الحزب أصبح (ثوباً فضفاضاً) – والتعبير له حرفياً – يسمح لكل انسان ان يختبىء وراءه ، وينفذ رغباته الخاصة عن طريقه .

لقد كان عفلق يعبر بذلك ، وبطريقته (المثالية) ، عن عزلته وعجزه عن السيطرة على جماهير الحزب التي تخطت حدوده الأولى ، يوم كان عفلق يمارس صفة (المتنبي) وحوارييه ضمن حلقة مغلقة من المريدين والحواريين .

– واما « الحوراني » فقد كان هو الآخر يريد الخلاص من (الحزب)، لكي تتاح له حرية أكبر في العمل الفردي ، دون ان يخشى محاسبة أو انتقاداً من بعض القادة الثوريين في مستويات القواعد .

ومن جهة أخرى ، فقد كان مطمئناً إلى أنصاره العسكريين ، الذين ما زالوا يسيطرون على المراكز الرئيسية في الجيش ، فيحمون بذلك ظهره ، وهو يدخل دولة الوحدة كأقوى رجل سياسي في الاقليم الشمالي .

– واما « البيطار » فقد كان يؤمل كذلك من أجل فرصة القفز إلى قيادة (الاتحاد القومي)، المزمع انشاؤه بديلاً عن الحزب والمنظمات السياسية الأخرى في سورية ، بما يتيح له أداة جديدة للعمل السياسي تتجاوز في القوة والاتساع

والنوعية ، أمراض الحزب المزمنة .

تلك هي مجمل الأسباب الشخصية التي قادت كل واحد من القادة البعثيين الثلاثة إلى الموافقة على حل الحزب ، بل والمطالبة بالحل . وهي الأسباب الحقيقية التي بقيت محتجبة وراء الادعاءات (العقائدية) لتبرير هذا الحل .

ومنذ ان أعلن الحل ، انطلقت القواعد الثورية للحزب محررة من ثقل التناقضات التي حملتها طويلا ، من تراكم انحرافات وأخطاء القادة وصراعاتهم الشخصية . وأصبحت قواعد متينة لدولة الوحدة وزعيمها منذ ذلك الوقت .

ولكن شراذم بعض المتزعمين والقادة الثانويين ، أبوا انصهاراً حقيقياً في تجربة الوحدة ، حفاظاً على مكاسب شخصية ، قد يحصلون عليها عندما يطفون على سطح بعض الجيوب المتقيحة من بقايا أمراض الحزب.

هذه الشراذم ، القليلة في الكم ، المتقيحة بأمراض التزعم والتحكم والحقد على الزعامة الثورية لجمال عبد الناصر ، هي التي بقيت كاحتياطي موبوء لردة الحوراني أثناء فترة الانفصال الرجعي الأول ، ثم لردة عفلق السافرة ، أثناء الانفصال البعثي الجديد .

– ولأن (الحزب) الوحدوي الاشتراكي الذي ناضل منذ الثامن والخمسين وساهم في صنع دولة الوحدة ، لأن هذا الحزب لم يكن موجوداً في شرذمة الحوراني خلال الانفصال الأول ، فان الحوراني اكتسحته الجماهير الوحدوية ، وعلى رأسها جماهير القواعد البعثية القديمة ، وحاصرته في مواقع الرجعية مع أنداده من الكزابرة والصف الاستعماري بكامل هيئته التقليدية ، وهزمته شر هزيمة في ثورة الثامن من آذار بطلائعها الناصرية الحقيقية . ثم .. ولأن الحزب كذلك لم يكن موجوداً ، حينما تنطعت شرذمة طائفية انقلابية لتبني البعثية العفلقية ، كواجهة لحكم فاشي انفصالي ، يجهض ثورة الثامن من آذار ، فان هذه الشرذمة الجديدة المدعية لأهداف الحزب قبل الوحدة وتاريخه ومواقفه الثورية السابقة ، لم تستطع تحت ضغط الحوادث والانكشافات المتوالية ، التي تعرضت لها في وجه المقاومة الوحدوية من قبل جماهير الثورة الناصرية في سورية . لم تستطع إلا تردداً بين

شعارات لفظية في الوحدة والاشتراكية ، وبين مواقع انفصالية رجعية في الواقع والحقيقة ..

— ولأن (الحزب) غير موجود ارتكبت الشرذمة الطائفية ، والمقنعة بالبعثية القديمة ، وتحت بركات عفلق ، ارتكبت هذه الشرذمة ، كل تلك السلسلة من الخيانات لأهداف الثورية العربية وأخلاقها منذ الثامن من آذار .

— ولأن الحزب غير موجود كي يسأل الحاكمين باسمه ، عن تتابع مواقف الانفصال في سلوكهم ، وكي يسأل عن الدسائس والمؤامرات على الوحدويين باسم أخلاق الحزب المثالية ، وكي يسأل عن معنى المجازر وحمامات الدم وانتهاك المقدسات . وكي يسأل عن التعاون الخفي والعلني مع أصحاب الفعاليات الاقتصادية ، ورجال العشائر ، وأقطاب الارستقراطية الزراعية ، ولكي يسأل عن طرق تبديد الثروة القومية ، وعن جيش المحاسيب ، وعن المراهقة في توجيه السياسة والادارة ..

كي يسأل عن جنته الموعودة ، في أفجع كارثة خراب شاملة ، أصابت أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد .

— ولأن الحزب لم يكن موجوداً لا كجهاز مدني ولا كجهاز عسكري يوم الثامن من آذار ، وإنما أوجده العسكريون الطائفيون بالقوة والتآمر وفتح باب الانتهاز والانتساب بالاغراء والضغط ..

لأن هذا الحزب لم يكن موجوداً يوم الثامن من آذار ، يمكننا ان نتحدى عفلق ونسأله كم كان عدد المنتسبين لحزبك ، منذ ان حاولت إعادة تنظيمه في شهر أيار من عام ١٩٦٢ ، تحت اشراف لجنة عراقية ، منها كان حمدي عبد المجيد وهاني الفكيكي . هل تعدى هذا الحزب بضع عشرات من الخلايا المؤلفة من صغار طلاب الثانويات .

اننا نسأل عفلق هل كان صلاح البيطار نفسه في عداد اعضاء (الحزب الجديد) . ودون ان نسأل عن الاشخاص باسمائهم ، ولكننا نتحدى عفلق وحزبه الجديد ان يذكر لنا بضعة أسماء من أعضائه المؤسسين ، من مختلف الأجيال ، من القادة

المثقفين والشعبيين الذين صنعوا الحزب طيلة عشرين عاماً ، وتحملوا مسؤوليات النضال الحقيقية في السجون والنفي والتسريح .. وفي نسج هيكل الحزب عضواً فعضواً ومعركة فمعركة ، ضد أقطاب اليمين والاستعمار الذين دفعوا عنهم العزل السياسي والمدني ، محققين في ذلك كل ذاك التواطؤ المجرم بين الانتهازية العفلقية والحورانية ، في الوصول الى الحكم والمحافظة عليه ، ولو بقوى الرجعية والاستعمار معاً .

يمكن لعفلق ان يشير الآن الى بعض أسماء من المثقفين ما زالوا يعيشون تحت جناحه في وزارته او في بعض المناصب الادارية الكبرى . ولكن عفلق يعجز عن إثبات أي عنوان نضالي لواحد منهم . فهم نكرات في الحزب ، ومجاهيل في معاركه السياسية القديمة ، وغائبون حتى عن أصغر خلاياه .

بعضهم كان خارج البلاد طيلة الخمسينيات ، وهي الفترة الحاسمة من نضال الحزب .

وبعضهم كان قد سجل اسمه في الحزب يوم ان كان طالب بكالوريا او طالباً جامعياً ، ثم نسي او تناسى انتسابه ، وغرق في شؤونه الشخصية ، اما ابتعاداً عن (المشاكل) او جبناً وتخاذلاً . حتى وقعت المعجزة ، وقفز اسم الحزب إلى الحكم ، فعادوا اليه مناضلين أشاوس .

وبعضهم لعب على حبال أجنحة الحزب ، ما دام كل جناح مرشحاً للوصول إلى الحكم جزئياً او كلياً .

وبعضهم الآخر قد غيّر مواقعه أكثر من مرة ، بين الحوراني وعفلق خاصة ، ثم استقر الى الجانب الذي يستقر على مقاعد الحكم .

ان المجاهيل والنكرات ، وان انصاف المناضلين والمناورين ، وان المنسيين والغائبين ، وتجار الصفوف الاولى ... ان بعض رؤوس الشراذم ، لا قادة ولا مناضلين شرفاء ، ولا مؤسسين وعاملين .. ان هذه البقية ، بقية القروح والمنعطفات والمخاضات المجينة .

هذه النفايات هي حزب عفلق ، هي الشرذمة التي استهانت بكل شيء ، في سبيل ان تحكم . هي التي حولت نفسها إلى أدوات لقوى الظلام ، قوى المخابرات

الانكليزية ، واستطاعت أخيراً ان تكشف الغاية من كل هذه السلسلة من المآسي . فتعيد الاعتبار إلى (١٤٨) معزولاً سياسياً ومدنياً ، كانوا أقطاباً للانفصال . وكان بعضهم قد أدانته محاكم الانفصال، بالعمالة المكشوفة لدوائر الاستعمار الغربي .

فان عدم وجود الحزب ، بقواعده وقادته الثوريين الحقيقيين ومثقفيه ، وان عدم وجود الحزب، كفكر ومنهج ثوري واضح ، هو الذي أتاح للمخطط الانكليزي ان يستعمله من خلال بضعة عسكريين منحرفين ، تتبعهم أذناب تافهة من المدنيين ، ليتحول إلى أداة تقدمية مزيفة، تلعب دور الثورة المضادة الخبيثة ضد الثورية العربية الحقيقية في القاهرة والجزائر .

ولقد كشفت الأحداث حقيقة النبوءات التي كتبها أحد اليساريين في الغرب بعد الثامن من شباط وآذار ، إذ قال آنذاك : ان هذين الانقلابين دبرتهما دوائر المخابرات الغربية في سبيل إيقاف الثورة الاشتراكية الجادة، التي يقودها كل من جمال عبد الناصر وبن بللا ، وخلق محور مضاد لهما في المشرق ، يحمي المصالح البترولية التقليدية في هذه المنطقة من العالم العربي التابع للسيطرة الاستعمارية .

وليس من شك ، فان الخطة المدبرة للشرذمة العسكرية الطائفية وأذنابها من العفلقيين المهووسين بالحكم والسيطرة ، ولو من فتات موائد الضباط ، كانت وما تزال حامية (الأوضاع الراهنة) في سورية .

والأوضاع الراهنة،عبارة تعني باللغة الاستعمارية ، تثبيت الأوضاع الانفصالية بين أجزاء الأمة العربية . وتثبيت سلطة الطبقة البورجوازية والفئات الرجعية وبقايا الارستقراطية الزراعية .

وإذا قمنا بمراجعة خاطفة لكل (انجازات) البعث في هذه الفترة المظلمة لرأينا بوضوح انها الانجازات البطولية التي دعمت هذه « الأوضاع الراهنة »، واضطهدت بالمقابل كل القوى الشعبية الأخرى المناوئة لهذه الأوضاع ، والمهددة لها في وجودها المادي والمعنوي .

ولذلك فان كل من خدع بأن البعث ، الذي خضع حتى في هذه الفترة إلى

« تصفيات » جديدة للعناصر شبه اليسارية المتبقية بين صفوفه ، هذا البعث يتردد بين الانفصال والوحدة حسب وطأة الظروف السياسية المعادية له ، إلا ان الحقيقة كانت دائماً ، منذ ان قفز بضعة ضباط صغار طائفيين من وراء ظهر القـــادة الوحدويين ، وراحوا يتقنون لعبة كسب الوقت بشتى أساليب الكذب والتضليل ، هذه الحقيقة هي ان الحكم الذي كان معداً للسيطرة على سورية بعد الثامن من آذار ، هو الحكم الانفصالي والرجعي ، بكل خصائصه ومعالمه الظاهرة والباطنة .

فليس هناك «تردد» بين قوى الوحدة والاشتراكية وقوى الانفصال والمال . بل ان الستراتيجية الجديدة التي أعدت للشرذمة العسكرية والعفلقية ، هو اللعب بورقة الوحدة والاشتراكية ، لضمان تركيز جديد للانفصال والردة الرجعيـة في سورية ، بعد ان فشل اليمين السوري في حكم البلاد مباشرة خلال تجربة الانفصال الأول .

ان هذا الاستنتاج لا يحتاج إلى كبير عناء ، لكي يصل إليه كل عربي عانى من الردة البعثية ، وراقب « انجازاتها » الدامية في حقل الثورية والعقائدية . وان سؤالاً واحداً أخيراً يمكن ان يلقيه المرء أمام لوحة الانجازات البعثيـة ، يكفي لكشف استراتيجية الاستعمار الجديد في استخدامه لقوى اليسار المزيف والاجهاز على سمعة الحياة الحزبية في البلاد ، وضرب الأهداف نفسها التي حملتها هـــذه الأحزاب وناضلت من أجلها في البدء ، ثم انقلبت عليها كأشرس القوى المعاديـة لها . هذا السؤال هو :

ـ ومن كسب من كل هذا ؟

لقد باع عفلق نفسه للشيطان منذ ان زيّن له عجزه المغلف ، انه قادر على منافسة التجربة الناصرية . فتخلى عن أهداف الحزب . وعجز عن استرجاع قواعده . ثم لم يبق له إلا ان يستسلم لبضعة مراهقين عسكريين ، دعوا إلى امبراطورية كرتونية للبعث . فكانت حصيلة التجربة حرباً شعواء متواصلة على قوى الثورة لدى الجماهير .

وكان مصير عفلق والعفلقيين ، ان ارتموا نهائياً بين أحضان الصف الانفصالي الرجعي ، وأصبح مكانهم إلى جانب الكزبري والقدسي والدواليبي والعظم .

وانتهى بذلك عفلق وتجربته في الامبراطورية البعثية ، إلى نفس المصير الذي انتهى إليه صديقه وعدوه الأول أكرم الحوراني .

فمنذ ان تخلى الحوراني عن الوحدة : غدا موقعه في الصف الانفصالي والرجعي ، ولم تنفعه أية دعوة في الاشتراكية .

ومنذ ان تخلى عفلق عن الوحدة كذلك ، وحارب قائدها وجماهيرها ، كان مصير حكمه هو الآخر إلى التحالف المحتوم مع قوى الانفصال والرجعية والعمالة الاستعمارية المزمنة .

ماذا نقول اخيراً !

لقد كانت أهداف هذه المرحلة الهجينة كلها ، هي أهداف الانفصال والرجعية والتبعية الاستعمارية مع تغير في الأداة ، وفي الاستراتيجية التي انتقلت من يد اليمين السوري إلى يد اليسار العفلقي الغبي .

فمن الوحدة المدروسة ، إلى استقلال التجارب الثورية ، إلى ميثاق السابع عشر من نيسان ، إلى حمامات الدم منذ الثامن عشر من تموز ، فان القوى الوحدوية والاشتراكية هي التي كانت تدفع الثمن في سورية وحدها . ولم ينل الصف الانفصالي الرجعي التقليدي أي أضعاف أو أذى مباشر من حكم الشرذمة العفلقية والعسكرية الطائفية . بل كان الغزل والدلال والتملق هو طابع الموقف العام لهذا الحكم من ارباب (الفعاليات الاقتصادية) .

وبالرغم من مختلف الخدمات الكبرى التي قدمها الحكم إلى الرجعية ، كضرب الثورة الوحدوية الاشتراكية ، والتنكيل بجماهيرها وقادتها ، ومحاولة تأخير مسيرة هذه الثورة في هذه المنطقة من العالم العربي بشتى طرق التضليل والارهاب ، فان الرجعية السورية لم تطمئن للبعث العفلقي ، واستخدمت ضده اليمين الديني الذي استخدم ، هو بدوره النقمة الشعبية العارمة حتى انفجرت أزمة حماه والاضراب العام .

ومنذ ذلك الوقت ، وبعد ان قام عفلق بتصفية بواقي اليسار من شرذمته ، وهو يحاول ان يكفر عن ذلك الاصطدام الطارىء مع اليمين .. حتى توصل

وزراؤه أخيراً إلى (مصالحة وطنية) مع أقطاب هـــذه الرجعية، ورفعوا عنهم العزل تمهيداً للدخول معهم في حوار سياسي ، إلى جانب الحوار الاقتصادي الذي لم ينقطع طيلة الأشهر الماضية ، بين حمامات الدم والمجـــازر الشعبية ، ومن وراء مصالح الشعب الحقيقية .

بقي ان نذكر الدور الذي أتت حكومة البيطار لتلعبه ، في ساحـــة تصفية الثارات القديمة . فمن قناع التغزل بالقوى الوحدوية، وشعارات الافراج، والعودة إلى ميثاق نيسان ، ونوايا السفر إلى القاهرة للفوز بالبراءة مرة ثالثة ورابعة .. كل هذا الخط لن يتحقق ، كما يؤمن البيطـــار وعفلق وراءه ، ووراء الاثنين صلاح جديد ، السيد الحقيقي للحكم البعثي ، وما سيحقق فعلاً هـــذا الخط المعاكس ، كانت ذروته في اعلان مرسوم رفع العزل السياسي والمدني عن أقطاب الرجعيـة والانفصال والعمالة ، وتكريس مرحلة جديدة من التعاون السافر معهم .

وبذلك تنتهي آخر دعاوى اليسارية والثورية. وتتحد الفاشية الارهابية مـع مضمونها الاجتماعي المحتوم ، وهو الرجعية المتعصبة العمياء ، بعـد أن عجزت عن استخدام (الديمقراطية) في عهد الانفصال الأول . فلم يبق لها إلا الفاشية العارية، التي يقدمها البعث العفلقي الطائفي اليوم لها على كوم من الجثث .

ويكون مصير (المصالحة الوطنية) مصالحة مع طرف واحـد بالطبـع ، هو الطرف الذي ينتظر الغنيمة ، ووراء كل تجربة يسار مزيف ، تلتهمه مطامعـه ، وتلقي به حليفاً طبيعياً ، في نهاية المطاف ، وحليفاً ذليلاً مستذنبـاً لكل القوى الأخرى التي قام يوماً ما لمحاربتها .

ومن سخرية القدر أخيراً ان تكون حكومة البيطار اليوم ، هي حكومة العظمة قبل عـامين . فالأولى جاءت تبشر بالوحدة لتكرس الانفصال. والثانية جاءت لتصالح الوحدويين ، فانتهت إلى مرسوم رفع العزل السياسي عن (١٤٨) من اقطاب الرجعية وأذنابها ، وصحفييها وكهانها وزبانيتها .

وإذا تشابهت الأدوار في مقدماتها إلى هذا الحد ، فلا بد ان تتشابه النتائج ايضاً . وهذه المرة ، فالنهاية ليست للرجعية فقط ، ولكن لها ولرديفها مـــن

اليسارية العفلقية كما كانت نهـــاية اليسارية الحورانية ، الرديفة لرجعية الكزبري والدواليبي والعظم .

والشعب وحده هو الشاهد والحاكم معاً ، وهو المنفذ ايضاً . وما أقرب ساعة التنفيذ ، عندما يعيد التاريخ إلى الشعب دوره الحقيقي .

٣ – بعث الطائفية

ان ظاهرة رهيبة تجتاح الحياة السياسية والاجتماعية في منطقة المشرق العربي منذ بضع سنوات ، وهي ما تزال تنمو وتستفحل ، وتكاد تصبح أحد المحركات الأساسية والخفية لكثير من غرائب الحوادث ، التي تأخذ غالباً طابع النكسات القومية والتقدمية. هذه الظاهرة قديمة في بلادنا ، قدم التناقضات الاجتماعية نفسها، ولكثرة ترديدها من حين إلى آخر، تكاد تفقد حس الإثارة عند الناس ، وتلمّس الأخطار التي تخفيها .

ولكن رغم قدمها، وكونها إحدى الأرومات الاصلية لجملة من مظاهر التخلف الحضاري في أمتنا ، فان أساليب استخدامها تتجدد من ظرف إلى آخر ، وفي المنعطفات الحاسمة من تاريخ صراعاتنا المعاصرة .

وعبر أساليب التجديد تكشف هذه الظاهرة ، لمستخدميها البارعين الأذكياء، عن إمكانيات فيها لم تكن معروفة من قبل .

انها ظاهرة الطائفية .

وقبل كل شيء ، خطأ ان نستهين بالطائفية ، وان نعتبر أنفسنا أعلى وأرقى من ان نخضع لها .

وخطأ كذلك ان ندعي أننا قد فهمناها وكشفنا قدراتهـا المختلفة ، وقواها المتجددة . .

وخطأ مرة ثالثة ، ان نعتبر هذه الظاهرة سائرة الى الانحلال من تلقاء ذاتها ، بفعل تقدم المجتمع وانفتاحه على الحضارة المعاصرة .

وكذلك فإننا لا ننتهي من فهم الطائفية والقضاء عليها ، بمجرد ان نربطها

بالاستعمار ، وببعض المصالح الحزبية الداخلية .

ان دراسة الطائفية ، جذورها التاريخية، وتطوراتها ، وعلاقاتها بالعقائد الدينية من جهة ، والمصالح الطبقية من جهة ثانيـــة ، ودورها في قضايا الصراع السياسي الحديث منذ أيام المسألة الشرقية .. هذه الدراسة ، التي لم يقدم عليها احـــد من المفكرين ، لا التقدميين ولا الرجعيين .. وهذه الدراسة ، التي ما زالت ضائعة مفقودة من ثقافتنا الحديثة ، هي التي تكشف عن واحد من أصنام محرماتنـــا الكبرى ..

نفضّل ان نعاني من أمراض ، وان نخضع لنكساتها ومركباتها ، ولا نواجهها إلا نادراً ، ولكي نشتمها او نستعملها شتيمة . وقليلاً ما حاولنا ان نعيها ، ان ندركها ونكتشفها علمياً .

وبالطبع ، فإننا لن نسد هذا النقص كله في مثل هذه الدراسة . ولكننا اضطررنا في مقدمة هذه الدراسة أن نشير الى مشكلة الطائفية بصورة عامة ، لكي نصل منها الى جانب واحد منها .

وهو الجانب الذي اخذ يؤلف خلفية الأحداث السياسية في هذه المرحلة المعقدة التي تمر بها الثورة العربية ، وفي منطقة المشرق العربي بصورة خاصة .

* * *

لقد بعثت عقدة الطائفية وبشكل حاد منذ احداث لبنان (١٩٥٨) . وبرزت ثانية في سوريا في أعقاب الانفصال (٢٨) ايلول . ثم كانت لها جولة ثالثة وبصورة أعنف وأشمل ، في اعقاب الانفصال البعثي منذ أوائل الصيف الماضي . وامتدت ضمن تشكل آخر ، ومن خلال ظروف مختلفة ، الى العراق .

حتى يمكن القول ، ان الطائفية هي السلاح الأقوى والأشمل اليوم ، الذي تتجدد من خلاله مختلف أنواع المقاومة الاجتماعية والسياسية للثورة التقدمية ، التي تهز أعمدة الفساد في المجتمع العربي القديم .

ان جميع نماذج الانفصال الموضوعي ، والانفصام الذاتي في الوجود العربي ،

تتغذى في هذه المرحلة الدروية من تشابك التناقضات، والاعداد لانفجار تحولات كبرى منتظرة، تتغذى من سرطان الطائفية، بشكل وبآخر.

فقد تصدت الطائفية لقضية التقدمية والرجعية، فصورت التقدمية بصورة الالحاد والمروق عن العقائد السماوية والتقاليد والأخلاق المقدسة. وحمت الرجعية ضمن هالة من التنزيه الى درجة التحريم، تحريم انتقادها وتقييم مفاهيمها الانسانية، ومواقفها الطبقية.

وتصدت الطائفية لقضية الوحدة والانفصال. فأنكرت على الوحدة علمانيتها. وحاربت إطارها القومي، ودعت الى وحدة أشمل الى درجة التجريد. او اضيق الى درجة الانعزال في أصغر قوقعة ممكنة.

فحاربت الطائفية الاسلامية فكرة الوحدة العربية بالدعوة الى وحدة اسلامية، بصرف النظر عن القوميات، أي الى وحدة بلاد العرب وتركيا والباكستان وايران واندونيسيا الخ.

وحاربت طائفية الاديان الاخرى فكرة الوحدة العربية، بالدعوة الى المحافظة على (مصالح الاقليات) التي تتنافى مع تضخم مصالح الاشتراكية ضمن إطار أية وحدة، توسع من حدود الاقليم الواحد، وتفتحه على إقليم أو اقاليم اخرى.

وعندما فشلت مختلف القوى الانفصالية والرجعية، في الأنظمة السياسية والاوضاع الطبقية، في محاربة ثورية الوحدة وتقدميتها، احتمت كلها وراء درع الطائفية، حيث تحرم تعريتها المباشرة، وتستمد لنفسها قوى اخرى، غير قوى المال والنفوذ السياسي والاستعماري، هي قوى الايمان والعقائد الغيبية لدى الجماهير.

وإلى هنا، فقد كانت الطائفية درعاً حامياً، وملجأ اخيراً للبورجوازية والاقطاعية والرجعية الحاكمة.

ولكن الاستعمار، والاستعمار الانكليزي خاصة - الخبير العليم بخفايا الامراض الاجتماعية في بلادنا - استطاع ان يكتشف ان التقدمية المزيفة، والآيلة الى السقوط، والتي لم تنجح في تحقيق دور البديل عن التقدمية الأصيلة، هي الاخرى،

تستطيع ان تحتمي وراء الطائفية .

ولم يكن احد يستطيع ان يصدق ان حزباً كالبعث ، صاحب المنطق القومي والعلماني والتقدمي المتطرف في يوم من الأيام ، يمكن ان يسقط في شبكة الطائفية.

ولكن هذا وقع وحدث فعلاً ، عندما انفصلت بورجوازية قيادته عن ثورية القواعد ، والتحمت مع البورجوازية العسكرية، ولم يبق ثمة طريق إلا العودة الى الجذور الطائفيـــة للسادة الحزبيين الجدد ، كآخر وسيلة لفك الحصار الشعبي ، واستمداد الحماية الغريزية من العشيرة والطائفة .

ولكن لا بد من هذا السؤال :

هل الطوائف الاقلية في سورية هي البعثية ، ام ان البعث العفلقي العسكري هو الطائفي اليوم ؟ هذا السؤال لا بد منه في الواقع لسبب هام .

وهو انه لكي لا تنطلي على الرأي العام الخديعة الانكليزية البعثية ، فيظهر ان كل العلويين والدروز والطوائف الاخرى هي التي يمثلها البعث اليوم ، وهي التي تحكم ، بالحديد والنار في سورية ، عن طريقه ...

ولكي لا تتهم هـــذه الطوائف بكل ما يبتدعه البعث من ضروب السياسة الانفصالية القائمة على الخديعة تارة ، وعلى الارهاب تارة اخرى ، ولكي لا تتحول النقمة الشعبية الهائلة ضده ، من نقمـة وحدوية تقدمية ، ضد فئة معزولة ، إلى نقمة أكثرية دينية ضد أقلية دينية ، الى حرب تافهة رجعية ، تؤكد من جديد الانفصامات التقليدية بين أبناء المجتمع الواحد ، بأحقاد وضغائن وثارات دموية .

لكي لا تنطلي على الرأي العام العربي خديعـــة النكسة الفكرية الى جانب النكسة السياسية ، فيعود القهقرى الى الايمان بأن المعركة هي معركة بـــين طوائف، وليست بين مصالح طبقية واستعمارية من جهة، ومصالح اشتراكية وحدوية من جهة مقابلة .

لكي نمنع جحيم الاحقاد من ان ينفجر في غير طريقه التقدمي الواعي، علينا ان نلقي هذا السؤال ، وعلينا ان نحلل الجواب عليه بكل الأدلة الواقعية الممكنة .

مرة أخرى :

هل الطوائف غير السنية – ولكم أكره هـــذا التصنيف – في سورية هي البعثية ، أم ان البعث العفلقي العسكري هو الطائفي اليوم ؟

ولكن ماذا نفهم من مصطلح الطائفية ، أولاً ؟

هل نعني بها مجرد الانتماء إلى أديان وعقائد . ولكن هل يؤلف هـذا الانتماء مصالح معينة ، يمكن ان تدخل في صراع انتماء ديني آخر مع مصالحه .

وهل تطرح قضايا المجتمع العربي المعاصر اليوم مثل هذا الصراع بين المصالح الطائفية ، ان كان ثمة وجود لهذه المصالح المزعومة .

ان الطائفية هي الحزبية القديمة،يوم لم تكن مسألة تغيير المجتمع بصورة ثورية، موضوع اهتمام او انتباه من قبل أية فئة أو طبقة من المجتمع .

وكان الصراع حول المصالح ، مصالح الفئات والأفراد ، في الاستغلال المادي والنفوذ السياسي،لا يمكن ان يتخذ صفة الشرعية إلا من خلال المزايدات الدينية، والاجتهادات المتناقضة . وكان خط هذا الصراع ، لا تقدماً إلى الأمـام ، ولا رجعياً إلى الوراء . ولكنه صراع دائري او حولي ، مغلق ومراوح في مكانه ، ودون أي تغيير يذكر في مواقع القوى المتصارعة .

وبقي الوضع الاجتماعي مستنقعاً ، وعلى حاله تقريباً ، حتى العصر الحديث ، حينما تعرض هذا المجتمع إلى مختلف الهزات ، التي حطمت انغلاقه وجموده. وعرته تقريباً أمام مقاييس الحضارة ، وعوامل صراعها الجديد . ووضعته هكذا أمـام تحديات الثقافة والقوة المادية والعقائد الفكرية المستحدثة .

فتحرك المجتمع العربي.وبدأ الانفصام يدب بين طلائع الجديد وقوالب القديم .

ثم تحققت خطوة اخرى ، فنما لهذه الطلائع مضمون فكري اجتماعي ، عبرت عنه تجمعات حزبية بالمعنى الحديث . وتحددت بالمقابل مضامين فكرية واجتماعية لقوالب القديم . ولكنها لم تستطع ان تتخطى دائرة الطائفة إلى التنظيم الحزبي .

وخطوة ثالثة . فقد بقي كل تنظيم حزبي تقدمي مهدداً ، عند فشله في تحقيق أهدافه ، بواسطة قواه العسكرية والبشرية الخاصة ، بقي مهـــدداً بالسقوط في شباك الطائفية .

وخلال السنوات الاخيرة ، التي اغتنت فيها التنظيمات الحزبية بقوى اجتماعية كبيرة ، تنذر بوقوع تغييرات أساسية في صورة المجتمع العربي وفي جذوره ، لم يبق أمام الاستعمار (الواعي) إلا مخطط واحد . وهو إجهاض الافكار والتنظيمات الثورية باحتياطي المجتمع القديم المهدد بالزوال ، الاحتياطي الاخير : الطائفية .

وأحدث وسائل تجديد الطائفية هو البعث العفلقي العسكري ، الذي تحول إلى (بعث) مختلف المقاومات المضادة ، للثورية العربية ، وعلى رأسها هذه الطائفية في أذكى صور تحققها (المدروس) و (الواعي) عقائدياً وايديولوجياً !

الطائفية عن سابق تصميم وارادة

ولكن البعث العفلقي لم يسقط في الطائفية ، لا (عفوياً) ولا بمحض (الصدفة) ، ولا بصورة (آلية) ، وان كان سقوطه ذلك يبدو (محتوماً) .

والوقائع ، الوقائع (الطائفية) التي انتهجها (البعث) هي التي تثبت تخطيطه وافتعاله لمعركة طائفية يحمي نفسه بها ، ويؤكد الانفصال الاقليمي بانفصال اجتماعي .

من هذه الوقائع (الطائفية) ، والتي تهيء لمعركة احقاد كبرى بين فئات المجتمع الواحد :

أولاً : دون ان نذكر الاسماء ، فان استعراض اسماء القائمين على مؤسسات الارهاب من (شعبة سياسية) و (مخابرات) و (حرس قومي) الخ ، يتبين ان تعيين افرادها من بعض الطوائف ، لم يأت عفواً ابداً .

وكل الذين تعرضوا للسجن والاستجواب والتعذيب ما زالوا يذكرون اسماء زبانيتهم ، وكيف ان اكثرهم وأعنفهم كانوا من طوائف معينة .. وأبعد من هذا ، فقد كانوا يمارسون تعذيبهم وشتمهم بأساليب (طائفية) .

ان مئات من مساجين المزة بعد الثامن عشر من تموز ، وأنا منهم ، لا يمكنهم ان ينسوا مثلاً مدير السجن ، ولا طقم التعذيب والتحقيق ، المصاحب له طيلة

مئات من ليالي السياط والكهرباء واللكم واللطم ، والشتم ضد المعتقدات بأقذع الالفاظ، ومع ذلك فقد كان الواعون من المساجين يدركون التدبير المتآمر .
كانوا يمنعون أنفسهم من الحقد على « كل » العلويين ، لأن مدير السجن او قائد فرقة التعذيب ، واكثر مساعديه كانوا علويين ويظهرون « علويتهم » بإهانة عقائد المعذبين .

وكذلك كان المساجين يمنعون أنفسهم من الحقد على « المسيحيين » لأن أشرس « محقق قانوني » عرفته اقبية سجن المزة، كان يمت إلى هذه الطائفة .
وكذلك كان رقيبان او ثلاثة آخرون من الدروز ، يمارسون التعذيب اليومي والليلي .

ثانياً : لقد حرص المخططون الطائفيون من البعثيين، على توزيع رؤساء شعب المخابرات وتوابعها على المحافظات، بحيث يراعون في هذا التوزيع الاستراتيجية الطائفية . فلا بد في المحافظات التي تكثر فيها الجماعات السنية، من ان يكون المشرفون على « الأمن » البعثي ، من العلويين أولاً والدروز ثانياً والاسماعيليين والمسيحيين ثالثاً . وهكذا الامر في دمشق ودرعا وحمص واللاذقية وحلب .

ثالثاً : هذا عدا عن فئات « الضباط » الجدد من حملة الشهادات الثانوية ومن المعلمين وصغار الموظفين، من أبناء الطوائف، الذين أغراهم المخططون،العقائديون، بالمنصب العسكري ، حتى رفع بعضهم عدة رتب ، ونافسوا الضباط العاملين المتبقين في الجيش « السوري » الحقيقي القديم ، وأغروهم بمضاعفة الراتب عدا « السلطة والوجاهة » العسكرية والحزبية .

وبالمقابل فان التسريحات بالمئات استهدفت جميع الضباط من أبناء المدن الكبرى ، ومن (السنيين) خاصة . حتى فرغت أسلحة كاملة من ضباطها الرئيسيين ، كسلاح الطيران وسلاح البحرية ، والآليات .

وكذلك اتبعت نفس الخطة حيال صف الضباط والجنود . حتى أصبح من المتعارف عليه ان ألوية كاملة ، بأركان حربها وصف ضباطها وجنودها ، وقف على طوائف معينة ، كاللواء السبعين والخامس مثلاً. وبالطبع فقد أغلق باب الكليات

العسكرية ومختلف المدارس العسكرية في وجه شباب المدن السنيين . حتى ان دورات كاملة من هذه الكليات قد سرحت من الخدمة جميعها ، وقبل ان تتخرج، وذلك ما لم تعرفه أية دولة في العالم ، وفي أظلم مرحلة من التاريخ .

رابعاً : واما المناصب الوزارية والادارية في أجهزة الدولة فقد عانى المخططون البعثيون مشكلات أصعب ، مما واجهوه في الجيش . فهنا لا يكفي ان يرتدي المتبعث الطائفي البذلة العسكرية ، ويدرب لمدة شهرين او ثلاثة او لا يدرب ، ثم يعطى المركز العسكري الشاغر . فلا بد من شهادات وامكانيات معروفة ومحددة لشغل المناصب الادارية الكبيرة .

ولذلك لجأ هؤلاء المخططون إلى وضع بعض الوزارات الخطيرة، تحت اشراف السلطة العسكرية او سلطة المخابرات مباشرة، مع مراعاة التوزيع الطائفي طبعاً.

فوزارة الاعلام تحولت إلى قلعة تحيطها عدة صفوف من التحصينات، كخط ماجينو ، بقيادة ضابط همام (مستنفر) داخل قلعته (الجميلة) استنفاراً أبدياً ، ينام ويأكل ويشرب ويغازل فيها ، حتى أضحى أحد أساطير الحكم البعثي .

ووزارة التربية والتعليم تخضع لسلطات المخابرات والحرس القومي في مكاتبها ومدارسها . ووزارة الداخلية تتبع دوائر الأمن بالطبع .

ثم اكتفوا بالصفة الطائفية، كمقياس لجدارة الموظف بالترقي واحتلال المناصب الرئيسية .

وبذلك لم يترك المخططون البعثيون وسيلة لاضرام حرب طائفية خفية شاملة ، تغذيها أنواع من التحديات اليومية في كل قطاع ، في الجيش ، ودوائر الدولة ، والمدارس ، والاحياء والمعامل والقرى .. بين الجبل والساحل ، بين الريف والمدينة ، بين المحافظة والمحافظة .. إلا واتبعوها بتدبير وسعة نظر ، وتصميم واع رهيب ، يستهدف تدمير جميع أسس الحياة الطبيعية في البلاد ، بالقضاء على مكتسباتها التقدمية ، ومقاييس الحياة الحضارية فيها .

خامساً : وعندما تنفجر المقاومة الشعبية من وقت إلى آخر ، ينتهز المخططون الفرصة لكي يعطوا نموذجاً جديداً عن التحدي الطائفي، فيوكلون أمر قمع المقاومة

- وبالطبع بأفظع الوسائل البطولية البعثية الفورية - إلى أحد أعمدة قياداتهم العسكرية الطائفية ، وإلى ضباط وصف ضباط وجنود من طائفة معينة أيضاً ، كما حدث مثلاً أخيراً في فاجعة حماه ، عندما ضربت الاحياء والجوامع، وانتهكت البيوت والحرمات ، وذبح بعض رجال الدين، بيد هذا الارهابي الكبير وزبانيته.

لقد جاءت فاجعة حماه كأول ذروة رهيبة لجحيم الاحقاد الطائفية ، التي نظمها وأعد لها المخططون البعثيون ضمن الاعداد الشامل اللئيم ، لتعميم الخراب .

ثم أشاع البعثيون أنفسهم ان الذي قام بضرب حماه وهو (حمد عبيد) ، إنما فعل ذلك رداً لثأر الدروز من الحمويين .

وأكثر من ذلك ، فان بعض اتباع (أمين الحافظ) كانوا يشيعون خلال صراعه مع «محمد عمران»، ان سبب حقد هذا الاخير على الحافظ هو كونه «السني» الوحيد في قيادة الحكم .

كل ذلك يوحي ان « المخططين » البعثيين ، ومن وراءهم من المحركين الاستعماريين ، قد نفذوا ما نفذوه في مجال إثارة النعرات الطائفية ، عن سابق تصميم ووعي اجرامي ، لم يصل إلى مستواه المستعمرون الفرنسيون أيام احتلال سوريا .

شباب الطوائف ضد الطائفية

ولكن بالمقابل ، هل استطاع هؤلاء المخططون ان يلقوا الصبغة البعثية على هذه الطوائف ؟

الوقائع أيضاً هي التي تقدم الجواب :

فأولاً : ان الحزب لا يملك من بعض الطوائف إلا بعض المنتفعين والمضللين . فالدروز أعلنوا بمختلف الوسائل ان « حاطوم » و « حمد عبيد » و « منصور الاطرش » لا يمكن أن يمثلوا « جبل العرب » قلعة النضال العربي الأشم في مختلف العهود .

كما ان اكثرية المثقفين من جبل العرب يؤلفون جزءاً هاماً من الصف

الوحدوي المناضل ، الذي قدم شهداء له حتى في الثامن عشر مـن تموز ، ومعتقلين بالمئات . ولكم كان يؤلم المناضلين من الدروز والعلويين في سجن المزة ، ان يستعمل ارهابيو البعث ، بعض السذج من رقباء الجيش من أبناء هاتين الطائفتين العربيتين ، لضرب المعتقلين وتعذيبهم ، امعاناً منهم في تثبيت النعرات الطائفية حتى داخل السجون .

وان عقلاء العلويين وشيوخهم لم يتركوا وسيلة لتنبيه « عمران » و « حمـد عبيد » و « فهد الشاعر » إلى مغبة هذا السلوك « الطائفي » الذي يتبعوه من أجل ايجاد قوى وهمية لهم يستندون اليها ، كلما هبت في وجـه حكمهم العواصف ، وهددت جذورهم بالاقتلاع من أرض سوريا المناضلة .

ان الوعي الوحدوي ليس وقفاً على فئة دون فئة في سوريا، وان خلق الانفصال داخل بنية المجتمع العربي على أساس اثارة الاحقاد الطائفية ، لعبة قديمة استعمارية قذرة . وقد تخطاها هذا الوعي الوحدوي المناضل . واستطـاع بالرغم من جميع أساليب « المخططين » ، ان يوحد صفوف النضال من السويداء إلى اللاذقيـة إلى أعلى ذروة في جبال العلويين .

تلك هي الحقيقـة التي تنمو كل يوم ، وتتعاظم فوق مؤامرات الانكليز والعفلقيين . هذه الحقيقة التي تثبت ان وحدة الشعب العربي بمختلف طوائفه وفئاته هي أقوى من ان تفتتها ردة طائفية قذرة ، آخر سلاح في يـد الطغمة العفلقية . سلاح سيرتد إلى صدور أصحابه قريباً .

٤ ــ عودة الحوار مع الحوراني

قلما ان اصبح رجل واحد بمثابة عامل (موضوعي) كبير في احداث شعب، ومن أخطر هذه العوامل .

له تأثيره « الفعال » بصرف النظر عن النتائج سلبية او إيجابيـة ، وجاهياً وغيابياً معاً !

هذا الرجل كان من الحركات الاساسية في سياسة سورية ، منذ اول انقلاب

عسكري فيها عام (١٩٤٩) .

رجل قميء ، قافز الشعر الى أعلى وامام ، صغير الرأس ، مجعد الوجه ، كأنه شيخ منذ صباه ، في خطوط طولانية حول العينين الضيقتين ، والوجنتين الضامرتين والانف المعقوف ، والذقن المدببة .

رجل واحد كان بمثابة حزب كامل ..

سواء كان قائداً للحزب داخله ، او قائداً له خارجه . فحين كان احد قادة الحزب ، كان هو الوحيد المخطط والمنفذ ، المناور والمداهن ، مفتعل الأزمات وحاكمها .

كان يهمه من الحزب وجوده « الاسمي » وصياحه في الشارع . وكان يستعيض عن الحزب - ويفخر بذلك - بضابطين ، يغير بهما وجه البلاد في بلاغات متوالية يذيعها على « حزبه » وعلى الشعب بواسطة الراديو .

وعندما « انتصر » الحزب فأطاح به خارجه ، أصبحت مشكلة الحزب كله ، هي في « كيفية » أعادته اليه !

هـذا بالنسبة للحزب . وأما بالنسبة للجيش :

فهذا الرجل القميء كان وراء كل انقلاب ظاهر او خفي ، ووراء كل تجمع عسكري . ومع ذلك فان حظ هذا الرجل من الانقلابات كان يبرز في دور عجيب .

كان يصنع الانقلاب لغيره . ويضطر ان يداوي الانقلاب بانقلاب جديد عليه وهكذا .

ومن وراء ثمانية او تسعة انقلابات رسمية ، وبلاغات رسمية ، كان هذا الرجل هو العامل الاول في اعداد الانقلاب ، او في اعداد الانقلاب المضاد ، هذا فضلاً عن عمليات « تصفية » بالجملة والمفرق بين صفوف الضباط المناوئين ، في كل فترة هدنة بين انقلاب وآخر .

واما بالنسبة لرجال السياسة ، فان هذا الرجل كان ايضاً ارهابياً ثعلبياً سواء ضد من كان في صفه ، او اراد ان يتقاسم معه الزعامة ، او من كان بين الصفوف الأخرى من خصومه المباشرين او غير المباشرين .

ومع ذلك فان هذا الرجل لم يكن اسطورة ابداً .

وكل ما هنالك ، ان الرجل كان يستفيد دائماً من الهوة القائمة بين القوى الشعبية الثائرة باستمرار في سورية ، وبين القادة المحترفين السياسيين .

فالقادة الحزبيون « التقدميون » . كانوا يتحدثون عن الشعب ، وهم لا يجدون سبيلاً واحداً لفهمه والحوار معه .

فكانت ثقافتهم الرومانسية ، ونزعتهم الفردية وعقدهم النفسية ، وانتهازيتهم العاجزة ، تجعلهم بمثابة الدمى على رف عال، بدون أي جسر يربطهم بآلام الشعب ومطالبه الحقيقية .

والسياسيون المحترفون كانوا من اجيال مخضرمة بين عهد الاحتلال ، وسني الاستقلال الاولى ، ومشارف عهود الانقلابات ، يعانون كذلك من عجز كامل بالنسبة لفهم حركة التاريخ حولهم. ويتمسكون بزعامات تقليدية تفرغ يوماً بعد يوم من مقوماتها الشعبية . فتفضح مصلحيتهم وتبعيتهم لأسيادهم الأجانب ، وتناقضاتهم النفعية فيما بينهم .

وأما هذا الرجل فهو الذي أفاد من جميع هذه الظروف « الموضوعية » .

افاد من عجز القادة التقدميين وجبنهم في الاوقات الحاسمة ، وعزلتهم عن الجماهير .

وأفاد من افتقار الشعب الثائر الى قادة حقيقيين ، واستعجاله لأهدافه .

وأفاد من « القوة » المباشرة الكامنة في الجيش ، بدون عقل يوجهها ، فأراد ان يكون لها عقلها وارادتها .

ووقف هكذا بين الجبهات الثلاث ، او الفعاليات الثلاث ، المحركة للأوضاع السياسية في البلاد . بين القادة والمحترفين السياسيين من جهة ، وبين الشعب الثائر ، والقادة العسكريين الطموحين الى السلطة والحكم .

وكان يحاول بذكائه وحده، وبذكاء من يحركوه احياناً اخرى من « خارج الحدود» ، ان يستفيد من لعبة التوازن بين هذه الاطراف، وان يظل هو ما أمكنه المسيطر الوحيد على مقدرات البلاد .

ولكن اعبته تلك ، التي بلغت أوجها بين الانقلاب على الشيشكلي وبين تحقيق الوحدة ، كانت تنتظر احراجاً كبيراً لم تفقده فيه خبرته الطويلة ، وذكاؤه العملي الانتهازي .

فلقد كان الرجل يختبيء طيلة العهود السابقة على الوحدة ، وراء شعارات الشعب نفسه . فكان يقفز دائماً الى واجهة العمل الثوري ضد العهود الديكتاتورية العسكرية ، التي كان هو نفسه احد اسباب وصولها الى السلطة - كعهد الشيشكلي مثلاً - وضد الاحلاف الاجنبية والمؤامرات اليمينية الداخلية ..

وفوق هذا وذاك كان يمثل دور الصديق القوي في سورية ، لجمال عبد الناصر الذي بدأت زعامته للأمة العربية كلها ، تنمو وتعظم بعد كل معركة انتصار كبير، يفوز به هذا القائد القومي الجديد.

كان «أكرم الحوراني» يجرب كذلك ان يستمد قوة استثنائية جديدة ، من قوة زعامة عبد الناصر نفسه ، عندما يسير في ركابه ، وينطق بلسان سياسته .

فعندما أحدقت الأخطار الاستعمارية بسورية من كل جانب ، وأحكم الطوق الرجعي من تركيا والعراق والاردن ولبنان عام ١٩٥٧ ، وبدا ان الخط الثوري والمكتسبات الثورية كلها مهددة بالانهيار دفعة واحدة داخل سورية ، وتحت ضغط اليمين السياسي والاقتصادي والديني ، كان طريق الوحدة ينفتح فجأة لكي يحقق الهدف الخالد للأمة في الوحدة ، والهدف الآني والسريع في اكتساب حماية القطر الأكبر للقطر الأصغر .

وإلى عصر الوحدة ينتهي الفصل الأول والأكبر من تاريخ هذا الرجل ، خلال تاريخ الاحداث السياسية المتناقضة التي حفلت بها حقبة الانقلابات، والانقلابات المضادة بين عامي (١٩٤٩ و ١٩٥٨) .

وإلى هذا الحين كانت الصفة الثورية والتقدمية تغلب على أفعال الرجل ، على الأقل بالنسبة لظاهرها .

ولكن تجربة الوحدة ، كانت من جملة ما طرحت من قضايا الثورية في جذرها الأعمق ، هذا المعيار الحاسم والنهائي، لقياس مواقف الحركات السياسية ، ورجال

السياسة على مختلف الخطوط والمواقع .

ولقد تعثر الرجل هذه المرة ، بحيث لم يستطع ان يقوم من عثرته ابداً . فكان ان بدأت تتكشف مواقفه الملتوية ، منذ لم يعد يختبيء تحت شعارات الوحدة في صورتها الثورية السليمة .

وظهر ذلك السياسي المحنك ، المحرك للاحداث ، وكأنه عاجز لأول مرة عن اللعب بالأحداث ، وعن مقاومة طريقها الجديد ، الذي ساهم هو نفسه بشقه في يوم من الأيام .

لقد خرجت اللعبة الثورية من يد صاحبها . وتسلمتها القيادة الأصيلة لتجعل من تجارة الامس ، واقعاً حقيقياً للشعب ، مخلفاً السلع والتجار على الناصية .

الحوراني رائد الانفصال

وفي سبيل ان يستعيد الرجل زعامته المفقودة، ارتد إلى صفوف الانفصاليين. ولم تنفعه أية محاولة لتغطية الانفصال بالتقدمية المتمثلة في الاشتراكية . فاذا به أخيراً يصبح « أقوى » رجل ثانية ، ولكن في أي صف ؟

مع اليمينيين أعداء الأمس ، تجار السياسة والاحلاف ، وممثلي الاقطاع والرأسمال . وبرز أكرم الحوراني في الخط القيادي للانفصال . وكان الرجل يدرك انه يغامر بآخر اعتماداته في مصرف الثورية والوحدوية والتقدمية .

ولكن بالرغم من تخلي أكرم الحوراني عن سمعته الثورية كلها ، لم يسلم له اليمين عنانه ليقوده في انفصال « تقدمي » .

فالانقلابيون العسكريون الذين قادوا الانفصال ، كانوا من معسكر آخر غير معسكره ، كان بعضهم من « الاخوان المسلمين » والبعض الآخر من عملاء الاستخبارات البريطانية . . .

لقد سبقوه بانقلابهم الانفصالي الرجعي ، قبل ان يستطيع السيطرة بصورة كاملة على عسكره لضرب الوحدة . هؤلاء العسكر الذين شردهم النحلاوي خلال الوحدة ، عندما كان يشرف على شؤون الضباط في الاركان . وحاول الحوراني

عبثاً ان يعيد ضباطه المسرحين إلى الجيش بعد الانفصال . ولكن الانفصاليين كانوا يخشون دائماً ان يعود الجيش إلى سيطرة الحورانيين ، وهم الذين ذاقوا منهم كل اضطهاد فيما سبق .

وبقي الحوراني يرتقب فرصة جديدة للعمل السريع . وكان الانفصال يكل واجهاته السياسية التقليدية يقارب على الانهيار ، ليفسح مجالاً أمام ضربة وحدوية جديدة . فحاول العسكريون انقاذ الموقف ، وأقدموا على احتجاز هذه الواجهات في المزة .

ولكن ثورة وحدوية اندلعت في حلب أول نيسان عام ١٩٦٢ ، وهنا اختار الحوراني أقذر الطريقين ، فبعث برجاله العسكريين المسرحين والمدنيين ليجهضوا ثورة حلب . وفي الوقت نفسه يتمكن الحوراني من فرض نفسه على الانفصاليين والعسكريين ، الذين ما زالوا مسيطرين على قيادة الجيش في دمشق ، بالرغم من ترحيل قسم كبير منهم .

ولكن في هذه المرة ايضاً لم يستطع الحوراني ان يعيد ضباطه « رسمياً » إلى الجيش ، وان نجح في إعادة نفوذه غير المباشر على بعض الضباط الصغار العاملين .

والحقيقة فقد ثبت ، عبر مختلف الأحداث ، ان الحوراني وحده من بين بقية السياسيين المدنيين ، من تخمرت تجربته مع العسكريين ، وسلمت له قيادتهم عبر فترة طويلة من الأحداث الضخمة ، حتى ولو كان أكثر تابعيه منهم خارج الخدمة الفعلية . واما جماعة « الاخوان المسلمين » فقد انتهت سيطرتهم الوقتية على الجيش بعد ثورة حلب وترحيل رجلهم الأول (النحلاوي) وشلته .

وأصبح الجيش تحت قيادته الضعيفة المترددة المتمثلة في (زهر الدين) وجماعة من الضباط العاملين للسفارات الاستعمارية مباشرة ، مفتوحاً أمام عمليتين في عملية واحدة : الأولى وحدوية ناصرية ، يتزعمها ضباط وحدويون لم يسبق لهم ان عملوا في تنظيم حزبي ، وبينهم كان يتسرب بعض الضباط الصغار من البعثيين السابقين . وكان هؤلاء يتأرجحون بين تأثير الحوراني من جهة ، والبيطار وعفلق من جهة ثانية . بينما كان الضباط الحورانيون المسرحون ، يعملون على الاتصال

بهم وتوجيهم ايضاً باسم الحزب ، ولكن لصالح الجناح الحوراني .

ومع ذلك فقد سبق الجميع إلى انزال الضربة « زياد الحريري » . وهو ضابط حموي ايضاً وحوراني بطريقة غير مباشرة .

فكان انقلاب الثامن من آذار بقيادة حورانية وتنفيذ ناصري ، واستغلال بعثي .

واتفق الجانبان البعثي العفلقي والحوراني على تصفية الناصريين . وهكذا كان في عمليات التسريح المتتابعة . ثم ضرب البعثيون حليفهم القديم (زياد الحريري) ، وتمت لهم السيطرة على الجيش . ولنسأل الآن ما هي حقيقة « بعثية » هذا الجانب العسكري الذي تم له التفوق نهائياً بعد ١٨ تموز ؟

بعثية الطوائف :

لقد كانوا بضعة ضباط متوسطي الرتب ، ينتمون إلى طوائف دينية ثلاث : العلويين والدروز والاسماعيليين .

- اما الاسماعيليون فقد كانوا أقرب إلى الحورانيين بحكم تبعية مناطقهم لحماه، ولقيادة أكرم منذ القديم لهم . وكان على رأس هؤلاء عبد الكريم الجندي .

- واما الدروز فقد كانوا عفلقيين تقريباً . وذلك لأن نفوذ عفلق على بعثيي جبل العرب قديم بحكم صداقاته الشخصية وصلاته العائلية معهم .

- ولكن الضباط العلويين فأمرهم مختلف. والأصل في تبعيتهم كانت للدكتور وهيب الغانم ، الحوراني النزعة . ولكن واحداً منهم، وهو أكثرهم ذكاء ودهاء، وهو (محمد عمران) ، كان يحقد على الحوراني لحادثة شخصية . إذ ان أكرم لم يكن يأمن منذ القديم للعسكريين العلويين . وخاصة كان ينفر من (باطنية) عمران - كما يسميها أكرم نفسه - وذلك لأسباب كثيرة . ولعل أهمها خوف أكرم من طموح عمران للزعامة والسيطرة خارج وصاية أي زعيم مدني آخر عليه .

وهكذا يمكن القول ان أكثرية العسكريين كانوا إذن من مدرسة أكرم أو قريبين منها .

بينما كان البعث المدني تحت سيطرة الجناح الثاني ، التابع لعفلق والبيطار .

وطالما كان الحزب مسيطراً في العراق—وهو عفلقي النزعة إجمالاً—فان العسكريين السوريين كانوا مضطرين لمسايرة الواجهة العفلقية في الجانب المدني من الحزب. وكان ذلك ايضاً بما يخدم مصالح (عمران) وصديقه الوفي (صلاح جديد). فيتيح له ذلك أطول وقت لتدعيم قواه في الجيش، عن طريق فتح الباب أمام أبناء طائفته. فالمعلمون يصبحون ضباطاً، والفلاحون جنوداً وصف ضباط. حتى غدا اللواء سبعين خاصة، علوياً بقيادته وقواعده تقريباً.

ولكن المعركة التي خاضها العسكريون، حورانيين او عمرانيين (بواجهة عفلقية مدنية)، ضد الشعب إجمالاً منذ عملية الثامن عشر من تموز، وأبرزت فراغ الحزب العفلقي من كل شيء، من القواعد ومن الفكر ومن الحنكة السياسية، جعلت أمين الحافظ — الذي لم يكن يخفي في أي يوم إيمانه بقيادة الحوراني وتبعيته هو لها — يتحدث عن أهمية إعادة الوحدة الى الحزب، بكل من الجناح العفلقي والحوراني.

وإذ اضطر عمران تحت هذا التحدي الجديد، ونتيجة لضغط المعركة ضد الشعب، إلى ان يبرز من وراء حصنه في اللواء سبعين، الى الوزارة، فقد راح هو الآخر يطرح فكرة إتمام وحدة الحزب، باعادة الجناح الناصري، المتمثل في بعض قادة الحركة الوحدوية الاشتراكية.

ولكن عفلق الذي يقاوم كلّا من الجناحين معاً، الحوراني والناصري، بقي يمارس نفوذه في (الاشراف على الحكم) ما دام البعث موجوداً في العراق. وما ان ينهار الحزب هناك، حتى يفقد عفلق دعامته الأخيرة. وعلى أثر ذلك تعلو أصوات الضباط، من خلال صوت الحافظ، بالاستنجاد بالحوراني وشلته المدنية والعسكرية.

ولكن عمران بقي يعتقد في نفسه القدرة على ملء الفراغ السياسي، الذي عجز عن إملائه العفلقيون المدنيون. ولذلك فهو يستفيد من ضعف عفلق، في الاستزادة من سلطاته السياسية في الحكم، ومن سلطاته الحزبية داخل التنظيم العسكري والمدني معاً، معتمداً في ذلك على عاملين:

الأول عسكري : ويتمثل في التغطية العلوية لأكثر قيادات الجيش وقواعده باسم الحزب . و « التبعيث العقائدي » للجيش . مما خلق طبقة من الضباط الجدد – وأكثرهم كان مدنياً – يخشون على مراكزهم ومصالحهم، إذا ما عاد ضباط أكرم ، العسكريين في الاصل ومن ذوي الرتب العالية ، ومن أصحاب الخبرة السياسية ايضاً .

والثاني مدني – سياسي: ويتمثل في أمل عمران بجذب بعض قادة الوحدويين ذوي المطامع الشخصية في الحكم ، التي يعرفها عمران فيهم منذ أيام المفاوضات الدهليزية، لتأليف الوزارة حسب ميثاق السابع عشر من نيسان. لعله بذلك يفتح الطريق أمام الحزب إلى بعض القواعد الشعبية. ولعله يحلم ايضاً بخلق مرحلة جديدة من الميوعة السياسية، كالتي أعقبت انقلاب آذار . فيفوز بهدنة مع القاهرة على الأقل ومع الفئات الوحدوية داخل القطر .

غير ان أكرم الحوراني ، الغائب الحاضر معاً ، طيلة حكم البعث العفلقي، قد عاجل خطة عمران بأن دفع المخابرات الواقعة تحت سلطة رجاله ، إلى اتهام بعض هؤلاء الوحدويين بمؤامرة انقلاب ضد الحكم ، فقبض على بعضهم ، وفر البعض الآخر . وكان ذلك خلال عيد الفطر الماضي ، عام (١٩٦٤).

وعمران الذكي ، البعيد المطامع ، كان من ناحية ثانيه يتودد إلى المشايخ ، ويحاول ما أمكنه ان يبعد عن نفسه الصفة الطائفية ، التي بدأ يستفيد منها منافسه امين الحافظ ، على اعتبار ان هذا الأخير السني الوحيد من قادة البعث ، ومن مدينة حلب خاصة .

ولكن عمران كانت تنقصه الجرأة في فرض حلوله ، كما ينقص خطه الوضوح في عين أنصاره وأعدائه معاً .

فبقي مراوحاً في موقعه ، حتى عاجلته ثورة حماه ، وأزمة التجار التي أدت إلى إغلاق المدن الرئيسية .

وبالمقابل فان اللحظة التي انتظرها الحوراني منذ الثامن من آذار ، قد آذنت بالوقوع .. ولكن ضمن أصعب الظروف وأعقدها .

فلقد كان مخطط الحوراني يقوم على أساس إضعاف حكم البعث بوجهه العفلقي بين المدنيين ، والعمرانيين العسكريين ، إلى الدرجة التي يصبح فيها الاستنجاد بالجناح الحوراني هو جسر السلامة الوحيد .

ولكن خاب أمل الحوراني مرة ثانية ، فكما ضاعت منه لحظة الاستئثار بالانفصال الأول بعد ضرب ثورة حلب ، كذلك فستضيع منه فرصة إنقاذ حكم الانفصال الثاني تحت الواجهة البعثية. فان هذا الحكم لم يعد ينفع معه أي إنقاذ، ولو جاء من عبقرية الحوراني في الدهاء والخديعة .

وكذلك وصل حكم البعث إلى الدرجة التي لن يستفيد فيها من دعم الحوراني، الذي سيأتي إلى الحكم مجرداً من أي تأييد حتى من رجاله في حماه ، الذين فقدوا الجرأة نهائياً في التعاون مع من ضرب مدينتهم ونكل باخوانهم .

وكذلك فان الحوراني لن ينجح في كسب تأييد أصحاب الفعاليات الاقتصادية،بعد ان ضربهم البعث بتلك القرارات الاشتراكية الهوجاء،التي ورطت الحكم في اتجاه من التطرف الأعمى ، لن يرضى عنه حتى زعيم « الاشتراكية » الاقليمية نفسه ، أكرم الحوراني .

يستطيع الحوراني ان يعرض شروطه على الحافظ وعمران معاً . ولربما نجح في إعادة عدد من ضباطه – وهذا ما لا يمكن انتظاره فعلاً – ولكن شيئاً واحداً لن يقدر عليه الحوراني ، كل (الحوراني) بأسطورته ، هو ان يزرق هذا الحكم المنهار بأي دم جديد .

فاذا كان ثمة قواعد عسكرية او مدنية ما زالت تؤمن « بالحزب » ، فانها لن تجد مبرراً يقنعها بمعجزة الحوراني .

الحوراني الذي يحتاج هو نفسه إلى معجزة ، كي يكسب أصغر جزء من التأييد الشعبي الذي كان له ، يوم كان داعية للوحدة الاشتراكية .

وهل يعطي الشيء فاقده !

فما زال حكم البعث إذن محاصراً بغبائه ، بتجاهله الشرس للحقائق ، يبحث عن مفتاح أزماته في غير مكانه ، ولا يجد سوى سبيل الدم للدفاع عن نفسه .

فهل ستنجح أسطورة الحوراني هذه المرة ايضاً ؟
فتكون اليد التي تطلق رصاصة الرحمة على الحكم ، المحكوم بإعدام نفسه !

٥ ـ الحوار مع الرجعية

ان انهزام الرجعية لا يتم إلا على مراحل متباعدة . وبين كل مرحلة وأخرى تتراجع الواجهة السياسية إلى حصونها الاجتماعية الأولى. وهناك تدبر الرجعية قفزة جديدة إلى مقاعد الحكم .

فالرجعية لا تعتبر نفسها انها قد انتهت بمجرد سقوط عهد من عهودها السياسية. على العكس من التقدمية التي قد تعاني من جراء سقوط حكمها ، الاول خاصة ، تعاني مختلف النكسات الفكرية والشعبية . وتفسح المجال بذلك أمام قيام محاولات ثورية كثيرة مزيفة ، تلعب دور الثورة المضادة .

والرجعية وحدها هي التي تفيد أكبر فائدة ، من ظهور محاولات الثورات المضادة .

فلقد أثبت تاريخ القرن التاسع عشر في اوروبا ان كل نكسة تقدمية، عن طريق مركبات الزيف التي تقع فيها الثورة الأصيلة ، إنما يعقبها بعث عنيف لأقصى أشكال الرجعية تطرفاً وعنفاً .

وليس عمل الثورة المضادة سوى القضاء على قوى الثورة الأصيلة بأسلحتها نفسها . فالرجعية قلما تلجأ إلى الارهاب المباشر. ولذلك فانها تترك الثورة المضادة تنفذ عنها هذه المهمة . والثورة المضادة هي والارهاب في فلسفته ووسائله ، شيء واحد .

فبينما تتخلى الرجعية «موقتاً»عن مواقعها في الصف الاول من النفوذ السياسي، فانها تفتح الطريق أمام نوعية معينة من الفوضويين ليحتلوا مواقع السلطة ظاهرياً، ويحولوا الحكم والدولة إلى أجهزة متفرعة كلها عن أجهزة الامن العام والمخابرات. وفي اثناء انقسام الثورة على نفسها ، إلى حكم ارهابي في رأس الحكم وأجهزته، وإلى تقدمية شعبية مجردة من قواها الاولى ، مكشوفة القيادات والقواعد فان

الرجعية التي اعتصمت وراء قلاع نفوذها الاصلي في بنيـة الحياة الاقتصادية والايدلوجية الاجتماعية والغيبيـة ، تنتظر ان تفني الثورة المضادة قوى الثورة الحقيقية ، لتجهز هي أخيراً على الحكم الارهابي الذي يسقط حتمياً بمجرد انتهـاء مهمته ، بفعل تناقضاته الخاصة . وبذلك ينفتح الطريق أمامهـا مجدداً لتعود الى مراكز نفوذها في السياسة والاقتصاد معاً .

وتستطيـع بذلك ان تسيطر ثانية على مرحلة كاملة من « الاستقرار » أي جمود الثورية التقدمية ، وجمود التناقضات بين قوى الدفع الثوري المنهكة ، وبين قوى المجتمع القديم .

والواقع فإن الرجعية تملك دائماً احتياطي الردة والنكسة التي تتعرض لها غالباً كل ثورة جديدة . وهي قادرة دائماً على إجهاض الثورات ، ما دامت هذه الثورات لم تكتسب شيئاً آخر إلا مقاعد الحكم . فان تحويل الأفكار والمثل الثورية إلى أنظمة واقعية في السياسة والاقتصاد والعلاقات البشرية داخل المجتمع ، هو أصعب بمراحل من الدفاع عن أنظمة موجودة فعلاً ، وتملك قوة الاستمرار من استمرار التاريخ ذاته ، ومن مختلف غرائز الانسان في الميـل الى الاستقرار والتكرار والخضوع لسحر القديم وألفته .

فالثورة تعتمد غالباً ، في تحريك القوى المكافحة ، على تصوير واقع آخر ، لم يوجد بعد ، ولم تبرز تفاصيله ، سوى ما يملك من جاذبيـة المثل الأعلى ، ورفض الواقع الحاضر . ولذلك فان بلوغ السلطة يعتبر التمهيد الأول لبناء عالم الثورة الموعود . أي ان سلطة الحكم ليست سوى الدرجة الأولى في السلم الصاعد نحو واقع لم يوجد بعد . فاذا انهدمت هذه الدرجة الأولى انهدم السلم كله . وبقي العـالم الأصلي محتفظاً بكافة قواه التاريخية وقيمه وطقوسه ، بل وزادته معركة مصيره ، اشتداداً نحو جذوره الأولى . وربح من خسارة الثورة يأساً من ثورة أخرى . وبذلك يضمن لنفسه مستقبلاً أكثر أماناً ، من المستقبل الذي سبق قيام الثورة الفاشلة .

كل هذا واقع في حساب الربح والخسارة بالنسبة للرجعية . ولذلك يحسب

فلاسفتهـــا ان « الأمور الطبيعية » هي التي تتغلب اخيراً ، وان « الشذوذ » و « الانحراف » سبيلها دائماً الى الانتحار بفعل استحالة استمرارهما .

وبالطبع، فهم يعنون « بالأمور الطبيعية » مجموعة الأنظمة السائدة في المجتمع. فهو أمر طبيعي ان تكون هناك طبقة غنية وأخرى فقيرة ، وان يكون الحكم والنفوذ لأبناء السادة ، وان توقف الثروات والسلطات على القادرين . والقادرون دائماً هم النخبة . ان الشر والمرض والألم والجريمة ، كلها حقائق « عادية رتيبة » في حياة الانسان فرداً وجماعة ، وبالتالي فان الظلم والاستغلال والتنافس الشرس ومختلف « فضائل » المجتمع البورجوازي ، هي أمور واقعية ، لا سبيل الى القضاء عليهـــا .

أما الثورة والثوار،وجميع الأفكار الاخرى المعاكسة للفضائل البورجوازية، فهي التي تزمع تدمير الحياة الطبيعية ، وفرض الشذوذ والانحراف على الاوضاع الاجتماعية السائدة .

وقد يصل الثوار « أحياناً » الى سدة الحكم، ولكن الرجعية لا تفقد أعصابها. فليس ذلك سوى الانتصار الموقت .

بل ان الرجعية ، هي التي تسعى أحياناً الى خطة التواري الستراتيجي عـــن مسرح السياسة المباشرة ، وتدع الفرصة سانحة أمام القوى المعادية لها .

ولكن أعلى ما تحلم به كل رجعية ، تواجه خطر زوالها ، الأخير والمحتوم ، هو ان تجهض الثورة نفسها ، وتقوم على أنقاضها صورة ممسوخة عنها ، تدعى بالثورة المضادة .

وعند ذلك لا تضطر الرجعية الى تلويث يدها بدم الثورة الذبيحة . بل انها تساهم في خلق موجة الاستنكار من « العنف » وتشارك أبناء الشعب الضحايا في تغذية قوى النقمة والحقد على الارهابيـين . ثم تخطو خطوة ثانية ، لتشيع النقمة ضد « كل » عنف، ضد كل تغيير ، كل ثورة ، ما دامت الثورة سوف تجلب معها الدم والارهاب . وهكذا تطل رؤوس الرجعيـــة من أعلى ، لكي تلعب دور الحكمة والتعقل. وعندما تبـــدأ الثورة المضادة نفسها تغرق في بحر الدماء الذي

فجرته ، يعلو صوت الرجعية بالدعوة الى مبدأ « المصالحة الوطنية » .

والغريب ان الرجعية توكل امر هذه الدعوة الى جانب من جوانب الثورة المضادة نفسها ، لكي تتيح لذاتها الحظ الأخير من الكسب ، حتى بعد ان ينهار هذا الجانب «السلمي» نفسه مع انهيار بقية جوانب الثورة المضادة، في حال عدولها عن سبب وجودها واستمرارها الأول والأخير ، وهو الارهاب .

ان استخدام الرجعية للثورة المضادة كوسيلة ناجعة لتأجيل نهايتها من جهة ، ولإجهاض الثورة الحقيقية ، وإنهاك القوى الشعبية ، وخلق جو من اليأس «العام» من كل تطرف ، من جهة اخرى ، هذا الاستخدام يتطلب مستوى من الوعي الطبقي والستراتيجية السياسية ، ما لم يكن متوفراً كله لدى الرجعية العربية خاصة .

ولذلك ، عمد الاستعمار الى استخدام الثورة المضادة في منعطفات هامة من تاريخ الثورة العربية، ووضع أسلحتها ووسائلها بيد الرجعية العربية الغبية - وكان على هذا الاستعمار ان يقوم كل مرة ، بحملة توعية للرجعية العربية ، لكي تفتح عينيها على الجهة التي تهب منها العواصف المدمرة لكيانها ، وعلى الجهة الاخرى التي تعتصم فيها مصالحها المجهولة منها ، وراء قوى الاستعمار ذاته .

من هنا ، كان اللقاء « الأخوي » محتوماً بين مصالح الاستعمار ومصالح الرجعية ، حتى ولو لم تقبل هذه الرجعية صفة الخيانة الوطنية ، ولذلك كان دور الثورة المضادة، هو دور البديل عن الرجعية، البديل الذي تلقى اليه مباشرة المهمات « القذرة » لينفذها بشجاعة نادرة ، لا تتحملها طبيعة الرجعية الرخصة المشة . ويقضي على العقبات التي قامت في وجه حكمها المرتكز إلى الاعتدال والتعقل والبعد عن الفوضوية .

وبالمقابل فان الثورة المضادة ، بالرغم من ان إرهابها الحتمي ، يبدو انه موجه إلى الجميع ، أي إلى كل القوى الاخرى في الأمة ، قوى اليمين واليسار على السواء إلا انها تدخل في علاقة جدلية متنوعة الأوجه مع الرجعية :

فهي من جهة تهددها بالعنف العام الذي تنشره الثورة المضادة يومياً بين فئات

الأمة . وتقدم كل يوم نموذجاً في الارهاب يتخطى النماذج التي سبقته .

وهي من جهة ثانية ، تحاول ان تستميل رؤوس الرجعية في حلف متواطىء سري .

ان هذا الحلف يقوم على تقديم خدمات متبادلة دون تفاهم مباشر بين الطرفين. فالرجعية المكشوفة امام قوى الثورة الحقيقية، تجد نفسها في حاجة إلى قناع ثوري زائف ، توفره لها الثورة المضادة .

والثورة المضادة التي تعجز عن الانشاء، وتقديم « اي » نظام بديل عن الرجعية أو الثورية الحقيقية ، تلقى نفسها مضطرة لاستمداد القوى من النظام « الموجود فعلاً » وهو نظام الرجعية الاقتصادية نفسها .

ومن جهة ثالثة تستطيع الثورة المضادة ان تمارس كلما شاءت ، تهديداً دائماً ، ضد الرجعية ، بالميل نحو اليسار الذي لم تنطفىء كل قواه بعد ، والذي تنتمي اليه الثورة المضادة ، ولو اسمياً وظاهرياً .

ان هذه العلاقة الديالكتية « الجدلية » بين كل من الرجعية والثورة المضادة، تسعى إلى خلق توازن ما في القوى ، في الارباح المتبادلة مع أقل خسارة ممكنة . ولكن معادلة التوازن هذه ، قلما يحصل عليها الطرفان . وذلك للاسباب التالية :

أولاً : ان الرجعية لا تسمح لأية فئة أخرى في المجتمع ان تشاركها في مصالحها التقليدية ، إلا ضمن الحدود التي تضطرها عليها ظروف الدفاع عن النفس . هذه الظروف التي تنقضي بانقضاء الدورة الثورية التي كافحتها الثورة المضادة بوسائل الارهاب .

ثانياً : وكذلك فان رؤوس الثورة المضادة الذين تمكنوا من الحكم واستمرؤوا السلطة، لن يسلموا مراكزهم بسهولة إلى أيدي الرجعية، هذه المراكز التي اغتصبوها وسط بحران من الدم ، وأصبحت رقابهم ذاتها هي ثمن كل تراجع أو تخل عن السلطة .

ثالثاً : وذاك هو السبب الأهم من بين هذه الاسباب الثلاثة . وهو ان الثورة الاصيلة لم تستسلم للعنف والارهاب ، ولم تستنفذ كل قواها الشعبية . بل انها

تنتظر هي أيضاً جولتها القادمة .

وجولتها القادمة تحين عندما تفشل معادلة المصالح الرجعية والثورة المضادة . مصالح الرجعية في استعادة مراكز القوى السياسية الى جانب القوى الاقتصادية . ومصالح الثورة المضادة في المحافظة على مراكز السلطة السياسية ، وفرض تحالفها مع الرجعية ، بشرط الابقاء على قواها الاقتصادية الطبقية . وبالمقابل على الرجعية ان تقبل حكم الثورة المضادة . أي ان تبقى دائماً تحت رحمة العنف والارهاب وهذا ما لا تستطيعه طبيعة الرجعية نفسها .

يبقى ان الثورة الحقيقية هي التي ، في صراعها مع الرجعية خلال أدائها في الثورة المضادة ، سوف تفيد من فشل معادلة التناقضات السلبية الجديدة التي سببتها هي نفسها ، في صف العقبات الأعمق والأصعب . وذلك هو امتحانها الاخير . امتحان حقيقتها واصالتها وكونها الحل « الطبيعي » والتاريخي المنتظر لاوضاع « الاستقرار » التي هي الاوضاع « الشاذة » و « المنحرفة » في عرف التطور الثوري المحتوم .

الفصل الثامن

فصول النهاية

١ – البعث والثورة الوطنية

كان من أعظم انتاجات حكم البعث في السياسة العربية ، تلك الانقلابات العشوائية في أبسط بديهيات العمل النضالي في هذه المنطقة من العالم العربي .

فبالرغم من ان البعث الحاكم لم يترك وسيلة من الديماغوجية والارهاب المنظم إلا واتبعها في سبيل منع تحقيق الوحدة المحتوم ، إلا انه يصر بكل صفاقة على انه حزب الوحدة الاوحد ، وانه طليعتها المناضلة ، وحامي عقيدتها .

وبالرغم من ان سورية العربية ، ومنذ قليل العراق ايضاً ، لم تعرف نضالاً اجماعياً من كافة طبقاتها وفئاتها ضد حكم ، مثلما عرفته مرة ضد فرنسا ، ومرة أخرى ضد هذا البعث ، إلا ان (الحزب) ما زال يصف نفسه بالشعبية والديموقراطية والحرية .

وأما الاشتراكية ، هذا الهدف الذي وجد طريقه الى التحقيق في اجزاء رئيسية اليوم من الوطن العربي في الجمهورية العربية المتحدة والجزائر ، فقد جاء دورها في عملية المسخ والتشويه الدعاوي ، والاستعمال السياسي على يد ابطال

الفـاشية من حكام البعث ، في ظروف القمع الجماعية الجديدة ، التي تخضع لهـا سورية المجاهدة هذه الايام .

فعبر الاحداث المروعة التي نفذها (منحلو) البعث ضد احيـاء حماه الشعبية وجوامعها ومدارسها، وخلال محنة النهاية المفجعة التي تواجهها شرذمة الديماغوجية العقائدية ، تطلع قيادة الحزب - أي حزب وأي جنـــاح وأية بقية ! - وتطلع حكومة البعث في سلسلة من القرارات (الاشتراكية) في تأميم الشركات المفلسة ، وفي التسيير الذاتي ، وفي إلغاء الملكية الخاصة !

والبعث الذي يفترض الغباء في الجماهير والذكاء في (الطليعـــة) وحدها ، يعتقد بذلك انه قادر على تصوير معركته مع سورية المحتلة كلها ، انهـــا معركة التقدمية مع الرجعية ، والاشتراكية مع الاقطاعية والبورجوازية .

حتى إذا مـا تمّ سقوطه القريب مختنقاً في بحر الدم الذي فجره مـــن أعناق الابرياء في عام السواد هذا ، اعتبر نفسه شهيد الاشتراكية والتقدمية . وذكره تاريخ النضال ، على انه الحزب الذي ذبح الجماهير لكي تؤمن به حزباً للجماهير ، والحزب الذي وأد الوحدة (ليبعثها) لوحده ، والحزب الذي دفن المئـات تحت الانقاض لكي يشق في اليوم التالي خلالها، شوارع جديدة، تعويضاً عن حرمان (حماه) من العمران .

ولكن في ظروف الدم الجديدة هذه ، هل هي الرجعية في سوريا التي تحارب آخر فصول المراهقةالعقائديةالوحشية، أم هي الوحدوية أم البورجوازية والاقطاعية ؟

ان الصفة الحقيقية لفصل النهاية هذه في معركة سورية ضد البعث هي البلد المحتل ، الذي هب أخيراً دفعة واحدة، وبكل قواه الغريزية ليقاوم (الاحتلال) .

هكذا كما قامت سورية المجاهدة عشرات المرات ضد جنود الاحتلال الفرنسي أيام الاستعمار المباشر .

وكما كانت تنفجر حوادثها الكبرى ، واضراباتها الشاملة من صدفة احتكاك صغيرة عابرة ، كذلك تفجرت ثورتها اليوم، من اعتداء على طالب ، الى مظاهرات واضرابات كاملة ، تنذر الشرذمة المحتلة بالنهاية الحاسمة .

ان الغباء الشرس الذي واجه به بعث الثامن من آذار مختلف التجارب النضالية، التي أسست تراثاً شعبياً عنيداً لدى جماهير سورية، هو المسؤول عن عمليات الاستعداء الشاملة المنظمة التي أثارها الحزب المفكر ضده لدى اليمين واليسار، التقدمية والرجعية، الوحدوية والانفصالية. ولقد قطف اليوم ثمارها ببراعة لا تدانيها براعة أكبر السياسيين في التاريخ!

فذلك الحزب الحاكم جاء باللامبدأ لكي يتحدى جميع المبادىء لدى فئات الشعب. وتشبث بمصلحة زعمائه العسكريين والسياسيين الحاكمين، كي يثير ضده مختلف المصالح الجماهيرية كلها. واستند إلى أظلم العلاقات الاجتماعية للواقع الفاسد، وأحياها بكل ما لديه من عبقرية (باعثة) للطائفية والانتهازية والمرطقة الوطنية والقومية.

وخلال بضعة أشهر فقط حاول ان يثبت انه قادر على استخدام مختلف الوسائل لاستمراره، فخذلته مختلف الوسائل هذه، وأدت به إلى نتيجة واحدة، هي نفسها المقدمة التي اكتسبها منذ ان قام بأولى خطوات القرصنة الثورية.

لقد كانوا بكل بساطة مجرد محتلين أجانب، غرباء عن شعب سورية بكل ما جروه عليها من نوائب خبيثة لتشويه نضالها في الوحدة والاشتراكية. حكموها بالحديد والنار والكذب الوقح. وكرروا، دون ان يتعلموا شيئاً من دروس الطواغيت السابقين، كرروا ببلادة نادرة، أدوار أعداء الشعب من اجانب محتلين وبورجوازيين وإقطاعيين وانفصاليين. وجمعوا مآثر هؤلاء جميعاً، وعقدوها في عقيدة بعثية طائفية، ومراهقة سياسية، وديماغوجية لا مثيل لها لا في فلسفة التمدين الاستعمارية، ولا في ديكتاتورية حسني الزعيم او الشيشكلي، ولا في كاريكاتورية عبد الكريم قاسم الدموية.

لقد اكتسبوا كل ميزات أعداء الشعب هؤلاء، وأعداء (طلائعهم) القديمة نفسها، ثم أعادوها إلى الجماهير منظمة مفلسفة مؤطرة بمختلف نظريات اليسار الزائف واليمين التائه.

وها هم اليوم يحاولون ان يصوروا معركتهم كطائفيين يمنيين وانفصاليين،

على انها معركة طبقية . ولهم من ذلــك عدة أهداف داخلية وخارجية . فمن الأهداف الداخلية انهم يريدون ان يقضوا على وحدة المدن التي تحرك الصراع المباشر اليوم ضدهم ، وتتزعم الاضرابات الشاملة . وان يستعدوا عمال المدن على التجار والصناعيين القلة المتبقية بعد فرار أكثر المتمونين مع رساميلهم . وان يستميلوا قواعد الجيش ، التي فشلوا حتى اليوم في اكتسابها إلى جانبهم ، على اعتبار ان هذه القواعد ذات اصول ريفية أو شعبية من المدن .

ولعل من أهم أهدافهم الداخلية من رفع شعار المعركة مع الرجعية هو إغراق هدف الوحدة الشعبي بهدف الاشتراكية ، لعلهم بذلك يستطيعون ان يفوزوا بتحطيم شيء من حصار الجماهير لهم .

ولكن هذه الجماهير ، حتى لو استطاع البعث ان يقدم لها مكاسب اشتراكية حقيقية وسريعة ، فانها لن تنسى هدف الوحدة ، ولن تنسى سفاحي هذه الوحدة . ولقد ثبت في وعي هذه الجماهير ان الوحدة فقط هي الاطار الطبيعي لأية اشتراكية . ولا بد ان تتحقق الأولى وتسترد كل ثاراتها من أعدائها ، لتحقق الثانيــة ضمن إطارها الواسع .

والدليل على ان البعث قد فشل اليوم حتى في هذه الخدعة البراقة ، فلم يفلح بصبغ ثورة سورية كلها بالرجعية ضد اشتراكيته المفاجئة ، هو ان القواعد الشعبية نفسها ، من عمال وفلاحين وطلاب وبورجوازيين صغار ، هم الذين يحكمون حصار الاضراب حول عنق البعث .

لقد ضربت مدافع البعث الأحياء الشعبية الفقيرة من مدينة حماه . وتصدت الجماهير المتظاهرين من الطلاب والعمال وأبناء الأحياء في حماه ، ومن قبل ومن بعد ، في حلب وحمص ودرعا ودمشق . وعانت هذه القوى الجماهيرية أكبر حملات الارهاب والبطولات البعثية منذ الثامن عشر من تموز الماضي .

فكيف ستنقلب بين عشية وضحاها وفي جو مفعم برائحة النهاية للبعث ، كيف ستنسى هذه القوى الجماهيرية ثاراتها مع حكم البعث وتتحول إلى (عقائدية) مؤمنة باشتراكية هوجاء ، ولدها الخوف في ظروف الهزيمة الأخيرة .

لن يفلح بعثير المدافع والاعدامات ومعسكرات الاعتقال ، بصبغ ثورة سورية اليوم بالصفة الرجعية، لكون ان المشايخ قد أعلنوا الجهاد المقدس من المآذن ضد البعث الطائفي (الملحد) ، او لكون ان التجار الكبار قد أضربوا مع جميع أصحاب المتاجر الصغيرة والمهن الحرة والمتعيشين الآخرين .

ان سورية في ثورتها السلبية هذه تعيد إلى الأذهان نموذج الثورة الشعبية الكاملة ضد المحتل الاجنبي التي تتصف بتضامن كامل بين مختلف فئات الأمة ، عندما تواجه خطر الامحاق الكامل .

وإذا صح ان نصنف ثورة سورية هذه فلن نستطيع ان نقول انها ثورة للوحدة او الاشتراكية او الرجعية ، بل انهـا ثورة الشعب ، كل الشعب ، الذي يواجه بغريزته أولاً ، خطر تهديد وجوده الأولي ، من أسسه كلها .

انها ثورة الخلاص. الخلاص من أبشع حكم استهتر باسم لا شيء، بأبسط الحقائق وأوضح القيم المتعارف عليها بين مختلف أطراف الأمة .

وإذا كان من جملة أهداف حمى الاشتراكية المفاجئة هذه، التي طلع بها البعث من خلال أكبر محنة اليوم ، ان يعزل نضال الشعب العربي في سورية عن الصف التقدمي من الدول العربية ، بتصوير هذا النضال بصورة الرجعية ، فقد خاب أمل البعث في هذا ايضاً ، لأن الأمة العربية التي طالما آلمتها هجعة سورية الموقتة وعزلتها عن هذا المد الاشتراكي التقدمي الكبير ، الذي يشمل أقطاراً عربية بكاملها ، ترقب لحظة تفجر الحقيقة الأصليـــة لهذا القطر السوري المناضل ، الطليعي بحق وجدارة .

فان سورية التي أعلنت من خلال حوادث حماة والمدن الأخرى من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، حرب الخلاص ، انما تريد من هذا الخلاص ان تسترد مكانها بين الدول العربية المتحررة والاشتراكية بأصالة وصدق . ولذلك فان أحمق ما ينتظره شعب سورية اليوم من هـذه الدول العربية المتحررة ، هو المبادرة إلى تأييده ومساعدته بكافة الوسائل التي يحتاجها شعب أعزل يقاوم أشرس عمليات الانتقام والإبادة المنظمة .

باسم الانسانية لا باسم العروبة أولاً ، وباسم أبسط حقوق الانسان ، وباسم الدفاع عن الاطفال والنساء والشيوخ ، والدفاع عن الحريات الاولية والدم الانساني البريء ، باسم أبسط مكتسبات الحضارة الانسانية ، تقف الأمة العربية إلى جانب شعب سورية البطل ، تعاني من هذا التحدي الشيطاني الذي تلبسه البعث في عقر دار الأمة العربية ، مندوباً عن جميع الشرور التي اعتادت هذه الأمة ان تناضلها وتنتصر عليها .

فمن العبث اخيراً ان نعتقد ان البعث الفاشي هذا يريد أي نوع من الخير لهذا الشعب ، أكان خيراً يمينياً أو يسارياً . انـــه يخوض معركة وجوده ضد وجود الشعب ، بضراوة المذنب الذي دنت ساعة عقابه .

وعلى هذا الأساس وحده ينبغي ان نفسر اليوم ثورة سورية الوطنية .

٢ – البعث والاشتراكية الانتقامية

ان احداً لا ينكر على حكم البعث انه قد قدم خبرات متعددة لكثير من مفاهيم الثورية العربية . هذه المفاهيم التي بقيت زمناً طويلاً لا تبرح مرحلة التأمل الضبابي .

ان العالم العربي كله تقريباً قد دخل في نطاق التجربة ، تجربة أهدافه وعقائده . ومن أبرز ملامح هذه التجربة توفر القطبين المتعارضين فيها دائماً . وإلى فـــترة قريبة كانت هذه التجربة واضحة في المعركة التي فرضتها الثورية العربية ، فهنالك الجانب الثوري المتحرك من هذا الواقع ، وهنالك الجانب المقاوم بمختلف مؤسسات الواقع الموروث المتفسخ .

ولكن نمو المعركة الثورية نفسها ، قد أوصلها إلى مرحلة أعلى من الصراع ، انتقل فيها الاستقطاب إلى داخل قواها ذاتها .

فبرزت من بين هذه القوى جوانب كان عليها ان تلعب دور الثورة المزيفة والثورة المضادة .

وهذه المهمة السلبية نفسها ، قد أثرت على الطرف الأصيل الآخر من الثورية ،

بأن جعلته يفجر أعمق أمكانياته البناءة ليثبت جـــدارته وفهمه للواقع المتغير ، وقدرته على استنبات المشاريـع الثورية في أرض هذا الواقع نفسه ، ومن مادتـه المضادة ذاتها .

ان الثورة المضادة هي التي تنشيء مواقع الرجعية في قلب الثورية التقدمية . هي التي تدعي العمل من أجل أكثر الأهداف تقدمية وجـــذرية ، وفي الوقت نفسه تبتكر مختلف وسائل إجهاضها والقضاء عليها .

وهي التي أخيراً من مهمتها ان تستخدم هذه الأهداف للمزايدة ، عندمـــا تعظم التجربة الأصيلة في نموها ونجوعها يوماً بعد يوم. حتى يصل بها هذا الاستخدام إلى مرحلة الدفاع عن وجودها ، بأن تحول الأهداف الثورية الكبرى إلى عقوبات قومية واجتماعية تنزلها بأعدائها .

ولكن كيف تتحول قوة ثورية إلى صف الثورة المضادة ؟

ان الجواب على هذا السؤال يمكن ان نبسطه بالمبدأ التالي القائل : بأن كل مرحلة من نمو الثورية لها أداتها المنفذة ، وعندما تصر هذه الأداة على ان تبقى هي نفسها كأداة لمرحلة تالية أعلى تركيباً من السابقة ، فانها ستتحول إلى عقبة .

وإذا طبقنا هذا المبدأ الآن على مشكلة حزب البعث ، فاننا نتبين بسهولة، ان هذا الحزب قد انتهى دوره كأداة للثورة ، في سورية خاصة ، منذ ان تحققت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية .

حتى ان هذا الحزب نفسه ، قد أدرك انتهاء مهمته في ذلك الحين ، فأعلن حل نفسه بإرادته ، وبوعي قومي كامل من قبل قواعده ، بمعنى المرحلة الجديدة .

هذه المرحلة التي تتطلب نقل الأداة الثورية إلى أكبر قطاع شعبي ، بعـــد ان تحول النضال ، من مستوى الكفاح السلبي ، إلى الكفاح المشيد لدولة الوحدة والاشتراكية .

غير ان تراجع القـــادة بعد بضعة أشهر عن قرارهم ، ومحاولة اللحـــاق بشراذم الحزب المنحل، والاستنجاد بها ثانية، قد كشف حقيقة ذلك القرار التاريخي: ان الحل نفسه لم يأت نتيجة وعي موضوعي للتحولات الثورية ، ولا نتيجة تضحية

قومية او غيرها . بل ان هذا التراجع قد كشف ايضاً عما هو أبعد وأخطر ، عن تلك الانتهازية التي تحكمت بعقلية قادة الحزب . فكأنهم لم يؤلفوا ذلك الحزب منذ البداية ، ولم يقودوه إلا وصولية منهم للحكم والحكم وحده .

فعندما فتح باب الحكم أمامهم عريضاً في بداية الوحدة ، وبصورة لم تتح لهم من قبل ابداً ، تخلوا عن الحزب بسهولة عجيبة . وبرروا ذلك عقائدياً كالعادة بأسباب موضوعية ، صحيحة في حد ذاتها كل الصحة .

ولكن عندما تحققوا بعد أشهر قليلة ان حكم الوحدة لا يعني وصاية مطلقة على الشعب ، ولا تملكاً شخصياً لانتصاراته ، وأدركوا ان القسمة التي عرضوها على قائد الوحدة ، هي الشرك الذي فضح نواياهم الحقيقية ، لم يجدوا أمامهم غير طريق العودة الى الحزب ليستخدموه ثانية كقوة تخريبية ضد ما كان بناه هو نفسه .

غير ان الذي حدث هو ان أكثرية القواعد البعثية ، التي كان يقع على عاتقها دائماً عبء المعارك المتواصلة قبل الوحدة، والتي آمنت بثمرة هذه المعارك، المتجلية في دولة الوحدة، مع الشعور ببعض الأخطاء في اسلوب الحكم داخل الاقليم، هذه الأكثرية من القواعد الصادقة ، أصبحت بصورة عفوية قواعد أساسية للوحدة ولقائدها الحقيقي . ومنذ ذلك الوقت اندمجت في أوسع قاعدة شعبية وحدوية في معارك الانفصال الاول، والانفصال البعثي الجديد، المقود من قبل شرادم القادة الانتهازيين القدامى .

ومنذ الثامن من آذار وشراذم القادة تبحث عن القواعد بدون جدوى .

فلم تفز إلا بفئة من المنتفعين بمختلف العهود المتناقضة التي مرت على سورية ، فكانت لها قواعد مزيفة ، هي احسن ذخيرة للثورة المضادة .

وبحثت عن شعارت الحزب القديمة فرفعت هدف الوحدة ، وذبحت كل قواه في نفس الوقت .

وحان موعد الثورة المضادة مع الاشتراكية ، فاذا بها تتحول الى تدابير إرهابية تدخل في سلسلة أوامر الاعدام والضرب بالمدافع والسحل ، وتهديم

الجوامع والمدارس والأحياء الشعبية .

ولو نحن حاولنا ان نقارن هذه الاشتراكية البعثية المفاجئة ، المقترنة بأفظع جو إرهابي عرفه شعب سوريا، الذي تهدى إليه هـذه الاشتراكية بالقوة والحديد والنار ، لو قارناها من قريب،بكل من تجربتي الجمهورية العربية المتحدة والجزائر لأدركنا بصورة بديهية ، مدى الافتعال والديماغوجية السياسية والنية السيئة التي تختفي كلها وراء هذا التدبير الاعتباطي .

فبينما جاءت اشتراكية مصر نتيجة سلسلة من الانتصارات المنطقية المتنامية في الداخل ضد الاقطاع والبورجوزية، وفي الخارج ضد مختلف الأساليب الاستعمارية في الاحتلال والحصار الاقتصادي وحصار السلاح .

وبينما جاءت اشتراكية الجزائر ثمرة شعبية إيجابية كبرى لأعظم حرب تحرير في انسانية هذا القرن .

فان اشتراكية الشرذمة العسكرية (المبعثة) في سوريا ، تأتي في الحضيض من سلسلة الهزائم والكوارث القومية والاقتصادية، التي أنزلتها هـذه الشرذمة في شعب سورية ، بكل تصميم وعزم جنوني دام . ونجحت فيما لم ينجح فيه الاستعمار بأحلافه ومشاريعه طيلة عشرين عاماً من الاستقلال، بتحطيم مختلف القوى الطبيعية لهذا الشعب ، إلى حين قصير من الزمن .

وبينما قامت بتنفيذ مراحل الاشتراكية الواعية الهادئة ، القيادة الثورية لكل من شعب والجزائر ، القيادة التي كانت هي صاحبة مختلف الانتصارات العاملة التي أنجزتها برفقة شعبها عبر سنوات طويـــلة من الكفاح .. فان اشتراكية البعث المجهضة عن اشتراكية الوحدة والكفاح الوطني الشامل ، تنزلها اليوم بالشعب ، أكثر فئة انتزعت عداوة الشعب لها بمختلف الوسائل التي إبتدعتها العقائدية المزيفة.

وبينما تصبح الاشتراكية هي عنوان البناء الاقتصادي الشعبي للجزائر ومصر ، فان الاشتراكية الانتقامية البعثية، تأتي كضربة أخـيرة لبقايا القوة في الاقتصاد السوري المتهالك .

وهناك ، في مصر والجزائر ، ينمو القطاع العام ، وتخلق صناعات ومشاريع

بادارات شعبية وقواعد شعبية . وهنا في سورية المفجوعة تقترن الاشتراكية بنهب متاجر المتوسطين من التجار والحرفيين، الذين يؤلفون مؤونة الاقتصاد العفوي لسورية منذ أقدم العصور .

وإذا عرفنا انه لم يعد في سورية ثمة من مشاريع مالية فردية إلا النذر اليسير ، وهذا النذر اما انه في طريقه للافلاس والتوقف او انه انتهى منذ زمن ، فاننا نستطيع ان ندرك بسهولة مباشرة ان هذه التدابير الاشتراكية ، ليست سوى تدابير بوليسية بكل معنى الكلمة . وانها موجهة لضرب اقتصاد الطبقة الوسطى ، لافقارها نهائياً ، وتجريدها من مقومات وجودها الاقتصادي والقومي ، المتبقية لها .

والحقيقة فان هذه الطبقة المتوسطة من تجار ومهنيين وأصحاب حرف ومشاريع صغيرة محدودة ، هي التي تؤلف بنية المجتمع المدني لسورية ، وهي التي كانت جزءاً طبيعياً من الطبقة الواعية من المثقفين والموظفين ، والتي كانت تتحمل باستمرار أعباء الثورات والهزات والنكسات السياسية والاقتصادية .

وان الاجهاز عليها اليوم يأتي كحلقة أخيرة من مشروع القضاء على مختلف أشكال المقاومة الشعبية في سورية ، بعد ان خيل للشرذمة العسكرية المتبقية ، انها قد قضت على مقاومة العمال والمثقفين في معارك الوحدة والانفصال عبر الأشهر الماضية .

وجاء دور التجار الصغار والحرفيين والمهنيين اليوم ، تحت ستار المعركة ضد الرجعية ، ومن أجل هذه الاشتراكية البوليسية .

والشيء المريع الذي يلح باستمرار على كل من يراقب تصرفات الشرذمة العسكرية المتبعثة وذيولها المدنية منذ ثورة الثامن من آذار المجهضة ، هذا الايغال العنيد في حلقات من التدمير المتواصلة لمختلف قوى الشعب السوري .

وكانت هذه الحلقة الأولى التي ابتدأت وما تزال تستمر ، تتناول بالتخريب كل ما كان قد بناه لجيش السوري من قوى انسانية مدربة .

فاذا بمئات الاختصاصيين بفنون عسكرية دقيقة مختلفة ، والذين تلقوا

التدريبات في أفضل الكليات العسكرية في أوروبا، وكلفوا الدولة الملايين من الليرات عبر دورات متتابعة، توجه إليهم أضخم حرب تشريد وتسريح وتقتيل واعتقال، مدروسة أحسن درس. كأنهم ضباط في جيش للعدو.

ثم تتبعها حلقة الحملة على أجهزة التعليم تحت اسم التطوير العقائدي طبعاً، فعمل البعث كل ما من شأنه تنفير الأساتذة وإبعادهم وتشريدهم، وإخضاعهم لكافة التدابير الزجرية. ونال جهاز الجامعة من هذه الحملة النصيب الكبير. ففرغت فروع كاملة من الكليات، بل كليات كاملة من أساتذتها المختصين. وتحطم التعليم الثانوي وفقد كذلك أكبر عدد من المدرسين المتمرسين الذين فضلوا العمل في أقطار عربية أخرى. وتسلم أمكنتهم الطلبة الجامعيون غير المدربين لا علمياً ولا تربوياً. وكان أكثرهم من المنتفعين المتبعثين.

وكذلك توجهت الحملة نحو الاخصائيين الآخرين الذين تقوم عليهم الحياة اليومية لكل أمة، كالمحامين والمهندسين والأطباء وذوي الخبرة في الصناعة والتجارة. فانطلق هؤلاء بعد ان سدت أمامهم امكانية العمل وأجواء الحرية العادية، في دفعات متوالية من الهجرة إلى لبنان والأقطار العربية الأخرى. وكذلك فعل الفنانون والأدباء وكبار المثقفين إلى جانب القادة السياسيين.

واما أجهزة الدولة فقد شلت شللاً كاملاً بالقرارات الادارية المتناقضة، وعمليات التسريح والنقل والاعتقالات والضغط والمراقبة التي خضع لها الموظفون.

وهكذا لم يترك البعثيون الجدد إذن وسيلة لتحطيم جميع قواعد الحياة الطبيعية في البلاد، وتهجير ذوي الامكانيات المالية والعلمية والاختصاصية والفكرية، وخلق جو الرعب والارهاب الشامل، إلا واتبعوها بعبقرية عقائدية خارقة، شهد لها هذا الفراغ الهائل الذي جوف الوجود اليومي للشعب.

وتأتي أخيراً مهزلة القرارات الاشتراكية الهوجاء، التي أصدرها أمين الحافظ من وراء الدبابات والمصفحات، كرد (تقدمي) على معركة سورية كلها ضده وضد نظامه الفاشي.

ان اختراع هذه التغطية (التقدمية) للفشل بدأت في تقاليد البعث الجديد

منذ ان أنهى حكمه المراهق الدامي في العراق ، فاخترع المسؤول الأول عن هذا الفشل (علي صالح السعدي) ، هذه التغطية الاشتراكية ، ليصوّر هزيمته بأنها استشهاد اشتراكي أمام الرجعية خارج الحزب ، واليمينية داخل الحزب .

وما زال البعث السوري ، وهو يواجه مأساة النهاية ، يتمسك من جديد بهذه التغطية . وكل المناقشات والدراسات الموضوعية والتحليلية العلمية التي تبادلتها الأجنحة المتشرذمة منذ المؤتمر السادس والسابع ، ما زالت تتجاهل السبب الأصيل والوحيد والبديهي لكل أزمة الحزب وكوارثه على نفسه وعلى الأمة معه .

انه سبب خيانة الأمة منذ صعود الحزب على أكتاف الجماهير وسرقته لثورتي شباط وآذار في العراق وسورية، ثورتين من أجل الوحدة الاشتراكية الحقيقية .

هذه الخيانة وحدها ، وهي الكافية طبعاً ، هي التي دفعت الحزب الحاكم إلى موقف العدو الدائم للشعب المحكوم ، والذي لا يجد وسيلة للدفاع عن وجوده إلا بعداوات متتابعة أخطر وأبعد مدى .

ولكن وقت الحساب قد دنا على يد الشعب نفسه الذي ادعى الحزب تمثيله والحكم باسمه . ولن تنفعه أية اشتراكية انتقامية جاءت بعد فوات الأوان .

لقد شهد شعب سورية من قبل سقوط كثير من الأحزاب والفئات المنحرفة، ولكنه سيشهد قريباً أفجع سقوط لبقية حزب ، كان لها أفجع صعود على حطام الآمال الجماهيرية .

٣ — عودة الى البيطار

لقد استقبلت عودة البيطار الى الحكم في سورية بمختلف التفسيرات والتحليلات . وكان البعثيون أنفسهم او بعض أجنحتهم على الاقل ، يبشرون بالبيطار واعتداله وتسامحه ، وحنكته السياسية .

ثم كان للتصاريح المبدئية التي أطلقها البيطار ذاته في مطلع عهده ما يؤكد هذا الميل الى الاعتدال ، وأخذ الامور من أوسطها ، لا من طرفها اليساري ولا من طرفها اليميني . وبمعنى آخر ، تجميد مختلف المشكلات الخطيرة التي تراكمت عبر

رحلة الحكم البعثي وتخبطاته وتناقضاته .
ولكننا إذا تذكرنا اللحظة التي جاء فيها البيطار مجدداً للحكم ، والشكل الذي تم فيه تأليف وزارتـــه ، وللعفنة من التصريحات المهدئة التي نثرت ذات اليمين والشمال، لأدركنا المهمة الخاصة التي على هذه الوزارة تنفيذها. انها بكلمة مختصرة وزارة انقاذ .
ولا يتحقق هذا الانقاذ إلا بالمداراة ، لا بالمواجهة الصريحة . والمداراة تعني تضييـع حدود المعركة الداخلية في سورية ، وإكساب السلطة مزيداً من الوقت لتجديد قواها ، وتحصين مواقعها الأولى ، التي لن تتنازل عنها قيد أنملة واحدة .
وما أشبه اليوم بالأمس . فقـــد تألفت في أعقاب ثورة حلب الفاشلة وزارة (بشير العظمة) ، في لحظة انهيار موقت للانفصال وانفتاح الطريق امام احتمالات معاكسة له .
ان وزارة البيطار اليوم ، تناظر وزارة (بشير العظمة) قبل سنتين تقريباً ، وتشبهها في نقاط كثيرة تدعو الى التفكير والتأمل .
فنقطة التشابه الأولى هي ان كلا الوزارتين ، قد جاءتا في أعقاب مفصل حاسم مر به كل من الانفصالين ، الرجعي و (الثوري العقائدي) ، وكان هذا المفصل ضربة قاسية لأسس الحكم الانفصالي في عهده الاول والثاني .
وبالرغم من إجهاض ثورة حلب ، وتجميد مقررات مؤتمر حمص العسكري الذي أعقب تلـــك الثورة – وكان ذلك كله بفضل بعض الضباط العمرانيين والحورانيين معاً – فان هيبة الانفصال قـد قضي عليها . وانفتح الطريق واسعاً مرة اخرى أمام القوى الناصرية لتطويق العهد والاجهاز عليه في جولة ثانية .
وكذلك جاءت وزارة البيطار بعد ان خاض الحكم البعثي أكبر محنة مـــع الشعب السوري في ثورة حمـــاه والاضطراب الشامل ، وعودة مختلف الأخطار (الوحدوية) لمواجهة السلطات ، وتهديدها بالنسف النهائي بين وقت وآخر .
ونقطة التشابه الثانية ، هي في نوع تركيب كل من الوزارتين . فقد كان (بشير العظمة) يعتبر من الرجال (الطيبين) و (المعتدلين) ، والمرضي عنه من

قبل الفئات الوحدوية (المعتدلة) . وكان البعث العفلقي حينذاك محسوباً على الصف الوحدوي في جهته المعتدلة ، حتى ان (العظمة) قد دخل في حوار طويل مع زعماء الجناح اوحدوي البعثي آنذاك لاشراكهم في الحكم معه ، مدفوعاً في ذلك من قبل صديقه (صلاح الدين البيطار) نفسه ، ومؤيداً بتشجيعه ومساندته الخفية والعلنية .

ومن غرائب الصدف أيضاً ان يشترك الدكتور (عبدالله عبد الدائم)في وزارة العظمة ، ويشترك اليوم في وزارة البيطـــار ، ويشغل نفس المركز الوزاري في كليهما ، وهو وزارة الاعلام . وكما حاولت حكومة (العظمة) ان تظل على علاقة ظاهرية بالمعارضة البعثية في ذلك الوقت ، لتوحي للجماهير بذلك الطابع الملتبس من الوحدوية والانفصالية في نفس الوقت ، كذلك فان حكومة البيطار ستجتهد في إقامة جسور من الغزل بينها وبين بعض من كانوا من قادة الوحدويين الاشتراكيين. لعلها بذلكقد تكسر طوق العزلة حولالانفصال البعثي ، وتصبغها بميل ظاهري جديد نحو الوحدوية (المدروسة) .

ونقطة التشابه الثالثة بين وزارتي العظمة والبيطار هي في الهدف المرحلي الذي جاءتا لتحقيقه ، في نفس الظروف المتشابهة والغايات المتقاربة ايضاً .

انه هدف التمييع تحت ستار الاعتدال . وهدف تنفيس النقمة الشعبية تحت ستار تنقية الجو العربي .

وكما سمع النـــاس على لسان حكومة العظمة كلمات التقرب الى (مصر العزيزة) آنذاك ، فاننا نسمع اليوم على لسان البيطار نفسه نغمة (تنقيــة الجو العربي) ، بل وأكثر من ذلك فانه يعلن عن عزمه في السفر إلى القاهرة ، وإحياء ميثاق السابع عشر من نيسان .

ومن ناحية أخرى فان البيطار مستعد ايضاً للتفاهم مع البورجوازية الغاضبة التي أثبتت خلالالاضراب الاخير قدرتها على المقاومة. فيطرح عليها حواراً جديدا أساسه (الاشتراكية المدروسة) بدلاً من اشتراكية الأوامر العرفية الموجاء -

وبهذه المناسبة ، من المفيــد ان نذكر ان حكومة العظمة كانت من اول

المبشرين بفكرة (الوحدة المدروسة) بدلاً من (الوحدة الفورية) .

وللذكرى فقط . فلقد كان لتلك الحكومة ايضاً شرف طرح مشروع الوحدة الاتحادية ، الذي وضعه البيطار منذ ذلك الوقت .

وما فشلت فيه حكومة العظمة ، نجحت فيه حكومات البعث المتتابعة بعد الثامن من آذار . ففرضت الوحدة المدروسة ، واستبدلت الوحدة الحقيقية بمشروع الوحدة الاتحادية ، ثم خلقت الصراع المزيف داخل القوى الوحدوية .. ومهدت لتصفية نهائية للوحدة والوحدويين .

كل ذلك للذكرى فقط . وكل ذلك يوحي به هذا التشابه العجيب بين ظرفي وزارتي العظمة في الأمس والبيطار اليوم .

ولكن الجديد في وزارة البيطار ان التناقضات القائمة بين السلطات القابضة على الحكم وما وراء الحكم ، تكاد تكون هي العقبة الكبرى التي سوف يصطدم بها البيطار واعتداله . وعليه قبل ان يشرع في مد جسوره الى الأطراف الأخرى ، ان يبدأ في حل المستحيلات التي يتخبط بها العهد البعثي من داخل صفوفه ، قبل ان تكون من خارجها .

ولكن هل يستطيع البيطار ان ينهض فعلاً الى مستوى التصدي لهذه المستحيلات . ام هل جاء هو حقاً من اجل ان يحل مشكلة واحدة على الاقل .

ان شخصية البيطار وماضي مواقفه السياسية ، ومركزه بالنسبة للقوى الحاكمة العسكرية ، ولأجنحة الحزب وشراذمه المتصارعه ، كل ذلك لا يتيح له أي قدر من الامكانية على تنفيذ هدف من أهداف الاعتدال المزعوم . بل ان مصير هذا الاعتدال هو إلى العجز والفشل ، والفرار بالنفس في اللحظة المناسبة .

والحقيقة ان الاستاذ صلاح – كما اعتدنا ان نناديه دائماً كبعثيين قدامى – كان ذلك الرجل (الطيب) الذي يعرف الخير ، ولكنه يعجز عن تنفيذه في الأوقات الحاسمة ، ويرى الشر ، ولكنه يفشل في التصدي له . ولذلك لم ينجح مرة في إعلان موقف واضح والتمسك به إلى النهاية . بل كثيراً ما كانت الظروف تتحكم بمواقفه ، وتسوقه إلى ان يقف في صف كان يعارضه من قبل . ولا بأس ان ينتقل

مرة اخرى إلى صف آخر وهكذا .

ولقد كان لنموذجه الغريب ذاك دور دائماً في توجيه الحزب ، وفي تراكم عقده وتشابك مشكلاته. حتى اقترن تاريخ الحزب بتاريخ البيطار الشخصي، كما اقترن كذلك بشخصية عفلق ، والحوراني فيما بعد .

ويمكن القول ان تاريخ الحزب ، هو تاريخ هذه الشخصيات الثلاث ، بما تحمل من أفكار ، وما لها من عقد نفسية ، ومواقف سلوكية . ولقد تحكمت أمزجة هؤلاء القادة دائماً في سير الحزب ، من فوق جماهيره ومثقفيه . وفرضت عليه ذلك الخط المتعرج ، المتردد ، وكانت ثمار النجاحات القليلة هي لهؤلاء القادة وأتباعهم . ومسؤوليات الفشل والنكسات هي لجماهير القاعدة، ومثقفيه المتحررين .

ودون ان ندخل في تفاصيل هذا التيه من العلاقات ، بين أطراف الثالوث القيادي، وأثر هذه العلاقات على تكوين الحزب وعقيدته ونضاله وانحرافاته ، فاننا نكتفي باستعراض سريع لذلك الدور (المعتدل) الذي كان يلعبه البيطار باستمرار .

فيوم كان الصراع بين الحوراني وعفلق قبل الوحدة ، كان عمل البيطار هو التوفيق بين القطبين ، فيفرض على شقيقه الروحي عفلق الخروج من أزمة (الحرد) ليعود الى (نشاطه) في الحزب - ونشاطه هو قراءة الصحف في مقر الحزب واستقبال بعض الأصفياء والتفجع من اللاأخلاق واللاأخلاقيين في عمل الحزب وسياسته .. - وينجح مع الحوراني في رد شيء من الاعتبار والاحترام الى (الاستاذ) فيتظاهر بالتودد إليه واسترضائه عن طريق مشاوراته في بعض الأمور السياسية ، والاستماع الى نصائحه (العقائدية) .

ولكن (الحوراني) الذي كان في المركز دائماً من أعنف العواصف السياسية والانقلابية التي كانت تجتاح كواليس المجلس النيابي، وقيادات القطعات العسكرية، لم يكن مرة لينتظر نصائح الفيلسوف المعتكف وراء كوم الصحف . بل كان كثيراً ما يجعله موضع تندر وتفكهة مع خلانه وأصفيائه . ولكن البيطار الذي آمن منذ البدء بأن العقيدة سياسة أولاً ، كان يجد نفسه أقرب الى الحوراني ، دون ان يهجر صديقه الروحي نهائياً ، عندما يعجز عن التوفيق بين قطب التأمل ،

وقطب العمل والمبادرة ، غلق وراء كوم الصحف الصفراء ، والحوراني بين الكواليس من كل مسرح .

وعندما تحققت الوحدة ، كان للثلاثة أيضاً ثلاثة مواقف ، ولكنها انمحت كلها أمام تصميم العسكريين ، واتفقوا لأول مرة على حل الحزب . ثم اتفقوا أيضاً على الانسحاب من حكم الوحدة ومحاربتها ، ولكن كل منهم بأسلوب، يتفق وحزاجه.

والبيطار كان في منزلة بين المنزلتين ، إلى ان وقع الانفصال . فدعا في اليوم الأول إلى مقاومته، ثم وقع وثيقة الانفصال مع الحوراني. وندم في اليوم الثالث. وبعد ان فشل في الانتخابات ، أصبح البيطار (ناصرياً) . وسامحته جماهير دمشق، وأعادته إلى صفوفها الوحدوية. حتى عندما راح الحزب العفلقي يعيد تنظيم صفوفه تحت إشراف لجنة عراقية ، استبعد البيطار لحجة ظاهرية وهي انه وقع وثيقة الانفصال ، وأما السبب الحقيقي فهو اتهامه بالوحدوية إلى درجة الناصرية . ولقد ظل البيطار خارج الحزب حتى بعد الثامن من آذار ، أو على الاقل خارج قياداته العليا .

ثم ما لبثت ان سيطرت عليه أوهام امبراطورية البعث . فراح يدعو فجأة إلى ضرورة ان يقود الحكم الحزب وحده ، وإلى ان تقوم تجربة بعثية جديدة خارج خط القاهرة . وهنا تتداخل مواقف البيطار مع مخططات الحزب بين الثامن من آذار والثامن عشر من تموز ، إلى ان يعلن في عشية ذلك اليوم المشؤوم شبه إلغاء لميثاق ١٧ نيسان ، باستعباد الفئات الوحدوية التي اتهمها بالاشتراك في الانقلاب .

واقترن اسم البيطار كرئيس للوزارة بكل فصول تلك المرحلة الدامية الرهيبة التي عاشتها سورية بعد الثامن عشر من تموز .

ومهما يكن من أمر احتجاجاته الخاصة ، او نصائحه بالكف عن الارهاب ، أو اعترافاته لبعض الناس بأنه كان دائماً ضد الخط العسكري السائد، وانه مغلوب على أمره ، وانه لا يملك من شؤون الحكم إلا التوقيع ، فلقد كان البيطار أحد ألوان الصورة الدموية للحكم الارهابي العنيف الذي لم تعرف سورية في أحلك عصور الاستعمار ، مثيلاً له ، على يد شرذمة من أبنائها ، من الثوريين والعقائديين .

ولو ان البيطار كان حقاً من المعارضين جزئياً للخط الارهابي الانفصالي الذي اختاره الحزب وبارك ميشيل عفلق ، لما استطاع ان يمنعه احد من الاستقالة ، ومن إعلان موقفه الصريح ، ولو كلفه هذا بعض (النضال) .

ولكن (الحزب) كافأه بابعاده عن القيادة القطرية ثم القيادة القومية ، بل رشحه للفصل النهائي قبل المؤتمر السابع . ثم ها هوذا يعود ثانية ليتصدر الحكم البعثي ، في فترة مشؤومة أخرى ، من تاريخ معاركه الدامية مع مختلف فئات الشعب .

فماذا يأمل البيطار من حزبه ، من الجماهير ، من القوى الوحدوية ، ومن القاهرة أخيراً !

والبعثيون عندما يشاؤون يقربون الجماهير منهم ويتملقونها ، ويمحون بقدرة قادر جراحاتها ، ويجعلونها تعفو عن جرائمهم ، وتنسى آلاف المعتقلين والمشردين .

وهم عندما يشاؤون ، يأتون بالمنظمات الوحدوية ، يستدعون بعض قادتها من المنفى ، ويفرجون عن قادة آخرين ، ويسترضونها بفنجان قهوة ، وكلام معسول ، واعتذار عن كل (المشاق) السابقة الناتجة عن سوء تفاهم وضرورات الأمن ويذكرونها انهم حزب وحدوي ، وان الحزب الذي اقام الوحدة في يوم من الايام ، وانه ما زال يؤمن بالقاهرة وقادتها .. إلى كل تلك المعزوفة التي كررها أقطاب البعث منذ ثورتهم المجيدة ، حتى في أقبية سجن المزة ، وحتى على رؤوس المعتقلين والمصلوبين والمعذبين .

ومن الغريب انهم ما زالوا يؤمنون بأنهم في كل حين قادرون على التفاهم مع هذه المنظمات . وانهم قادرون ايضاً على استرجاع الوحدة مع القاهرة .

وانه بمكنهم بمجرد الاعلان عن رغباتهم تلك ، حتى تتحقق هذه المعجزات ، دفعة واحدة . ويسدل الستار عن أكبر مأساة عاشتها القضية العربية على يد أقطاب الثورية والعقائدية .

أليس هذا من أخطر اعراض (المراهقة السياسية) التي ما زال يمارسها للأسف الشديد حتى شيوخ البعث أمثال البيطار .

انه لم يأت وقت من قبل ، كوقتنا الحاضر هذا ، فيه تفجرت ازمات البعث كلها ، وأمراضه وعقده القديمة ، مثلما يحدث لها اليوم . وان إيجاد الحلول لهذه الأزمات والامراض والتناقضات الذاتيـــة لا يمكن ان يتحقق إلا بالطريقة التي تنادي بعض من تبقى من العقلاء بين صفوف البعثيين أثناء ازمة الاضراب الاخير ، من اجل تنفيذها . إلا وهي : انسحاب الحزب من الحكم .

تلك هي (البطولة) الاخيرة التي تتحدى اليوم تراث (البطولات) البعثيـة القديمة . فهل يرتفع (الحزب) إلى (مستوى الأحداث) ويعرف طريقه الأخير !

أما محاولة البيطار لجذب المنظمات الوحدوية ، فانهـا لن تنجح إلا في جذب بعض (المتعاونين) . وعند ذلـــك ، فان هؤلاء المتعاونين الذين أتعبهم النضال وطول انتظار لفرص الحكم ، لن يفيدوا الحكم المنعزل الانفصالي بشيء ، بـــل سيضاعفون من نقمة القواعد الشعبية على أساليب الاغراء الجديدة التي يتبعها الحكم من اجل الايقاع ببعض النفوس الضعيفة .

ولذلك فان المنظمات الوحدوية التي خاضت ضد البعث أفجع المعارك ، وضحت بالمئات والالوف من أعضائها ، فكان نصيبهم السجون والمعتقلات والتشريد ، لم تعد تنظر إلى البعث ، كما لو انه ما زال تلك المنظمة الوحدوية التي تطلب الحوار والتفاهم مع مثيلاتها من المنظمات .

لقد انتهى ذلـك العهد الذي لعب فيه البعث أدوار المساومات والتواطؤات ومختلف صور الخداع السياسي ، مع ممثلي المنظمات الوحدوية ، لفرض كسب الوقت ، والسيطرة على الجيش فلم يكن البعث حتى الثامن عشر من تموز ، قد تلوثت يداه بالدم بعد ، ولم يكن قـد بدأ بشن أفظع حرب جماعية لإبادة قوى النضال الوحدوي في البلاد ، ولم تكن عبقريته ومثاليته قد تفتقت بعد عن مختلف الأساليب الفاشية في الكذب العلني والتحايل على الأهداف ، وعمل كل ما مـــن شأنه تجريد الثورية العربية في سورية من كل مكتسباتها في القضاء على الطائفيـة والاقليمية والانتهازية . فأحيت (ايدلوجية) الحزب الجديد كل هـذه الجثث من مقابرها ، واستعملتها لغرض واحـــد هو تمكين بعض العسكريين الحاقدين

والسياسيين المهووسين من الحكم ، وإبعاد شبح الوحدة ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

لقد استنفد حكم البعث كل مقومات الشرعية وأدناها من عين الشعب ، فأصبح الدخول معـه في أي حوار ، وحول أي موضوع ، نوعاً من التآمر على نضال الشعب ، وإجهاضه ، وإفساح المجال ليتهرب المسؤولون من مسؤولياتهم ، وإبعاد يوم الحساب عنهم .

امام هـذه المستحيلات تنهض وزارة البيطار بأضعف الامكانيات ، بأقل السلطات ، بأتعس المطامع ، ومـن خلال ظروف النهاية الأخيرة ، وفي لحظة الانعطاف الحاسم نحو الهاوية .

وراءها حصون العسكريين وقلاعهم ومتاريسهم ، تقوم في وجه بعضهم بعضاً في حرب صامتة من الشكوك وتبادل الاتهامات والتربص والتحفز .

وراءها كذلك أصابع المخابرات الأجنبية تحرك قوى الظلام ، وتضع الشباك امام أي درب ، وتهيء الإجهاض لأي حمل .

وأمامها ذلك البحر من الدم والارهاب والثارات يفصلها عن صفوف الشعب الصامدة المتراصة على أقوى نضال ، وأعمق تفاهم ، تنتظر وتنتظر الساعة المحتومة .

ومن العجيب بعد ذلك ان يقف البيطار في أعماق الهاوية وينادي ، ينادي على احلام الأمس الدامي .

ولا من مجيب إلا الصمت في قبور الشهداء ، وأعماق الزنزانات ، وبيوت العائلات الثكالى ، وفي المعامل ، والمدارس والحقول ، حيث كل النـاس هناك يتآمرون وهم متآمرون حقاً . ومؤامراتهم الكبرى هي تحرير سورية من احتلال الانفصال والانتهاز والارهاب وبقايا الطائفية وتجار الثورية والمراهقة السياسية الدامية .

٤ – انسحاب حزب البعث من الحكم

لقد أصبح معروفاً ان التطور الكبير الذي أصاب تكوين حزب البعث بعد الثامن من آذار ، هو انه أضحى حزباً اسمياً تختفي وراءه طائفة من العسكريين

الطموحين . بعضهم كان قد تسجل في الحزب عندما كان طالباً في مرحلة الدراسة الثانوية ، والبعض الآخر وهو الأكثر ، هو حزبي « مستجد » حسب التعبير العسكري ، دفعته الطائفية او الوصولية الى رفع الشعار الحزبي والمزايدة عليه ، حتى بالنسبة للحزبيين القدامى .

فالبعث الجديد هو « حزب عسكري » إذن بكل ما يعنيه هذا المصطلح في اللغة السياسية واللغة اليومية . انه حزب عسكري بتكوينه الذي تغطيه غالبية عظمى من الضباط وصف الضباط ، وبعقليته الفاشستية ، التي برهن الحزب عليها، في جميع تصرفاته السياسية والارهابية .

والسؤال الذي قد يطرحه انسان خارجي : وأين قواعد الحزب من فلاحين وعمال ومثقفين ؟

والجواب السريع ، هو ان الحزب قد تصفّى داخلياً عبر مرحلة طويلة ، منذ ان أعلن قادته في سوريا حل منظماته رسمياً في مطلع وحدة عام (١٩٥٨) -

تصفى بفعل التشرذم والتجنيح والتبعثر اللامتناهي الذي أصاب قياداته في صفوفها الأولى والثانية والثالثة .

اما الغالبية العظمى من القواعد الشعبية فقد تبعت التيار القومي الغالب الذي يقوده جمال عبد الناصر . ولذلك فان هذه القواعد بقيت بعيدة عن الخضوع لظاهرة التجنيح والتشرذم التي انحصر مفعولها الخبيث في الطبقات العليا من القادة، أي من المثقفين خاصة .

ان أهم انقسام عاناه الحزب يرجع تاريخه الحاسم ، الى يوم تخلى زعماؤه عن المشاركة في حكم دولة الوحدة وانصرفوا الى تهديم الوحدة وإعداد الانفصال بطرق مختلفة . فمنذ ذلك التاريخ فصلت الغالبية العظمى من القواعد نفسها عن القيادات ، وتبعت جناحاً وحدوياً يسارياً من القادة الشباب الذين استمروا في دعم الوحدة داخلياً . وشكل هؤلاء نواة حركة « الوحدويين الاشتراكيين» التي لم تأخذ اطارها الحزبي الا في الأشهر الأولى من وقوع الانفصال الرجعي الاول .

واما الصفوف القيادية العليا الأخرى ، فلقد عانت أول تجنيح تفجرت من

خلاله أزمة الحزب التقليدية ، وهو جناح أكرم الحوراني ومدرسة السياسة الانتهازية ، وبالمقابل جناح عفلق في مثاليته الواهمة العاجزة .

وانكشفت انفصالية الحوراني الرجعية عقب ٢٨ أيلول مباشرة ، وأصبحت هي الواجهة « العقائدية » لرجعية الانفصال الأول .

وبين عفلق والحوراني وقفت فئات قيادية قديمة فضلت اخفاء هويتها السياسية، وراحت تلعب على الحبلين، وتترقب الناجح الأول لتدعمه ، ثم تتخلى عنه مباشرة، لتلحق بالغالب الجديد .

وعندما ضرب العسكريون ضربتهم في اغتيال ثورة آذار من الخلف ، كانوا مضطرين للاختفاء وراء الجناح الذي لم تفتضح انفصاليته بعد بصورة نهائية . وكان هو جناح عفلق ..

وكان لعفلق عدة مزايا بنظر هؤلاء العسكريين . منها سمعة عفلق التي استطاع صاحبها ان يحيطها بهالة من الغموض والصوفية ، ويبعدهـا ما أمكن عن جو الفضائح السياسية التي شوهت سمعة صديقه اللدود أكرم الحوراني ، عبر سلسلة من المغامرات أطاحت بصاحبها أخيراً إلى الحضيض ، وعرّته من مختلف مظاهره العقائدية ، ووضعته في مكانه الأصلي بين السياسيين المحترفين والمأجورين .

ومن مزايا عفلق مثاليته المبطنة بالعجز الفكري والفيزيولوجي ، والتي تسهل للعسكريين توجيهه وقيادته كواجهة خادعة أطول فترة ممكنة .

وأهم هذه المزايا أخيراً ، هو هذا الطموح المكبوت المعجون بحقد معقد اثر خيبات متوالية ، شلته ووضعته على هامش الحزب والسياسة السورية ، منذ ان احتكر الحوراني دفة السياسة والجيش معاً فترة طويلة قبل قيام الوحدة .. ومنذ ان وضعته زعامة عبد الناصر في الصفوف الخلفية من القادة نهائياً .

ثم ان العسكريين « المتبعثين » الجدد يدركون ان وجود عفلق إلى جانبهم ، سوف يبقي على الصفة الحزبية لحكمهم ، ولو ان الحزب الأصلي ، قد انضمت قواعده إلى التيار الشعبي العام في اتجاهه الناصري ، ولو ان قياداته الأخرى قد تبعثرت بين حوراني ، وانعزالي ورجعي يميني ...

لقد خسر عفلق كل شيء ، إلا صفة كونه هو البعث ، ولو كان لوحده . وتلك هي كل أوراقه التي لعب بها مع عسكريي الحزب بعد الثامن من آذار .. إلى ان شعر هؤلاء العسكريون ان عفلق قد استنفذ حتى في هذه « الصفة » التي تبقت له . وانه قد تحول إلى « وصمة » جديدة دائمة لحكمهم .

ثم غدا عفلق أخيراً عقبة « عقائدية » في وجه تعاون الحكم بصورة سافرة مع الحوراني ، الذي هو السبيل الأخير المتبقي للانقاذ .

والحوراني ، يشترط من الأساس تحقق شعار المصالحة الوطنية ، في شكل « تجمع » للقوى .. الوطنية. بمعنى آخر ، ان مختلف القوى المعادية للوحدة والاشتراكية ، والتي تحالفت فيما بينها ، والتي قبلت بزعامة أكرم الحوراني عليها ، تطالب بشرط اول الدخول في أي حوار مع عسكريي الحكم الفاشستي المعزول ...

هذا الشرط هو سقوط صفة حزب البعث نهائياً عن الحكم .

وبذهاب عفلق ، تنقضي الاسطورة ، ويزول شبح هذا الحزب ، ويحمل معه جميع أوزار وجرائم تلك التجربة العقائدية ، الفذة .

وهكذا تجتمع أخيراً ، مختلف العوامل الموطئة لاعلان « انسحاب حزب البعث » من حكم سوريا ، تاركاً الطريق منفتحاً أمام مختلف قوى اليمين السياسي والاقتصادي .

ان اليمين الرجعي الذي أفادته « الثورة المضادة» بفاشيتها وارهابها المدروس، وفي تأخير جولة الوحدة زمناً أطول ، فانه يطالب اليوم بتسلم الدور من يد الحكم الفاشي ، واضعاً نفسه بمثابة « الحل الأعلى » لتناقضات الحكم ، والحل الوحيد وسبيل الانقاذ .. وإلا فان « الجميع » ستطوح بهم الثورة الأصيلة ، التي اتحدت قواها من جديد . وكان « الاتحاد الاشتراكي العربي للاقليم الشمالي » هو الذي سيحدد شكل وتوقيت المعركة الفاصلة المنتظرة في سوريا .

ولكن حكومة البيطار قبل ان تسقط ، تأمل في ان تستمر في فصل أخير من مهمة التغطية وكسب الوقت ولذلك فهي تجعل من نفسها بمثابة الامل النهائي

من أجل فتح حوار ما مع أي « طراز » ممكن من الوحدويين .

وعندما يئست من بعض قادة « الوحدويين الاشتراكيين » الذين وضعوا انفسهم خارج خط الحركة المعلن عنه في المؤتمر القطري الثالث ، وتجاهلوا إعلان الحركة عن حل نفسها ، واندماجها مع بقية المنظمات في «الاتحاد الاشتراكي» .. فان حكومة البيطار تسعى مجدداً لإقامة جسر مع بعض وحدويين آخرين ينتمون الى « الجبهة المتحدة » التي أعلنت هي ايضاً عن حل نفسها .

كل ذلك يدل على ان الحكم العسكري في سوريا ، ما زال يأمل في تغطية تشكيلته في « التجمع الوطني » ببعض الوجوه الوحدوية .

ولكن هذا الحكم لم يقتنع بعد بأن « تعاونه » مع أفراد وحدويين ، لا يعني تعاونه مع المنظمات الوحدوية خاصة وان هذه المنظمات قد اندمجت اليوم في تنظيم شعبي واحد ، يخضع لقيادة مكتب سياسي واحد ايضاً .. أعلن في بيانه حرباً حاسمة قاطعة لا تهدأ إلا بسقوط البعث جملة وتفصيلاً ، بواجهاته العقائدية المتبقية ، وبجذوره العسكرية الفاشية ، وخلفياته الاستعمارية .

ان « التجمع الوطني » الذي سيقوم كرد على تأليف الاتحاد الاشتراكي العربي ، هو الستار الجديد ، البديل عن ستار حزب البعث ، الذي هو في طريقه الآن الى استكمال انسحابه من الحكم ، بعد ابتعاد ممثله « الشرعي » عفلق » عن الحكم والبلاد معاً .

والعسكريون الانفصاليون القابضون على زمام الأمور ، هم اليوم على أعتاب مغامرة جديدة لخدمة الغاية الواحدة القديمة ، وهي الابقاء على نفوذهم ضمن خط الانفصال ، وتحطيم وحدة الثورة العربية .

غير ان مغامرتهم الجديدة ستكون محفوفة بالمخاطر . فمن جهة أولى لن يرضى أكرم الحوراني ببقاء ضباطه الكبار خارج الجيش ، او بعيدين عن المناصب الحساسة فيه . وكذلك فان الحوراني لن يقنع بنفوذ صوري في الواجهة كحال عفلق . فهذا الرجل قد اعتاد دائماً ان يسخر الآخرين لأهدافه الشخصية .. والجيش كان دائماً أداة رئيسية لتنفيذ مناوراته السياسية . ولذلك فان الحوراني يهدد

العسكريين المتبعثين ، والطائفيين خاصة منهم ، بزلزلة مراكزهم داخل قلاعهم ذاتها ، إذا ما عاد ضباطه إلى القطعات .

ومن جهة ثانية فان عودة تحالف الاقطاع ورأس المال إلى مواقعه الاقتصادية، سيمهد له الاستيلاء بالتدريج على مواقعه في السياسة والحكم ايضاً . ولا تلبث الطغمة العسكرية المتبعثة حتى تتحول إلى أداة تنفيذية آليـة لتحقيق أغراض الاستغلال الاقتصادي ، وتحكم رجال المال في شؤون الدولة .

ومن جهة ثالثة ، فلا بد ان يتبع الحورانيين وأصحاب الفعاليات الاقتصادية أعمدة السياسة الرجعية التقليدية، وعند ذلك سوف يغرق الحكم بأحابيل المحترفين والعملاء .

والخلاصة الأخيرة ان « التجمع الوطني » مثلما سينهي الصفة المدنية للبعث عن الحكم ، فانه سيفصل الجانب العسكري من الحزب تدريجياً حتى يلفظه عارياً عن كل سلطة أو نفوذ .

ان البعث العسكري والمدني ، الذي تستهلكه تناقضاته الذاتية شيئاً بعد شيء ، وتحاصره من الخارج قوى الوحدة والاشتراكية في الشعب ، ومن جانب آخر تتربص به قوى أعداء الشعب من تحالف رجعية المال ورجعية السياسة ووصولية الانتهازيين .

هذا البعث اليوم ينتظره مصير واحد .

انه مصير العقرب المحاصر بدائرة النار حوله ومن كل جانب .

فاما ان ينتظر ألسنة النار تضيق الدائرة عليه حتى تلتهمه قاعاً صفصفاً ...

واما ان تنقذه بقية شجاعة ، فيعقص نفسه بسمه . وتلك هي الميتة الوحيدة الشريفة لجنس العقارب كلها .

ولكن هل يقوى الحزب على الصعود للمرة الاخيرة إلى « مستوى المعركة » التي فرضها على الشعب وعلى نفسه . وحان الوقت لكي يدفع الثمن .

٥ ـ ماذا بعد البعث ؟

ان الحقيقة المفزعة التي تترسب في النهاية عن محصول مختلف الأحداث القومية التي هزت منطقة المشرق العربي ، عبر السنوات الخمس الأخيرة ، هي ان جميع القوى والتيارات السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، قد صعدت إلى الحكم في قطر او أكثر من قطر ، ثم مالبثت ان تهاوت بأسرع مما كان يحلم به أعدى اعدائها .

وتولد عن هذه التجربة الشاملة ان فغر فراغ نضالي وسياسي فاه ، وعادت الثورية العربية ، على مستوى الوقائع على الأقل ، إلى نقطة الصفر ثانية .

ولكي ندرك خطورة هذا الفراغ النضالي والسياسي يكفي ان نستعرض في خيالنا بسرعة ، الأحلام الكبيرة التي عاصرت نشوء الوحدة . ثم لنبحث الآن عن واحد من هذه الأحلام خلال الحطام المتراكم حولنا ، فلن نعثر إلا على العزيمة الشعبية وحدها . تلك العزيمة التي ترفض الاعتراف بالحطام ، وتتطلع دائماً إلى ساحات من الصراع الجديد .

وتلك العزيمة ، عليها ايضاً ان تميز بعد اليوم ، بين صناعة نسج الاحلام ، وبين صناعة تغيير الواقع نفسه ، من مادته ومن مقاومته ذاتهما . فلا العواطف الطيبة ، ولا انفعالات الجماهير الصادقة ، ولا كل تلك المؤونة الخام ، لتكفي إبان المنعطفات الحاسمة ، حيث يتساوى حظ الخير بحظ الشر ، وتتصاعد قوى الظلام ، لتدمر كل شيء في لحظة النشوة والسكر بالانتصارات الكاذبة .

ان الفراغ النضالي والسياسي الذي يعم هذه المنطقة هو الجواب اليوم على كل سؤال يتخذ هذه الصيغة : وماذا بعد ان يزول هذا الحكم من هنا ، وهذا الحكم من هناك !

لقد تصورت الجماهير العربية في سورية وهي تقود النضال ضد الانفصال ، ان الثورة القادمة سوف تعيد الوحدة مباشرة ، ولكن ثورة الثامن من آذار لم تأت إلا لتنجح فيما فشل فيه انفصال الثامن والعشرين من ايلول . ثم عندما كان حكم البعث في العراق يترنح تحت ضربات الفشل من كل جهة ، كان السؤال :

ترى هل يصبح الطريق مفتوحاً إلى الوحدة بعد زوال البعث ؟

ولكن تقفز إلى الذهن مباشرة صورة اعتراض :

وهل يمكن للعراق بعد البعث ان ينطلق إلى الوحدة ، وحدة بدون سورية ؟

إذن لا بد من انتظار الانهيار القريب لحكم البعث هناك ، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها الأولى تماماً ، التي كان يجب ان تكون عليها بعد عمليتي شباط وآذار في العراق وسورية ، في العام الماضي .

غير ان بدء النهاية في سورية قد حل . وهذه هي المعركة هناك تتخذ صفة نضال شعبي كامل للتحرر مما يشبه المحتل والمستعمر .

ويقفز السؤال مرة اخرى :

ومن سيحكم سورية بعد البعث وما هي القوى السياسية التي ستكون لها الغلبة لفترة قادمة ؟

لقد كان البعثيون أنفسهم في العراق يهولون من هذا السؤال ، ويقولون إنه لن يرث الحكم بعدهم إلا احد طرفين : الشيوعية او الرجعية . كأنهم هم وحدهم الذين يمثلون القوى القومية .

كذلك فان بقايا البعثيين الآن في سورية يصورون معركتهم مع الشعب، على أنها معركة مع الرجعية . وبالتالي كأنهم يجزمون انه لن يستولي على البلاد بعدهم إلا هذه الرجعية .

والواقع ان السؤال عمن سيحكم سورية بعد البعث ، هو من أهم ما يشغل السياسيين والمناضلين على السواء ولكن بالمقابل فان احداً ممن يعاني المعركة الآن داخل سورية ، قد لا يخطر في باله مثل هذا السؤال . وذلك ان الشعار دائماً ، وكما هو في كل معركة مادية ضد نظام إرهابي ، ان هو إلا شعار الخلاص ، والخلاص فقط . وأما ما سيتبع هذا الخلاص فقليلاً ما شغلت الجماهير الغاضبة نفسها بمعرفته .

ولا شك فانه من التفاؤل المفرط ان نقول ان المرحلة القادمة في سورية ، ستكون مرحلة انتصار الوحدة والاشتراكية ، بالرغم من ان أكثرية القوى التي احترقت في أتون المعركة الانفصالية البعثية ، كانت هي قوى الجماهير الوحدوية

أولاً وآخراً .

ولهذا السبب على وجه التحديد ، لكون ان القوى الوحدوية هي التي تحملت العبء الأكبر من المقاومة ، قد نالها من حكم البعث النصيب الأكبر من التفتيت والارهاب ، لهذا السبب فان الشك يخامر النفوس ، بأن تستطيع التيـــارات الوحدوية الوصول إلى قيادة البلاد ثانية .

بينما حرص البعث باستمرار على توفير الجهود البورجوازية والانفصالية ، دون ان ينال من مواقعها او قواها، وذلك أملاً منه في ان يجد في لحظة مناسبة ، صيغة ما للتعاون معها ، كلما اشتد صراعه مع الوحدويين .

إلا ان الغريب في موضوع هذا الانفصام المفاجىء اليوم بين البعث وبين قادة الفعاليات الاقتصادية والرجعية ، رغم تشابه الموقف السياسي العام مـــن قضية الوحدة والانفصال بين الجانبين، هو ان البعث، في غمرة الدفاع المجنون عن النفس، لم يجد أمامه اخيراً ثمة واجهة عقائدية الا الاشتراكية ، كيما يعطي لنفسه فرصة اخرى في خداع الجماهير .

والمعروف ان الخطة السياسية (الذكية) التي طبعت حكم البعث، منذ الثامن من تموز الماضي ، تقوم على اصطناع حوار متواصل مع القوى الانفصالية . حتى لقد برهن البعث عن حسن نواياه تجاه الانفصاليين أكثر من مرة . فهو قد أنجز مهزلة محاكمة المسؤولين عن الانفصال وبرأ ساحتهم ، واخترع قانون العفو العام لكي يطلق سراح من تثبت ادانتهم رغم مختلف وسائل التغطية القضائية .

ثم قام البعث بخطوة اخرى إيجابية نحو الصف الانفصالي، فرفع العزل السياسي والمدني عن كثير من أقطابه .

وأكثر من هذا ، فقد سمح للجناح الحوراني بأن يتغلغل في الجيش . وفي نطاق المراكز الأساسية في أجهزة الدولة .

ومن جهة اخرى، فقد أعطى للاخوان المسلمين حرية النقد على منابر الجوامع، وحرية متابعة تنظيماتهم الشعبية . كما غض الطرف دائماً عن نشاط الحورانيين، الذي ظل يتراوح علانية واختفاء ، حسب درجة النقمة الشعبية التي كانت تتصاعد ضد

البعث نتيجة هذا الغزل المتزايد مع الحورانيين .

وحاول محمد عمران ان يلعب دور المعدل من هذا الاتجاه ، فراح هو الآخر يقيم صلات ودية مع بعض الجوانب النائمة من الوحدويين . ويصل به الأمر إلى ان يبعث برسل او ما يشبه الرسل إلى بعض القادة .. ويتبع كل ذلك بتصريحات عن التعاون مع الوحدويين (النظيفين) .

ولكن لا تلبث الأمور حتى تتعقد ثانية .

فاذا بأجهزة المخابرات البعثية تعلن فجأة عن تدبير مؤامرة (وحدوية) ضد الحكم . وتوجه اتهاماتها إلى أقطاب هؤلاء الوحدويين (النظيفين) الذين صنفهم (عمران) إلى جانب الحكم ، واعتبرهم (جسره) السياسي الجديد إلى الصف الوحدوي .

ويزج بهؤلاء في السجون ، ويفر بعضهم الآخر ، وتقوم حملة اعتقال شاملة تضم عدداً كبيراً من مختلف قيادات الوحدويين ومن كبار الضباط المسرحين .

ويحار المراقبون مجدداً في تفسير هذه التصرفات .

فهناك من قائل انه ليس ثمة جناح وحدوي وآخر انفصالي بين قادة الحكم البعثي في سورية . وان هذه الشائعة عن الأجنحة ليست سوى لعبة من فبركة البعثيين أنفسهم ، لإقامة نوع من التوازن بين القوى المعادية لهم .

وهناك من يقدم التفسير الآتي :

وهو انه لا شك في وجود هذين الجناحين الرئيسيين ، إلى جانب التشرذم اللامتناهي في تجمعات المدنيين والعسكريين على السواء . ولكن لعبة توازن القوى ، قد تختل ، من حين إلى آخر ، إلى صالح جناح دون جناح ، حسب ضغط القوى الداخلية بين صفوف المتزعمين البعثيين أنفسهم .

ويأتي التفسير الثالث وهو الأقرب إلى الصواب كما أثبتته الأحداث فيما بعد . وهو القائل ، بأنه في الأصل ليس هناك أجنحة داخل الصفوف العسكرية البعثية على الأقل ، لأنه ليس هناك مواقف (عقائدية) بالمعنى الصحيح ، متمايزة او متصارعة . والأصح هو ان القادة العسكريين أنفسهم ، يتخبطون في اقتراحات متعارضة ،

تتبع عن عجز في فهم القضايا السياسية بالدرجة الأولى .

وما قطع الحوار بين عمران وبين بعض الوحدويين (السياسيين) ، إلا محاولة لوضع حد لكل ما يشاع عن وحدوية عمران ، وإغراقه في حلقة الاتهام والعزلة نفسها ، التي يتمتع بها كل قائد بعثي ، اعتباراً من أمين الحافظ إلى صلاح جديد إلى عفلق .. وهكذا .

ولكن يبقى النصف الثاني من الموضوع :

كيف تطورت العلاقات بين الحافظ وأرباب الفعاليات الاقتصادية والرجعية الدينية وحتى الانتهازية الحورانية إلى هذا الانفجار المفاجىء ، بعد طول حوار وغزل متبادل ؟

للجواب على هذا السؤال ، لا بد ان نميز في الواقع بين علاقة البعث مع كل جانب من هذه الفئات ، كل على حدة لأنه بالرغم من توافق المنطق السياسي بين هذه الفئات الثلاث ، إلا ان ثمة فروقاً بينها ، ينبغي ان نوضحها ، خاصة بالنسبة لموقفها من البعث . اما فئة ارباب الفعاليات الاقتصادية ، فهي الفئة التي تحدد موقفها السياسي ، في كل عهد ، على أساس النشاط الصناعي والتجاري التابع لمعاملها ومتاجرها .

والبعث، لم يتخذ في الواقع أي تدبير زجري مباشر ضد مصالح هذه الفئة طيلة الأشهر السابقة .

ولذلك كانت مجلة (المضحك والمبكي) الصحيفة الوحيدة التي سمح لها البعث بالاستمرار في النقد ، تقيم دائماً جسوراً من التواصل والضغط الإيجابي، بين أرباب الفعاليات الاقتصادية وحكم البعث ، عن طريق إحياء مآثر السياسة الديموقراطية التقليدية، وتذكير الناس بالوجهاء والزعماء القدامى ، كل ذلك في سبيل فرض الصف السياسي العتيق ثانية على صورة الحكم الحاضر ، باسم الوحدة الوطنية ، والحاجة إلى تقوية الحكم والاستفادة من أصحاب الخبرات وهكذا ..

فالبعث إذن لم يوجه سياسة زاجرة ضد المتمولين، لا اشتراكية ولا ما يشبهها. ولكن هؤلاء مع ذلك ، كانوا يتأثرون بحالة السوق التي تنحدر يوماً بعد يوم

نحو الجمود .

وكان سبب هـذا الجمود ، هو السياسة العامة لحكم البعث ، القائمة على البطش والارهاب ، مما جعل الشعب في طرف ، والدولة في طرف آخر .

وكلما جهر الاقتصاديون بالشكوى ، استدعاهم امين الحافظ ليستمع إليهم ، ويعدهم شتى الوعود. ولكن هؤلاء كانت تتطور شكواهم من المطاليب الاقتصادية الخالصة ، إلى المطاليب السياسية .

وكان لا بد لحكم البعث ان أراد الاستجابة لها ، ان يكشف جميع مواقعه بالنسبة للدول العربيـــة الرجعية ليعيد معها الصلات الاقتصادية ، ومع الدول الاستعمارية ، ليبرم معها اتفاقيات التعاون والقروض المشروطة .

ومن جهة اخرى ، فإن الضباط الشباب ، الذين ظـل أمين الحافظ يسحرهم بعنتريته (مراجله) ضد الوحدويين ، ينفرون بطبيعة تركيبهم الاجتماعي ، من أي ملق مع الرأسماليين .

هذا فضلاً عن ان وعود الحافظ لهذه الفئة ، قد يتخذها عمران حجة على يمينية الاول و (رجعيته) .

هذا فضلاً عن احتجاج (قواعد) الحزب المدنية ، التي لم تترك لها القيادة ، ثمة من نشاط سوى تلفيق الاعذار الواهية للدفاع عن الأخطاء والانحرافات .

والواقع فقد وصل تفاهم الحافظ مع المتمولين الى أعلى ذروته ، عندما طمأنهم انه لن يكون هناك تأميم جديد . وللتدليل على حسن نوايا الحكم تجاههم ، فقـــد تنازل البعث عن (ثوريته) وسعى جهدهلتجديد الاتفاقية الاقتصادية مع السعودية، التي لم تحصل نتائجها المأمولة بعد .

ولكن هؤلاء المتمولين كانوا ، هم الآخرون ، يتعامون عـن سبب الضائقة الحقيقي ، حالهم في ذلك كحال القادة البعثيين . فهم لا يدرون شيئاً عن مطالب الشعب الأساسية ، التي افترسها هذا الحكم ، وشل الحياة في جميع مرافقها .

فلم تكن إيجابية الحكم ووعود الحافظ لتكفي من أجـل إعادة النشاط الى أجهزة الصناعة والتجارة .

ولذلك فقد اتبع المتمولون ضغطهم الاقتصادي ، بضغط سياسي ، اتخذ صفة المطالبة بالديمقراطية والانتخابات الحرة، لعلهم يستطيعون بذلك ان يخرجوا نوابهم التقليديين ويعودون بالبلاد إلى ما قبل عام (١٩٤٩) . وهي الفترة المثالية بالنسبة لنهضة الطبقة الرأسمالية في سورية ، أيام حكم المزرعة المباشرة .

واما الأداة الاجتماعية الطبيعية لرأسماليـــة سورية في الضغط السياسي ، فهي جماعة الاخوان المسلمين ، كما ثبت ذلك من مختلف معارك سورية منذ الاستقلال لتثبيت شعارات التقدمية والاشتراكية .

وكما حدث فعلاً في ذلك الحلف اللامقدس الذي قام اثر انفصال ٢٨ ايلول بين المتمولين والمتدينين وطبقة السياسيين البورجوازيين .

ولكن قد حدث تغير في موقف الاخوان بـــين الانفصاليين . وذلك لأن الاخوان المسلمين ، لا يمكنهم ان يتحرروا من عدائهم التقليدي ضد البعث، الذي تمثل لهم دائماً باعتباره حزب الالحاد ، بصرف النظر عن مواقفه السياسية . ومـــن جهة ثانية ، فلقد اضطرت قيادات الاخوان ، منذ سقوط الانفصال الأول ، إلى اتباع سياسة معتدلة في موقفها من الوحدة ، وذلك تحت ضغط قواعدها الشعبية التي انجرفت مع بقية قواعد الأمة كلها في تيار الوحدة العارم .

ومنذ ان ظهر هذا الاعتدال في سياسة الاخوان ، وبعض قادتهم يحاولون ما أمكنهم ان يستقلوا إلى حد ما عن توجيه المتمولين واستخدامهم لشيوخهم .

ولهذا ، فانه منذ ان انشق أكرم الحوراني عن الخط الوحدوي والاشتراكي، ووضع خدماته بين يدي الانفصال والانفصاليين، وجد المتمولون فيه الرجـــل السياسي المحنك القوي،الذي يمكنهم ان يستفيدوا من صداقته، بعد ان ذاقوا من عداوته ما ذاقوه ، أيام كان الرجل زعيماً شعبياً اشتراكياً .

ولكن الرأسماليين قد عجزوا في الانفصال الأول عن التوفيق بين الحوراني والاخوان ، كما عجزوا عن ذلك في مرحلة الانفصال العقائدي الحالي .

وبالمقابل فان الحافظ لم يستطع ان يتجاوز هذه التناقضات بين الصف الانفصالي، ويستفيد من قوى كل طرف لتدعيم زعامته الشخصية،من خلال حكم البعث نفسه .

وكانت معارضة الاخوان قد اشتدت ، وأصبحت متنفساً شعبياً إلى حد ما ، جعل البعث يحاذر يوماً بعد يوم من ازدياد نفوذهم . كما ان الرأسماليين قد يئسوا أخيراً من استطاعة البعث ان يعيد الحياة إلى مصانعهم وتجاراتهم المشلولة . ولم يجرؤ الحافظ على التعاون مباشرة مع الحورانيين خشية من بقايا جناح عمران ، ومن بعض القواعد العفلقية التي تعاني من حقد شخصي ضدهم . وبالمقابل فقد تصاعدت روائح الانقسام والتشرذم والضعف الداخلي الذي مني بـه الحكم والحزب معاً . فكان ان تقهقر الحكم ثانية الى موقعه في منتصف الطريق بين جميع القوى . ولكنه في هذه المرة ، وبعد التجربة ، قد استعدى عليه جميع هـذه القوى ، حتى أصبح تعارضها معه ، أقوى من تعارضها فيما بينها . فتحولت المعركة مرة واحدة ، إلى معركة وطنية ، تستدعي جميع قوى الشعب ، ضد حكم اتخذ صورة الاحتلال الأجنبي .

وكل معركة وطنية ، إنما تطرح شعار الخلاص وحده ، بدون أي تفصيل في الصورة البديلة عن صورة الحكم القائم . وهي في حاجة إلى ما يشبه التعبئة العامة ، ومناداة مختلف الامكانيات السلبية والعنفية .

فالاضراب العام ، والعصيان المدني ، وإغلاق المتاجر الصغيرة والكبيرة وتوقف جميع مظاهر الحياة اليومية ، اياماً وأسابيع او شهوراً ، وما يرافق ذلـك من المظاهرات والاصطدامات المسلحة وبعض أعمال العنف ، كل ذلك مما يدخل في إطار الثورة الوطنية الموحد الجهود ضد عدو واحد خارجي .

ولكن هذا النوع من المعارك الذي تطورت إليه الأمور في سورية هل يعتبر نمواً في حركة الثورية العربية ، ام انتكاساً ، ام شكلاً موقتاً من التحول ، له ما بعده من التجاوزات ؟

ان ما يوحي بكل هذه التساؤلات هو معنى الحلف الوطني الكفاحي ، الذي سوف يجمع بين قوى اليسار وقوى اليمين ، والذي بدونه لا يكون معركة وطنية .

فبالرغم مما تحمله هذه المعركة من الإيجابية ، إلا أنهـا هي نفسها الإشارة

الكبيرة إلى مدى الفراغ النضالي المنظم الذي تشكو منه سورية والمنطقة العربية المجاورة لها كلها .

فلو ان قوى اليسار الوحدوي والاشتراكي قد استطاعت ان تتلاقى خلال الشهور السابقة ، وتتجاوز إطاراتها الضيقة ، لبقي لهذه المعركة المنتظرة شكلها التقدمي الواضح على الاقل ، ولما احتملت المعركة الوطنية الحاضرة إمكانية الجنوح نحو اليمين أكثر مما هي نحو اليسار الحقيقي .

بل أقصى ما يخشاه المرء ، هو ان اتساع إطار هذه المعركة ، سوف يضعف من أثر المنظمات في قيادتها ، وبالتالي سوف يساعد هذا الطوفان النضالي والعفوي ، على استئثار اليمين بالتوجيه ، وبالثمرة المنتظرة أيضاً .

ان الموجة النضالية الجديدة المتصاعدة من أعمق آلام الشعب المكافح في سورية ، هي التي لا تعرف من سوف يركب ظهرها هذه المرة ، كما ركبها البعث مثلاً بعد الثامن من آذار .

ان فصول الخداع تتكرر ، والمتفرجون ما زالوا هم المتفرجين العاجزين ، وفي كل مرة لا بد ان نبحث عن المسؤولية والمسؤولين عما وقع وحدث ، بينما تعد لنا الايام ما سوف يقع ويحدث ايضاً .

وظهر النضال فارغ دائماً لمن يسبق في القفز اليه في اللحظة الحاسمة !

الفصل التاسع

البعث في العراق

١ – من الوحدة المحورية الى انتفاضة تشرين

لقد تناوبت كل من سوريا والعراق على امتلاك زمام المبادرة في قضايا الثورية العربية ، في منطقة المشرق العربي وقد حرص الاستعمار في كل مرة ، ألا يترك العراق وسوريا معاً تنطلقان حرتين في تيارات الانجازات الثورية .

فتارة تنتكس الثورة في العراق ، وتارة أخرى تنتكس هـذه الثورة في سوريا . والفترة الوحيدة التي تلاقت خلالها ، كل من حرية البلدين ، كانت عقب ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ ، إلا ان هذه الفترة لم تستمر أكثر من شهر تقريباً . حتى أجهزت عليها الثورة المضادة عن طريق الحكم القاسمي المتعاون مع الشيوعية المزيفة .

والواقع فان وحدة سوريا ومصر عام ١٩٥٨ ، قد عانت أول عقبة كبرى ، قامت في وجه امتدادها عندما أبعد العراق مرة ثانية عن خط التحرر العربي ، وعادت إليه عزلته التقليدية .

ومنذ ان خسرت وحدة الجمهورية العربية المتحدة آنذاك العراق ، فقد توقف

نموها . وأصيبت هي الأخرى بنوع من الحصار الجديـــد في منطقة المشرق . واستطاع الاستعمار بذلك ان يجمد المد الوحدوي في المنطقة كلها ، وان يخلق حواجز مانعة حوله ، تحرسها أنظمة ديكتاتورية ارهابية ورجعية باطشة .

والواقع فان طبيعة تلك الوحدة الأولى التي قامت بين سوريا ومصر ، كانت من النوع الذي يتطلب الانتشار الجغرافي حوله . بل ان نواة كل وحدة ، لا بد ان تصبح لها تلك الطبيعة. فما ان يقوم النموذج الوحدوي ، حتى تتداعى إلى الاقتداء والالتحاق به بقية الأجزاء .

وذلك هو السبب الذي من أجله حاول الاستعمار دائماً ، والانكليزي خاصة ، ان يخلق سدوداً كثيفة حول أي منطلق وحدوي ، ويخنقه في مهده .

فاذا ما كفت أية وحدة عن النمو ، واكتساب أقطار أخرى حولها ، فانها لا بد ان تضمر ثم تشارف على الزوال ، ككل كائن حي ، قوتـه وحياته في نموه ونضوجه المستمر .

وحين استنفذ النظام القاسمي وكان أكبر عقبة قامت في وجه امتداد وحـدة ١٩٥٨ ، أهدافه الأولى في عرقلة انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة . ولم يستطع ان يعوض الشعب عن أهدافه الضائعة ، وغرق في ديكتاتورية ارهابية ، فقد انفتح الطريق مجدداً أمام خطر الوحدة .

وبالمقابل فان العهد الانفصالي الرجعي في سوريا استهلك قواه الهرمة في مقارعة المقاومة الشعبية المتعاظمة ، وكاد ان يستسلم لمصيره المحتوم القريب . ومرة أخرى هددت قوى الوحدة في العراق وسوريا معاً المتفجرة ضد الثورات المضادة ، هددت بمد جماهيري جديد ، ينسف الحدود بين القطرين على ركام الرجعية والديكتاتورية ، ويمد الجسر ثانية إلى عاصمة الوحدة في القاهرة .

ومرة أخرى يبحث الاستعمار عن (أدوات) جديدة لإجهاض الانفجـــار الوحدوي المرتقب . وكانت هذه الأدوات متوفرة في قيادات حزب . كان هو في يوم من الأيام أخطر قوة وحدوية على الاستعمار ومصالحه .

وفي هذه الجولة الجديدة للثورة المضادة ، كان المخطط الاستعماري يبلغ تطوراً

(تقدمياً) فيستغني – موقتاً طبعاً – عن أجهزته الرجعيـــة المعتادة في المنطقة ويوكل أمر إجهاض الانفجار الوحدوي ، إلى قادة البعث ، المهووسين بالسلطة مهما يهظ الثمن وغلا .

ومثلما طرح الشيوعيون في أوائل ثورة الرابع عشر من تموز عـــام ١٩٥٨ شعار (الاتحاد) بدل الوحدة ، ثم (جمهورية لا اقليم) شرع البعثيون بعد ثورتي شباط وآذار عام ١٩٦٣ ،باختلاق المعارك اللفظية بين الشعارات ،وتوقع الثوريون ان يشهدوا قريباً فصولاً جديدة في تكرار المأساة القديمة .

وفي هذه الجولة ايضاً ، بدا ان العراق (المتبعث) هو الذي يقود العمليـة ، وان (بعث) سوريا يسير متعثراً قلقاً في تنفيذ دروس السعدي وجماعته . إلى ان وقعت احداث ١٨ تموز ، فتلقف البعث السوري هـذه الأداة العبقرية ليتجح في خطة تصفية التيار الوحدوي عسكرياً وشعبياً .. وإلى الأبـــد ، عن طريق اعلى تقنية في فن الارهاب . بعد ان تعثرت خطواته بأساليب الخداع السياسي وحده .

ولكن الاستعمار الانكليزي ، بعد ان نجحت خطته الثانيـــة في إجهاض الانفجار الوحدوي هذا النجاح السريع الباهر ، فإنه أراد ان يمضي أبعد من ذلك ايضاً . فما دامت الوحدة نفسها مطلباً شعبياً لا يمكن القضاء عليه بسهولة ، فلماذا لا يوكل الى (حزب الوحدة) الذي ثبت أقدامه في كل مـــن بغداد ودمشق ، خلال شهور قليلة ، أمر إقامة وحدة من نوع خاص .. وتبدو انهـــا مستكملة الشروط افضل من وحدة عبد الناصر السابقة .

وهكذا طرح مشروع الوحدة الثنائية بين العراق وسوريا . وماتت كل تلك الضجة المصطنعة التي أثارها البعث عقب ثورة آذر حول وحدة (ثلاثية) بدلاً من وحدة ثنائية .

غير ان الجماهير الوحدوية في العراق وسورية ، وفي العالم العربي كله ، أدركت حقيقة الإجهاض الجديد .

فليست هذه الوحدة الثنائية سوى إحياء لمشروع (سوريا الكبرى) الانكليزي ، المرم ، والذي تخطاه النضال الوحدوي في هذه المنطقة منذ سنوات .

وليست وحدة العراق وسوريا تحت حكم البعث الارهابي ، سوى إقامة حاجز (حديدي) في وجه امتداد الثورة العربيـة الأصيلة من الجزائر والقاهرة ، وما تحمله هذه الثورة من اشتراكية جذرية حقيقية ، ومـــن عداء مطلق للاستعمار وعملائه وركائزه في منطقة المشرق .

ولذلك ولدت هذه (الوحدة) في جو مفعم بالكراهية والحقد ضدها ، من قبل كافة القوى الشعبية في سورية والعراق. وشعر الناس ان هذه الوحدة الهجينة، ليست سوى جنازة وحدتهم الحقيقية التي عبر عن (بعض) آمالها ميثاق السابع عشر من نيسان .

فلم تستطع (الوحدة المحورية) الجديدة ، ان تقنع وجهها الاستعماري القديم، بأي قناع من (العقائدية) و (الثورية) . وعلى العكس فقد خلقت جداراً أصم في وجهها ، من التحدي والغضب الجماهيري الكاسح .

وبدلاً من ان تكون هذه الوحدة المحورية ثمرة (ناضجة) لسلسلة انتصارات الحزب فانها دقت اول مسمار في نعشه .

وكان موته هذه المرة ، منطلقاً من موت أهدافه في عين الجماهير .

وجاءته الضربة الكبرى ، من البلد الذي يجب ان تجيء منه .. من بغداد .

ومرة اخرى استلم العراق دور المبادهة في قضية ثورية الوحدة في هذه المنطقة .

ومنذ الثامن عشر من تشرين في نهاية العام الماضي ، قفز العراق مجدداً إلى خط الطليعة في حركة الأحداث السياسية والقومية وبدأ مسيرته الوحدوية القائمة.

٢ – العراق على طريق الوحدة

قبل ان نبحث في معنى هذا الحدث الكبير الذي انطوى عليـــه إعلان بدء الوحدة الجديدة بين القطر المصري والقطر العراقي ، علينا ان نلقي على أنفسنا السؤال التالي :

– لماذا جاء هـذا الاعلان في أعقاب مهرجان السد العالي ، والاجتماعات السياسية المتواليـة بين الزعيم السوفييتي والزعيم العربي ، ثم بين عبد الناصر وعبد

السلام عارف ؟ هل كان ذلك محض صدفة ، ام انـه احدى النتائج الأساسية لهذا الموسم السياسي الحافل بالانتصارات القومية والاتفاقات الدولية ؟

للاجابة على هذا السؤال، يمكننا القول ان زيارة خروتشوف للجمهورية العربية المتحدة ، لم تكن بمجرد زيارة لقطر عربي ما ، بل ان مناسبة انتهاء المرحلة الأولى من السد العالي، قد أتاحت فرصة للزعيم السوفييتي بأن يلتقي بالزعيم العربي الاول، وفي عاصمة الأحداث العربية ومركز انطلاقها وانتشارها عبر الوطن العربي كله .

ومعنى هذا ان خروتشوف قد استطاع ان يطل على القضية العربية في مختلف أوجهها وابعادها ، ومن مركز ثقلها الاساسي الأول ، ومن صميم حيويتهـــا ، ومواجهته لحقائقها الأصيلة .

وبذلك فان خروتشوف لم يعد يقف عند حدود طرح المساعدات الاقتصادية، ولكنه راح يقترب أكثر فأكثر من العقائـــد والافكار الايدلوجية التي تقود شعوب هذه الأمة وراء زعمائها المتحررين .

فكان ان سمعنا من خلال الخطب المتبادلة بين الرؤساء الثلاثة خاصة: خروتشوف وعبد الناصر وعبد السلام عارف ، هذا السعي الحثيث المخلص لتفهم وجهة النظر العربية لأكبر هدف قومي ، وهو الوحدة .

هذا بالرغم من ان الخطب المتبادلة حول موضوع الوحدة، قد طرحت مناقشة علنية بين الرؤساء الثلاثة ، حتى كاد المصطادون في الماء العكر يجدون مبررات لاختلاق خلافات أساسية بين الرأي العربي والرأي السوفييتي حول مفهوم الوحدة.

ومما لا شك فيه ان اللقاء العربي السوفييتي ، لم يبلغ هذه الدرجة من الصميمية في أية مرحلة سابقة من مراحل العلاقات ، كما بلغه خلال أطول فترة من الزيارة يمكن لرئيس احدى أكبر دولتين في العالم ، ان يقضيها لدى دولة اخرى جديدة !

لقد احتك خروتشوف بأعظم ممثلي الشعب العربي ، بآلاف العمال والفنيين في اسوان، والتقى بأكبر رجالات دولة العرب الكبرى، وزار المصانع والنقابات، وعاش مع نماذج الحياة الجديدة المناضلة في مصر العربية .

وفوق كل هذا ، فلقد كان الرئيس جمال عبد الناصر يقضي معه جل نهاره في

الزيارات والاحتفالات ، وجل ليله في الاجتماعات الرسمية ، او اللقاءات الاخرى.
وهكذا تمت تجربة الصداقة الكبرى بين الرجلين الكبريين ، من خلال أعظم انفتاح على انتصارات الشعب ، وبرفقة بناة المستقبل الاشتراكي الجديد للشعب .

فلماذا لا يعمق التفاهم ، ويصل إلى أصفى جذوره ، ولماذا لا يعجب الرئيس الاشتراكي بمعجزاب شعب عبد الناصر ، خلال هذه السنوات القليلة ، وينفعل بالافراح والمهرجانات ،وينفتح عقلاً وروحاً على عطايا الصداقة والاخلاص،التي يغمر الشعب بها زعيمه وصديق زعيمه. ويروح ينثر مدائحه وتمجيداته وعبارات إعجابه، على الرئيس ومنجزاته الثورية والتقدمية بالنسبة لبناء الدولة العربية الجديدة ، النموذجية في اشتراكيتها وديمقراطيتها .

ولكن خرتشوف يحس ولا شك، ان عبد الناصر وشعب عبد الناصر في وادي النيل ، لا يفعلان شيئاً من اجل هذا الوادي فقط ، بل ان كل هدف تقدمي واشتراكي قطري ، مرتبط اعمق ارتباط بهدف أكبر ، انه الوحدة العربية .

وحتى هذه الزيارة ، كان خرتشوف ، والمعسكر الاشتراكي من خلفه ، لم يؤلف بعد في ذهنه أي منظور تقدمي لهدف الوحدة العربية ، وهذا ما جعله في خطابه عن الوحدة ، يلح ويصر على انها ينبغي ان تكون وحدة عمال وفلاحين ، لا مستغلين وإقطاعيين .

وسواء كان هذا الفهم السلبي ، في الماضي ، لهدف الوحدة ، نتيجة موقف ايدلوجي ، او ضرورات سياسية عن قصة التوازن والاخلال به ، في منطقة الشرق الأوسط ، فان هذه المحاذير قد زالت الآن على الأقل بفضل التطور الاشتراكي الكبير، الذي حصله هدف الوحدة في مضمونه من جهة ، وبفضل هذا التفاعل الأعمق الذي اكتسبته الصداقة السوفييتية العربية ، عبر رحلات حاسمة في ميدان السياسة المحلية والدولية .

نصل الآن إلى جواب على سؤالنا الأول في مطلع البحث ، وهو جواب يمكن استخلاص مضمونه من هذا العرض المسبق .

فأولاً : ان التحولات الاشتراكية النامية في القطر المصري ، والتي تصل مع

انتهاء المرحلة الأولى من السد العـالي ، إلى منعطف هام ، في تأكيد الثورة الاشتراكية الواضحة في هذا القطر ، هي التي تؤدي إلى أسلوب جديد في طرح الهدف العربي الأكبر ثانية وهو هدف الوحدة .

ثانياً : ان الخطوة الأولى نحو الوحدة الجديدة كما تفرضها الاوضاع الحاليـة الثورية العربية ، ستكون بين القطر المصري والقطر العراقي . وبالتالي فان كل موقف سوفييتي يتحدد ضمن اطاره القديم ، على أساس التعامل مع أقطار منفصلة، سواء من حيث الاعانة الاقتصادية أو التأييد السياسي ، لا بد ان يتغيّر الآن ، ليستوعب هذا التناظر الذي أثبتته الأحداث ، بين كل تحول اشتراكي ، وكل انفتاح وحدوي .

وهذا يعني :

من جهة : ان الوحدة (القومية) او (السياسية) التي قامت بين سوريـة ومصر عام ١٩٥٨ ، كانت تحتاج إلى نوعين من الامتداد .

أحدهما افقي ، يستوعب اقطاراً عربية أخرى . وكان العراق في ثورة ١٤ تموز من ذلك العام مهيئاً لتحقيق هذا الامتداد ، وتوسيـع المدى المكاني، والحجم السكاني للجمهورية العربية المتحدة ، بانضمامه إليها كقطر ثالث .

والثاني شاقولي عمقيّ وهو ادخال القواعد الجماهيرية إلى ساحة العمل والانتاج واعادة دورها التاريخي ، وذلك عن طريق تحقيق الاشتراكية .

وهذا يعني ايضاً :

من جهة أخرى : ان التجربة الاشتراكية الأصيلة التي تقوم اليوم في القطر المصري ، وتؤلف تحويلاً كاملاً لوسائل الانتاج ، بحيث تصبح كلها تقريباً في يـد أصحاب الانتاج أنفسهم من الجماهير العاملة . وان تحرر العراق من مختلف عوائقه السياسية التي منعته منذ عام ١٩٥٨ حتى اليوم ، من دخول الوحدة والمشاركة في تجربة بنائها قد زالت . كل هذا يؤلف تمهيداً من نوع جديد لقيام وحدة جديدة بين هذين القطرين .

وهذا يؤدي بالتالي الى ان الثورية العربية في القطر المصري كانت تسير في

ثلاثة خطوط متوازية :

خط التحرر السياسي من مختلف الارتباطات الاستعمارية وتدعيم الاستقلال بكل امكانياته الأساسية .

وخط الانفتاح على الأقطار العربية التي تحقق مثل هذه الخطوات في التحرر من التبعية ومن مناطق النفوذ والاحلاف . وهو الانفتاح نفسه الذي يعبد الطريق أمام قيام الوحدة .

وخط التحويل الاشتراكي لمصادر الثروة ووسائل الانتاج والتنمية الصناعية في مختلف مستوياتها .

واليوم تبدو الجمهورية العربية المتحدة في أكمل نموذج بين بقية الدول العربية، من حيث انها قد قطعت شوطاً كبيراً في مختلف اتجاهات أهداف الأمة العربية ، كالاشتراكية والحرية والوحدة .

كل هذا قد أثبت اليوم بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ، ان الأمة العربية بقيادة الجمهورية العربية المتحدة قد تحولت إلى قلعة من النضال والتقدمية ، بحيث أصبحت في طليعة الأمم النامية المناهضة للاستعمار ، والمحطمة لمختلف وسائل التبعية المباشرة وغير المباشرة، والعازمة على تصفية البورجوازية الغربية، بتحرير مواردها واقتصادياتها من سيطرة الاستغلال الخارجي والداخلي .

ان خروتشوف إذن عندما يندفع هذا الاندفاع الانساني ، وفوق السياسي ، الى تقديم المساعدات المادية والتأييد المعنوي ، وعندما يحاول ان يتفهم جوهر الثورة العربية كلها في التحرر من الاستعمار ، وفي التحويل الاشتراكي ، هذا الجوهر القائم على الوحدة العربية ، إنما يكون بذلك قد انسجم أعمق الانسجام مع ايدلوجية الاشتراكية ، ومع مصالح العالم الاشتراكي سياسياً في صراعه ضد المعسكر الرأسمالي .

فالأمة العربية اليوم تحتل الموقع الأول من المعركة ضد الاستعمار ، وضد التخلف الاقتصادي والاجتماعي .

والأمة العربية اليوم استطاعت ان تحقق انتصارات كبرى في حقل التحرر

والتنمية والتحول الاشتراكي ، مما جعلها تصبح عاملاً رئيسياً من عوامل الفعالية السياسية ضمن دائرة العالم الثالث ، وبين الكتلتين لمتصارعتين على جانبي هذا العالم.

ولذلك فان خروتشوف عندما يتبنى مخلصاً ومن أعماقه – كما رأيناه وسمعناه خلال زيارته الخصبة – هموم هذا العالم العربي الجديد الثائر ، المندفع لتغيير شروط وجوده وحياته الانسانية في اتجاه الحضارة الاشتراكية الصحيحة ، إنما يكون بهذا التبني ، قد كشف عن أعمق وعي ايدلوجي وواقعي لمستقبل الصراع الدولي ، إذا ما سارت الدول النامية الجديدة على هذا الخط الاشتراكي الطليعي الذي تعطي الثورة العربية عنه أفضل النماذج .

عزلة العراق

وننتقل الآن إلى تحديد أهم المعاني التي ينطوي عليها اعلان تجربة الوحدة الجديدة بين الجمهورية العربية المتحدة والقطر العراقي .

ان هذا التحديد ينطلق أولاً من الظروف الموضوعية المحيطة حالياً بهذه التجربة.

ولعل من أهم الظروف بالنسبة للضمانات الدولية التي تتطلبها تجربة الوحدة العربية الجديدة ، هو التأييد الفعال من قبل أحد قطبي المعسكر الاشتراكي ، أي الاتحاد السوفييتي .

ان هذا الظرف الموضوعي يحقق تطوراً كبيراً وثورياً بالنسبة لموقف الاتحاد السوفياتي من وحدة (١٩٥٨) . فلقد كان هذا الموقف سلبياً في اجماله ، وان أطلق تأييداً رسمياً شكلياً فحسب ، في ذلك الوقت .

ولا بد ان نذكر ان قيام وحدة (١٩٥٨) لم يرتكز إلى أي تأييد فعال شرقي أم غربي في العالم .. ان لم يكن قد أثار عليه المعسكرين معاً . فالاستعماريون التقليديون في الغرب ، البريطانيون خاصة ، قد اعتبروا هذه الوحدة أكبر ضربة توجه إلى صميم مصالحهم في العالم العربي كله . ولذلك استنفرت انكلترا منذ اللحظة الأولى كامل وسائلها السلبية لمحاربة هذه الوحدة داخلياً وخارجياً. فضربت حصاراً رجعياً حول الجمهورية العربية المتحدة . كما ضربت ايضاً حصاراً تقدمياً

مزيفاً في شيوعية عبد الكريم قاسم .

وراحت تحيك المؤامرات من داخل القطر السوري نفسه بتحريك القوى الرجعية والشعوبية وتجديد امكانياتها واعدادها لتنفيذ ضربتها في الوقت المناسب.

ومنذ ان استطاعت بريطانيا ان تجدد عزلة العراق ضمن النظام القاسمي ، ونجحت باستعمالها لقوى اليسار الشيوعي نفسه في حراسة هذه العزلة ، واجهاض الدفع الوحدوي الذي حمله ثورة الرابع عشر من تموز ، فانها تكون بذلك قد حققت كسبين جديدين ، هما بمثابة كشوف كاملة في التقنية الاستعمارية .

الاول : هو استخدام طاقات اليسار الماركسي كقوى محلية ومناضلة لتثبيت الاوضاع الانفصالية في هذه المنطقة من العالم العربي .

وقد دفع نجاح هذا الهدف انكلترا فيما بعد الى تطبيقه عن طريق استخدام البعث العفلقي في سورية ، يوم قامت المحاولة الثانية للوحدة .

والثاني : هو تطويق وحدة (١٩٥٨) باطار دولي من السلبية . وبذلك يتفق الشرق والغرب ضد الوحدة ، وللمرة الثانية ، بعد ان اتفقا على تقسيم فلسطين وخلق دولة اسرائيل .

اما اليوم ، فان هذا الظرف الموضوعي قد تغير تغيراً جذرياً . فان اليسار الماركسي نفسه داخل هذه الأقطار العربية قد أخذ ينفتح على التجربة الناصرية رائدة الوحدة والاشتراكية ، ويحاول ان يجد مكانه في قافلة الثورية العربيـــة .

وكذلك فان الاتحاد السوفياتي نفسه ، قد بدأ يدرك ايدلوجياً وواقعياً أهمية هذا التلاحم بين تقدمية الاشتراكية وتقدمية الوحدة في التجربة العربية ، وأنــه لا تناقض بينهما ، بل تكامل وتفاعل خلاق .

وهـــذا ما يخلق افضل الظروف الموضوعية اليسارية داخلياً وخارجياً لدعم الوحدة الجديدة . وتنميتها وتقويتها كنواة لوحدة اشتراكية كبرى ، تبنى في آخر معاقل الاستعمار على ارض العرب .

أي بكلمة اخرى ان اليسار العالمي قد أخذ يدرك ان كل وحدة عربيـــة في هذه المنطقة من العالم المضطرب ، إنما هي أسفين جديد في نعش الاستعمار وبالتالي

فانها تضاعف من قوى النضال الاشتراكي ضد الرأسمالية العالمية .

تغييرات الظروف العربية :

ونأتي الآن إلى دراسة بعض التغييرات الأساسية التي حدثت في الظروف الموضوعية المحيطة بتجربة الوحدة الجديدة على الصعيد العربي .

فأولاً ان القطر المصري الذي ينطلق اليوم من خلال التجربة الناصرية الرائدة للثورة العربية ، إلى مد يد الوحدة للقطر العراقي ، قد حقق هو الآخر خطوات حاسمة جديدة في تجربته منذ الوحدة الأولى .

فبينما انطلقت مصر في الوحدة الاولى برصيد كبير من الانتصارات السياسية على الاستعمار وبمزيد من التحرر الاقتصادي والعسكري ، بعد تحطيم حصار الأسلحة، وحرب السويس، فان مصر اليوم قد أضافت رصيداً آخر من الانتصارات، هي هذه الثورة الاشتراكية الكبرى ، والثورة الديمقراطية ، والبناء النموذجي لحضارة العرب الجديدة .

ان مصر العربية تدخل هذه الوحدة وفي بنيتها قوى وإمكانيات الدولة الاشتراكية الديمقراطية الحقيقية . انها تمتلك هذه الأرصدة الجديدة :

رصيد القوى الشعبية ، التي انطلقت من وراء التاريخ دفعة واحدة لتتسلم مهام صنع الحياة الانسانية الكريمة ، بعد ان ضربت الثورة الناصرية جذور الرجعية والبورجوازية واستأصلتها نهائياً من حقل الانتاج .

رصيد التنمية الاقتصادية ، الشاملة لأنواع الصناعات ، بحيث انقلبت مصر من دولة زراعية إقطاعية ، إلى دولة صناعية اشتراكية ، تزيد كل يوم من أدوات الانتاج لتجعلها تشمل مختلف حاجات المجتمع المصري التقدمي، دون تركيز للثروة في أيد قليلة ، ودون المرور بمرحلة الاستقطاب الرأسمالي ، بل عبوراً بصورة مباشرة تختصر مراحل شاسعة من التاريخ ، نحو التحويل الاشتراكي والاغنائي لصالح قوى الشعب .

رصيد المشاركة السياسية عن طريق الديمقراطية السليمة . فقد بلغت التجربة

الناصرية مرحلة الثورة بالشعب ، بعد مرحلة الثورة للشعب . كل ذلك عبر تاريخ قصير المدى. لكنه غاص بمختلف التحويلات الكبرى السياسية والقومية والاجتماعية، حتى مرحلة الديمقراطية الجديدة المنبثقة هي نفسها عن أرصدة المكتسبات السياسية والاشتراكية .

فمصر الاشتراكية ، ومصر الديمقراطية ، ومصر الحضارة انطلاقاً من السد العالي ، هي التي تنطلق اليوم لبناء الوحدة الجديدة مع القطر العراقي . ولا شك ان كل هذه الامكانيات والقوى الهائلة ، المادية والمعنوية ، التي اكتسبتها ثورة مصر منذ انفصال عام ١٩٦١ حتى قيام الوحدة الجديدة ، هي التي تؤلف ايضاً تغييراً إيجابياً كبيراً في وجه آخر من وجوه الظروف الموضوعية المولدة للوحدة المصرية العراقية .

العراق والانتصار على عقبات الوحدة

وأما العراق، فان مضمون مكتسباته خلال مرحلة ثورة الوحدة والاشتراكية عبر الأعوام الأخيرة ، يأخذ صورة اخرى . انها مكتسبات النضال الدامي مع عقبات التحرر من اجل تحقيق إمكانيات الوحدة والاشتراكية .

لقد خاض العراق معركة القضاء على عزلته، ضد مختلف أنواع حماة هذه العزلة.

فهو ناضل ضد الحكم الملكي الرجعي والاقطاعي المدعوم بالاستعمار البريطاني ، عبر ثورات كبرى ، تعتبر من مفاخر النضال العربي المعاصر . حتى تسنى له بعد الموجة الثورية الهائلة التي أطلقتها نواة الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ ، ان يهدم أقوى حكم رجعي دام أكثر من ربع قرن في ثورة الرابع عشر من تموز .

وهو ناضل مجدداً ، ولم تجف دماء ثورة تموز بعد ، ضد الإجهاض القاسمي واليساري المزيف والمضلل ، خمس سنوات متتابعة ، في أقسى معارك الوحدة والدم التي لم يعرفها أي قطر عربي حتى ذلك التاريخ .

وهو ناضل بعد ذلك ضد الانحراف البعثي الذي تسلم قيادة العمل الثوري

من اجل الوحدة ، بعد القضاء على العهد القاسمي . ولكن هذا الانحراف أغرق العراق ايضاً في بحر من الطغيان والارهاب .

إلى ان أتيح المد الوحدوي ان ينتصر للمرة الثالثة على آخر العقبات التي تقف في وجه تواصله مع دولة الوحدة الكبرى في القاهرة .

وهكذا فانه يمكن وصف مكتسبات الثورة الوحدوية في العراق ، بأنها حتى اليوم كانت مكتسبات سلبية ، تقوم على هدم عقبة الرجعية الملكية ، ثم عقبة اليسار المزيف ، ثم عقبة الحزبية المنحرفة .

حتى انفتح الطريق أخيراً أمام قوى الوحدة لتتابع مسيرتها فوق حطام تلك العقبات ، لتؤسس الدولة العربية الكبرى التي هي حمايتها الايجابية الأخيرة من أية نكسة جديدة .

وهكذا يمكن القول ان عامل الظروف الموضوعية المتعلقة بالعراق ، قد امتلك تغييرات أخرى ، أقل ما توصف بها ، هي انها تغييرات قائمة على كشف مختلف العناصر المعادية ، واستهلاك قواها واحدة بعد الأخرى ، أمام صمود المد الوحدوي ، الذي تمرس هو الآخر على شروط العمل الثوري ضمن ظروف الواقع القطري الخاص بالعراق . واكتسب بذلك خبرة لم يملكها من قبل في مرحلة الانطلاق العفوي الساذج .

مكاسب الثورية العربية في كل مكان

واما عامل الظروف الموضوعية المتعلقة بالواقع الثوري اليوم في المستوى القومي الشامل ، فهو ايضاً قد اعتراه الكثير من مظاهر التقدم ، والاغتناء بالمكتسبات الثورية ، وبالمواقع الايجابية الجديدة .

فعندما قامت وحدة ١٩٥٨ كانت الجمهورية العربية المتحدة باقليميها آنذاك ، هي الدولة العربية الوحيدة المستقلة سياسياً الى حد بعيد ، من بين بقية البلاد العربية التي كانت ما تزال مرتبطة بالاستعمار بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة.

فلم تكن ثورة اليمن قد فجرت منطقة الجنوب العربي كله ، وزعزعت مرة

واحدة حصن أكبر عزلة عن التاريخ والعصر والعالم ، دعمته أقدم رجعية جاهلة في الداخل ، مع اسوار واسوار من أبشع ما صنعه الاستعمار البريطاني في هـذه المنطقة العربية الحساسة .

ولم تكن ثورة الجزائر قد بلغت بعد حدود الاستقلال ، ثم ابتنت لنفسها تجربة اشتراكية ، قفزت إلى الخط التقدمي الاول من تجارب الثورية العربية . ودخلت الجزائر العربية ، والاشتراكيه التقدمية ، هكذا كواحد من أكبر عوامل الفعالية العربية اليوم .

وكذلك لم تكن تونس قد عرفت بعد مكانها الحقيقي من ركب حضارة الوحدة والاشتراكية ، وفي خط الدول العربية المتحررة .

خبرات الانفصال !

ثم يأتي اخيراً هذا العمق الغني من الظروف الموضوعية المنشئة لتجربة الوحدة الجديدة . انه العمق الذي خلفته نكسة الانفصال للتجربة الاولى بين مصر وسورية ، ونكسة الانحراف الاخير الذي أجّل قيام الوحدة الثلاثية ، على يد البعث العفلقي .

فلقد طرحت نكسة الانفصال الرجعي ، ثم الانفصال البعثي مشكلات نظرية ، تطبيقية . كالتحويل الاشتراكي الشامل ، وانشاء الاتحاد الاشتراكي العربي ، ثم بناء الديمقراطية النيابية على أساس تمثيل قوى الشعب العاملة . كل ذلك بما أعطى مقدماً لأية دولة كبرى للوحدة ، نواة الدولة النموذجية ، في مختلف مظاهرها الثورية ، كما تتكامل اليوم في القطر المصري .

ولهذا فان أية محاولة لخلق أزمة حول تفاوت الأوضاع بين مصر والعراق ، للتشكيك في اصالة الوحدة الجديدة ، يمكن الرد عليها مباشرة من هذه النقطة وهي ان كل وحدة عربية يمكن ان تقوم اليوم او غداً ، لا بد ان تبدأ من الجمهورية العربية المتحدة . وهذه الجمهورية قد حققت من الامكانيات التقدمية المختلفة بحيث أصبحت الدولة العربية النموذج . بينما بقية الاقطار وخاصة في

المشرق والجنوب ، فان أقصى ما تستطيع ان تحققه ، هو ان تفعل ما فعله العراق ، أي ان تحرر نفسها من النفوذ الاستعماري والحكم الرجعي او المنحرف داخلياً . اما البناء الذاتي في الديمقراطية القائمة على أساس التحويل الاشتراكي والتنمية الاقتصادية والثقافية الشاملة ، فهذا ما لا يستطيعه أي قطر لوحده في هذه المنطقة . وإلا سوف يكون مصيره إلى الانحراف والتقوقع الانفصالي والوقوع ثانية كأداة جديدة للاستعمار . كما هو حال تجربة البعث في سورية التي انتهت إلى انفصال دام وفاشية مسعورة .

محور ضد الانفصال

ان معنى الوحدة ليس هو التطابق بين الظروف المحلية لكل قطر مع القطر الآخر . ولكن الوحدة هي إعادة الحياة للعضو الأشل بوصله بينبوع القوة والامكانية ، من قلب الثورية العربية .

فالعراق ما زال بدون تجربة في الاشتراكية او الديمقراطية الاجتماعية . ولكن هذا لا يعني انه ليس هو اليوم في وضع الاستعداد للتفاعل مع هذه التجربة ، ضمن اطار الوحدة مع نموذج هذه التجربة في القاهرة .

ومن أجل ان يتم هذا التفاعل ، ويتحول الاستعداد إلى نمو وتكامل مع النموذج ، أخذت الوحدة هذا الطريق العلمي الهادىء ، بأن ألفت مختلف اللجان لوضع أفضل الشروط المحققة لقيام دولة وحدوية اشتراكية ديمقراطية .

وإذا كان البعض يحس بثقلها عليه ، فهي لأنها وحدة حقيقية تفضح مختلف مواقفه الانفصالية ، وتعجّل يوماً بعد يوم بضموره المتواصل إلى درجة الزوال ، بمجرد نمو هذه الوحدة من صميم الوجدان العربي ، وبحراسة الملايين من المناضلين .

ان سورية التي تنتظر دورها في هذه الوحدة ، ليست بعيدة عن اليوم الذي تشغل مكانها من هذة التجربة التي تصعد بالأمة الى عصر تاريخي مليء بعبر أصحاب النكسات والانفصاليات والانحرافات العقائدية .

يكفي هذه التجربة أصالة انها جاءت أثر انكشاف حقيقة أدوات الثورة من

اليمين إلى اليسار . وبذلـــك وضعت نفسها في حراسة القوى الحقيقية والأدوات السليمة لتحقيق الثورة وحمايتها ، قوى الاشتراكية والديمقراطية في دولة العرب النموذج .

٣ – العراق على طريق الاشتراكية العربية

ان ما ينوف على عام كامل ، قد مضى على انتفاضة تشرين في العراق . وهي أول فترة زمانية ، طويلة نسبياً ، يمكن ان يطلق فيها على العراق صفة (البلد الحر) .

ومع ذلك فان هذه (الحرية) تتهددها مختلف الأخطار الداخلية والخارجية . فلا يمكن لأحد من أعداء العرب ، ومن المنحرفين من العرب ، ان يرضى للعراق أية عودة لخط الحرية الحقيقية .

وبالنظر إلى هذا المركز الجغرافي ، والقومي ، الذي يشغله العراق من أرض الوحدة العربية ، ومن قضايا الاشتراكية والتقدمية المصاحبة لثورية الوحـدة . فان إقامة الحواجز في وجه انطلاقة العراق ، سواء بفعل القوى الرجعية والقوى المنحرفة في الداخل ، او بفعل الاستعمار مباشرة ، هو ما ينبغي ان ينتظر بالنسبة للأحداث السلبية التي تطبخها دوائر الاستعمار . فان انطلاق العراق نحو الوحدة ، وطبعاً وحدة مع القاهرة ، وتتبعها دمشق قريباً ، يعني زوال أخطر منطقة نفوذ داخل المشرق العربي للغرب . وهي ليست منطقة نفوذ عادية ، انها الارض التي تتفجر بالبترول ، وتقع بالقرب من أعظم بلدان العالم غنى بالبترول، أعني سواحل الخليج العربي .

وان مجرد تصور قيام دولة عربية كبرى ، تمتد من القاهرة إلى بغداد وإلى دمشق ، يكفي ليثير الرعب عند أصلب رجـــال الاستعمار ، وأكثرهم تفاؤلاً بمستقبل الغرب في هذه المنطقة .

ان قيام مثل هذه الدولة العربية الكبرى، مارة بتلك العواصم الثلاث، يتضمن ايضاً نوعاً معيناً من المجتمع الذي سيعيش في كنف هذه الدولة . انه المجتمع الذي

لا يمكن ان يرضى بنهب ثرواته وخيراته ، ولذلك فان الاشتراكية التي ستكون نظاماً اجتماعياً لدولة الوحدة ، هو أكثر ما يزلزل من أسس القواعد الستراتيجية للاقتصاد الغربي كله .

وهكذا فان مسيرة العراق نحو الوحدة ، يعتبر في الظروف الحاضرة المحيطة بالمنطقة ، من أخطر العوامل التي تبشر بتفتح أضخم الامكانيات العربية ، التي لم تستطع ان تفجرها أية ثورة بعد . كما تنذر كذلك بظهور نماذج من العقبات ، التي عرفت الثورية العربية بعض مثيلاتها من قبل ، ولم تعرف منها الشيء الكثير ايضاً .

ولقد برهنت تجارب النكسات في سورية والعراق ، ان قوى العقبات ،تستمد حيويتها دائماً ، من مركبات سلبية داخل المجتمع العربي في هذين القطرين ، قبل ان تستعين بقوى خارجية .

ولعل التركيب الفسيفسائي لبعض القطاعات البشرية من هذا المجتمع ، هو الذي يؤلف في عقدها التاريخية ، احتياطاً دائماً ، لكل عثرة ونكسة ، تسيء إلى القضية العربية بكاملها .

انه لا يمكن القول ان الطائفية والشعوبية ، هما اللتان تمدان هذا الاحتياطي بقوى الردة والانعطاف نحو الأسوأ وحدهما . بل ان المصالح الرجعية ، والمصالح المادية بالذات ، والتي لا تملك قوى جماهيرية تستند إليها كما تفعل التقدمية ، هذه المصالح الرجعية هي التي تحتاج دوماً إلى قطاعات اجتماعية لم تزل في طور الاستنقاع بعاداتها وتقاليدها .

وكذلك ، فلقد تهدد العراق دائماً تطرف آخر نحو أقصى اليسار ، على ان يفهم من هذا اليسار ، أدواته البوليسية الارهابية . وهي ليست أدوات فقط ، بل انها كل المضمون لذلك اليسار .

فالشيوعية العراقية ، التي أخطأت فهم المعركة وحدودها دائماً ، ومنذ نكبة فلسطين ، وضعت نفسها في خدمة كل ما هو مناقض لمصالح العراق الحقيقية . ووصلت إلى ذروة هذا الفهم الخاطيء ، عندما اعتبرت ، ثورة العراق عام ١٩٥٨

من اجل اللحاق بوحدة الجمهورية العربية المتحدة، اعتبرت هذه الثورة وسيلة لتفجير حرب طبقية تسبق الوحدة، وتعيق تحققها.

ولا شك فان الشيوعيين العراقيين كانوا يحلمون بخلق دولة تابعة للنفوذ الروسي وراء حصن الخط الأمامي للغرب، المتمثل في إيران التي لعبت دائماً دور السد الاصم في وجه الزحف نحو الجنوب بالنسبة للاتحاد السوفياتي.

وان إقامة مثل هذه الجزيرة الحمراء ما وراء خطوط الغرب، وفي أخطر مراكز النفوذ بالنسبة لهم، يؤلف رأس جسر لغزو المنطقة العربية كلها، ويحقق حلماً قديماً للسياسة الروسية، ربما يرجع إلى عهد القياصرة أنفسهم، في ان يكون لروسيا منطقة في الشرق العربي تابعة لنفوذها مباشرة.

ولكن الحرب الطبقية المصطنعة التي حاول إثارتها الشيوعيون في العراق، في أوج المد القومي الوحدوي، تحولت إلى فوضى إرهابية شاملة أغرقت العراق في معارك دموية مرعبة، لم يقطف احد من ورائها شيئاً، سوى المستعمر القديم نفسه، الذي راقب وخطط، واستخدم حتى الفوضى الشيوعية نفسها، لتجديد قواعده في العراق.

وأما الجزء الثاني من اليسار المتطرف، والذي لم يملك من مضمونه سوى الارهاب والفوضى الدموية، استمراراً للعهد القاسمي الشيوعي المزيف.. هذا الجزء من اليسار، الذي هو البعث، فقد سعى ايضاً لخلق عزلة من نوع آخر حول العراق. أو بالأحرى حاول ان يصبغ عزلة العراق (التقليدية) بلون جديد. ولكن أداته الوحيدة من اجل هذا الهدف، كانت هي الارهاب. والعراق حتى في تجربة البعث، كان قد بلغ مرحلة من الكفاح المتواصل ضد الارهاب، بحيث لن يستطيع حزب جديد غيره ان يقدم نموذجاً أعلى في العنف. ولذلك انهارت المحاولة اليسارية الجديدة المزيفة.

العراق اليوم، وهو يسير قدماً نحو تغيير وجه المنطقة، باصراره على الوحدة مع القاهرة، وإحياء أحلام الدولة العربية الكبرى التي تصل جناحي العالم مشرقه ومغربه، لأول مرة بعد انهيار الامبراطورية العربية القديمة، إنما يفجر أكبر

الطاقات الحضارية للأمة العربية كلها ..

وفي الوقت نفسه ، يثير ضده أكبر العقبات وأخطرها ، من أقصى اليمين ، وفيه الرجعية السعيدية تصارع في جولة اخرى . ومن أقصى اليسار ، وفيه شيوعيون حاقدون ، يحلمون بعودة ثانية لعهد قاسمي آخر ، وبعثيون منحرفون ضالون ، ما زالت دماء ميثاق السابع عشر من نيسان تنقط من أيديهم .. ويأبون تكفيرا .

ذلك هو عراق اليوم ، أمل الثورية العربية كلها في هذه المنطقة التي خيم عليها الظلام طويلا ، منذ نكسة ثورة العراق الأولى ، ونكسة الانفصال في دمشق ، الأولى والثانية ...

ان العراق حدد طريقه ، ولم يبق إلا ان يفجر طاقات الوحدة كلها ، لتبني مجتمعاً ، يتجاوز نكساته ، ويصمد امام كل محاولة نكسة جديدة اخرى .

والحقيقة ، فان ثلاثة احداث كبرى قد أعقبت ثورة تشرين وتلاحقت في فترة قصيرة . فان العراق قد أبرم اتفاقية الوحدة مع القاهرة وأنشأ اللجان المشتركة لوضع أسس الوحـــدة فكرياً واقتصادياً ، لتتم فيما بعد ضمن الشكل الدستوري والسياسي . ثم اتبع هذه الاتفاقية باعلانه عن توحيد أداة النضال في منظمة الاتحاد الاشتراكي العربي . وكانت الخطوة الثالثـــة في إصدار قوانين التأميم ، التي تضع العراق مباشرة على طريق التحويل الاشتراكي . وبذلك فقد أخرج الحكم نفسه من مرحلة تريث شبه طويلة ، إلى مرحلة مليئة بالانجازات الثورية الأساسية .

فلقد أدرك هذا الحكم ان حماية الثورة في العراق ، لا تقف عند حدود إبعاد الفئات الشعوبية والمنحرفة عن الحكم فقط ، بل ان الثورة هي قلب للنظم الفاسدة التي كانت تسمح بانتكاس أية خطوة تقدمية . فالتحويل الاشتراكي الداخلي ، مصحوباً بأداته الشعبية في التنظيم الموحد ، والانفتاح نحو الوحدة مع عاصمة العصر الثوري العربي ، هو الذي يؤكد أسس النظام الجديد للحياة العربية الحرة .

ان العراق بهذه الانجازات الحاسمة ، يغير دفعة واحدة من شكل الوجود الاجتماعي والقومي والسياسي في منطقة الشرق العربي . هذه المنطقة التي لم تستطع ، حتى وثبة العراق ، ان تترجم ثوراتها المتتابعة إلى أي نوع من التغيير الفاصل في

أسس الحياة والعلاقات الانسانية .

فبينما تنطلق القاهرة ومعها الجزائر، ضمن خط تصاعدي جبار من التغيير الشامل لمختلف نظم المادة والروح والعقل ، للانسان العربي في بلادها ، فرداً وجماعة ، فان المشرق العربي يبدو انه ما زال يدور في دوامة النجاحات والنكسات ، وانه في حركة لولبية حول ذاته .

ومن هنا تتضاعف أهمية الأحداث العراقية . فمنذ قيام الوحدة بين القاهرة ودمشق ، لم تشهد هذه المنطقة أي انطلاق إيجابي بناء في مضمار الثورة الاجتماعية . حتى ان احد العوامل الكبرى في انهيار وحدة الثامن والخمسين ، كان كما نعلم ، بسبب القرارات الاشتراكية التي صدرت في آخر صيف من عمر هذه الوحدة . وهذا يؤكد تلك الحقيقة، وهي ان حرب القوى الاستعمارية والرجعية على القومية العربية ، ليست هي - أي هذه الحرب - بسبب شعار الوحدة بقدر ما هو بسبب شعار الاشتراكية . فالوحدة السياسية ، ليست هي البعبع الذي يخيف أعداء الأمة العربية . ولكن الاشتراكية التي تحملها هذه الوحدة ، كمضمون اجتماعي حتمي ، هي التي يخشاها هؤلاء الأعداء .. وذلك لأن التحويل الاشتراكي معناه دفع المجتمع العربي الموحد إلى ركب حضارة جديدة ، قد تتجاوز في علاقاتها الاجتماعية ، نوع العلاقات التي تحدد وجود المجتمع الغربي نفسه ، من النظام الطبقي الاستغلالي ، إلى النظام الاشتراكي العادل .

ان حضارة الاشتراكية ، هي الخطر الأكبر الذي يواجه الغرب من خلال الاستعمار ، في العالم العربي . فمصر الاشتراكية ، والجزائر الاشتراكية، والعراق الاشتراكي ، حصون كبرى تقوم في وجه الرأسمالية والاستعمار ، وتحرس عملية التحويل الحضاري العظيم لأمة كبرى ، توارثت أوروبا خوفاً وتقليدياً منها جيلاً بعد جيل . فعملت منذ ظهور «المسألة الشرقية» في مطلع القرن التاسع عشر على قتل روح الوحدة والتقدم فيها ، بمختلف وسائل التجزئة والكبت القومي .

ان قيام عالم اشتراكي ثوري على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشرقية هو أبعد صورة تشاؤمية ، كانت تخطر في بال اوروبا الاستعمارية

بالنسبة لمستقبلها . فلقد يخضع الاستعمار لمشيئة شعوب العرب في الاستقلال ، بل في الوحدة . ولكنه لن يقر لأمة العرب بالاشتراكية ، إلا بعد ان يستنفذ آخر وسائله الشيطانية ، من أجل إيقاف المد الوحدوي الاشتراكي .

ان حقيقة كبرى تقوم اليوم في استراتيجية الثورية العربيـة وهي : العراق الوحدوي الاشتراكي .

وكلما تأملنا هذه الحقيقة الرائعة الكلية، كلما أدركنا عمق الانتصار التاريخي الكبير الذي تحمله هذه الحقيقة إلينا ، وأدركنا بالمقابل خطورة الدور الهائـل الذي يترتب على كون العراق اليوم منجزاً للوحدة والاشتراكية، ورائداً أصيلاً لها .

وان تأمل هذه الحقيقة ، مثلما يملؤنا اعتزازاً وثقة بنجوع الثورية العربية ، فانه يجعلنا نتحسس بالأخطار الكبرى المقابلة ، التي لا بد ان يثيرها هـــذا التحدي التاريخي الشامل ، تحدي الاشتراكية لأسس المجتمع الرجعي القديم ، وتحدي الوحدة لأعدائها التقليديين في الداخل والخارج معاً .

فقيام التجربة العراقية الجديدة ، يستدعي في الواقع الحماية الواعية الحذرة ، من كل ما يثير ثمة تهديداً جزئياً ، صغيراً او كبيراً ، لمسيرة هذه التجربة .

ولهذه الحماية أشكال مختلفة . ومن أهمها نجاح الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق كمحاولة لتنظيم القوى الثورية ، ودفعها على طريق المنجزات الاشتراكية.

ومن أشكال هذه الحماية ايضاً ، الحماية الداخلية ، جعل الاتحاد الاشتراكي العربي هو ممثل السلطة الديمقراطية الشعبية ، بحيث تتاح له عملياً مختلف وسائـل التطوير السياسي والاقتصادي للفعاليات الاجتماعية .

ان الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق،هو المسؤول عن نجاح الاشتراكية، لأنه يؤلف الجهاز الثوري الوحيد ، الذي يخول حق الاشراف على عمليات التحويل الاشتراكي ، والمشاركة في التنفيذ والتعديل ، وايصال التدابير الاشتراكية إلى أفضل النتائج المنتظرة منها .

فلا اشتراكية بدون اشتراكيين ، ولا وحدة بدون وحدويين . وعلى أساس

هذا المبدأ ، فان نجاح التنظيم الشعبي الذي يقوده الاتحاد الاشتراكي ، يتوقف عليه في الواقع مستقبل التجربة الثورية بكاملها في العراق .

فلقد كان العراق ، تحركه دائماً القوى الحزبية ، خيرها وشرها . والحياة السياسية كانت ناشطة دائماً على مستوى العقائد والأفكار والحزبيات المتصارعة . وبالمقابل فان الحكم في العراق كان يتأثر بطبيعة هذا الصراع الحزبي وتحولاته المخيفة ، من وقت إلى آخر . وذلك على العكس مثلاً في مصر ، التي استطاع الحكم الثوري فيها ، منذ البداية ، ان يقضي نهائياً على بقايا الصراع الحزبي فيها .

فان العراق قد شهد تباعاً ، تجربة حكم الاحزاب الرجعية في نموذج الحكم السعيدي، ثم عانى من تجربة حكم الشيوعية ، وفي مضمونها الشعوبي . ثم في مرحلة ثالثة شهد حكم القومية الفاشية ، عن طريق حزب البعث في انحرافه السعدي .

معنى هذا ، ان العراق كان يعتمد في عهوده المختلفة ، على أحزاب رجعية او يسارية مزيفة . ولم يستطع أي حكم في سنواته الأخيرة ، ان يتخلى عن تأييد بعض الفئات الممثلة في هذه الاحزاب .

فاذا كان الحكم الرجعي ، واليساري المزيف ، استند الى الأحزاب للدعم الشعبي، فكم هو بالأحرى يحتاج الحكم التقدمي الصحيح إلى أكبر تنظيم حزبي، يضم القطاعات الشعبية صاحبة المصلحة الحقيقية ، والتي لم تمثل حتى الآن في أي تنظيم حزبي سابق . بمعنى ان الاتحاد الاشتراكي العربي ، بحاجة إلى ان يتجاوز انحرافات الرجعية والشعوبية والطائفية التي استفادت منها احزاب اليمين واليسار في الماضي، لينفذ إلى صميم الأرومة الشعبية، التي بقيت في معزل عن هذه التيارات السياسية المشبوهة .

وان تحقيق الاشتراكية ، هو الذي سوف يتيح لهذا الاتحاد ، الوصول الى الأرومة الشعبية ، الى العمال والفلاحين ، متخطياً التجزئة الطائفية والشعوبية المصطنعة ، إلى تصنيف ثوري جديد : تحالف قوى الشعب من فلاحين وعمال ومثقفين ، ضد تحالف الاقطاع ورأس المال والاستعمار .

وبكلمة واحدة فان مستقبل الثورة في العراق، يتوقف على نجاح تجربة الاتحاد

الاشتراكي العربي . فان هـذا التنظيم الشعبي لم يولد بمجرد قرار صادر عن رئيس الجمهورية ، بل ان قواه المبعثرة من قبل ، هي التي بشرت بالثورة ودعت لهـــا ، وتحملت ثمن نكستها الشيوعية ونكستها البعثيــة . وهي القوى نفسها اليوم التي ستبني قواعد هذا الاتحاد وتبني معها قواعد الثورة الوحدوية الاشتراكية .

وكلما استطاع الحكم الثوري في العراق ان يوفر مختلف عوامل الاصالة المطلوبة في تأسيس هذا الاتحاد على مقاييس ثورية واعية ، كلما كفل للتحويل الاشتراكي ان يبلغ أهدافه الخطيرة .

ان العراق الذي أبرم اتفاقيـــة الوحدة ، وأعلن التأميم ، وأسس الاتحاد الاشتراكي العربي ، قد وضع نفسه دفعة واحدة في مركـــز القيادة ، على الأقل بالنسبة لمنطقة المشرق العربي .

وهو بذلك قد باشر مرحلة ثورية جديدة بالنسبة له، وللاقطار العربية المجاورة. ونقل استراتيجيــة الثورة في المنطقة من مستوي العمل السلبي ومحاولات تصحيح الانحرافات ، إلى مستوي العمل الايجابي والبناء الاجتماعي .

ولا يملك الثوريون العرب ، وهم يعتزون بوثبة العراق الجديدة ، إلا ان يتفاءلوا أكثر بمستقبل الثورية العربية ، وهي تكتسب لأول مرة ، هــذا الحصن الجبار في المشرق للوحدة والاشتراكية في العراق الحر .

وبالتالي لا يسع هؤلاء الثوريين إلا ان يشعروا بمزيد من المسؤولية يتضاعف ثقلها ، بقدر ما تثير هذه الانجازات الفاصلة من تحديات لقوى الانحراف والردة والفساد في صلب المجتمع العربي ، داخله وخارجه .

ولكن وحدة الثورية العربية من أقصى المغرب في الجزائر، إلى قلب العروبة في القاهرة ، إلى قلعة العراق التقدمية ، هي الضمانة الكبرى لاستمرار الانجازات والقضاء على بذور الانحراف في مهدها .

الفصل العاشر

على حطام الحزبية ونحو اليسار الوحدوي الجديد

الاتحاد أمام مهمة إسقاط البعث

كان أحد الشعارات الأساسية التي طرحها قائد الثورية العربية جمال عبدالناصر، في خطابه التاريخي ليلة الثالث والعشرين من تموز في العام الماضي، احتفالاً بمرور احد عشر عاماً على ثورة العرب الكبرى، وفي اعقاب مذابح الثامن عشر من تموز على يد جلادي البعث، كان هذا الشعار هو :

توحيد اداة النضال العربي. أو بعبارة أخرى العمل على تحقيق التنظيم العربي الموحد.

وقد حدد القائد العربي موعداً لتحقيق هذا الهدف الجديد خلال عام ١٩٦٤. وبالفعل، فانه لم يحن موعد العيد الثاني عشر لثورة ٢٣ تموز، حتى كان الجزء الهام من هذا الهدف قد تحقق بالفعل.

فاعلن في العراق المتحرر عن تأليف الاتحاد الاشتراكي العربي، وأعقبته القوانين الاشتراكية. ثم أعلن تباعاً عن الاتحاد الاشتراكي العربي، الخاص بسوريا.

ولقد اعتبر الثوريون أن في تأليف الاتحاد الاشتراكي العربي الخاص بالعراق، والاتحاد الاشتراكي العربي الخاص بسوريا، المرحلة الأهم والأصعب من هدف توحيد اداة النضال العربي، على مستوى الأقطار العربية كلها.

ولهذا الاعتبار عدة مبررات أساسية. منها ان قيام الاتحادين يعتبر تغطية كافية لمنطقة المشرق العربي، المنطقة الأكثر ارتجاجاً، والأبعد تأثيراً على نمو الثورية العربية في الأقطار الأخرى.

ومن هذه المبررات ايضاً ، انه لم يكن من السهل ابداً عملية انصهار القوى السياسية العربية في تنظيم موحد ، سواء في العراق أو في سوريا . وذلك نظراً للظروف الفكرية والتاريخية والطبقية المحيطة بهذه القوى ، بالرغم من وحدة الهدف التي تجمعها كلها في خط ثوري متجانس ، يتجاوز الفروق الهامة في جذورها التكوينية وبنيتها الاجتماعية .

ومن هذه المبررات ثالثاً ، ان القوى الوحدوية في العراق لم تبرز في تنظيمات سياسية واضحة ، بنفس درجة الوضوح والظهور ، التي حصلتها القوى الوحدوية في سوريا . فإذا كان ضعف هذا الوضوح في بروز الكيانات السياسية للقوى الوحدوية في العراق من الأمور التي تعقد عملية التوحيد ، فان شدة هذا الوضوح في بروز الكيانات السياسية للمنظمات الوحدوية في سوريا ، كان من أهم العوامل المعيقة لعملية الدمج والتوحيد . وعلى الرغم من التناقض الظاهر في العبارة السابقة ، إلا انه هو الأمر الواقع فعلاً . فقبل الرابع عشر من رمضان ، العام الماضي ، كانت تستقطب التيار القومي في العراق ، حركتان منظمتان لا ثالث لهما ، على الصعيد الجماهيري الواسع . هما حزب البعث ، وحركة القوميين العرب . واما الاحزاب العربية الاخرى ، فلقد كانت عبارة عن تجمعيات سياسية بين شخصيات لعبت أدواراً مختلفة في الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق ، منذ عهود الملكية .

ومع ذلك فان القطاع الاوسع من جماهير المدن الكبرى في العراق ، قد بقيت تقريباً خارج الاطارات التنظيمية ، تنفعل بالاحداث القومية ، من مد وجزر ، وتندفع بقواها العفوية وراء هذه الاحداث ، وتتبع القيادات الأقدر من المنظمات السياسية ، حسب تقلب المناخ الثوري .

ولكن عندما انهارت تجربة حزب البعث في العراق خلال أشهر معدودة ، سقط بذلك أكبر تنظيم قومي ، كان يستقطب التيار العربي على مدى سنين طويلة . وعلى انقاض هذا التنظيم ظهرت حركة « الوحدويين الاشتراكيين » . هذه الحركة التي ناظرت ظهور حركة الوحدويين الاشتراكيين في سوريا .

فكان لها نفس المصدر ، وهو قواعد حزب البعث المتعلقة بالقيادة الناصوية .
وكان لها نفس الدوافع ، في تخطي القيادات الفاشية والصوفية في حزب البعث ، والاحتجاج على انغلاق الفكر البعثي وتبوجزه المنحرف .

وخلال المعركة ضد البعث المنحرف ، ظهرت كتل وتجمعات وحدوية أخرى ، لعبت دوراً ثانوياً ، إلى جانب الدور الذي لعبته كل من حركة القوميين العرب والوحدويين الاشتراكيين، في المحافظة على الوجه القومي الوحدوي لثورة الرابع عشر من تموز ، ومقاومة الانحراف البعثي الفاشي ، بعد الانحراف الشيوعي المزيف .

ولكن تصحيح الثورة كان يقع في الدرجة الأولى على عاتق قسم كبير من الضباط القوميين ، غير المنظمين في هذه الحركات السياسية . وكان ذلك من أهم العوامل التي فرضت صيغة معينة على وضع هذه الحركات بعد الثامن من تشرين . إذ أصبحت لها مهمة التأييد الشعبي ، خارج الحكم ، للوثبة الجديدة .

وكان تأليف الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق أخيراً، ثمرة لنمو تركيب إيجابي في متناقضات كثيرة ، خلفتها ظروف المعارك المتتابعة التي خاضتها القوى القومية. ولذلك جاء هذا الاتحاد انعكاساً تمثيلياً للقوى القومية غير المنظمة، أكثر منه اتحاداً يسير من المنظمات إلى القطاعات الجماهيرية السائبة .

اما الاتحاد الاشتراكي العربي في سوريا ، فان طريق مقدماته وعوامل التهيئة له ، وصيغة ظهوره ، كان مرتبطاً دائماً بصيغة وجود القوى الوحدوية المنظمة . هذه القوى التي حددت باستمرار وجه العمل النضالي، في مرحلة الانفصال الرجعي الاول ، وفي مرحلة الانفصال الفاشي الثاني . وأما الجماهير الوحدوية الواسعة ، فقد تقاسمتها هذه المنظمات ، او حالفت قطاعات كبيرة منها ، بحيث يمكن القول ان الجماهير غير المنظمة في سوريا كانت كلها متحزبة في الوقت نفسه . فهي من حزب الوحدة ، متطوعة وعاملة لها ولقائدها ، وتتبع عدداً متكاثراً من المنظمات الصغيرة ، على مستوى الأحياء والمصانع والمزارع والمدارس .. وتتداخل تداخلاً عفوياً رائعاً مع قواعد الحركات المنظمة . حتى ان هذه الجماهير الناصرية، قد أثرت

دائماً على قيادات الحركات ودفعتها باستمرار الى المواقف الجدية مع الانفصاليين : الرجعي والبعثي الفاشي .

وكان لهذه الجماهير ايضاً فضل اخير، في الدفع نحو انفتاح الكيانات التنظيمية، والقبول بصيغة العمل الموحد ، ضمن الاتحاد الاشتراكي العربي . فمن المعروف ان أكثر قواعد المنظمات قد فرضت على نفسها شبه تجميد موقت ، الى حين يولد التنظيم الموحد المنتظر . وبذلك ساعدت ، مع الجماهير الناصرية الاخرى ، على توفير مزيد من الشروط الموضوعية ، لتحتيم الانصهار في أداة واحدة للنضال الوحدوي الاشتراكي .

فالاتحاد الاشتراكي العربي في سوريا هو اتحاد منظمات وحدوية مناضلة ، ومنفتحة على أوسع القواعد الجماهيرية التي شكلت دائماً المعين المغذي ، لكل معركة او موقف جدي مع الانفصاليين .

ليس هذا فحسب ، فان هناك شروطاً موضوعية اخرى تحيط بولد الاتحاد الاشتراكي العربي في سوريا ، ومن أبرزها ، ان هذا الاتحاد انبثقت دعوته من أعماق الوطن الاقليمي ، وتكون وولد في المنفى . كل ذلك لأن هذا الاتحاد قد أملته ظروف النضال السلبي ، ولم يكن منطلقاً لنضال البناء والتحويل الوحدوي والاشتراكي ، كما هو حال الاتحادين الاشتراكيين السابقين ، في القاهرة وفي بغداد . فان منطلق الاتحاد في سوريا، هو أولاً تصحيح الانحراف ، باسقاط حكم البعث الفاشي . ولذلك فانه دعوة للتعبئة القومية ، تفترض رفع الحواجز بين القواعد المناضلة في الداخل ، واستيعاب القطاعات الشعبية ، لتنظم عملها الثوري وتنسيقه. كما تفترض تحويل الصيغة الفردية لوجود القيادات والشخصيات الوحدوية خارج الاقليم ، وتجاوز تناقضاتها النسبية ، التي هي نتيجة لبعثرة النضال الوحدوي في المراحل السابقة ، وتجميده زمناً ليس بالقصير او الوجيز .

ولذلك ، فان الاتحاد الاشتراكي العربي للاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ، ينبغي ألا يتأثر بمقدمات نشأته وتأليفه ، بقدر ما يتأثر وينفعل بالمهمات الخطيرة التي تنتظره على درب المستقبل القريب. فمستقبل نموه وعمله هو مقياس نجاحه

وأصالته . وأما ماضي التناقضات في الصفوف الوحدوية ، فان الاتحاد قد نشأ لكي يتجاوزها الى مركب إيجابي أعلى ، فلا ينبغي ان يحكم عليه سلفاً من خلال هذه التناقضات السابقة على وجوده .

وإذا كان لا بد من دراسة التيارات والظروف والعوامل التي سبقت تأليف اتحاد وأكثر من ذلك ، فإن ايضاح هذا الجانب الآخر من الاتحاد ، الذي هو جانب في طريقه الى الزوال ، يؤثر على تحديد مضمون المهمات الكثيرة ، التي خلق الاتحاد لانجازها .

فلقد طالما تصور الثوريون ان الحل العظيم ، او الحل الاعلى ، لن يولد إلا بولاده التنظيم العربي الموحد. ومعنى هذا ان التنظيم الموحد، لن يكون تنظيماً كبيراً يكرر التنظيمات الصغيرة التي دخلته . فهو لا يختلف عنها في الحجم ، بل ينبغي ان يختلف في النوع والطبيعة ايضاً .

ولذلك فقد خشي الثوريون دائماً ان يفهم من مبدأ التوحيد ، مبدأ الجمع والتراكم او التكديس .

وان كان لا بد من التجمع ، فليس ذلك إلا من أجل صهر أكبر عدد من الطاقات لتوليد الطاقة العليا ، وصبّها في مجرى واحد ، بدلاً من تعدد الاساليب وتعارضها ، وبالتالي تجزئة الهدف الواحد ، حسب تجزئة أساليب العمل بصورة مصطنعة .

ومنذ ان قامت الدعوة الى التنظيم العربي الموحد ، تنبأ النظريون بالعديد من المشكلات الفكرية والعملية ، التي ستعترض قيام مثل هذا التنظيم. . بل ما زلت أذكر ، عندما كتبت منذ أكثر من عام داعياً لانشاء الحركة العربية الواحدة ، ان الكثيرين من رفاق النضال قد اعتبروا دعوتي تلك ، من قبل الشطحات المثالية.

غير ان قناعتي بضرورة ظهور مثل هذه الحركة كانت مبنية على الاساس التالي:

ما دام النضال القومي متجهاً ، ضمن مختلف ظروف الاقطار العربية نحو إنشاء الدولة الوحدوية الكبرى لأمة العرب ، وما دام هذا النضال قد استطاع ان يثبت « واقعية » هدف الوحدة في أكثر من مناسبة ، كان أبرزها قيام الوحدة بين

سوريا ومصر عام ١٩٥٨ .. فان توحيد « أداة النضال » من اجل هدف الوحدة، ليس «اقل واقعية» من هدف الوحدة ذاته، ان لم يكن أساساً منطقياً واجتماعياً له .

واستناداً الى هـــذا المبدأ ، فقد كنت أرى دوماً ان طرح « المشكلات التنظيمية والايدلوجية » التي تثيرها فكرة الحركة العربية الواحدة، قبل المباشرة عملياً بتوحيد المنظمات ، ربما حول هذه « المشكلات النظرية » الى «عقبات عملية» قد تمنع أية محاولة جادة من أجل تحقيق أبسط الخطوات المؤدية إلى التوحيد .

وكنت أتصور كذلك ان الحاجة إلى تنفيذ « الخطوة الأولى » هي بمثابـــة « فك » الطلسم او السحر عن معجزة التنظيم الموحد ، وتحويلها إلى امكانيـــة واقعية ...

فالانتقال من تصور المشروع إلى بدء التنفيذ هو الذي سيقلب طبيعـــة « المشكلات التنظيمية والايدلوجية » نفسها . ويحولها إلى خارطة الواقع ، بعـد ان كانت قلقاً وشكوكاً وهواجس ، أسيرة الفكر والنفس .

ان مولد الاتحاد الاشتراكي العربي ، لا يعني مولد الكمال والنضج ، بل هو المباشرة العملية لفتح الطريق أمام الكمال المرجو والمنتظر .

ولذلك فان طرح المشكلات داخل الاتحاد ، هو الذي سيأتي نتيجة «المواجهة الموضوعية » لهذه المشكلات ، بدلاً من مجرد تصورها وتخيلها ..

ان رؤية المشكلات في مادتها .. وعلى الطبيعـة ، هي التي تمنح الاتحاد نواة وجوده الفكري ، من خلال طريق النضال ذاته .. خاصة إذا كان من طبيعـة النضال الذي يواجه الاتحاد في سوريا ضد حكم البعث .

هذا لا يعني ، بالطبع ، ان الاتحاد يعتقد بوحدة التنظيم قبل وحدة الفكر ، وان الأولى قد تسبق الثانية ..

والصحيح هو انه ليس من اسبقية في الزمان لواحدة على الأخرى ، كما ليس لاحداهما أفضلية على الأخرى من حيث الأهمية الايدلوجية أو العملية ..

بل ان التلاقي على أهداف واضحة ، أبرزتها ظروف العمل القومي، وأنضجتها تجربة النضال الخاص بالاقليم الشمالي، منذ قيام وحدته الأولى، هذا التلاقي المبدئي

هو الذي يخلق الجو المتجانس الضروري لنمو وحدتي التنظيم والفكر ، في خطين متوازيين، داخل تجربة التفاعل الكبير الغني ، بين التناقضات الايجابية ، التي تحملها التنظيمات السابقة معها ...

ان تجربة التفاعل داخل الاتحاد ، تضمن أبرز هذه التناقضات ، وتوجيه الضوء إليها ، واخضاعها لعمليات التوعية ، بدلاً من اخفائها بصورة مصطنعة . هذا الاخفاء الذي يحررها من مراقبة الوعي لها ، وبالتالي يحولها ، مع الزمن، إلى أزمات تعصف بكيان التجربة كلها .

وبدلاً من ان نقول ان الاتحاد الاشتراكي ، سواء في العراق وسوريا ، قام من أجل « تجاوز » عوامل الضعف في التنظيمات السابقة والتناقضات الداخلية فيها ، بدون ان نتفهم ماذا تعنيه عملية « التجاوز » هذه ، فان علينا في الواقع ان نقول :

ان توحيد اداة النضال العربي ، هو بالضرورة ، توحيد لعملية « فهم » هذه الاداة، وعملية «تحليل» ظروف النضال العربي وأساليب تحقيقه لأهدافه المرحلية. وهذا يعني ان تجاوز التناقضات السابقة لا يكون إلا باخضاعها لأوسع منظار يوضحها من جميع جوانبها، يواجهها ولا يتستر عليها، يحللها ولا يتجاهلها.. وبذلك تتوفر عملية « التوحيد الفكري » من خلال الممارسة وحدها ، بممارسة واقع المشكلة ، ومحاولة « تركيب » الحل الأعلى من تناقضاتها الخاصة .

ولعل أضخم وأغنى « ممارسة » فكرية ونضالية ، تنتظر الاتحاد الاشتراكي العربي للاقليم السوري ، هي تلك التي ستحدد الجواب على السؤال التالي :

ــ ما هو المخطط النضالي الذي سيتبعه الاتحاد من اجل إسقاط حكم البعث ؟

وعلى الرغم من ان البعض قد يعترض على اعتبار مهمة إسقاط البعث في سوريا ، هي تجربة الممارسة الكبرى التي تنتظر الاتحاد ، فانني أصر على الاعتبار لسبب واحد شامل ، وهو :

ان « مخطط » إسقاط حكم البعث ، هو الخلاصة الحاسمة لعملية « مراجعة » التجربة الثورية كلها للاقليم السوري . فهي تكشف عن قيمة « فهمه » لمختلف

تجارب الانقلابات السابقة ، السليمة والفاسدة . وهي تكشف كذلك عن قيمة « تحليله » لحزب البعث ، نشأته وتطوراته ، وانحرافاته . وهي تكشف عن قيمة « تحليله » لكيانات المنظمات الوحدوية كلها الفكرية والتنظيمية . وهي تكشف اخيراً عن « الحل الثوري » الأعلى ، الذي فقدته التجارب السابقة ومهدت له في الوقت نفسه ، عن طريق الاتحاد الاشتراكي العربي نفسه .

ان كل منظمة ثورية دخلت التاريخ ، إنما دخلته بما حققت في سياقه من حلول ثورية فاصلة .

وإذا كان الاتحادالاشتراكي في القاهرة يحمل الحل الاجتماعي الكبير للاشراف على انطلاق تجربة الاشتراكية والديمقراطية .

وإذا كان الاتحاد الاشتراكي في بغداد ، يحـــاول ان يصعد إلى مستوى مسؤولياته الكبرى ، في حماية مرحلة الانتقال الخطير الحاسم من تجربة النضال السلبي ، إلى تجربة النضال البناء على طريق الوحدة والاشتراكية ..

فان مهمة أولى وكبرى تنتظر الاتحاد الاشتراكي العربي للاقليم الشمالي ، إنها بكلمة واحدة : إسقاط البعث .

ومثلما تبينا ماذا تتضمنه مهمة إسقاط البعث من إمكانيات ثورية في الفكر والعمل ، فاننا نستطيع كذلك ان نتنبأ بالمهات اللاحقة على مهمة إسقاط البعث ، والتي ينبغي ان تكشف ، هي بدورها ايضاً ، عما استطاع الاتحاد ان يعده لمرحلة التحويل الثوري الجديد بعد البعث .

ان معاودة بناء « الاقليم الشمالي » من « الجمهورية العربية المتحدة » بعد كل تلك النكبات الشاملة التي لحقت بأسس الحياة والفكر فيه ، لا تنتهي باسقاط البعث كآخر حصن لمختلف امراض المجتمع السوري المتحول ، وإنما تبدأ .

ولن تبدأ من الصفر وحده ، بـل من حطام هائل سوف يعيق ما استطاع ، الوصول الى الارض الصلدة تحته ، حيث تباشر « الطلائع » الجديدة حفر الأسس مرة أخرى وإلى الابد ، لدولة العرب الكبرى .

خاتمة

إن سلسلة النكسات التي حققها البعث العفلقي العسكري والطائفي ، بالنسبة للقضية العربية بعد ثورتي شباط وآذار ، في منطقة المشرق العربي ، قد عادت على الحزب بأسوأ أنواع النهاية .

واليوم ، ولم يبق من حزب البعث بعد ان سقطت سلطته الفكرية وسلطته السياسية ، إلا سلطته العسكرية ، أو بالأحرى إلا سلطة « الجمعية السرية » من العسكريين الطائفيين وراء قلاعهم وحصونهم ، فانه ينتظر معركة تصفيته المادية الأخيرة مع الثورة الشعبية ، التي سوف تندلع بين يوم وآخر .

ومع ذلك فان البعث ، الذي يطلق أنفاسه الأخيرة اليوم، يأبى ان يشيع نفسه إلى لحده بسلام . فهو يحيط زواله بضجة مصطنعة جديدة .

فلقد باءت مؤامرة عملائه على الحكم الثوري في العراق ، باءت بالفشل . كما أن محاولته لفتح باب المصالحة في القاهرة ، قد انتهت الى يأس مطلق من إيجاد نهاية (سليمة) للحزب .

ثم راح الحزب (فجأة) يستنفر أجنحته وشراذمه ، في محاولة لبعث سمعته في عين الجماهير ، فلم ير خيراً من اصطناع (اسبوع) لنصرة (مناضليه) في العراق، في الوقت الذي تحركت فيه قوى الحلف المركزي والمخابرات الانكليزية ، من اجل إيقاف مسيرة الوحدة والاشتراكية في بغداد .

مرة اخرى ، يحتل البعث ، في صورة انهيـــاره الاخيرة ، مكانه من الصف الاستعماري ، المعادي للاهداف الطبيعية ، لجماهير الشعب العربية في كل مكان .

وبعد ان فقد مختلف مبررات وجوده كحزب ثوري تقدمي ، فانه لم يبق له إلا ان يلعب دور الحزب القومي السوري ، الذي ارتمى بين احضان الاستعمار . ثم استنفذه الاستعمار بعد فشله في صراعه ضد التيـار القومي العربي في المنطقة ، وسارت الثورات العربية على حطامه . ومن الغريب ان البعث العفلقي العسكري والطائفي ، قد وقع في مختلف الأخطاء ، التي كانت وقعت فيها الرجعية العربيـة والديكتاتورية العسكرية . وهي الأخطاء التي طالما حاربها الحزب قبـل الثامنة والخمسين في أعدائه ، وأصابت من هؤلاء الأعداء مقتلاً وهلاكاً . ولعلنا نستطيع ان نوجز في النهاية الأسباب الرئيسية لهذا المصير المأساوي الذي بلغه حزب البعث من خلال مختلف الشرور التي جرها على نفسه وعلى الأمة ، في فترة حكمه في سوريا والعراق .

إن هذه الأسباب ترجع الى أصل واحد ، وهو تخطي الثورية العربيـة لمرحلة العمل الحزبي ، سواء أكان عملاً حزبياً يمينياً او يسارياً .

وذلك لأن الشروط الموضوعية التي أوجدت هذه الاحزاب فيما مضى ، قـد تحولت وتغيرت الى شروط من نوع جديد ، صنعتها ثورات عربية كبرى ، جاءت غالباً من فوق لإرادة هـــذه الأحزاب ، وقسراً عن مخططاتها ، وأساليب عملها السياسي .

والبعث ، خاصة ، الذي فقد قواعده وقادته الوحدويين منذ تجربة الوحدة ، لم تبق منه إلا الصورة الخارجية . وهذا ما سمح لبضعة ضباط أن يستغلوه ، وان يتخذوه قناعاً لهم ، لعل القناع يخفي زمناً ما مخططهم الانفصالي الاستعماري .

ولكن المرحلة التي بلغها الوعي العربي ، كانت كفيلة بأن تكشف نوايا هؤلاء العسكريين منذ الأيام الأولى لقيام الثوريين ، في العراق وسوريا . والواقع فان هذا الكشف لم يتحول الى أداة نضالية منظمة ضد البعث الجديد ، إلا بعد مرحلة طويلة نسبياً .

ولذلك ، كان قيام الاتحاد الاشتراكي العربي للاقليم الشمالي ، هو الثمرة الطبيعية لهذا الصراع الذي فرضه البعث الجديد على الشعب العربي في الاقليم الشمالي.

فاذا كانت مرحلة العمل الثوري تدعو اليوم إلى إنشاء الاتحادات الاشتراكية في الأقطار العربية المتحررة ، او التي هي في طريقها الى التحرر ، فان شعار (الحركة العربية الواحدة) هو الذي سيؤلف أداة الثورة الاشتراكية ضمن شمولها القومي ، ووحدة العمل الانقلابي في الوطن العربي .

إننا اليوم نشهد آخر الفصول من معركة تصفية رواسب مرحلة العمل السلبي السابق على تفجير الثورة الاشتراكية في العالم العربي . ومن أظلم هذه الرواسب ، تجربة الانتكاس والانفصال والارهاب ، والديماغوجية السياسية ، التي مثلها عسكريون ومتوترون ، ومراهقون ، وشيوخ حاقدون ، اختفوا وراء اسم حزب ، كان له يوماً ما دوره التاريخي في النضال العربي .

إنه بقدر ما تنمو تجربة البناء الوحدوي والاشتراكي بين بغداد والقاهرة ، وحولهما بقية الأقطار العربية المتحررة ، بقدر ما تضمحل مختلف قلاع الردة والانفصال ، وتزول أسباب وجودها واستمرارها .

وإذا كان ثمة ساحة حقيقية لمعركة الشعب العربي ، ضد الانفصال البعثي في سوريا ، فهي الساحة الجديدة التي ستقوم على حدود الوحدة الجديدة .

وان أداتها هي مختلف القوى النضالية المجتمعة وراء قلعة الوحدة الجديدة هذه.

فهرست

	صفحة
المقدمة والإهداء	٥
الثورة والإرهاب	١١
القسم الاول	
الفصل الاول	
اليسار العربي وظروف نشأة البعث	٤١
الفصل الثاني	
البنية الاجتماعية لحزب البعث	٥٥
القسم الثاني	
الأسس النظرية والموقفية للفكر البعثي	
الفصل الاول	
مصادر فكر البعث	٧٩
الفصل الثاني	
واقع الفكر الثوري العربي	٨٩
الفصل الثالث	
معنى المثالية البعثية	١٠١

صفحة

الفصل الرابع

الموقف الأدبي اللاعلمي ١٠٩

الفصل الخامس

المفهوم اليميني للقومية العربية ١١٩

الفصل السادس

بين اشتراكية البعث والماركسية ١٣٥

الفصل السابع

فكر الحزب واليسار الغربي المستقل ١٥٣

الفصل الثامن

الفكر البعثي والناصرية ١٦٧

الخلاصة ١٨١

القسم الثالث

البنية التنظيمية للحزب

مدخل ١٨٧

الفصل الاول

مشكلة التكون الحزبي ١٩٥

الحزب كأداة للتحقيق الثوري ١٩٧

التكوين الداخلي للحزب ٢٠٠

دوافع التحزب وجدلية الانتماء ٢٠٢

سيكولوجية التوجيه والتبعية ٢٠٨

المعاناة الانقلابية بين الفرد الضائع والثائر الملتزم ٢١٣

ازدواجية العفلقية والحورانية ٢١٤

بين الضياع والالتزام ٢١٦

العلاقات الموضوعية والتقييم الموقفي ٢٢٤

صفحة

الصراع التعويضي داخل التنظيم ٢٢٧

القسم الرابع

البعث ومأساة النهاية

الفصل الاول

الوحدة قبل ١٩٥٨ ٢٣٣

الفصل الثاني

موقف البعث من تجربة الوحدة ٢٥١

الفصل الثالث

البعث حزب انفصالي ٢٦١

الفصل الرابع

البعث وشعارات الوحدة المصطنعة ٢٧١

الوحدة الشاملة ٢٧١

الوحدة المدروسة ٢٧٧

وحدة الطليعة الثورية ٢٧٩

الوحدة الثلاثية ٢٨٠

الوحدة الصراعية ٢٨٠

الوحدة المحورية ٢٨١

لقاء الثورات ٢٨١

الفصل الخامس

البعث والانفصال الرجعي ٢٨٣

المحاور الثلاثة : المحور الانفصالي المتطرف ٢٨٧

المحور العفلقي ٢٨٨

المحور الوحدوي ٢٩١

القطريون ـ الوحدويون المستقلون ٢٩٤

	صفحة
الفصل السادس	
من ٨ آذار الى ١٨ تموز	٢٩٦
الفصل السابع	
حكم الحزب الواحد	٣٠٥
١٨ تموز : الجزرة الكبرى	٣١٤
انجازات حكم الحزب الواحد	٣٢٢
بعث الطائفية	٣٣٣
عودة الحوار مع الحوراني	٣٤٢
الحوار مع الرجعية	٣٥٢
الفصل الثامن	
فصول النهاية	٣٥٩
البعث والثورة الوطنية	٣٥٩
البعث والاشتراكية الانتقامية	٣٦٤
الفصل التاسع	
البعث في العراق	
الفصل العاشر	
على حطام الحزبية ونحو اليسار الوحدوي الجديد	٤١٧
خاتمة	٤٢٥

أعمال المؤلف

الدراسات القومية :

١ ـ الثوري والعربي الثوري

٢ ـ مصير الايدلوجيات الثورية

٣ ـ حزب البعث : مأساة المولد ، مأساة النهاية

الروايـــة :

١ ـ جيل القدر

٢ ـ ثائر محترف

القصة والمسرحية :

١ ـ أشباح أبطال

٢ ـ الآكلون لحومهم

الدراسات الفلسفية :

١ ـ الحرية والوجود

٢ ـ فلسفة القلق

طبع على مطابع دار الغد تلفون : ٢٢٢٩٢١

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب التاريخ الذاتي «لحزب البعث» كما عاشه من الداخل الكاتب نفسه الذي كان احد مفكريه وقادته .

ولقد شهد الكاتب على نفسه وجيله ، عندما حلل تناقضات حزب البعث ، وكشف عن العقد المزمنة التي حكمت تصرفات قادته ، حتى اودت بالحزب الى انحرافه الأخير عن اهدافه القومية ، وجعلت منه تجسيدا رهيبا للثورة المضادة .

فجاء هذا الكتاب شهادة خطيرة يؤديها الكاتب . شهادة تكشف لاول مرة عن امراض الحزب الفكرية والتنظيمية وعن تناقضات قادته في المنعطفات الخطيرة من تاريخ الوحدة والانفصال .

ان هذا الكتاب وثيقة موضوعية وشهادة قومية انسانية تعري البعث من صميمه وتضع قضاياه وانحرافاته امام الراي العام العربي الثوري .

الثمن : ٥٥٠ ق٠ ل٠